

البيان

في

التقديم والحديث

١٨٧٢

لألف

مخائيل شارويع بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

وانتظار النيابة الجليزية

عني عنه

(الجزء الرابع)

حقوق الطبع محفوظة

(الطبعة الاولى)

بالطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمدية

١٩٠٠ - سنة ١٣١٨

مجموعه

مجلد

(بالقسم الادبي)



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى

(في ترجمة محمد علي باشا)

هو محمد علي بن إبراهيم ولد في بلدة قاوله التابعة لروم ايلي سنة اثنتين وثمانين ومائة
 وألف هجرة أي سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكانوا يخرجون من صفار مقدسي
 العسكر وقيل انه كان شيخ خفراء البلد وهو الصبح ولما بلغ ثمانين على الرابعة من عمره مات
 أبوه فتولى حضارته عمه طوسون فأقام عنده مائتا سنة ثم جاء مرسوم السلطان الى والي
 قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد علي الى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذ أحد
 أعيان البلد واسمه براواطة فأقام عنده حقبها مهانا وصحبا وكان كما ثبت معه
 الاسزان ونزل على هذا الحال حينما حتى ضاقت نفسه وتلفت الى الامصار في طلب الرزق
 فسار في أرض الله الواسعة القضاء وأجهد النفس في تحمل الجوع والعناء فغلب من
 الشدائد ما لا يحتمل . وما حكاها عن نفسه أنه قال كنت أفتي أن الله سبحانه وتعالى
 يدفع عني هذه الشدائد ويرجئني مما ألقيه من الشك والذل فكنت أسيهد النفس في طلب
 العيش على قدر الحاجة وكان يمر بي اليوم والبرمان يملأون الأرض سائرا على أقصاها
 لا أدق منا ما ولا أسيغ طعاما وكانت الأرض في ذلك زمان غطى وانفق أني سافرت
 على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة في طلب الرزق فمرحت ربح شديدة فارفعت
 الامواج وعلت وأزبد البصر وهاج والتي مركبنا على ا
 تركت رفاقي وطلعتوا الى بعض الجزائر القريبة وقب

وتهبط بي أخرى وتستقبلني الصخور فتدق عظمي وتدمي جسدي حتى يسرا اللهلى الوصول الى تلك الجزيرة سالما وقد صارت اليوم من بعض أملاكى فسبحان المعطى بغير حساب اه قوله * وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة عشرة من العمر فدخل في خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس فقيده الوالى بحماية الأموال وجمع الخراج ومال اليه وأحبه وولاه رتبة البكاشية قال بعض الكتاب وقد زوجه احدى قريباته وقيل غير ذلك فولدت له خسا من بنين وبنات وهم ابراهيم وطوسون واسماعيل وزهره وزينب فلما كبرت عائلته وقيل ماله ترك خدمة العسكرية واتخذله حانوتا يبيع فيه التبغ **والدخان** فبسر الله له الحال وبسط له في الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغا عظيما فكان اذا تعذر على الوالى القبض على جان سير اليه محمد على فيأتى به صاغرا فهابه الناس جدا وأجله زفافه وشهدوا له باليسالة وعلا الهمة ولبت على هذا الحال حينما فلما أثار بونا بارتبه بجيوش الفرنسيين على ديار مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل الى والى مقدونية في طلب النجدة فبعث والى مقدونية الى برا واسطه وكان قد تولى على ولاية قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيين مائة مقاتل تجهزهم وجعل مستخدمهم ولده عليا ورسم لمحمد على بأن يكون في ركابه وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم الى أبى قيس وأزلقهم هنالك فقاتلهم الفرنسيين قتالا عنيفا وظفروا بهم فخاف على المذكور ورجع بالذى بقى معه من عسكره وأقام محمد على في نفر قليل عن مال الى البقاء معه فأعجب حسن باشا فعله وقلده رتبة البكاشية على من كان معه من العساكر ونظم اليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الانجليزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع يوسف باشا الصدر الاعظم لقتال الفرنسيين فأبلى محمد على في قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها قاتل الامراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة واتفق أن حضر بعيد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الامراء المصريين والماليك وقطع شأفة من بقى منهم وانقاذ البلاد من أيديهم ف وقعت بينه وبين محمد على مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو باشا ينفشل ويسقط في يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد على وسد عليه مسالك التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد على وخشى العاقبة وجعل يستميل اليه طوائف الارنؤط ويتزلف حتى مالوا اليه وأحبوه فاستوثق لنفسه قولوه ونظيفة **وفابى بولك باشى** وهى في عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد الى مساربته وأدناه منه وقربه من مجلسه وبقي على ذلك حينما ثم ولاه منصب سر چشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمة وعلت كلمته ومال اليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لاسباب طوائف الارنؤط فخفضوا له وأطاعوا أمره وعملوا بأشارته ففسده خسرو

باشا وتخذ منه وتحشى عاقبة ظهوره فلما عصى الامراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا واتخذوا الى القاهرة من كان منهم بالصعيد الاعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم الى محمد على بالخروج في جنده لخدمة العساكر السلطانية فخرج كارها فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وخذلهم فالتصم عليهم الامراء المصريون نصرة عظيمة وأعمالوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه ليلة الى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده الى القلعة في تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالتأخر من جباكيهم وعسوفاتهم فتعزبوا وشددوا في الطلب وركبوا على خسرو باشا وقتلوه فانهمزم وفر الى دمياط في نفر من أتباعه فأقاموا في الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمي عسكر الأرنؤط فلم تكن الأيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء في الشوارع والطرق واشتد الامر شدة بالغة ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه في محله مفصلا فكان لمحمد على في اضرام نار هذه الفتن اليد السوداء وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوي والسيد عمر تقيب الاشراف وسلا لمحمد على الجوعوت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الأرنؤط طوع أمره فلما آنس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فأنحازوا اليه ولبوا دعونه وتقدموا الى دار السلطنة العثمانية في طلب بوابته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا الى ذلك بقصد إبعاده عن ديار مصر وتقريب شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطرا على الدولة من جماعة الامراء المصريين فلم يتجهل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء في خلال هذه الفترة يكتفون من الإلحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون اليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياها فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها في محلها * وطالت أيام الفتنة والرسل تتعدد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتبارا من العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب الا في يوم الثلاثاء ثالث جادى الاولى سنة عشرين لفتح أحمد باشا بقلعة الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان فيه بترك قلعة الجبل والجملاء عنها الى الاسكندرية فنزل وسار الى الاسكندرية على

بك بيانه

(فصل)

(فصل — ل)

(فيما وقع في أيامه من المحادث والانباء الى ولاية ولده الامير ابراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد علي باشا جعل يتصرف في الامور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأيد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماعتهم فضرب على قبض مصر قرضا وقسمه على كبارهم فكان ذلك أول فرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيم الغاية وبث الاعوان لقبضه فعاتوا وفعلا ما لا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهري معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت ككتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الانقي بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد في طاب الحساب وفرض عليه مبلغا عظيما من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقي معتقلا أياما والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فخذ الامراء المصريون محمد علي باشا على ما وصل اليه من علق الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه نخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد في طلب الاموال وفي جمع الخراج وبث أصحاب الجباية بخابوا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ في تدبير أمور العسكر وصرف الجاكي والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وسير الى زعماء الامراء المصريين الذين كانوا بالاقاليم القبلية والبحرية يدعوهم الى ترك القتال والعود الى طاعة السلطان فسطوا في الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم الى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم اليهم من كان بها من لومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم الى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم في فجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاصير وجمال وأجمال وساروا من بين القصرين حتى جاؤا الاشرفية فاندش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا الى عطقة الخراطيين فافترقوا الى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر الى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرفاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا الى بيت الشيخ الشرفاوى وأتى اليهم السيد عمر فطلبوا منه الجسدة وخروج العامة معهم لقتال محمد علي باشا فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا ونرجوا من باب البرقية وكان قد وصل خبرهم الى محمد علي باشا فأرسل في أثرهم حسن بيك الارنؤطى في عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم * أما الفريق الثانى منه فانه جعل يتقدم حتى وصل الى باب زويلة وسار قليلا

الى جهة الدرب الاجر فمانعه العسكر المربطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا
 القهقري الى جهة باب زويلة وهموا بالدخول الى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة
 الساكنون هناك وأطلق عليهم المربطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جاش المربطين
 بجهة الدرب الاجر عند سماعهم أصوات البنادق وتنبه غيرهم أيضا فاجتمعوا لمعاونة
 بعضهم فلما شاهد الامراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل
 صوب وحصد ولوا الفرار فتنبعهم العسكر يضربون في أقفيتهم فلم يزلوا في سيرهم الى
 التحسين وقد أغلق الناس بوابة الكهكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقائين فانقلبوا
 الى ما بين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد علي باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا
 بين نارين فانفشلوا وسقطوا في أيديهم وترجلوا عن خيلهم ودخل منهم جماعة الى
 جامع البرقوقية وذهب آخرون بخيلهم الى باب النصر فوجدوه مغلقا فزولوا أيضا عن
 الخيل ودخلوا العطوف وتسوروا الاسوار وتسلقوا الجدران الى خارج باب النصر وتفرق
 منهم جماعة اختفوا في الحارات وبعض الوكائل والبيوت فأحاط العسكر بمن دخلوا جامع
 البرقوقية وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوه من ثيابهم وأخذوا
 ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقي مكبلين بالحديد
 وهم في أسوأ حال وساروا بهم الى بيت محمد علي باشا بالازبكية وكان على أهبة الركوب فلما
 ألقوا بين يديه رؤس القتلى سكن جاشه وفرح كثيرا وكان ممن قبض عليه من الامراء
 أحمد بيك تابع البرديسي أمير دمياط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدي
 محمد علي باشا قال له أولم تدري يا أحمد عاقبة الخروج فقال أعطوني ماء فأمر محمد علي باشا
 ففكوا قيوده وأتوه بماء يشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفي خزامه خنجر
 فخطف الخنجر من خزامه وهم بقتل محمد علي باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكاثروا عليه
 وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وساقوا الباقي الى الحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم * قلت * وكانت
 هذه أول وقعة وقعت بين الامراء المصريين وعسكر محمد علي باشا بعد وصول فرمان
 السلطان ولأنته على ديار مصر * وزاد من هذا الحين تحذر محمد علي باشا وأصحابه من
 هجمات الامراء المصريين وسير عابدي بيك في عسكر عظيم لقتالهم فقتل عابدي بيك على
 طرا والتي مع من كان بها منهم فكان بها ابراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما
 فافقتلوا قتلا شديدا في البر والبحر وأبلى ابراهيم بيك وأصحابه في هذه الحرب بلاه حسنا
 فانهزم عابدي بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقي الى ناحية العسقاط
 وقد غرقت بعض سفنهم فتفوت بذلك عزيمة ابراهيم بيك ونشر جوعه في البلاد فعانوا
 وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والاولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد علي باشا
 اثنين من أصحابه الى ابراهيم بيك ليضاطباه في أمر الصلح فلم يجب اليه وشط في الطلب
 * وحضر جماعة من أصحاب الأتقي الى جهة سفارة والبحيرة وعانوا فيها أيضا وطلبوا منها الكلف

والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد على باشا بخروج سائر الجند والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد على باشا في أهبته وجلالة وعبروا النيل الى الجزيرة ليلًا ولم تطلع الشمس الا وكل أمير قد وقف على أصحابه وجاء الخبر بقرب العدو من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فانهزموا وولوا الادبار فقتبعوهم وأعملوا السيف في أقفيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة * فبينما هم كذلك اذ خرج عليهم كامن من خلف فوقع بينهم الضرب وجعل أحد مقدمي عسكر محمد على باشا بمن معه على الاعداء فظنوه محمد على فاحاطوا به وأخذوه أسيرا هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تفهقر عسكر محمد على باشا ورجع من بقي منهم الى ناحية القسطنطينية وترفع المصريون الى ناحية بياض وبني سهب فكا

وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابل الخيل ولم تكن الا أيام حتى رجع المصريون في أول المحرم افتتاح سنة احدى وعشرين

في جمع كثير من العربان ولوم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهوا فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالا شديدا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا الى العدو وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الارنؤطى فأرسل الى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاهنا الخبر وأزعجه فجمع جيشا ضخما وسيره بنجدة الى حسن باشا وعين المرابطين بأنبابة وطرا وشدد عليهم في ملازمة المعاقل ونادى في جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الاسلحة وآلات الحرب وجاء الى القاهرة كسبيرون من البحرى وفادوا بعدم الخروج الى الاسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت الى حمل السلاح والسهل والتحرز وملازمة الأزقة نهارا والاسطحة ليلا وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الأتقي الى الفيوم فلم يجد بها أحدا منهم فاحتلها بعسكره ثم تزلزلها رباطا وعاد انجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرق وبوالت رسائل الاتي الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه في الأمر فقرر واقتطاع الاتي بلاد الجزيرة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذي حضر بخطابه واحتاج الاتي وأصحابه وهم في انتظار الجواب الى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبه فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم اليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فنقضت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيا كثيرا من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه في العسكر بالخروج وضرب للنفقة فوضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جدا ووردت الاخبار بقيام

الالقي وزحفه من جهة الجسر الاسود والطرانة الى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من
العساكر فوصل الالقي الى دمنهور فوجدوها ممتعة فحاصرها فقاتلته قتالا شديدا فسار
عنها قليلا وعسكر على بعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد علي
باشا فسيره اليه فقام من بنى سويف الى منية ابن خصيب في جمع كثير وقاتل من كان
بها من الامراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنا وسارت طائفة أخرى الى دمنهور
لاجلاء الالقي عنها وظن محمد علي باشا الظفر باعدائه في هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضا
وجعلوا يملكون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة * فلما كان يوم الثلاثاء رابع
عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الاسكندرية
بقدم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيين ومع هذا الجيش
وال جديد لمصر بدلا من محمد علي باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر الى الانفراد
أولا فسيره الى السيد عمر النقيب بجاءه السيد عمر وربكا معا الى محمد علي باشا وأعلماه
بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته اللسان فيذل الالقي والمحتسب جهد الاستطاعة في اخفاء
الخبر كي لا يصل الى الامراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون الى الالقي وهو على
سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم ففرح موشرورا لا يوصف
وطير الكتب بذلك الى الاتفاق فرآد في مصر والقاهرة الهزج وكثر القال والقيل ولبث الناس
على هذه الحال الى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم الى القاهرة رسول من قبل أمير
تلك السفن فسير محمد علي باشا جماعة للقائه وأتته في بيت الروزنا محجي فأقام يوم السبت
والاحد واجتمع بمحمد علي باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما
من الحديث وجعل محمد علي باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات
الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والتجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع
اليه مقدمي العسكر وأصحاب الوظائف العالية تخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة
وتحققوا عصيان محمد علي باشا وخروجه على السلاطن وأرسل محمد علي باشا الى السيد عمر
النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة
بعزله وولاية موسى باشا قال وسبب ذلك أن الامراء المصريين تقدموا الى الباب العالي في
طلب العفو عنهم وعودهم الى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الارنوط وجلائهم عن
البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وارسال غلالهما ودفع الخريضة وتأمين السابلة
فأجيبوا الى سؤالهم على هذه الشروط وان المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم
بذلك فلما سمع من حضر هذا الكلام سكنوا جميعا ولم ينطقوا بيزت شفة ثم انصرفوا
واشدت عزفة محمد علي باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ في الاستعداد والادككار
من آلات الحرب والتطواف في الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء
والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثابة ومعهم ديوان أفسدى ونكلموا في ذلك

الامر طويلا فاتفقوا على أن يرفعوا الى الباب العالى قصة يشكرون عليه فيها ما يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الرؤف الخليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشؤون والاحوال نرفع اليك أكفا من بحر جودك مغتفره ونتموجه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوجدانية معترفه أن يديم بهجة الزمان وروثق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهامه الرقاب وتدولهميته سطوة المهومات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدير مهمات الأمور الصدر الاعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للانام في أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم محفوفا بآيات القرآن العظيم آمين * أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فاننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الاكرم والمشير الأنظم مدير مهمات الاسكالات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا الى ثغر الاسكندرية فأرسل كخدا البوابين سعيد أغا ومعه الامر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايوني العالى دامت مسرانه على عمر الدهور والأعوام والايام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشا وبين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغي تقديم ذلك على سائر المطالبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك اكامل الرعاية بالاتاقيم المصرية الدمار والاضمحلال وأنهت الامراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات واخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل ما يرد من الاوامر الشريفة الى ولاية الأمور بالديار المصرية وأنهم يقومون في كل سنة بدفع الأموال الأميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر الحمية والتسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فأصدرتم لهم الامر الهمايوني الشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليه لتقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلايك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخانكار ببلوغ المأمولات المرضية ان تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة الكافية حكم التماسهم من أعقاب حضرة الدولة العلية فأمرهم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من شيم الاخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والمنظورات الكثيرة التي منها خيانة المرحوم السيد

على باشا والى مصر سابقا بعد واقعة ميرميران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد
الرومية وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير
لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصا ما وقع
في العام الماضي من اقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها في وقت الفجيرة بخلافهم
عنها حضرة المشار اليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعة شهيرة فهذا شيء لا ينكر
فيئذ لا يمكننا التكفل والتمهيد لاننا لا نطلع على ما في السرائر وما هو مستكن في
الضامات ونرجو عدم المؤاندة في الامور التي لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع
المفسدين والطفلة والمتردين الذين اهلكوا الرعايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خلقته
وأمناءه على بريته ونحن يمثلون لولاة أموركم في جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية
على حكم الامر من رب البرية في قوله سبحانه وتعالى * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله
وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فان حصل منهم
خلاف ذلك نكل الامر فيهم الى مالك المالك لان أهل مصر قوم ضعاف وقال عليه
الصلاة والسلام أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته وقال
أيضا وكل راع مسؤول عن رعيته يوم القيامة * ونفبد أيضا حضرة المسامع العلية من
خصوص القرض والسلف التي حصل منها الثقلة للاهالي من حضرة محسوبكم الوزير محمد
على باشا فانه اضطر اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين
والطفلة المتردين امتثالا لأوامر الدولة العلية في دفعهم والخروج من حقهم واجتهد
في ذلك غاية الاجتهاد رغبة في حلول أنظار الدولة العلية فالامر مفوض اليكم والمالك أمانة
تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدة السلطان مع رفعة
ترفع بها في النفوس عظمته وسطوة تسرى بها في القلوب مهابته وأن يبقى دولته على
الانام وأن يحسن المبدأ والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب
الوقية * انتهى نصه

وكتبوا هذا المحضر نسخين احدهما برسم أمير سفن الحرب الراسية بمينا الاسكندرية
والاخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسوله
الى مدينة الاسكندرية الا وقد وصل الى بولاق سلهدار الوزير فقول بها في ليلة الاثنين
ثالث عشر ربيع الآخر من السنة ثم حضر الى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث الى
جميع المشايخ خطابا ومثله الى الشيخ السادات وثالثا الى السيد عمر النقيب من أمير سفن
الحرب وكلها تتضمن الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك
واقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلا منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتنان
للاوامر والاجتهاد في المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا
حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهمل فلما علموا بالامر قاموا جميعا

وركبوا في عصر اليوم واجتمعوا بمحمد علي باشا وتناجوا في الامر طويلا ثم انصرفوا وفي الغد سير اليهم بصورة عريضة يكتبونها ردا على خطاب أمير تلك السفن فيكتبوها وسيروا بها اليه وهي تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الامراء وطلب منع الضرر الذي لا بد وأن يترتب على ارغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا في الشكوى وعظموا في البلوى وأخذ محمد علي باشا في الالهبة والاستعداد لقتال الالقي وأمر تفرج العساكر الى بولاق وعبروا النيل الى الجزيرة ونادى في الجند والوجا قلبية بسرعة الخروج وعدم التخاف وأنزل كثيرا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل الى انبابه واستقدم اليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند * فلما وصل الى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكذب الى محمد علي باشا يستخفه على ترك مصر والخلاء عنها الى دمياط قبل فلم يبال محمد علي باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثاني عشر جادى الاول من السنة وردت الاخبار بوصول موسى باشا الالى الجديد الى مدينة الاسكندرية وحضر الى القاهرة أحد أعوانه بكتاب الى الدفتر دار بان يكون قائما مقامه مسئولا عن الاموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتر دار ذلك وكان الالقي لم يزل بالجزيرة يبعث الى أمير السفن الحربية بالاخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل اليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والاقشة برسم كبار أنبائه فغضب محمد علي من فعله هذا وخاف عاقبته وبغل في تسيير الجند لقتاله فنزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الالقي بحضورهم سار اليهم بقومه وقاتلهم قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة عسكر محمد علي باشا ولم يزلوا في هزيمتهم الى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كئيدا محمد علي باشا وطاهر باشا الى ناحية المنوفية وعبروا النيل واستولى الالقي على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيا كثيرا وأرسل بمن أسرمهم الى أمير سفن الحرب وجاءت الاخبار بذلك الى محمد علي باشا تفرج الى انبابه وطاف الالى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقي من عسكر طاهر باشا الى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمنعوا من النزول وسارت بهم السفن الى امبابه وباتوا وأصبحوا وقد عادوا الى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا الى امبابه وكان قد أرسل اليه محمد علي باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود الى القاهرة وأن يرحل عنه الى رشيد فلم يصل الى رشيد حتى رسم اليه بالرجوع الى الرحمانية لاجلاء الالقي عنها فرجع الى الرحمانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمعان انهزم عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقري ومازالوا في هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا الى امبابه ورجع الالقي الى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الاخبار من أمير السفن الى الالقي بالتشديد في قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد في جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والالقي

والامراء المقيمين بالصعيد وطالت الخسارة بينهم وطلب أمير السفن حضور الامراء من
الصعيد الى الاسكندرية لتشاؤروا في الامر فلم يحضروا اذ منعهم البرديسي من ذلك لما بينه
وبين الالقي من الشحنة وكان الالقي هو الذي استقدم أمير تلك السفن بسفنه الى مياه
الاسكندرية وعمل على خلع محمد علي باشا بواسطة الانجليز بدون مشورة الامراء المصريين فلما
لم يتحدروا الى الاسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشحنة وما هم عليه من
تفريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفعلون وأنه لا يصح له الاستيثاق منهم ولا الاخذ بشورتهم
فتبذهم وأرسل الى محمد علي باشا مكتوب بحجبه واستوفى منه فتعهد له محمد علي باشا
بجميع الالتزامات والتعهدات التي عينها الالقي وكتب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ
والاحتيارية والوجاقية وأرسله مع ولده ابراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلا
وأقشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتحدا أمير السفن المذكور الى
ساحل بولاق فاطاقوا لقدمه عدة مدافع وأرسلوا له في صبح ثمان يوم خيولا صحبة الأمير
طوسون ولد محمد علي باشا فركب في موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقرئ مرسوم أمير
السفن ببقاء محمد علي باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التي
منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وإيصال العلائف والغلال لاربائها على
النسق القديم وان لا يدخل في دائرة تصرفه تغور رشيد ودمياط والاسكندرية بل تبقى
ايراداتها من الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة
مدافع وطاق المبتشرون على بيوت الامراء والاعيان وأقلع الأمير بسفنه الى دار السلطنة
ومعه موسى باشا والأمير ابراهيم ولد محمد علي باشا في يوم السبت خامس شعبان وتوقت
عزيمه محمد علي باشا فجعل يتأهب لقتال الالقي واجلائه عن دمنهور والرجانية فلم يتم خروج
العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه الى الجيزة وانتشرت لومته ببلاذها فكانت كثيرة جدا
فأسرع محمد علي باشا في اخراج الجند وعبرهم النيل الى امبابه وسير فريقا منهم الى
الاخصاص فالتقى بأصحاب الالقي واقتتلوا قتالا عنيفا فتقهقرت عساكر محمد علي باشا
وانحازوا الى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودي في عسكر الالقي بالرحيل الى شبرامنت
فساروا في يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيين
فأعجب محمد علي باشا نظامهم ورأى الالقي فرما عنيدا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع
فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر بجاعة من العربان وأخبروا محمد علي
باشا بموت الالقي في يوم وصوله الى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته
ناحية المحرقه على مقربة من دهشور وان مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما
أوصى الالقي عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد علي وكذلك تركهم كثير من
العسكر فلم يصدق محمد علي باشا هذا الخبر وشاع قصص الناس به وهم بين مصدق
ومكذب وسير محمد علي باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضا بموت عثمان

بيك البرديسي، بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب بيني عدى وكلاهما من كبار الامراء الفارين
بالاقليم القبية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد علي باشا وأكادوا له موت الاتي فسر
بذلك سرورا لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر اليه
* اليوم طاب لي ملك مصر فلا خوف علي * وأرسل الى كبار جيش الاتي يخبرهم
في الصلح وعينهم بالاماني العظيمة فلم يقبلوا الا بما كان يطلبه أسئذهم من المزايا
والاقتطاعات وان يدخل ضمن هذا العهد أيضا جميع الامراء المقيمين بالصعيد وهم ابراهيم
بيك وعثمان بيك حسن تفرج محمد علي باشا بجندته وعبر النيل الى الجيزة وخيم على
مقربة من ساقية مكي وسير من يخبر الامراء المصريين في الصلح وكف القتال واستدعى
ولد الشيخ الامير وولد الشيخ العروسي والسيد محمد الدواخلي وسيرهم سفراء لتقرير
قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الاتي وعسكره ببلاد الجيزة يعيثون ويفسدون
ويطالبون أهلها بالكف والمغارم وهم يستغيثون وليس من مجيب * وكان الاتي داهية طاغية
حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسورا صبورا على الخطوب مقداما في
الحروب وكان قد جلبه بعض النحاسين الى مصر فاستراه أحد جوارش المعروف بالمجنون
فأقام عنده أياما فلم تعجبه أوصافه اذ كان مما جئنا سقيها فطلب منه أن يبيعه فباعه الى
آخر اسمه سليم أغا الغزاوي المعروف بتمورانك فأقام عنده حينما ثم أهده الى مراد بيك
فأعطاه بدله ألف اردب من الغلال فسحب من ذلك الحين بالأتني وكان جيلا حسن الصورة
فأحببه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعقبه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس
وكان صعب المراس قوي الشكبة وكان له جار اسمه علي أغا المتوكلي فدخل عنده يوما
وترجاه في أمر فوعده بقضائه ثم أجم عنه فدخل عليه يوما في بيته وعاتبه فغضب الاتي
وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبايت ضربا مبرحا وجعلوه الى بيته فمات في ثاني
يوم فشكى أهله الاتي الى استاذة مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه الى البحيرة فمات في
قوة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكف والمغارم
فشكوه الى مراد بيك فأرسل اليه يتهده ان عاد الى مثل ذلك * واتفق في هذه الاثناء ان
وقع التشاحن بين الامراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الاغا وأخاه ابراهيم بيك ومصطفى
بيك فأرسل اليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك الى الاسكندرية ثم يعود الى القاهرة
ففعل ورجع الى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية
واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة نخافه الناس وتحاشوا بأسه وبني له دارا رجة
بقيصون واشترى الممالك والحواري وأمر من ممالك الامراء والكشاف فنشأ على أخلاق
أسئذهم وتطبعوا بطباعه من التعدي والعسف والفجور والتزم باقطاع فرشوط وغيرها من
بلاد الصعيد ومن الاقليم الجري محلة دمنه وملج وزوبر وغيرها ولما تولى اماره الشرقية
خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم في أموالهم وماشيئهم وفرض على مشايخ

القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته الى أن قدم حسن باشا الجزيلى الى مصر فخرج الالبي المذكور مع حاشيته وأصحابه الى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا في أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد الى الشرقية شوهده منه بعض السكون والثأنى ومالت نفسه الى مطالعة العلوم والنظر في الفلكيات والهندسة وتعلق بالزراعات وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب اليه أهل العلم بها واقتنى كتباً عظيمة في أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد الى القاهرة وزل بذره القديمة وترك الامارة وعكف على العلوم واكتفى بما عنده من الاراضى والاقطاعات ولبت على هذه الحال حيناً فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتمقونه فالتزم الاوسط وانتقل الى دار أخرى ثم عاد الى الاكنار من شراء الممالك حتى بلغت بمالكمه زهاء الالف عدا من كان منهم في الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالازبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التي أهداه بها جماعة الفرنجية وجعل خلفها بستانا عظيماً للغاية وسكن بهذه الدار في أواخر شعبان سنة اثنتى عشرة وهذا الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخاً لقاعة جلوسه في بيتين على أسكفة باب القاعة رهما

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة * محاسنها للعين تزداد بالآلف

على بابها قال السرور مؤرخاً * سماء سعاداتى تجدد بالآلئى

١٠١ ٥٤٦ ٤٢١ ١٢٤

سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالانوار الكثيرة وازدجت خيول الامراء على بابها وأتى اليه المهنئون من كل صوب وما زال على هذه الحال الى منتصف رمضان ثم بدا له السفر الى الشرقية وأبطلوا الوفدة وأطفؤا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوماً فانه ما تغيب بالشرقية الا قليلاً حتى احتل بونا بآرته بجيشه ديار مصر وساق الامراء المصريين سوق الماشية الى الاقاليم القبلية كما مر بك بيانه في محله * وكان للآلئى مع الفرنسيين تاريخ يذكرو وقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتابهم الى أن جاءت الجيوش العثمانية الى حدود مصر من ناحية الشام فسار الى الصدر الاعظم فأئد هذه الجيوش وقدم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أياماً ثم رجع وترفع الى الصعيد ثم انحدر منها الى الشام والفرنسيين يرصدونه

ولما دخل الصدر الاعظم مصر عن معه من الجنود وانتقض الصلح بينه وبين الفرنسيين على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الالبي في قومه وقاتل الفرنسيين قتال الأبطال وخالف مراد بيك في الصلح مع الفرنسيين واستمر على قتاله معهم وما زال الى أن تم الصلح فانيا وخرج مع الصدر الاعظم وجيوشه الى الديار الشامية ثم رجع

الى شرقية بليس ثم جاء الى القاهرة وأقام بها مع بقية الامراء بعد دخول الانجليز وخروج
الفرنسيين وكان في مدة اقامته معهم شديد التحرز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد
الوزير حتى مال اليه وأحبه فكلمه في الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير امانة
الصعيد بشرط قيامه بالغلال والاموال في كل عام من غير تأخير ولما كان الانفي كثير الحشم
والاتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب في تبيعه عن القاهرة
وفي عزيتي شمل عصاة الامراء أجابه الى طلبه ورسم له بالامارة فسار من فوره بجميع
أتباعه وعماله وعسكره وجد في السير فلما شاع الخبر جاء الى الوزير من قبح له هذا العمل
وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستخضره فلم يلحقوا به وقد وصل الى مدينة أسبوط
وأرسل الى الوزير الاموال والغلال وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم
يعض على قيامه الى الصعيد الا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الانجليز الى الاسكندرية
وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمصريين القنخاخ وأرسل القبطان يطلب
جماعة منهم فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وجسهم وجرى ما
هو مسطور في محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الانفي في عسكر جرار وحصلت المفاقة وقتل من
قتل وبلغا الكثيرون الى معسكر الانجليز بامبابه وهرب جميع الامراء الى الصعيد فقتل
عنهم الانفي قتال الابطال في عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الانجليز الى لوندرة عاصمة مملكتهم
وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى في غيابه من الحوادث ما قد ذكر في محله بالتفصيل
ولما تولى محمد علي باشا على مصر كان يخشى الانفي ويهابه كثيرا فوقع بينهما من
الحروب ما مر بك بيانه في محله وبالغ الانفي في الشكوى من محمد علي باشا الى دار السلطنة
العثمانية والى دولة الانجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد علي
باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر في محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد
علي باشا اشتد بغض الانفي له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب الى دولة الانجليز
يستجدها على قتال محمد علي باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت اليه بتوعده بنجدة مؤلفة
من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقي ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأت أحد ولما طال به
المقام وعمل صبر قومه وقد فجعوا من الجذب ساد بهم الى الجزيرة يريد الصعيد فخرج عليه
محمد علي باشا بعسكره فارتحل الى شبرامنت * قال بعض الكتاب * فلما صار على مقربة من
قناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس والقهر ونظر الى جهة مصر
وقال مخاطبا لها * وبلك أيتها القاهرة انظري الى أولادك وهم حولك ممزقون كل ممزق انظري
فقد استوطنك أحلاف الترك واليهود وأراذل الارنوط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون
أولادك ويقاوتون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون
بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك وفورك * انظري * انظري * انظري * قال الراوى
لهذه العبارة ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وثقيا في الحال دما

ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الامر وخلصت مصر نحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف الممالك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم * قال ثم جمع اليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالالفه والتحاب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه اذا مات يحملونه الى الهنسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فمات في تلك الليلة وهي ليلة الاربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به الى الهنسا ودفنوه هناك وكان جليلا مهيبا محترما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكانما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم في أموالهم ورجالهم ويقتل منهم وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق منهم في عصمته غير واحدة كانت غاية في الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغاني فتغنى به على آلات الطرب

وبعد موت الاني بنحو الاربعين يوما وصلت نجدة الانجليز الى ثغر الاسكندرية ونزلوا الى البر فبلغتهم خبر موته فأرسلوا رسلهم الى جماعة الأمراء المصريين يطلبونهم الى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفي ردهم الى مناصبهم وأرجاع اقطاعاتهم الى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابرههم في الصلح وأمر بتخصيص الثغور وترميم القلاع وقيدهم بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الانجليز الى الاسكندرية وقد كان حضورهم في عمارة عظيمة ونزل الانجليز بالاسكندرية وأرسل مقدمهم الى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الابراج للسدقاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيين عائدة لاختد المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الابراج وتزددت الرسل بين أميرال السفن الانجليزية وحاكم المدينة ومقدم العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدت الاميرال في الطلب وضرب الحاكم أجلا أربعاء وعشرين ساعة فان أصر على الالباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنايل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتهذا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الانجليزية لجمع اليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا في الامر فانفقوا على ابلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنصاه الى سرعة الحضور الى القاهرة بمن معه من المحاربين فسيروا له الاخبار بجميع ما جرى وشدوا عليه في الحضور فلما انقضى الاجل المضروب بين الانجليز وحاكم الاسكندرية وهو في الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الابراج بالقنايل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الابراج الصغار وجانبيا عظيما من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الابراج وانتشرت في المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الاسطول الى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن

أمين أفا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والاجناد وكتب له عهداً بأن لا تسكن عسكر الانجليز في البيوت قهراً عن أصحابها بل بالأجرة والتراضي ولا يمتنعون المساجد ولا يبطون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الانجليز حالا ومن أراد السفر بحرا فليسافر في خفارتهم -م الى أى جهة شاءها الا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يشكفون للاسطول بشئ من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هي عليه من الفصل في دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينتظر الانجليز في دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعاية الدول الاجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شئ من الرسوم الجركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف في المائة

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الانجليز للابراج والحصون وكاد يسقط في أمره وكتب الى كتحدها بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد في ذلك * وسارت طائفة من الجنود الانجليزية من الاسكندرية الى رشيد لاحتلالها وكان من بها من المرابطين والاهالى على بقطة تامة بالازقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الانجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحشد فارتيك الانجليز وألقوا ما بأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا اليهم وقبضوا عليهم وذبخوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفر جماعة منهم الى ناحية دمنهور وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقي أسيرا وأرسلوا السعاة الى القاهرة بالبشائر ثم أرسلوا الاسرى مع رؤس القتلى من الانجليز * ونادى شيخ الجامع في طلبة العلم والمجاورين بالازهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد في الانجليز وشدد السيد عمر النقيب في ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغتهم واجتمع المشايخ والامراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فانفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيون عند باب الحديد واعتصموا باصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الاسلحة والكرارخ وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الاهالى للدفاع فلما علم أميرال الاسطول بما حل بعسكره في رشيد سير بعض السفن من مياه الاسكندرية الى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستجدون كتحدا الباشا ويقولون بجل فقد أصبح العدو بسفنه على الابواب وطيروا الخبر بذلك الى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رساله الى الامراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم الى الاستعداد لطرد العدو الزاحف اليهم وما زالوا بهم أياما وهم بين اقبال وادبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا الى الصلح فاستوثق منهم ونزكهم وانحدر بجيوشه الى القاهرة ودخلها ليلا فلما أصبح جمع اليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخبرهم في أمر جلالة الانجليز وقد جاء الخبر بوصولهم الى رشيد واستيلائهم على كوم الافراج وأبى

منصور واستمرار اطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير
وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستجدون المشايخ فطلب محمد
على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الأهالي فريضة لنفقة الجند قدرها ألف
كيس وأخذ في تجهيز الجيوش ونادى في العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدو
ونخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بك وعمر بك وسار في طائفة عظيمة من الجند
وأرسل إلى الأمراء بالأقاليم القبلية يستنضمهم ويستقدمهم لقتال الانجليز وبذكر لهم العهد
الذي تعهد لهم به ويقول قد صارت الانجليز على الأبواب فجعلوا بالحضور لدفعهم والافعل
الاسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسننا على ثقة من عداوة الانجليز لسلطاننا حتى
نقاتلهم وكانوا قد حضروا لجدتنا بناء على طلب الالقي ثم انحسروا إلى منية ابن خصب
وتربصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تعيينه أياها بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج إلى
الجهاد ويستنفذهم فلم تكن الأيام قلائل حتى جاءت الاخبار بهزيمة الانجليز وجلائهم عن
أبي منصور ومناريس رشيد والحداد وقد أسر منهم عدة عظيمة وانجاز من بقي منهم إلى
الاسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سبيل أبي قير فانهم مل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول
الاسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر الاسرى من الانجليز إلى القاهرة
فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فكانوا زهاء الأربعمئة بينهم بعض كبار القواد وفرح الناس بهزيمتهم
وتقوت عزائم الجند المصري وحضر أيضا يس بك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام
بالجيزة على عهد الصلح الذي تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدمه وخلع
عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الانجليز فعسكر بقومه بظاهر
بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا إليه من كل صوب وحشد
وكبر جيشه واتسعت كلمته فحالت نفسه إلى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا
فبث الجبلة في بلاد القليوبية تجمع له الأموال والغارم والكلف فأحس محمد على باشا بما
وراء ذلك وأرسل إليه يطلب سرعة قيامه لقتال الانجليز والمحافظة على العهد فتعاس وشغل
أمره محمد على باشا فأخذ في التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى
رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى في عسكر الارناؤوط بالخروج جميعا فخرجوا إلى
ناحية السبئية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا في طائفة من
خواصه وخرج إلى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل إلى يس بك يقول أما أن
تسمر على الطاعة وتصرف عنك هذه الأمور وتخرج لقتال الانجليز وأما أنك ترحل إلى
بلادك بلا مهل ولا فانا واصل إليك ومحاربك فخاف يس بك وانحلت عزائم قومه وتفرق
عنه أكثرهم * فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه إلى أين يريد
فركبوا جميعا وساروا قليلا تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم إلى
ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس في سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير

خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقناله أما هو فإنه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب
عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين ونحطفوا النساء ونهبوا الاجران وأخذوا
ما كان فيها وفعولوا وغير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدم العسكر ارتحل
الى صول والبرنيل ونزل ابراهيم بيك الكبير وعساكره أيضا على بنى سويف وأرسل يعلم
محمد على باشا بقدمه فلم يلتفت محمد على باشا الى ذلك ولم يهتمه ورسم بترميم القلاع
والحصون التي كانت للفرنسيين أيام حلولهم بمصر وبالغ في التشديد بذلك وقصد بعض
مقدمي العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلالية وبعض المرتزقة
من الترك فجهرهم محمد على باشا بالسلح ومعدات القتال ونادى فبين كان بمصر والقاهرة من
العساكر والاجناد بالخروج الى انبابه وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر
فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين
وآلف أمر بالارتحال فساروا في أبهة وكبكية عظيمة الى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا
بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الاسكندرية وبعث سفراء الى مقدم الانجليز
يخبرونه في أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر الى معسكر محمد
على باشا نفر من الانجليز واختلوا به الى نصف النهار فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد
من السنة تقرب بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر
الى الاسكندرية من كان بمصر من أسراء الانجليز وردوا الى معسكرهم وحضر لزيارة محمد
على باشا بمعسكره أمير سفن الانجليز في نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق
لقدمهم عدة مدافع وقدم لهم خيولا وهدايا نفيسة وأقشة هندية وشيلانا كشميرية ثم
ركب معهم في قلة من قومه وساروا الى بيت أمير الجيوش الانجليزية فأكرموا محمد على باشا
وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أعقوا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة
وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الابراج والحصون الى مراكب
البحر * ولبت محمد على باشا بالاسكندرية وقد باتت داخله في حكمه بعد أن كانت مع سائر
الثغور في حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم الى ذلك
الحين وما زال بها حتى قدم الى القاهرة في يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة
اثنتين وعشرين ومائتين وآلف هجرية فخرج العلماء والامراء للقائه وأطلقت لقدمه
المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا
طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والاجناد

ولما استقر به المقام حتى جعل ينتظر في ترتيب أمور البلاد ويعمل على ازالة الوحشة
التي ينه وبين من بقي من الامراء المصريين فسير اليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك
القتال والانضمام الى حاشية محمد على فذهب من مال الى المصالحة ومنهم من نجاني وشط
في الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم * فلما كان

يوم الاثنين ثالث عشر شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الارنؤط والعساكر
الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائقهم فوعدهم فقالوا لانصبر فلاطفهم فتجافوا
وأطلقوا بنادقهم مرارا وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا في القاهرة ومصر
فخاف الناس وتطردوا وأرسل السيد عمر الى أهل الغورية والعقادين والاسواق بأمرهم
برفع بضائعهم من الخوازيب ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل الى بيت محمد
على باشا فريق آخر من الدلاتية وطلبوا أيضا بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من
يباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فخرجوا منهم عددا فأنكفروا ورجعوا
وبات الناس منخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال في اضطراب وقد قتلت أمتعة محمد على باشا
في تلك الليلة الى قلعة الجبل وصعد هو كذلك الى القلعة وأرسل الى رجب أغا أحد
مقدمي الارنؤط من بلزمه بالخروج الى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وتترس هو
وفريق من جنده في بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم
انجلى عن سفر رجب أغا فهرا الى الديار الرومية * قال بعض كتاب الاخبار * ونزل محمد على
باشا وطاف بالمدينة ومر بناحية سويقة المعزى سائرا الى بيت يلغا وهناك المكتب الذى
فوق السبيل بين الطريقين فجاء من يأتى من تلك الناحية فصعد الى ذلك المكتب اثنان
من الجند يرصدان محمد على باشا في مروره فلما أتى مقابلا لذلك المكتب أطلقا عليه
بارودتين فأخطأته وأصابا احدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل
محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض
على الجنديين فقبضوا عليهما فأمر بإخراجهما الى الديار الرومية فأخرجوهما في الحال * وعاد
الى مخبأه الامراء المضربين فأول من أذعن منهم للصلح شاهين بيك الأتقى فحضر ونزل
بدهشور ومعه هدايا عظيمة من ابراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ
برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياذ الخيل ومائة قنطارين قهوة ومائة
قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك الى دهشور
وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكتب سره
ثم انتقل شاهين بيك الى شبرامنت واستلم الجيزة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من
المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا اقليم البنسا وعشر بلاد من
بلاد الجيزة وكتب له بذلك تفاسيط ديوانية وضم له كشوفية الجيزة الى الاسكندرية وأطلق
له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكانة الامراء بالصعيد وسلم لهم أمر
مقاتلة يس بيك الذى هرب الى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فأنجاز الى منية
ابن خصيب وقد نهبت أجماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولبومه وكذا يسقط فى يده
ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد فرمان
السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب واعداد الجند والسلاح لقتال

الوهابيين الخارجين بالجواز ففرضوا لذلك فريضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بمارة أسوار وقلاع الاسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالغ في العمل وقيد به جماعة وأرسل الى من كانوا يقاتلون بس بيلك أن يشددوا في حصاره ويمنعوا الواصل الى مقره ففعلوا وبالفعل في التشديد فخابرهم بس بيلك في الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستامن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر الى بولاق وصعد الى قلعة الجبل فعوقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الامراء من ترائى على أقدام محمد على باشا فرسم باخراجه الى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله الى نغر دمياط ومنها الى جزيرة قبرص

واشغل السلطان عن مصر في هذا الحين بقيام الفتنة في القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الاعداء عمد الى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيين واستقدم لذلك قائدا من كبار قواد الفرنسيين ففاز ونجح وتم له الامر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجردوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة في جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشددوا في الطلب فأجابهم السلطان الى ذلك كارها فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا في الطلب فأجابهم بامتناع لئلا تنار الفتنة ولكي يتمكن من دفع العدو المحقق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبيون الى السكون سير الصدر الاعظم الى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضا بإرجاع بعض الولايات التي شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائممقامية الضدارة وكان مصطفى باشا هذا من اعداء النظام الجديد وكان قد مات في هذه الاثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على ادخال النظام الجديد في عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم بكرة ذلك النظام وبعده بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على ابطاله وتحالفوا على ذلك فسدوا الدسائس وأيقظوا الفتنة السائمة وأضرموا نارها فالتفت وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الاعداء فمات منهم خلق كثير واجتمع كثير من العساكر المترقة وقدموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا الى المكان المعروف بـ (باب ميدان) وقد انضم اليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فألقوا بقدور طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهي عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على ادخال ذلك النظام في عسكره الى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم في الطريق قبل أن يصلوا بهم الى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين

حتى أفتى المفتي بخلع السلطان سليم في الحادى والعشرين من ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية وقال (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة في بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه في إحدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة

ومات في أيامه مرقس بطريرك المناصلين بعد أن أقام في الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس في أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه في محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهبا بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل العشرون)

(في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالامر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد ببيع له بالملك يوم خلع عمه في حادى عشرى ربيع الاول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتي ومن معه من مبغضى النظام الجسديد فتصرفوا في جميع الامور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف غير مستحقينها وسلموا مقاليد القلاع والحصون الى مقدم الجند الذين ثاروا على السلاطين فسكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه * ووصل الخبر بما جرى الى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقتلهم وقاموا على الصدر الاعظم فقتلوه وولوا بدله بطي مصطفى باشا فسرى الفساد الى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على امورها وعبت بها الاغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائمقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره لبس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتي ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية الى مدينة روستيق ونزل في جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغبا في النظام الجديد وقد جيش منه جيشا عظيما وكان من أنصار السلطان سليم ميالا الى اعادته الى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بارجاع السلطان الى عرشه فسير الى الصدر الاعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم في الأمر ويستميلهم الى الغدر بالمفتي ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا الى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الاعظم بقتل

مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمي الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل في هذه الاثناء الى ضواحي القسطنطينية في جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الابواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشي العاقبة ورسم بخلع المفتي وأمر فنادى في الجند أصحاب الثورة بالانصراف الى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار الى شيء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم يكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا الى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى في الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضره ميتا الى حيث السلطان مصطفى فقال سلموه الى هذا وأشار الى البيرقدار وقال (ها هو سلطانك الذي تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مراً وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكنز ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه في المكان الذي قتل به السلطان سليم وذلك في الخامس من جادى الأولى سنة ثلاث وعشرين وما تين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لاختيه السلطان محمود الثانى وهو في عنفوان الشباب وغضاضة السن

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى أخوه السلطان محمود الثانى ببيع له بالملك يوم الخميس خامس جادى الاولى سنة ثلاث وعشرين وما تين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية ووردت الاخبار بذلك الى مصر فقام محمد على باشا بمظاهر الاحتفال وزينت المدينة ثلاث ليال وخطبوا له على المنابر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واستوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقدار وسلمه ختم الصدارة وصرفه في جميع الامور فأحكم السياسة وأحسن التدبير وجعل يعمل على اخضاع طوائف الانكشارية وإيقافهم عند حدهم فجمع يوما جميع كبار الدولة وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وعقد مجلسا حافلا وكلهم فيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعدم وفوفهم عند حد رسومهم وعاداتهم القديمة وبالغ في الشكوى وعظم في البلى وسألهم اجتماع الكلمة على دفع هذا الفساد ومنع تطاول أيدي أوائل القوم الى العبث بمصالح الدولة التي استحوذ عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه الى ذلك ووافقه على أخذ فتوى لظنة

بوجوب رجوع طوائف الانكشارية في جميع أمورهم الى رسومهم وعاداتهم القديمة فقويت
 بذلك عزيمته واشتد أزره وعد الى اخضاعهم فاختضعهم وألبسهم ثياب الذل وتصرف فيهم
 تخاف عليه بعض أصحابه وحذره من مكرهم وغدرهم فلم يلتفت الى ذلك وبالغ في التشديد
 وأكثر من الوعيد * فلما ضاق بهم الخناق وأيسوا من الخلاص أناروا الفتنة في مدينة
 قليمي وأظهروا العصيان فسير لقتالهم جيشه المنظم ولم يبق معه سوى زهاء أربعة آلاف
 وبعض العساكر الأخرى وبالغ في الشدة على من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت
 ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعشرين أجمعوا أمرهم وتجهزوا وساروا
 الى مقر السلطان مصطفى المعزول وأنشوا حوله وهموا بإخراجه وارجاعه الى عرش السلطنة
 فركب عليهم مصطفى باشا البيرقدار فيمن بقي من عساكره وقتلهم قتالا عنيفا فلم يقو على ردهم
 وأحس بالهزيمة لكثرة العدو فسير الى السلطان مصطفى المعزول من قتله وأمر بجثته فألقوها
 من أعلى السراى الى أصحاب الثورة كي لا يتمكنوا من ارجاعه الى عرش السلطنة فلما رأوا
 السلطان على هذا الحال اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرمو النار في سراى السلطان
 مصطفى إيهل في البيرقدار بالحريق وقبل بل أضرموها في سراى البيرقدار وأخسوا في الحرق
 والهدم والنهب واختفى البيرقدار في سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر
 البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثا من السفن الى بوزغاز القسطنطينية ووجه
 أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من
 عسكره أيضا وسار لتجدة البيرقدار وكذلك سار لتجدة أحد مقدمي العساكر المنظمة فلم
 يفلحوا اذ كان الانكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف في الانكشارية
 وأخذوهم من كل صوب وحذب حتى انهزموا وولوا الادبار فالتحق جماعة منهم الى بيوت
 الناس فأضرموها فيها النار فعلا الهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الامر وثققت دمار
 جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره الى الباب الموصل الى البحر ونادى بقتال
 الانكشارية فقاتلوهم قتالا عنيفا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والابنية العظيمة
 فانهال اللهب انهبال السبل والنهب أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء
 والاطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدد على
 الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور في سرايته
 يوما وليلة فلما اشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان الى بكار
 الانكشارية من يخبرهم في أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا
 في اطفائه ودخل جماعة من الانكشارية الى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من
 تحت الردم ميتا وعلقوه في شجرة ومثلوا به تمثيلا وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الامور
 الى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذي كان حضر الى مصر لقتال
 عساكر بونا بارتة وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغلب أيدي
السلطان عن أن يأتي بأمر أرادته وتفاقم شرطوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد
على باشا في مأمن من جانب السلطنة وممكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن
القاهرة الى الاقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب اليه
الرزناججي يقول ان الخراب ضارب أطنايه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة
لاهلها على دفع شيء الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزناججي بذلك وجاب البلاد شرقا
وغربا ومعه الكتاب وبعض المبشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من
البلاد التي لا قدرة لاهلها على الزرع فحرروا سجلها فاقطعها لأولاده وذوي قرابته
وجمع اليها من تشرد من اهلها وصار من هذا الحين اذا تأخرت بلدة عن القيام بما
يفرض عليها أقطعها الى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوي قرابته وسميت الاقطاعات
من يومئذ أي من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها **بالعهد** ثم جعل
ينظر في احتياجات البلاد وفي ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيرا فكاد يتم
له الامر لسكون الامراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة الى جمع
العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا
ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعبث بالشريعة وهم أصحاب عبد
الوهاب الدرعي وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد في الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم
مذهب الامام أبي حنيفة النعمان ثم سار الى أصفهان ولاد بعلمائها وأخذ منهم حتى غزرت
مادته وتضلعت من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعا الى بلاده
في سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الامام
أبي حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألفاء على تلامذته فاتبعوه وعلموا
به وكثر مريدوه وشاع أمره في نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة
من أرض اليمن وعمان وغيرهما ولمذهبه هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من
رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية تأتي بها هنا تيمنا للفائدة

قال اعلوا ربحكم الله أن الحنيفية ملة ابراهيم أن تعبد الله مخلصا له الدين وبذلك أمر الله
جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» فإذا عرفت أن
الله خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة الامع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى
صلاة الامع الطهارة فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث اذا دخل في الطهارة كما قال الله تعالى
«ما كان للمشركين أن يعبروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم
وفي النار هم خالدون» فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير
أو دفع ضرر فقد أشرك في العبادة كما قال الله تعالى «ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم من دعاهم غافلون « واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا
يعبادتهم كافرين » وقال تعالى « والذين تدعون من دونه ما يعملون من قطمير ان
تدعهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك
مثل خبير » فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يا ابن عباس
أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذي
يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك * وكذلك الذين يخلفون بغير الله أو الذي يتوكل على
غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلجئ الى غير الله فهو
أيضاً مشرك * وماذا كنا من أنواع الشرك هو الذي قال الله فيه « ان الله لا يغفر أن يشرك به
ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص
العبادة كلها لله تعالى و أصبح ذلك أى التشفيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله
تعالى في كتابه * أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله بقرون أن الله هو الخالق
الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى « قل من يرزقكم من
السماء والارض أمن بملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من
الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقوله تعالى « قل لمن الارض ومن
فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب
العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا
يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأتى تسكرون » اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل
عليك الامر فاعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا
* القاعدة الثانية * أنهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا
منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى « ويعبدون من دون الله
ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات
ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » وقال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء
ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي
من هو كاذب كفار » واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة * وهى أن منهم من
طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه
والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم
أقرب ويرجون رحمة ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » ورسول الله لم يفرق
بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله
واذا عرفت هذه القاعدة * فاعرف القاعدة الرابعة * وهى أنهم يخلصون لله في الشدائد
وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له
الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله

فإذا عرفت هذا * فأعرف القاعدة الخامسة * وهي أن المشركين في زمان النبي آخف شركاً من عقلاء مشركي زماننا لأن أولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدائد والرخاء * والله أعلم بالصواب انتهى بنصه

ووردت الاخبار بخروج الصدر الاعظم يوسف باشا من دار السلطنة في جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشا من مدينة بغداد في عسكر أيضا لقتالهم فجعل محمد علي باشا يتأهب للخروج ورسم بتحصين قلاع القلزم وتعبيتها بالسلحة وآلات الحرب وأكثر فيهما من المؤنة والماء وقصد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معبداً للسفن وصنعة التجارة سماه الترسانة وعمل السفن والشواني الكبيرة وجمع لذلك الصناع والتجارين والحدادين فكانوا يهيئون الأخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال الى السويس فيضمون بعضها الى بعض وينزلونها الى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنوها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر الى الاقطار الحجازية وأظهر محمد علي باشا الاهتمام بهذه الحملة * فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب اذ جاءه الخبر بالحداد الامراء المصريين الى الجيزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهاوارة ولموم آخر وأنهم يريدون حضور محمد علي باشا لملافة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد علي الى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحداً من قبله في ذلك اليوم فساء ذلك ابراهيم بيك الكبير وعدداً هائلاً له ولأصحابه ومن حضر معه على العهد من الامراء فلما كان ثاني يوم عبر شاهين بيك الالقي الى شبري واجتمع بمحمد علي باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل الى الجيزة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونسائه وسيرتهن الى الفيوم ونسى محاسن القصر الذي كان يسكنه بالجيزة وانضم الى ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع اليه مما يملكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الامر بينهم وقسموا مواقع الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بمهمة وجاء الخبر بذلك الى محمد علي باشا فسير اليهم بلاطفهم ويطيب خواطرهم فلم يقبلوا وتجاؤا وأغلظوا في القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج اليهم أيضا من كان محتفياً من العساكر والاجناد المصريين وعبروا النيل الى الجيزة فكثر لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد علي باشا الامر وخشى العاقبة فأخذ في التجهيز ونادى في عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو في مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقة وتخصن الامراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد علي باشا ولبثوا على هذا الحال الى ثاني يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون الى ناحية دهشور وزين فأمسك عليهم محمد علي باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشد في المنع وبث العيون والارصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا اليه خاضعين

فأحسن اليهم وردهم الى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنيل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وانقسم الامراء المصريون الى قسمين قسم عبر النيل الى شرق اطفح وقسم قفل راجعا الى الجيزة لقتال المرابطين بها وابعادهم عنها فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الامراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا الى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزال ذلك هيئته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة اليه والانضمام الى عسكره وقام عليه أهل البلاد التي كانوا يمرون بها ومنعواهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردها المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتتفرق كلمة من كانوا معه وأحسن محمد على باشا بانصرام حزمته فشدد في مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحذب وارتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الامير طوسون الى جزيرة الذهب ثم ساروا منها الى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انصب من جوعهم العدد الكثير وانحازوا اليه وقدموا له الطاعة * فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الامراء وأبلاو فيهم بلاء حسنا فترفع الامراء الى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الأتقي أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتابعت انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمته الامراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا الى الصعيد وبينما هو على هذا الحال اذ جاءه الخبر بقدم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحي القاهرة فالتحق محمد على باشا الى القاهرة على عجل وصعد الى قلعة الجبل وطلب اليه الرسول فقابل به برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب في سرعة قتال الوهابيين والتجهيل في تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فاجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أياما حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادتهم الى ولده الامير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الامراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة في قلعة الجبل ليركبوا في غد بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الامير طوسون عند خروجه بعسكره الى مدينة السويس

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الامراء والكشاف وصعدوا الى قلعة الجبل في محالبيهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الامراء منهم على محمد على باشا وتجادوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والابتناس ثم أمر فصار الموكب على الوضع الذي رتبوه فكانت طائفة الدلاء في المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر

مطلب
قتل أمراء العسكر
المعروفة بقتل الغز

المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على مافى نفسه من الغدر بالامراء المصريين وقطع شأقتهم وأسر بذلك أيضا في صبح اليوم ابراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا في الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم في المضيق المنحدر من الحجر المقطوع في أعلى باب العزب ما بين الباب الاعلى الذى يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة الى الباب الاسفل * وهو مشاهد الى يومنا هذا * وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب هم الامراء بالرجوع الى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضا واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العساكر الواقفون بالاعلى فأطلقوا نيرانهم أيضا فلما نظروا ما حل بهم سقطوا في أيديهم وارتيكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقحم شاهين بيك الالفى وسليمان بيك الابواب في عدة من محاليتهم راجعين الى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والثياب الثقيلة وساروا والسيوف في أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الاعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الارض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها الى محمد على باشا وكان محمد على باشا عند ماساروا بالموكب قد دخل الى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب ونساق الى حائط البرج الكبير فأصابوه برى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضا وهرب كثير الى بيت الامير طوسون مستجيرين فلقوهم وقتلوهم وأسرف العساكر فى القتل وتبعوا الشاردين فى نواحي القلعة وقبضوا على من لم يكن فى الموكب أيضا وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفا للغاية والارض مغطاة بالبحث والاسلحة وثياب القتلى * وأنفذوا الى كشاف الافاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك الى كتخداه فبالغ فى البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر الى بيوت الامراء فنهبوا مافيها وسبوا النساء وأخشوا فى القتل واخراج المخدرات حاسرات الرؤس وركب محمد على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصفاشية والجاووشية بزيتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم يمدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شئ من المنهوبات فأنكف الجند وامتنعوا * وسير الكشاف برؤس القتلى من المماليك ممن كانوا بالمداين والقرى بالاقاليم القبلية والبحرية فكانت شأ كثيرا جدا * قال بعض الكتاب * فلم ينج من طوائف الالفية الا اثنان وهما أحمد بيك زوج ابنة ابراهيم بيك الكبير فقد كان غائبا فى بلدة بوش وثانيهما أمين بيك

وقيل انه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الاعمدة الى ميدان الرميّة فمات جواده ونجا هو وهرب الى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك في هذه الواقعة زهاء الاربعمئة ومن الانبياع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن ابراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيما وطلبت جنته فأخرجوها من بين القتلى فدفنت في مدفن أعدته له * ووصل الخبر بما وقع للامراء المصريين الى أحمد بيك الاتقي وهو ببوش فسار من فوره الى الصعيد الاعلى واجتمع عن فيه من الامراء وأعلم ابراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق فخرن حزنا عظيما ولبسوا جميعا السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متابعا فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقا وغربا وفي أصحاب البيوتات القديمة منهم حتى كادوا يحجون أثرهم فأرسل ابراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد علي باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التي يعيشون فيها فلم يرد عليهم جوابا وأرسل لقتالهم مصطفى بيك في طائفة كبيرة من عسكر الارنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهابيين وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الامير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الاحد سادس ربيع الاول سنة ست وعشرين نزل الامير طوسون بجيشه من قلعة الجبل في موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر بركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد علي باشا الى السويس وقد سير ما كان في مبناها من السفن ومراكب الحرب فسارت الى ينبع وتقاتلت مع من بها من الوهابيين ونالت منهم ثم سار الامير طوسون بجيشه من البركة في يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا في السابع من شوال الى بندر المويلح وعبدوا العيد بمقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا الى ينبع وملكوها من غير قتال وساروا الى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلفوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوما وليلة ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقري واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلقوا بها وتزاجوا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الامير طوسون الى ينبع بعد تغيبه يوما عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث ينبع أربعة وعشرين يوما حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا الى الورداء ومازالوا حتى وصلوا الى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناههم الوصب فقتلوا بها ووردت الاخبار بما حصل الى محمد علي باشا فلم يتزعزع ولم تفتر له همة ونادى في العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد في النداء وبرز الى ضواحي القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونا بآرته الخازندار فسلخوا الى ينبع ليرابطوا بها وجيش جيشا آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف

واستقدم من كان مع الامير طوسون فحضروا فأمرهم بالجللاء عن مصر والرحيل الى بلادهم فلم تسعهم الخافسة وخرجوا في عدة كبيرة من العساكر الارنوط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والاخذ بثأر من مات من رجاله فصار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت اليه الاخبار في ثاني يوم باستيلاء من بقي من المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحدا من الوهابيين ففرح بذلك وسار الى السويس ولبث فيها أياما وقد عدل عن المسير الى الجواز فجعل بتسيير الجيوش التي كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشواني وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلتية ومعهم شئ كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد الى مصر فلما دخل القاهرة وردت اليه الاخبار بوصول عساكره الى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفتاح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ليال أولها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وآلف هجرية فأرسل المفتاح مع رسول مخصوص الى دار السلطنة

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ممالكهم من بلاد الجواز كان البعض الآخر يطارد أيضا من بقي من الامراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا الى النوبة ودخلوا ابريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوه وما زال يشدد في تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شهرهم فأمر ولده ابراهيم على جميع الاقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو في تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والاعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وانشاء الحصون والمعازل بمدينة الاسكندرية * وبعضها باق الى هذا اليوم * وأنشأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهيا عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا الى ولده الامير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الامير سعود وقد كان الامير سعود هذا قد انكف عن قتال عساكر الامير طوسون حينما وترفع بقومه الى بعض الجبال ولكنه عاد في سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباي شرق مكة فملكها وكانت شدة القبط قد فعلت بالعسكر المصري فعلا رديئا جدا ثم سار الى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأخش في النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعا الى الوراء قبضوا عليه وقتلوه ووصلت الاخبار بما جرى فشق الأمر على محمد علي باشا وأعظمه وجيش عظيم وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها الى السويس فلاقاه المبشرون في الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضاني في أسر الامير طوسون وكان المضاني هذا قد

خرج في لوم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصري فبرز اليه الشريف غالب بالعسكر المصري وطوائف العربان وقاتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضاني فنزل عنه واختلط بالعسكر فلم يعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدي جنس الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدي الشريف أمر فقيده بالحديد وسيره به الى الامير طوسون * قال بعض كتاب الاخبار * والمضاني هذا زوج أخت الشريف خرج عنه وانضم الى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذي يستميل لهم طوائف العربان فلما لذلك أمره واشتهر ذكركه فدوخ المدن وقع منها عدة كثيرة وافتتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا

ولما وصل محمد علي باشا الى ينبع سير طلائع عسكره الى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابي وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد علي باشا وأدى فريضة الحج ثم أخذ في تدبير أمور الحملة ومال الى الشريف غالب وأظهر له الولاء والمحبة فانخدع الشريف وبقي معه على ذلك أياما ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجنود الى جدة وأنزلوهم بأحدى السفن فأقلعت بهم الى مصر عن طريق القصير * قال بعض الكتاب * ونحري الخبر أنه لما وصل محمد علي باشا الى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الايمان في جوف الكعبة بأن لا يحون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على ايذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما الى الآخر في قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوما من ذي القعدة فلما كان أحد الايام دعا الامير طوسون الشريف غالب الى بيته فأتاه في قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والاجناد ما رآه فصعد متخوفا فلما استقر به المجلس حضر عابدين بك في نفر من الجنود وصعد الى المجلس ودنا من الشريف وأخذ نخبره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في طلبك الى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لي أشغال أقضيها في ثلاثة أيام فقال لا سبيل الى ذلك وقد أعدنا لك سفينة لتحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا الى الأبراج التي هي مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد علي باشا يتهددهم بحرق المدينة ان هم فعلوا شيئا وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة في بيت له فأرسل اليهم محمد علي باشا أحد خواص الشريف وما زال يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فنزل بهم متخفيا الى مكان وفي الحال استحضر محمد علي باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخي الشريف غالب وخلع عليه وقلده امانة مكة وفودى بذلك وطبروا خبره الى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أزل الى سفينة فسارت به الى القصير ومنها الى القاهرة فاستقبله كتحفدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدمه المدافع وأنزلوه بيت السيد المحروقي أياما ثم

أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضا ولده أخيه الشريف عبد الله بن الشريف سرور مبعدا منقيا فأنزله في دار مخصوصة محجورا عليه ولم يجتمع به ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكادت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاعدوا عن القتال معه وفترت همهم وانفسلوا وهاجر الكثير منهم ومن الاشراف وانضموا الى الوهابيين وقتلوا جيوش الأمير طوسون قتالا عنيفا وأبلاوا بلاء حسنا فوقع بسبب ذلك في الحرميين غلاء شديد وقتل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء الى الجبال فكانت شدة عظيمة جدا ﷺ ومات في هذه الاثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبد الله مكانه وكان يظن انفسالهم بعد موته ووردت الاخبار بذلك الى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا الى ناحية (فنفسه) وحاربوا عليها أياما كثيرة حتى فتحوها واستولوا عليها ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب في أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده اليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد علي باشا قد أرسل الى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسجنتين من أولئك فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت التاسع عشر شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب الى بولاق بنسائه وأولاده وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد الى دمياط ومنها الى سلاطيك وأرسل محمد علي باشا في طلب الشريف عبد الله بن سرور الى الديار الجبازية وكانوا قد شددوا في الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر الى مصر وأقام محجورا عليه أياما رأى كئيدا بيبك عدم المانع من اخلاء سبيله يغدو ويروح في الشوارع وعند المعارف والاحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختنى أياما فأزعج كئيدا بيبك فراره واستحضر سائر مشايخ الخارات وشدد عليهم في احضاره وبث العميون والارصاد واهتم لهذا الامر جدا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة تسع وعشرين حضروا به في وقت الغروب الى بيت السيد المحروقي فسلمه الى كئيدا بيبك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمره من ذلك الوقت ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب الى سلاطيك وسافر عبد الله المذكور الى الديار الجبازية ورأى محمد علي باشا أنه لا بد من مصالحة الاشراف واسترضائهم كي تنحصر أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طال أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجع وتودد اليه وأظهر له غاية الاخلاص وأمدده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا في طفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد علي باشا وقد دانت اليه الامور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان باضافة الديار الجبازية الى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد علي باشا فرحا عظيما وطير الخبر بذلك الى الأقاقى زلت

بالجزير يدبر الامر ويحسن حال جيش الامير طوسون حتى اصلى ما اراد وقفل راجعا الى مصر ودخلها في ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية في قلة من الخدم والاتباع وبعض الجند فتسابق الناس الى رفع التقدام والهدايا اليه وقد احتجب عن الخروج أياما ثم خرج وصعد الى قلعة الجبل وأخذ في اعداد مالزم اعساكر الامير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ في ذلك كثيرا والناس في ريب وطيرة لا يدرون ما سيمكرون من وراء هذا الاهتمام وعمد الى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيين فشاور مقدمى الجند في ذلك وجعل يستميلهم الى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده اسمعيل وكلهم من المرتزة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفوا وأعلمهم بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسيين فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الامر جدا وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضا بعض كبارهم ﴿ فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند في وليمة وبينهم محويك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الارزنجلي فتناجوا فيما يريد محمد على باشا وفيما تقرر بين الاحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه في تلك الليلة واغتياه قبل أن يستشعر بالامر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر في بيته الذى بالازبكية ونحالفوا على ذلك واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا الى ما كانوا عليه في مجلسهم غافلهم عابدين بيك وتركهم في أنسهم ولهوهم ونخرج متنكرا مسرعا الى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع الى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئا وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية البركة الناصرية وهرى الشباب وصعد الى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمناعههم المرباطون واشتد بينهم رى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا اليها واجتمعوا بالرميلة وقراميدان ونحبروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما نسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلبا للسلامة وانضم الى الشائرين من بقى طائفة من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعا الى النهب والخطف وشاركهم العامة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم الى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سبيلهم الى العقادين والغورية والاشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة الى سوق مرجوش فكسروا

مطلب
العزم على قتل
محمد على باشا ونهب
دكاكين تجار
المدينة

أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلي
وأرادوا مد يد النهب فنارت عليهم طائفة الاثراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن
والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم
ومنعوهم وقام عليهم أيضا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم
عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التي على رؤس الحارات وجلس عند كل باب جماعة
ومن فوقها آخرون من أهيل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل اليهم ووصلت طائفة
الى خان الجزاوى فعاالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التي بالباب وعبروا الخان وكسروا
حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الاقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم
في ذلك الخدم والعامسة وأخرجوا ما في الدكاكين والحواصل من الاموال وأنواع
البضائع وكان القوي منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ماله ويقتل بعضهم بعضا وكسروا
أبواب الحوانيت التي خارج الخان بالخطبة وأخرجوا ما فيها من التحف والاواني الصينية
والبلور وأنواع الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وكثر خلفهم النهائون والغوغاه
واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاهها بالرعية
قال بعض الكتاب وقد تم هذا كله في ظرف مدة لا تتجاوز الخس ساعات وذلك من قبيل
صلاة الجمعة الى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة في ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل
المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسلموا وأغلقوا البوابات ومروا الليالي وأقاموا على التحذر
والخوف * وأصبح يوم السبت تاسع عشر شعبان موافقا لآخر يوم من شهر أبيب وقد
أوفى النيل أذرعه وكان في ذلك اليوم أيضا رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شيء من
المراسم المعتادة لقيام الفتنه فلما سكن الحال رسم محمد علي باشا باحصاء ما نهبه
العسكر وتقويمه لردده لاصحابه من ماله فطلع اليه كبار العسكر يمتدرون ويتنصلون من
تبعه ما فعله الجند فرسم لهم بجمع ما يمكن جمعه من النهائين ففعلوا وشقوا في وسط المدينة
ونادوا بالامان فلم تطمئن خواطر الرعية ونزل كئيدا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم
لاهل الاسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد علي
باشا يتدبر في أمر أولئك العسكر ويعمل على تزريق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم
المسايرة وقربهم من مجلسه وتراف اليهم جهدا الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم الى
الرتب السامية ولم يحجل في عمله بل لازم التأنى والصبر * فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة
احدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج عن معهم من العساكر والاجناد الى ظاهر المدينة
والاقامة على أهبة السفر وأسر اليهم ما في ضهيره من قتل كبار الفتنه وزعماء هاته
العصابة وخطب أمراء العسكر في الخروج فخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصعب مع
ولده الامير طوسون رجلا من خواصه اسمه أحمد أغا المنجورجي المدلى ووكل الى الامير
طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الامير طوسون في التدبير وعمل الحيلة وبدأ بمحويك

وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندا وأخذ في استمالة عسكره وإبعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محوبيك الا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قتله أمرا مقضيا أرسل اليه يدعوه لمشورة فلم أجد أغا المنجورجي بما وراء ذلك فذهب اليه وأسر اليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محوبيك من فدوره وذهب الى كبار الدلاة مستنجيا فشفعوا فيه عند محمد علي باشا وقد علم محمد علي بما فعله أجد أغا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوما كاملا وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فأقام الامير طوسون بعسكره أياما حتى رسم له أبوه بالرجوع الى الحجاز فعاد اليها بعسكره وسير الى الشريف عبدالله بن مسعود الذي تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخبره في الصلح وطالت المحاربة بينهما الى أن تقررت القاعدة على ما يحب ان حضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الامير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان الى مصر وأبلغا محمد علي باشا ما تقرر بينهم وبين الامير طوسون ثم رجعا * فلما كان اليوم الاول من ذي القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثين وصل الامير طوسون الى السويس وأتى الى القاهرة فزينوا لقدمه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبقان وشعار الوزارة وطلع الى قلعة الجبل وأقام بها الى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر الى الاسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد الى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الاتراك والدلاة وأطلق له التصرف في تدبيرهم * وكان محمد علي باشا في خلال هذه المحن والخطوب مثابرا على مساحة الاراضى وضبط الرزق والاجباس وتعميم الفلاحة وانشاء الترع والجسور واحداث المعامل النافعة وغرس الاشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس واحياء العلوم على اختلافها ولا سيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعافل والحصون وقد بذل النفس في إعادة السد الممتد الموصول الى الاسكندرية وهو سد أبي قير فقد كان اتسع أمره وتخرب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الاراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرقات والمسالك وعجزت الدول في أمره ولم يزل يتزايد في التهور وزحف المياه الملح على الاراضى حتى دخلت الى خليج الاشرفية الذى تمتلئ منه صهاريج الاسكندرية المعروف الآن بترعة الحمودية فلما اعتنى محمد علي باشا بتشييد الاسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلة ما أنزل بها العمارات اعتنى أيضا بأمر السد المذكور وأرسل اليه المباشرين والقوام والعمال والفعلة والتجارين والبنائين والاختشاب وآلات الحديد والاعجار والسون حتى عمه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان وقيد به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به الى هذا الحين

واتفق أن ظهر الطاعون بعصر في هذه السنة أى سنة احدى وثلاثين واشتد وأكثر الموت في الناس وكان الامير طوسون قد ذهب الى رشيد وعاد منها الى قصره في برنال

مطلب
مسوت الامير
طوسون وقيام الامير
ابراهيم بقتال أهل
الحجاز بعسده

ففي ليلة وصوله الى القصر أصابه الطاعون فتملأ نحو العشر ساعات ومات ليلة الاحد
سابع شهر ذي القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به في سفينة
منتصف ليلة الاربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على اخباره فذهب اليه أحمد
أخو كتحدا بيك فلما علم بوصوله ليلا استنكر حضوره في ذلك الوقت فسأله عن سبب
حضوره وعن ولده الامير طوسون فقال انه حضر متوعكا الى شبرا فركب في الحال محمد علي
باشا طرادة وانحدر الى شبرا وصعد الى القصر وصار يمر بالخادع ويقول أين هو أين هو فلم
يقدر أحد على اخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو في السفينة الى بولاق ورسوا عند
الترسخانة وأقبل كتحدا بيك على محمد علي باشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجا شديدا وكاد يقع
مغشيا عليه ونزل سفينة وأتى الى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكي بكاء مراه فلما
أصبحوا ساروا بالنعش في مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجماع المؤمنين ثم ذهبوا به الى
المدفن الذي أعده أبوه لموته وكان محمد علي باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان اليه
والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته الا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا
عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوما وجلسوا للعزاء عند قبره ومات وهو في مقبل
الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيما بطلا شجاعا جوادا كريما يحب المصريين وله
هيبة في قلوب العسكر رائدة وكان محبوبا عند الناس فكافوا يرجون ولايته بعد أبيه وبأبي
الله الامير يد وطار خبر موته الى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا الى الخروج
ثانية الا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهر محمد علي باشا لردهم ولده الامير ابراهيم
وجيش له جيشا عظيما وعددا من مراكب الحرب والشواني الكبيرة فسار وقايل الشريف
عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل في أهلها القتل والنهب وتغلغل في جوف البلاد
وغاب عن أبيه خبره فانزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والاجناد وبالغ في المدبر
وبحرا ثم وردت الانباء بوصول الامير ابراهيم الى ناحية اسمها (الموتان) وانه قاتل
الوهابيين فيها قتالا شديدا كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياما كثيرة
ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره الى ناحية
الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالا عظيما فرج منها الشريف
هاربا الى الدرعية فتمعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم في طريقهم من المدن والبنادر حتى
أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوا قتالا عنيفا ومنعوا عنها الوصول وأحاطوا بها أياما كثيرة
وضيقوا عليها وشددوا * واتفق أن سار الامير ابراهيم بجماعة من عسكره الى بعض الجبال
لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين من الدرعية فتغيب أياما فلما أحس
المرابطون في الدرعية بغيابه خرجوا وقاتلوا عساكره حتى أجلوهم وأخذوا خيامهم وآلات
حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء
الخبر الى الامير ابراهيم فكثر راجعا ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخذ في تدبير جيشه وجمع

من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمره بعدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب فنقوى جند الامير ابراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد في قتالهم فقتل الشريف حمودة أصابته جراحة وهو في ساحة القتال ناحية الدرعمة وضيق على من بقي فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسيره أسيرا الى مصر (قال بعض كتاب الاخبار) فلما مثل بين يدي محمد علي باشا قام له اجلالا وأجلسه بجانبه ولاطفه وقال له « ما هذه المطاولة » فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ولدى ابراهيم قال ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدره الله فقال سأشفع فيك عند الخليفة ان شاء الله فقال ما قدر سوف يكون * فألبسه خلعة وانصرف من عنده الى بيت اسمعيل باشا ببولاق ولبث أياما ثم سيروه الى دار الخلافة مع طائفة من الجند تخفوه وأرسل الامير ابراهيم فريقا من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح عين الحجاز فقاتلها قتالا عنيفا حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة سر السلطان بذلك سرورا عظيما وأرسل الى محمد علي باشا وولده الامير ابراهيم الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا * وحضر الى مصر من بقي من الوهابيين وسقط في قبضة الامير ابراهيم فكانوا زهاء الاربعمائة مابين رجال ونساء وأولاد فأسكنوهم بالمكان المعروف بالقشلة بالازبكية وبينهم ابن الشريف عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل في دار السلطنة بعد وصوله اليها بقليل فلم يحجر عليهم فعلم الناس منهم أن عين الحجاز لم تؤخذ عنوة قالوا لانه لما مات حمودة شيخها وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله أخلى له البلد واعتزل في حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربه كما فعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى اليه في قلة فقبض عليه وسيره الى مصر أسيرا * وعاد الامير ابراهيم من الاقطار الحجازية في حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصير ودخل القاهرة من باب النصر في موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبقان السليمي في شعار الوزراء وصعد بالموكب الى قلعة الجبل ثم عاد الى مقره بالروضة وقد تراحم على بابيه المهنئون ومدحه الشعراء وقدمت له الهدايا والاعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والامراء

ونظر محمد علي باشا الى ما يقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترع الموصلة الى مدينة الاسكندرية المعروفة بالاشرفية فقيدها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا في حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت في أخريات ربيع الاول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب الى رشيد والاسكندرية بالارزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحا عظيما وسافر بها محمد علي باشا وأعجبه وصفها وسماعها في ذلك اليوم الحمودية وهى من أجل الاعمال النافعة والمآثر الباقية الى يومنا هذا

مطلب
اصلاح ترعة
الاشرفية

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الامراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الجنازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الحكمة فيهم وبجز من بقي منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا الى فتح السودان وقوى عزيمته على الاغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماما زائدا في تجهيش الجيوش واعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الامير اسمعيل مقدّم هذه الغزوة وبالع في تجهيزه بجميع ما يلزم وضم الى جيشه كثيرا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت ثلاثه في أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الامير اسماعيل في ذي القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الزاهية الى الدارفور ومحبوبك وغيرهم واستقر محمد كتحدا لاط بأصنا التي هي اسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحل وكان محمد على باشا الى هذا الحين شديد الرغبة في انشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيين وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الامير اسمعيل الى غزوة السودان فعمد الى تنفيذ ما في نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل في خدمة الدولة بصفة جندي يصرف له كذا من العلوقة وكذا من السلاح وكذا من الالبسة بشرط أن يكون في سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه في الدفتر الذي أعد لذلك عند مشايخ البلاد وكان الناس جميعا ميالين الى مساواتهم بطوائف الجند فرارا من ايذائهم فتسابقوا الى الدخول طوعا واقتصر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا الى تسجيل أسمائهم فكان اذا اجتمع في البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سسروا بهم الى بنى عدى من مديرية أسبوط حيث كان محمد كتحدا لاط أوغلي فيسلمهم الى الموكبين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من مماليك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختراروا منهم من تسموا فيه النجابة واستقدم اليهم ضابطا من عظماء الفرنسيين اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور في تعليمهم العلوم العسكرية حتى نخرجوا ونمغوا وولواهم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد الا انزرا اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند الى السودان في شعبان سنة خمس وثلاثين ففطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم في طريقهم من القرى والبادان وهم لا يدافعون الا بالامر الخفيف ثم ساروا الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقتلتهم قتلا لا غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التي هي عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الامير اسماعيل عن سنار الى فيزوغلي في طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فارسل يطلب المدد فأثت اليه نجدة من ثلاثة

مطلب
فتح السودان
وتدوين أمرائه
وترتيب جيش على
نظام عسكر
الفرنسيين

آلاف مقاتل ومقد مهم أجد بيك الدفتر دار فقويت عزيمته الامير اسمعيل وترك الدفتر دار
يدبر الامور في كردفان وسار هو الى المته في عسكر ثم عبر النيل الى شندى ونزل بها وكان بها
سلطان اسمه (نغر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الامير اسمعيل وضرب عليه
النكاف وقرر عليه شيئا كثيرا من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب
والتي مقاتل في أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم نغر هذا الامر وبالف في الشكوى
والاستعطاف وما زال بالامير اسمعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب
ثم سأله أن يمد له الاجل فغضب عند ذلك الامير اسمعيل وكان بيده سبق الدخان فضرب
نغرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشقة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج نغر من عنده
وهو مضمر له سوء فلما كان المساء من تلك الليلة أكثر نغر من استحضار التبن علقا للجمال
ودواب الجمل والخطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوفا حول العسكر بعضه يتصل ببعض
فكان شيئا كثيرا جدا ثم أتى الى مقر الامير اسمعيل في سرب من العبيد يضربون الطبول
وينفخون في قرون الحيوانات كالزمامير ويرقصون فاجب الامير اسمعيل منظرهم وطرب أصحابه
منهم وما زالوا على هذا الحال الى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء
واشدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نغر طائفة منهم فأشعلوا النار في التبن وذلك
الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان الهميب وعلا وأظلم
الجو فأعملوا السيوف في أعناق الجند فهجموا بالفرار فلم يتمكنوا فاحترق من احترق ومات
الامير اسمعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ
نار وساق أصحاب نغر سلبهم الى شندى واتصل الخبر بالدفتر دار وهو بدارفور فقام من فوره
وسار الى شندى وأقسم انه ليهلك عشرين ألفا ففداه لاسمعيل فلما نزل عليها لاقاه نغر بأصحابه
فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف في أصحابه وأخس في القتل
وأسرف في الانتقام ولم يحث في عيونه فهابه الناس واتسعت شهرته الى أقاصى السودان
فانكمش أصحاب الفتن ونظل يدبر الامور وبأمر وينهى ويخضع الكبار من السود الى سنة
أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الامر من محمد على باشا بالتخلي عنها والافحذار الى
القاهرة فالتحدر ونولى مكانه رستم بيك فخذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت
له جميع الاهالى ودانت له سائر الامور

واشدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان في اتقان نظام عسكره على نسق
عسكر الفرنسيين فأنشأ مدرسة للشاة في الخانقاه وأخرى لفرسان بالجيزة في بيت مراد
بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجية وأنشأ أيضا مدرسة لأصحاب المدافع
وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند
على اختلافها وسلم الى الكولونيل سيف الذي هو سليمان باشا الفرنسي زمام
تدبيرها ووكل له مدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا

مطلب

انشاء المدارس
الحربية ومعامل
الاسلحة والبارود

في تعزيزها واتقان نظامها فلم يحض عليها الا القليل حتى صارت جندا عظيما مدبرا مغازيا واسع الاصابة موفقا مظفرا أينما سار * ونقل المناقلون الى السلطان خبر ما وصل اليه محمد علي باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للاقطار السودانية فخشي السلطان عاقبة أفعال محمد علي باشا وظن به السوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتي معه أمرا لقيام الفتنة في جميع الايالات التابعة لملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الاحزاب لاسيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها وبلا وأعظمها خرابا وأنكهاها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شئ كئسير للغاية فكانت كلما طالت استعمرت نارها واشتد أوارها وقويت ظهور التأثيرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاموا قتال المستعقلين حتى أعيا السلطان أمرهم ودخل عساكره الملل وخشي عاقبة ذلك (قال أصحاب التاريخ) لما نهض اليونان الى طلب الاستقلال والخروج عن تابعة السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الامر لا يتم لهم الا بئس الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضا الا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبراؤهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم الى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى اذا عادوا الى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمي الامة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضائق الاسر والاسترقاق الى بمحبوحة الحرية والمساواة فتجعوا في ذلك وأنشؤا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جدا وكان أهمها عملا وأشدها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الاخوية وكان مقر هذه الجمعية أولا بمدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كيف وكلتاها من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها الى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية * وكان للقيصر اسكندر الاول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية في تعاضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليوناني وتعزيز مطالبه تنكيلا بالدولة العثمانية ولكي لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا يبطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الأكبر التي أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الاوروبوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار اليها وزوالها معقودين باطراف تلك الوصية رأيت انه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت في ترجمة العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت اليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التي من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال

مطلب
خروج اليونان الى
الحرية وطلب
الاستقلال

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الاول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائماً الى الحرب وينبغي للامة الروسية أن تكون متبادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لاجل اصلاح المالية وتوفيرها وان كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آتيا بآن وعلى هذه الصورة ينبغي لروسيه أن تتخذ من الصلح والامان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها

(البند الثاني) في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط الجند من بين الملل والاقوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضا ويلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث انها لا تضيع سعيها في تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغي وضع اليد والمداخلة في جميع الامور والمصالح الجارية في أوروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها

(البند الرابع) ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية ممالك « ه » وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الامة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة في انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الامة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيه الى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم باقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الاقامة وعند ما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدولة المجاورة فلاجل اخراج نار الفتنة موقنا ينبغي أن نقامم المخالفين في ممالك « ه » ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التي تكون أعطيت لهم

(البند الخامس) ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الامكان ثم نسعى في اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجهه تضطريه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة روسيه وتهاجها والذي يلزم أولا هو أن تصرف المساعي والهمة لالغاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانقره بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائماً باقين

(البند السادس) يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في

المنافع اذ بهذه الصورة يمكن اجراء نفوذهم في داخل المانيا ويربطون أيضا الممالك المذكورة بلهجة منافعنا ومصالحنا

(البند السابع) ان دولة انجلترا هي الدولة الاكثر احتياجا اليها في أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جدا أيضا في أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالآخشاب وسائر الاشياء الى انجلترا وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متماديا بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن في ممالكنا

(البند الثامن) على الروسين أن ينتشروا يوما فيوما شمالا في سواحل بحر البطليق وجنوبا في سواحل البحر الاحمر

(البند التاسع) ينبغي التقرب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث انه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم احداث محاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية وينبغي ضبط البحر لاسود شيئا فشيئا وذلك لاجل انشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحر البطليق أيضا لانه ألزم موقع لحصول المقصود وللتجمل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجار الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب الهند

(البند العاشر) ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم النظار بترويج أفكار الدولة المشار اليها من جهة ما ينبغي اجراءه من النفوذ في مستقبل في بلاد المانيا وأما باطنها فينبغي لنا أن نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة ائرحكام المانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستعداد من دولة روسية ومن اللازم اجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل

(البند الحادى عشر) ينبغي تمهيد العائيلة المالكة في استوريا على طرد الاتراك وتبعيدهم من خطه الروم ابلى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة استوريا حربا أو نسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصص صغيرة من الاماكن التي نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصص من يدها

(البند الثانى عشر) ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رئاسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد البحر والممالك العثمانية وفي جنوبى ممالك « له » ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعا ومعينا لهم ومن اللازم قبل

كل شئ أحداث رياسة مذهبية حتى تتمكن من اجراء فوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم
فندسعي بهم هذه الواسطة لا كتساب أصدقاء كثيرين ذوى غيرة نستعين بهم في ولاية كل
أعدائنا

(البند الثالث عشر) حين ما يصبح الاسوجيون متشتتين والايانيون مغلوبين
واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضا حينئذ نجتمع معسكراتنا في محل
واحد مع المحافظة على البحر الاسود وبحر البلطيق وتوتا البحرية وعند ذلك نظهر أولا
لدولة فرنسا كيفية تقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة استوريا ويعرض ذلك على
كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جدا لقبول ذلك وحيث انه
لا بد من أن احدهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغي مدارة واحترام ككل منهما
ونجعل من كان منهما قابلا بما عرضناه عليهما واسطة لتسكيل الاخرى وبذا تكون دولة
روسية حينئذ قد ضببطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا
حديثه الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر ونشكل فيما بعد أى دولة
بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين

(البند الرابع عشر) على فرض الحال ان كلا من الدولتين المشار اليهما لم يقبل بما
عرضته عليهما روسية فينبغي حينئذ لروسية أن تصرف الافكار لمراقبة ما يحدث من
الزراع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الامر
مع الآخر وفي ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا
معسكراتها المجتمعمة أولا بأول على المانيا فتجزم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين
من السفن أحدهما من بحر أراق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعمة من أقوام الاناضول
المتنوعة والثاني من ليمان ارخانكل الكائنة في البحر المنجمد الشمالى فتسير هذه السفن
وتسرى في البحر الابيض والبحر المحيط الشمالى مع الاسطول المرتب في البحر الاسود وبحر
البلطيق وتجمع كالسيل على سواحل فرنسا وأما المانيا فانها تكون اذ ذلك مشغولة بحالها
وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التي
تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير انتهت بنصها **(قلت)** ولا يقع في ملكه الا ما يشاء
وانتشر سر جمعية الهيئرى المذكورة بين جميع الجنس اليونانى المقيم ببلاد
الموره وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين
ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن
يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة في يانيا وخرج
واليها المسعى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض
أعضاء تلك الجمعية نهضة الأسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة في حصونهم
وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعت وتمكن زعماء العصاة من الاستيلاء

على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة واهتم لها اهتماما عظيما فلما سكنت فتنة يانبا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا في عسكر عظيم لاختضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة فقاتلوه قتالا عنيفا وانتصروا عليه نصرة مؤثرة في مضيق الترمونيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من اضرار النار في جميع سفن حرب الدولة العثمانية التي كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقزخات في الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدي أصحاب الفتنة فأخش عسكرها في القتل والنهب وسبي النساء والاطفال وارتكاب أنواع الغنائم والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميرا فلما جاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الاعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصا بعد أن قام سفراء الدول في دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الاعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبي النساء والاطفال في صاقز وغيرها فعد الى استعمال الحيلة وأخذ في التدبير وسير الى محمد علي باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وارجاعهم الى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والاقطار الجزائرية وأرسل اليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا الى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسي فسادوا الى مدينة الاسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا في ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية الى رودس فلبثوا بها أياما ثم رحل عنها الامير ابراهيم الى كريد وترك سليمان باشا في طائفة من العسكر فلما وصل الى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار الى سواحل المورة يريد انزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالا عنيفا للغاية وكان الى ذلك الحين لم يبق للدولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار ابراهيم باشا بعسكره الى ميناء مودون وأنزلهم الى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الابهة والاستعداد للقاء العسكر المصري بما عندهم من الرجال والذخائر والاموال وآلات الحرب التي كانت ترد اليهم من أهل البر ومجبي تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت في ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبي اليونان وانتظم في عداد أعضائها كثير من الامراء والكبراء فكانوا يرسلون الى أصحاب الفتنة بالاموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم في سلكها الشاعر الفرنسي المسمى فيكتور هوغو والناظم كازيمير دلافين فجعلوا يقولان الاشعار والقصائد الحماسية في تلك الحروب وبيالغان في وصف مايقاسمه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع في قلوب أهل الخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم الى التطوع وبذل النفس في عتق تلك الامة وجاءهم أيضا واشنتون

مطاب

ولاية محمد علي باشا

على المورة وكريد

ومقالة من بهما

من الحوارج

ابن واشنطن محرر بلاد أمريكا والورد بيرون الشاعر الانجليزي متطوعين حبا في تعميم الحرية وانتصارا للضعيف على القوى ففاز اليونان وتغوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية في عدة وقائع واستخلصوا كثيرا من القلاع والحصون التي كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالامير ابراهيم في مودون المقام حتى جاءه الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير ليجنتها طائفة من عسكره وسار هو في طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد في حصارها وضيق ومازال بها حتى فتحها ودخلها عنوة في سلخ شوال سنة احدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار الى مدينة كلاتا ففتحها أيضا ودخل مدينة تريبولينا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطاني نازلا في هذا الحين على مدينة يسولونجي محاصرا فاستعصى عليه الفتح وأعيته الخيل فسير الى الامير ابراهيم يستقدمه ليجنته فسار اليه فبين معه من العسكر المصري ونزل عليها وهانلها قتالا شديدا وبائع سليمان باشا الفرنسي في حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد اليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصري والعثماني ظافرين فاعملوا فبين وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئا كثيرا من المؤن والذخيرة وآلات الحرب ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة أتينا وقتلت عليها حتى فتحها واحتلت فلغتها الشهيرة وكان بها الامير كوشران القائد البحري الانكليزي مقدم الجيوش اليونانية في تلك الثورة فاعمل العسكر السلطاني السيف فبين وجدوه بها من العسكر والمنطوعة وأفشوا في القتل والتخريب وبيناهم على هذا الحال والامير ابراهيم يتأهب لرد ما بقي في أيدي أصحاب الفتنة اذ مات اسكندر الاول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الاول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد الى معاكسة الدولة العثمانية وطالها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره الى بعض الايلات التابعة لها فأجابته الى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة « آق فرمان » فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة في البحر الاسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تنقيش على ما في سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية الا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو في حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القسلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما الا باقرار من قيصر الروس * ومع ما كان في هذه المعاهدة من الخيف والجور بالدولة العثمانية لم تبدأ من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب في ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس الى جميع الدول الكبرى بان يتوسطوا ما بين السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الانجليز الصدر الاعظم في ذلك وبالغ في الشكوى مما تلاقىه أهل مورة من العسكرين العثماني والمصري وألح في الطلب فلم يلتفت السلطان الى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا الى

الى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملك الانجليز والفرنسيين وتعاهدوا على اكرام السلطان على منح اليونان استقلالهم الادارى وعليهم الجزية في كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد مخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلا لا يتجاوز ثلاثين يوما لا يقع فيها حرب ولا جلاذ فلما علم السلطان بما في هذا العهد غضب وأبى الا القتال حتى يرجعوا الى الطاعة وسير الى خورشيد باشا بالالحاح في قتال الشائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب قوات الاجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حريمهم الى سواحل اليونان وكتبوا الى الامير ابراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت الى قولهم وقال حتى يأتي فرمان السلطان وسير الخبر بذلك الى دار السلطنة فاجتمعت سفن الاحزاب في ميناء تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت في المنع ثم لم تلبث ان أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية ورأست الرمي بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحسنى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجو وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الاخبار بما وقع الى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الامر وكتب الى جميع الايالات التابعة الى مملكته يحذروهم من مقاصد الدول عموما ودولة الروس خصوصا ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعا عن الاسلام وأهله وأن يقوموا يدا واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وبجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره في صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الامير ابراهيم انه لا قبل له على قتال الاحزاب بعد جرق أعظم السفن التي كانت معه فكتب الى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود الى مصر فخرج بن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية الى مدينة الاسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والاحزاب فعقدوا محفلا في لندن عاصمة الانجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما في نفسه فلم يهمهم ذلك وقرروا ما شأوا من سلخ بلاد اليونان من تابعة الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل الى الخزينة السلطانية في كل عام واشتغل السلطان بحرب الروس عن اخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فتددت رسل السلطان في طلب الصلح وبعد أخذ وردة تقررت القاعدة بينهم على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق واعترف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التي تقررت في محفل لندن عاصمة الانجليز

وكان الى هذا الحين قد تمكن السلطان من إبادة جميع طوائف الانكشارية

مطلب
تنظيم العساكر
السلطانية على
نظام عساكر دولة
الفرنسيين

وطوائف السلامدارية والعلوفه جيه وأراح الدولة من شرهم (قال أصحاب التاريخ) لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الاخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتدنة المنظمة لاسيما في الحروب الاخيرة عمد الى تنظيم عسكر على نسق العسكر الاوروبي وتجرد لمعاداة كل من يخالفه في ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمي جميع طوائف الانكشارية ومفتي دار السلطنة وكان ممن لا يعضون النظام الجديد فقام الصدر الاعظم بينهم خطيبا وتكلم في أمر الانكشارية كثيرا وحض القوم على نصره الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الاعداء والذب عن بيضة الاسلام فوافقوا جميعا على عمل ما فيه المصلحة للامة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتي دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمي الانكشارية فلما شرعوا في العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على مانعه له كبارهم وأكثروا من التآلب والاجتماع ونأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يراجون العسكر المنظم في أوقات تمرينهم ويعا كسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك الى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان ونأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا الى السلطان في طاب قناتهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج الى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار اليه وخرج معهم أيضا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنه والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم في ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع احاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمي واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا الى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوبوا أقواء المدافع نحو المنازل واشتدوا في الرمي عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها وما زالت النيران في اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال ذيتهم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الابالات التابعة له لملكته وفودى بذلك في الشوارع وطبوا الخبر بما جرى الى الاتفاق وكتب الى جميع العمال بالقبض على كل من يجذوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل في كل فج وتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم الا من طال عمره فاختفى عن العيون والارصاد وجاءت الاخبار بما وقع بطوائف الانكشارية الى محمد علي باشا فعادت همته الى ما كانت عليه قبل حرب مورية من تجنيد الجنود واتقان نظام العسكر والاكتار من الآلات والكرام

وانشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشواني النقل بدل التي أحرقتها سفن الاحزاب وأقام
البنائيات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لجل المؤن والذخيرة وغير
ذلك فأنصلت أخبار هذا كله بالسلطان ففقد على محمد علي باشا لما يعلمه من ميسله الى
الخروج ورغبته في الاستبداد بتلك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وارجاعه الى
الطاعة ان هو عمد الى ذلك وجعل يراقب الامور ويتودد الى محمد علي باشا بالهدايا النفيسة
والتحف الجليلة * قال بعض الكتّاب * وكان تأهب محمد علي باشا واستعداده في هذه المرة
انما هو للزحف على الديار الشامية وضمها الى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من الخلفاء
والسلاطين وكان شديد الرغبة في ذلك جدا فانفق أن بعض المنتزعين من أهل مصر هربوا
الى عكا ونزلوا في جوار عبد الله باشا الجزائر واليه فرار من محمد علي باشا لدين عليهم وقيل
فرارا من الفرض والطلبات المتتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد علي باشا الى الجزائر يقول
له اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم الى فانه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم
الجزائر هذا الامر من محمد علي باشا وأرسل اليه يوبخه ويشنع عليه ويقول لست خادما
على بابك حتى تتصرف في أمري وإياك أن تخاطبني في هذا الامر ثانيا فشق هذا الكلام
على محمد علي باشا وأقسم الايمان الغلاظ أن يسير عسكره الى عكا لقتال الجزائر ويضم
جميع البلاد الشامية الى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين * فلما كان سادس عشر
جمادى الاولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد
عكا ومقدمها الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى وكان عددها زهاء أربعة
وعشرين ألفا فساروا الى الصالحية فالعريش فغزة وركب الامير ابراهيم وحاشيته
السفن الى يافا فلم يدرك يافا حتى استوت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار
بهم الى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه
أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمي وشدد نحر ج الجزائر فى عسكر عظيم وقاتلوا قتالا
عنيفا فمات منهم خلق كثير وعادوا الى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الاسوار وطالت
الحرب واشتد الحصار ومنع الامير ابراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر الى سادس
عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقحموا
أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثماني فأمنهم ودخل
بعسكره البلد فكاد العسكر يستبيحونها فلم يمكنهم الامير ابراهيم من ذلك وقيل أباحها
ثلاثة أيام فأعمل عسكره فمين بها السيف * فلما كان اليوم الثانى وصل الامير عباس حلمى
ابن الامير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهواة اعانة للعسكر المصرى
فسيرهم الامير ابراهيم الى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبيروت واشتدت
عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الامير ابراهيم الكتّاب الى
البلاد كافة يدعوهم الى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية

مطلب
ما اتكله محمد علي
باشا من العمل لفتح
باب الحرب على
الشامات والتغلغل
فى قلب آسيه

وكتب كذلك الى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول

تعلمون أن في بيت المقدس كثيرا من الديارات والكنائس والآثار الدينية التي تنحج اليها في كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى اليها هؤلاء مما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقيق لدينهم فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من الكف والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى ما فيه ارضاء أنفسكم والعمل به واصلكم على أن هذه الغايات الدينية والفعال الرديئة لا ترضاهم النفوس الأبيسة ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبضا كافوا أو روما أو أرمنيا في دينهم ودنياهم ولا تمنعوه من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئا من الكف والمغارم ولا تضيقوا على زائري كنيسة القيامة ولا تلموهم الصغار بدفع المال فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله

وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان فأغتم وكاد يسقط في أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالي أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التي تحصل في هيئة الحكومة في كل سنة في اليوم الاول من العيد الاكبر فجاء في صدر الجدول الذي نشر في تلك السنة مامعناه قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجمدة وكر يد حتى يأتي الى بابنا العالي جواب محمد علي باشا على ما أرسلناه اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبكم من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوه عن خطة الخسة والدناءة التي سار فيها هو وابراهيم ولده ورجوعه الى حد التأديب وقهره بقدر ما تصل اليه القدرة ان شاء الله * ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج في جيش عظيم لقتال الامير ابراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لاسيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب الى الامير ابراهيم يدعوه فيها الى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الامير ابراهيم الى شيء من ذلك وترددت الرسل بين العسكريين أياها على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شرمزية وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحصدت فرقت شملهم وولى من بقي منهم مدحورا فغنم المصريون ما كان في معسكرهم من كراع ومتاع وجعل الامير ابراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصر الى مدينة حصص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بني من عسكره وسارهم خلف العسكر المصرى يتخطف ساقه ويناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقتلوه فهزموه ثانية وأعملوا في جنده السيف ففروا ووصلت الاخبار بما جرى الى دار السلطنة فحال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ الى عامله على حصص بالبيان وقتال العسكر

المصرى ما استطاع ووصل الامير ابراهيم بخيله ورجله الى حصص في سابع ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالا شديدا * قال بعض الكتاب * كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حصص الى الامير ابراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الامير ابراهيم على ما لم يصل أحد الى معرفته فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الامير ابراهيم حصصا ورتب أمورهما على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشا الى حلب فاستسلمت اليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت اليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل وبسير عنها الى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع الى دار السلطنة كاد السلطان يميز غيظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة في جيش عظيم ورسم له بالخروج الى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة * كذا ولا أعلم ما هي ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال * وسلمه فرمان الولاية بده وترجمته

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية الى فخر الامراء المعظمين وقودة أعيان دولتنا المخميين حسين باشا بلغه الله ما شا وأسبل عليه بساط الين والامان وأفاض عليه سجال العدل والاحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغا وأورده من موارد الامن شرابا سائغا سنجق النشيرمان وأمير بحرية الاناضول الموجه اليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها - أما بعد - لا يخفى على من تهمة أخبار دولتنا العلية وما هي عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد علي باشا والي الديار المصرية سابقا بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج الى أوج المعالي وما زال حتى نولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالي فنظرنا اليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن انه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه الشكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء ولكنه لنداء أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من اثاره الفتن وتعيم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة ايلاتنا الشاهانية حتى استمال اليه الكثير من كنا نعتمد عليهم وتركنا في جميع الامور المهمة اليهم وقد أفلق راحة أهالي البانيا والروم ايلي بشن الغارة على بلادهم والاكتار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيرا ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوالي مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة انه لم تخف عنا خافية قط وكثيرا ما دس الى عبيد الله باشا

مطلب

تسليم محمد علي باشا
والى حصص الى الامير
ابراهيم وصددور
فرمان السلطان
بعزل محمد علي باشا
وولاية حسين باشا
سر عسكر الدولة بدله

والى عكا المخلص فى طاعتنا ووسوس اليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس
حتى فتنه أو كاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهم ما من العداوة والشحناء
ساقطت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء ابراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى
عسكر جرار الى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها
وقاثلها ولم ينال بما أرسلناه اليه من الرسائل المفجعة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيبه
وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم يهمل بمؤاخذته ولم
تسرع بعاقبته وطاواناه حقنا للدماء ورجوة بعباد الله الذين عهدت العناية الربانية
الينا رعايتهم وعسى أن يجسد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن
والتبادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع الى جادة الحق بعد
هذا الزيف والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يده وقد فجعنا
الى ذلك المارق الاجل عليه يرتدع أما الآن وقد آن الاوان وحل القضاء الذى لا مفر
له منه فلم يبق من باعث على التهاون والاغضاء ولكننا مع ذلك نغفو عن باقى الى بابنا
طامعا لا اذا مقرا بالذنب عن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله
وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم
وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد الحبشة
اليك مع ما يتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدي أولئك المارقين وأنا لعلى يقين بحسن
خبرتك ودرابتك بجميع الامور وببساتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة
رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم تسير بالعسكر المنصور الى حلب ثم تنحدر الى ديار مصر
فتنزع جميع البلاد من أيدي أولئك الخائنين واذكر شفقتى ولا تنس عفوى عن يتوب
ويرجع الى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده وائق الله وأخلص النية
يجعل الله لك من كل شدة مخرجا والسلام * فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا
بين فارس وراجل ونباطا فى سيره حتى تمكن الامير ابراهيم من ترتيب عسكره على
ما يشاء وتأهب لنقاء العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فجعل يبائع
فى التأهب والاستعداد وأيقن بان قد بلغ العظم السكين واستعصى الوثام فلم يبق الا
الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين * ووصلت
طلائع عسكر السلطان الى مقربة من حلب فخرج للقائهم الامير ابراهيم فى عسكره وقاثلهم
وصبر على قتالهم حتى ظفروهم وبدد شملهم ثم ساق بخيله ورجله حتى دخل حلب واحتلها
فنفسروا من بقى من العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك الى حسين باشا فقهقروا من بقى
معهم وتحصن فى مضيق بيلان أهم مضائق جبال الطور وعلم الامير ابراهيم بخبره
وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا وما زالوا حتى تمت
هزيمة العسكر السلطاني فغنم الامير ابراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتبع من

مطالب
هزيمة عسكر
السلطان عند حلب

بقي منهم حتى نزلوا سفنهم التي كانت راسية في ميناء الاسكندرونة ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بما حصل بعسكر السلطان فخرن واغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال امر الفتنة في ايلات الدولة العثمانية واشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطامع دولة النمسا في ارجاع المجر الى سلطتها وتلقفها بملكها وكانت تلاحظ مع الحزم والتأني الحوادث الجارية في أوروبا فأرسلت يومئذ الى محمد علي باشا تهنئه بتسمير جندها مع العسكر السلطاني لقتاله ان هولم يرجع الى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها في ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والاشفاق الى الخليفة فكشفت الى قنصلها الجنرال بديار مصر بان انسحب من الاسكندرية واقطع كل علاقة مع محمد علي باشا فانسحب فلم يلتفت محمد علي باشا الى شيء من ذلك البتة واشتدت رغبته في هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما يمد سلطانه من الايلات وتدمير معالم الخلافة وكتب الى ولده ابراهيم بالالتحاق في القتال وأن يجمل بالفتح ما استطاع وان يتقدم بعد ذلك الى الامام ما قدر فتغلغل الامير ابراهيم في جوف الاناضول فكشفت السلطان الى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع ان لم تبادر الى ايقاف محمد علي عند حده وترجع عساكره عن التغلغل في جوف أملاك السلطنة العثمانية فكشفت دولنا الفرنسيين والانجليز الى محمد علي باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحنا عليه بايقاف تيار هذه الحنسة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين ☪ وأنفذ يومئذ قيصر الروس الامير مورافف أحد كبار قومه الى محمد علي باشا ليكلمه في ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيين الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيين أيضا الى الامير ابراهيم يقول ☪ كتابي اليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أبائك في وضع حد لهذه القلاقل والحن المترتبة على تلك الحرب القاسية فقد آن للباب العالي أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم اليه وسيعمل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولا الى أبائك ومعه شروط الصلح التي رضىها السلطان بناء على اشارة دولة الفرنسيين التي لم يبق في وسعها السكوت عن هذه القلاقل التي عمت جميع المشرق أوكدت بسبب الحرب القائمة بين أبائك وسلطانه ولنا جميعا الامل بان ماجبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر في عواقب الامور يكونان سببا في قبوله الصلح وترك الخصام فيشير اليك بايقاف عسكرك عن التوغل في قلب الشام والروم واطفاء نار الوغى حتى يأتبك الامر بما كان وما سيكون * واعلم هداك الله أنك مسؤول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك في داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتبك الخبر والسلام

وكان الامير ابراهيم في هذه الاونة ينتقل بجيوشه من مكان الى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لاصد الامير ابراهيم سفينة حربية

مطلب

ما كتبه السلطان
الى الدول من عزمه
على محاربة الروس
وتهديده اياهم بذلك

وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيين بذلك فارسلت الى السلطان تهمة
 عساعدها للعساكر المصرية ان هو عاقد الروس على شئ من ذلك ❀ ووصل
 في هذه الاثناء الجنرال موراييف رسول القيصر الى الاسكندرية وكلم محمد علي باشا في
 أمر الصلح فحاول محمد علي باشا وطاول وأنظره الشدة وخطب الجنرال موراييف بغلظة
 وحدة فغضب الجنرال موراييف وعهد الى التهديد فضرب الى محمد علي باشا أجلاً نفسي
 محمد علي باشا ثم العاقبة وكتب الى ولده الأمير ابراهيم يقول ❀ اذا أتاك كتابي بآية أرض
 فقف حتى يأتيك رسولي ثم أعلم موراييف بما كتبه فطير موراييف الخبر بذلك الى الاتفاق
 ففرح السلطان ولم تنسكت دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت في هذه
 الاونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أي
 جهة شاعها بخيلها ورجلها أو سفن حربها في أي وقت شاعت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة
 (خونكار اسكاه سي) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولا سيما دولنا الفرنسيين
 والانجليز فسعتا جهداً لا استطاعة في ابطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهم ما وخافت دولة الفرنسيين
 من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة
 فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمته السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب
 ويستعد ويستعمل الخيلة في اطالة الوقت بين أخذ ورد لئ يتمكن من لم شعث جنوده وجمع
 ما تفرق في تلك الاصقاع من أعلامه ❀ واتفق أن قدمت الى دار السلطنة في هذه
 الاثناء زهرة هانم أرملة الأمير اسمعيل ثالث أولاد محمد علي باشا ابنة عارف أفندي قاضي
 عسكر ولاية آسيه وكان شيخ الاسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها قال بعض
 كتاب الاخبار ولم يكن ذهاب تلك السيدة الى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان
 يظن الكثير من الناس وإنما كانت رسول محمد علي باشا في التقرب من كبار السلطنة
 ومقدمي الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المايين بما لا يبيها من النفوذ والكلمة
 المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياماً لم يخف فيها على
 عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان في خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول
 في أمر ارجاع محمد علي باشا الى الطاعة ويستفرضهم الى الانحد بنواصر الحق وازهاق
 الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأياً حاول فيه وطاول ورد عليهم رداً جليلاً وسألهم
 التوسع في التصح (قال الراوي) كل ذلك لئ يتمكن من الفرص المناسبة لاغراضه وقدمت
 بعيد قليل من الاسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الاميرة زهرة هانم
 فارسلت تستأذن السلطان في ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن الى رجال
 السفينة بشئ من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزي باشا أحد رجال سفن الحرب فلما
 ألقت النيل مراسها وعلم محمد علي باشا بمقدم فوزي باشا تعافل عنه ولم يظهر بشئ من
 الاهتمام به وأوعز الى حبيب أفندي أن يتلقاه ويكرم سنواه فانزله حبيب أفندي منزلاً رحباً

ورتب له المأكل والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياما لم يرفها محمد علي باشا ولا علم من أمره شيئا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام الى القاهرة والالتقاء بمحمد علي باشا ومناجاة في أمر الصلح وفي العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزي باشا وطالب أن يبدوا فيها رأيهم كي يعمل هو به فقام برتو باشا وعارض في ذلك كثيرا وقال يأمر المؤمنين والله مامثل فوزي باشا في مصر الا مثل الحل الصغير الذي ذهب الى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يأمر المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل اليه صارم أفندي مهر دار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجلتها فأعجب السلطان رأيه وسير في الحال يطلب فوزي باشا وكان فوزي باشا الى هذا الحين قد اجتمع بمحمد علي باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود الى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقر به في دار السلطنة المقام حتى أرسل الى محمد علي باشا يقول اياك وخفض الجناح الى من سيدم اليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع اليك فاتفق واياك على ما فيه المصلحة لملاذ ان شاء الله تعالى

مطلب
مقدم صارم أفندي
على محمد علي باشا
ليخبره في الصلح

ووصل صارم أفندي الى القاهرة مع بعض الخدم والاتباع فأكرم محمد علي باشا وفادته وبالغ في الحفاوة به وأنزله منزلا عظيما فجعل صارم أفندي يغدو ويروح الى مقر محمد علي باشا ويكلمه في الرجوع الى طاعة سلطانه ومحمد علي باشا تارة يظهر الدين وأخرى يظهر الشدة وآونة يشكو مما يلاقه من أقابل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجمل فسأله صارم أفندي يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النيسة وتتمثل بين يدي خليفتك وسلطانك فتعاهد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد علي باشا وقال نفعل ان شاء الله اذا أدنت الفرص قال الراوى لهذا الخبر ويحبنى من محمد علي باشا قوله يوما لاحد كبار الاجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بكان فقال وعندي أنه ليس في الامر شيء من ذلك فان جلالة السلطان متبوعى الاعظم أجن بكثير من نقولا اذ هو يدعو محمد علي ذلك الشيخ الذي حنكته التجارب وهذبته المحن والنوائب الى المنول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة قال ثم ضحك حتى كاد يستلقي على قفاه وطال مكث صارم أفندي بالقاهرة وهو ومحمد علي باشا كل يوم في أخذ ورد وقد قال يوما لمحمد علي باشا سيعطيك سلطانك ولايتي مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك ان أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأفلحت عن عدائه فلم يلتفت محمد علي باشا الى قوله فقال ويوليك أيضا ولايتي عكا وطرابلس أوصيدا وطرابلس بشرط أن تعيد الى حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر ما فتحته عساكرى في يدي وفي يد ذريتي من بعدى فاذا تم ذلك قت بارسال الاناوة في حينها الى الخزينة السلطانية ووفيت

طاعة سلطاني حقها فعاد صارم أفندي بعد أيام الى دار السلطنة ولم يحض على وصوله الا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد علي باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية في عقبه من بعده الاثرش فالارشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج الى الخيرية السلطانية في آجاله وخفض جناح الطاعة الى متبوعه وولى أمره في السر والعلانية * وفي بعض الروايات انه لما عاد صارم أفندي الى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد علي باشا من الاخذ والرد رسم السلطان في سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشر ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتعليك محمد علي باشا ديار مصر وكريد ووليسة ولده الامير ابراهيم ولاية جدة وتسليمه رئاسة الحرم المكي مع ضم الشام الى مصر وجعلها ارثا لذريته من بعده قال الرواي وجاء الى مصر صارم أفندي أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد علي باشا بالاسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مشواه وأظهر له غاية الجاملة واللطيف وقال له انما تعطى الى بلاد الشام الى طوروس كما تعطى لذريتي من بعدى قال فراجعه صارم أفندي وقال هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن ارافة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد علي باشا لا سبيل الى غير ما أقول ولا مصلحة لي الا في الذي أنا طالبه فقال صارم أفندي والمصلحة عندي أن تمثل بين يدي سلطانك فيموت الامر وتنفرج هذه الازمة فقال نفعل ان شاء الله فعاد صارم أفندي الى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد علي باشا شئ * قال وقد كان صارم أفندي هذا يحمل معه عند ذهابه الى مصر عقد الصلح الذي كان وقع الاتفاق عليه في بلد كوتاهيه التي هي مقر الامير ابراهيم وعساكره يومئذ * قلت * ومع بحثي عن معاهدة كوتاهيه هذه لعل أعرف لها تفصيلا اذ هي من أهم العلاقات التاريخية لحروب محمد علي باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر في مؤلفات أصحاب التأليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسي الذي تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التي دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أني وجدت في مؤلفه المشار اليه صحيفة ٣٥٠ ما تعريبه * ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذي وقع بين الباب العالي ومحمد علي باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التي سميت باسم كوتاهيه وهي المدينة الكائنة بأسيه الصغرى وعندى أن لا أثر البتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل الى محمد علي باشا بعض الفرمانات والخطوط الهامونية فعلم منها محمد علي باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منه اياه من البلاد والامتيازات الاخرى التي اقتضاها يومئذ الحال قال ثم بعد أن تبادل الفريقان الاخذ والرد انحسرت الاسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينما من الدهر انتهى * وأرسل محمد علي باشا من فوره الى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندي يقول

ليس فيما رسم به السلطان شئ مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى الحالة الزاهنة على ما هي عليه من عدم قبول شئ من ذلك البتة وسير الى ولده الامير ابراهيم بالتأهب والاستعداد الى اصلاء نار الحرب ثانياً وعدم الوقوف عند حد * ووصلت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فأعظم السلطان الامر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر في أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس في سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشر الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف خضرفيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضياً وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الاسئلة الآتية اليه ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين

الجواب عن ذلك * قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أو امره بجهد الاستطاعة

ما الذى جاء به الشرع الشريف في عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانته الذى أحسن اليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبّر ودس الدسائس وأقام الاحقاد وأيقظ الفتنة الرافدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرًا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين الجواب عن ذلك * يجرّد من سائر رتبة ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو الى طيور القلاة وهذا جزاؤه في الدنيا وفى الآخرة الخزي والنار الآكلة

هل يكون الخليفة مسؤولاً بدم ذلك المارق أمام الله والناس الجواب عن ذلك * لا جناح عليه ولا تريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى

بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله وحده * حيث ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم عن طاعة سلطانهم ما حق العقاب عليهما كما حق على سائر من هذا حظهما في شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولاً بتجريد محمد على وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلاً مع سائر من شاركهما في هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان اهـ

* وجاء الخبر الى محمد على باشا بما جرى في دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت اليه وسير

مطلب
عقد المجلس الشرعى
بدار السلطنة
والحكم بعصاوة محمد
على باشا وولده
ابراهيم ثم الحكم
عليهما بالتجريد
والقصاص بالموت

الكتب الى ولده ابراهيم بالاكثر من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التي هي مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية وشدد في تعبئة الجيوش واعداد الممدات وسير كثيرا من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة الى ولده فسمى سفيره السلطان لدى الدول الكبرى في وساطتهم في الامر والعمل على ايقاف محمد علي باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف انه اذا اشتدت نار الوغى بين محمد علي باشا ولساطانه وتم لمحمد علي باشا ما يمتناه من تغافل عسكره في داخلية آسيه وضم أكثر بلدانها الى مملكته التي يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس الى العمل بقتضى معاهدة خنكارا سكه سى فتشبه أنظارها في جوف المملكة العثمانية ونال منها غنما فيستعصى على الدول ارجاع الشئ الى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك • فكتبت دولة الفرنسيين على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها الى محمد علي باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشؤمة بعد أن عرف قدرك وتحتق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاهد عليه مع قيصر الروس وقد سير اليه بايقاف ارسال تلك النجدة التي كان يطلبها لقتال ولدك وودّ لو لم يكن قد تسرع في الامر ولكن القيصر لم يلتفت الى شئ من ذلك ورسم فانت الى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها ان أنت أبيت الصلح ودممت على القتال فأحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخصوم الدولة بابا يلجونه للاضرار بها وأنت هـذاك الله شريك لسلطانك في السراء والضراء وسيقدم عليك خليل باشا مبعوثا من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التي تقررت قاعدتها فلا تأبأها عايه ولا تشط في الطلب فتدفع بدولة الروس الى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك ان عاقدت سلطانك على الصلح حققت دماء قومك وعلمت ما فيه المصلحة لبلادك فجعل بتسيير رسلك الى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضي بيت المقدس والشام ونابلس وابالك والطمع فانه يجلب عليك وعلى بلادك وبالا ونكالا واعلم أن دولة الفرنسيين التي هذبت رجالك وعلمت فنون الحرب لا بطلاك هي التي أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة اليك وأرسلتني الى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيعمل الى مقررك السامى كتابي هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عودتنا الجميل والسلام

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والانجليز الى محمد علي باشا على يدى قنصلهما تهـدانه بأشد ما يكون من التهديد ان هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانه وأرسلت اليه دولة الروس تقول أيضا ان لم تعدل عن غيك وتنكف عن عدائك وترجع الى طاعة سلطانك

علمت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسؤل عقيبها وما لم تطق عليه صبرا
إذا لم تجمل دولتنا الفرنسية والانجليز بمحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن
حربهما وتضييقا عليها تضييقا ثم واياك والشطط في دعواك بعد الذى تنازل لك عنه خليفةك
فأنته الله في نفسك وأهلك وولدك والسلام

مطلب
ما كتبه محمد علي باشا
الى صاحب سياسة
الفرنسيين

فكتب محمد علي باشا الى صاحب سياسة الفرنسيين يقول ❦ أما بعد فقد وافاني كتابك
الشريف على يدى كبير تشرىفات مقررك المنيف وقد ذكرت فيه انه بمقتضى قاعدة
الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى حكم ولاية عكا
وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أنجل ويعلم الله من ذكرها وانه
يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الاناضول والمبادرة الى عقد رباط الصلح
مع سلطانى فاذا آيت ذلك قامت دولة الفرنسيين بخيلها وبرجلها لتدبى وجميع أهل
بلادى من النكاح ❦ أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداة الله أنى
ان لم أبادر الى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها بحمل السمع والطاعة سببت الى دولتنا
الفرنسيين والانجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشهونة بالرجال المتكرهين على الطاعة
والقسام * فقل لى بحقق كيف جاز لكم اكرامى وأى شرع من شرائع الأمم المتقدمة أحل
لكم هذه الفعال أو ترضى أمة الفرنسيين أم المدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلادا
فتحت بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضية مسألة اعلم أن قومي وسائر أهل بلادى هم
طوع أمرى واقفون عند حد الشامة فلا شئ عدا شئ أعزب من أن أتود بطنهم جيوشي
تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الاناضول والروم ايسلى وأبذل النفس والنفس فى
ضم كل ما استطعت ضمه الى مملكتى ما دام فى قطرة من دم وثى بانى قد وطنت النفس على
ذات فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وانى لأعجب كيف تشدد على التكبر وتكرهنى على
ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأعجب
المناعب وأزبقت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقا وغربا
شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونباله مقصدي واستبشر الناس طرا بانى سأوفق ان شاء الله
تعالى الى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك
أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبدا ولا أفارقها الا بفارقة
الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعمد ولا تكن من المحققين واذكر أن المسروعة لا ترضى
بذل من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموما ودولة آل عثمان خصوصا والسلام
(قال بعض الكتاب) ثم لم ير محمد علي باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدا من العدول عن
طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام الى طاب الولاية بالتوريت فى عقبه
من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاية بغداد وعلى باشا والى يانبا وسير الكتب
الى سفراء الدول وكام سفير الفرنسيين فى ذلك طويلا فلما لم يرمهم أذنا صاغية عد الى

مطلب

ما كتبه محمد علي باشا
يهديه الدول

التهديد * وكتب اليهم ثانية يقول كتابي اليكم يا أنصار الانسانية وعهدي بكم الوفاء وحسن
الاخلاص والولاء واني والله لا أدري ما علة هذا الجفاء مهلا مهلا ما بالكم تحافيتم بعد ذلك
العطف والتلطف فان كنتم ترون في طلبي الاستقلال بملك ما في يدي شططا وغمما لا تحمد
عقباء فقد عدلت عنه الى طلب الولاية وجعلها ميراثا بعدي الى ولدي ولا اخالكم تنكرون
على ذلك أيضا بعد الذي تحققتموه من أمري فان شاتم فعلتم ذلك والافدون استسلامي الى
سلطاني على يدكم خطر القتاد ولا لوم على ولا تريب اذا جاهرت بالذي أبتغيه وحافظت على
ما بيدي من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلا ورأيت كثيرا وخير الشيخ مني أن يموت
عزيزا موقرا من أن يموت حقيرا مرذولا وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيئا يتعدى مصلحة
أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء في شيء فإلكم تراوغوني مراوغة ما أنزل
الله بها من سلطان ألكوني على غير دين المسيحية لأظن ذلك ويعلم الله فان المروعة
والشهامة تأبيان الاضرار عن لا يسمي الا الى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده
ولقد أكرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق الا أن أقول
غلانية اتي عاهدت النفس أخيرا على الخوض في معامع الحرب والجلاء حتى الموت فان
فازت الدول بالانتصار وألحقت بي وبمسكري البوار فهذا لا يزيدنا شرفا ولا يكسبها غمما
اذنهما أكبر من ذلك كثيرا وان أتاح الله سبحانه لي الظفر ووقفني الى سبل الغلبة والنصر
أريت الدول عاقبة هذا الامر وأنتأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم فئة صغيرة غلبت فئة
كبيرة باذن الله والاسلام

واتفق في غضون هذه الحوادث ان احتفى ان بن زفاف ابنته زليخا سلطانته
على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الافراح والولائم وأتت اليه هدايا الملوك
والسلطين والولاة من كل صوب وحذب فأرسل اليه كذلك محمد علي باشا شيئا كثيرا
من الاعلاق النفيسة والتعالي الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان
بها الا كاحتفال الدائن يأخذ ماله في ذمة مدينه ولم يرد على محمد علي باشا ردا جعلا
فامتعض محمد علي باشا من ذلك وعاد الى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم في وجهه
فيكلم وكلاء الدول السلطان في وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل
الخطاب والكف عن اراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه
هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراي استافروي فرارا من الطاعون الذي دخلها بالعدوى
من بعض الشيلان الكاشميرية التي جاءت هدية من قاضي القضاة بمصر ومنع رجال
دولته من التداخل في أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه في حلها سوى سعيد
بين قائم أسراره الاول وواصف أفندي قائم أسراره الثاني وجعلت رساله تتردد على مقر
سفير الفرنسيين وطال الاخذ والرد في تقرير قاعدة لنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها
الى محمد علي باشا ثم الى ذريته من بعده ميراثا للأرشد فالأرشد وعن ولاية الشامات مقيدة

احسن السلطان
بن زفاف ابنته زليخا
سلطانته وهديه محمد
علي باشا

ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيين في ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح ❀ وكتب محمد علي باشا الى ولده الامير ابراهيم بأمره بالتأهب والاستعداد لاصلاء نار الحرب في الاقرب العاجل فجعل الامير ابراهيم يتأهب وقد بالغ في ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فالزمهم الصغار واشتد في تذليلهم وعت الجزية سائر أهل تلك الاصقاع وقد كان عمال السلطان قبلا لا يفرضونها الا على اليهود والنصارى دون المسلمين فم القلق من أقرب البلاد الى أنصافها وبدأت اشارات العصيان وعلم الامير ابراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وانهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج واضرام نار الفتنة فبالغ في الحيلة والتحرز وبلغ جيشه الذي جمعه في هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفا ❀ وجعل السلطان يكثر أيضا من حشد الجيوش وبعد المعدات ويرسل الجند تباعا الى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها الى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعهد الى الاضرار بمحمد علي باشا ماليا أيضا فعاقده دولة الانجليز على يد رشيد باشا والورد بونسبي على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الامر على محمد علي باشا وكاد يسقط في يده لحاجته الى المال لفنقة الجنود وجعل يفكر في تجديد الخبارات مع الباب العالي مباشرة مبتعدا ما استطاع عن وساطة الدول سادا دون ذلك كل منفذ وباب ❀ قال بعض انكساب وكان يرى انه في حاجة الى المال الذي هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل الى بلاد السنار في طلب معادن الذهب حتى اذا فاز منها يملوغ الارب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب الى تلك الدول ظهر المجن بعد الذي عاناه بسبيهم من المسكايد والجن وقال آخرون بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الازمة التي استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتي الروس والانجليز عدوا لدودا وخصما مشاغبا كنودا وأن رجوعه القهقري بعد ذلك التسامح والنعاطم يكون نقطة سوداء في صحيفة أيامه فجد الى تلك الرحلة وعقد النية على انه ان عاد سالما لا يظهر في ميدان ذلك المعترك بظهور البادئ بالشر الا اذا اضطره الخصم الى القبض بكلي يديه على حر هذا البحر * وكان معه في هذه الحلة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الارض من الفرنسيين وغيرهم وجماعة من الكتاب القبط والمتميزين والخدم والتابع وجاهد من مشاق الاسفار مالا يقدر عليه الا القليل فلما وصل الى سنار جاءه مشايخ القبائل وأسراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرا من الاماء والعييد والخصيان وسن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالف في الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيرا ان هو ظفر بأمنيته من تدوين سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الارض في

مطلب

ضرب الجزية على
أهل حوران ولبنان

مطلب

سفر محمد علي باشا
الى السودان في طلب
معادن الذهب

أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار عليهم يهتدون الى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا الى ذلك البتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الامر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكتّاب وأصحاب طبقات الارض وهو على عزيم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فلم يجبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد ارسالها في كل عام الى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدمه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيئا فأرسل اليه النائب يقول * أمير المؤمنين بقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثا بعد الذى علمته من اغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يرد عليه أياما ثم أرسل اليه كتابا يقول فيه لست فى استعداد للتأثك الآن فارحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور الا العود خائبا مقهورا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين الى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب واصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التانى وترك العجلة والاخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الامور الى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكتّاب وقد كان خسرو هذا من الدأءاءاء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بينهما بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أياما كثيرة حتى خلاه محمد على باشا وأخرجه من مصر خامرا مقهورا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لامراه فيه أن خسرو باشا مع قيامه برعاية حزب السلم كان يرجو فخر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول ان دحر محمد على وفهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحقق به جزاء له على خلقى من ولاية مصر واخراجى منها قهرا وان ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كي يحقق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران وبننان وكثر ضجيجهم ونادوا بالتخلص من نير عبودية الامير ابراهيم وجور عسكره وقدمت رسالهم الى دار السلطنة يصحون الممدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الامير ابراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبتت عصا باتهم فى القرى والبلدان يدعون الناس الى

مطلب

انقسام رجال الدولة
العثمانية وعدم
اتفاقهم على استمرار
القتال مع محمد على
باشا

مطلب

خروج أهل الشام
وانفشار الفتنة

مطلب
قيام محمد علي باشا إلى
يافا لتسكين الفتنة

شق عصا الطاعة فهبوا جميعا إلى الثورة فأرسل الأمير إبراهيم إلى أبيه بالاسكندرية
بستجده فسار محمد علي باشا من فوره إلى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما
ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا إليه فأحسن
لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالح في استمالتهم فمالوا إليه
وعاهدوه فأرسل إلى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرذ أصحاب الفتنة وشد
عليه في ذلك وبالح في توبيخه وتعزيزه استرضاء لأصحاب العهد فخرج الأمير إبراهيم بعسكره
وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتلًا عنيفا حتى دوحهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس
وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أياما كثيرة ثم عادوا فطلبوا الأمان فأمنهم وركب
كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة
وأرجع أهلها إلى الطاعة وسير جماعة من عسكره إلى اللاذقية فبينما هم في طريقهم
أدخروا عليهم أهل الناصرة ثمانية فمالوا منهم قتلًا وجرحا وتشريدا فرجع من بقي إلى
حيث الأمير إبراهيم فكبر عليه هذا الأمر وأخذ في التدبير على أهل الناصرة وعاهد
الأمير بشير الشهابي على الذب والدفاع بجيش الأمير بشير عسكرًا لقتال أهل الناصرة
وقدم عليهم ولده الأمير خليل وجيش كذلك الأمير إبراهيم جيشًا آخر وسلم قيادته إلى
الأمير خليل فسار بهم إلى الناصرة وقاتل من بها فوقت بينهم عدة وقائع كانت الحرب
فيها سجالا وما زال الأمير يقاتل والمدد ياتيه تباعا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم
وقبض على كبارهم وسلمهم إلى الأمير إبراهيم فقتل بهم وقتلهم وبالح في التحذير واستئصال
أسباب الفتنة فرسم بجمع ما في أيدي الشاميين من سلاح وآلة حرب وشد في ذلك
وتوعده وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكسبون الدور ويحفرون
الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيا كثيرا
نخافه الشاميون وانكشوا وانجحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشمامات فلم يتركهم بل
عمد إلى اذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الجمل
وأدخل الشبان من أولادهم في مصاف الجند وسيرهم إلى أقصى البلاد فكان عمله هذا من
أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم
كذلك فيرجعون إلى الطاعة وقد تراكت الشكاوى من ذلك على الباب العالي
فأبلاغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج إبراهيم وعسكره من
الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة إلا فالسيف والنار ولا هذا الخزي والعار فراجعته
دولة الفرنسيين وكذلك فعلت دولة الروس آخذة في هذه الآونة برأى كبير سياستها المسمى
روبونانوف قال أصحاب التاريخ فقد كان هذا الرجل من خول أصحاب السياسة ومقدمي
رجال الرئاسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسني سفير الانجليز من
المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد إلى تغيير خطة سياسته دولته من

المكابرة والمعاندة الى المساهلة والمجاملة واتبعته في ذلك أيضا دولتا بروسيا والنمسا وأكثرهما جميعا من الاخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشي حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد الى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك الى طلب تحقيق حالة الشامات وما اذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التي لا يعلم عاقبتها الا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارها وسير سعيد باشا فأنظر الحربية الى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية الى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعلة وقتل عندهم المؤن وفشت بينهم الامراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم اشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلج على السلطان بطلب الاذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الامير ابراهيم فأجابه السلطان الى ذلك وسير اليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياوية وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكوفوا له عوننا على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم اسمعيل باشا وسارت على أكل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الامير ابراهيم قد سار عن حلب الى حوران ليرى المزارع وغرس الاشجار الكثيرة التي أشار بغرسها في تلك الاصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل الى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع اليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الانحاء واستخلفهم على الطاعة والولاء خلفوا له الايمان الغلاظ وكان من حضر معه في ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسي فقال له أيها الامير خفف عنك فوائده لما أن ندخل دار السلطنة في هذه المرة بعسكرنا المنصور واما أن نعود الى ديارنا مدحورين خاسرين فسر الامير ابراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال بوركت يا سليمان والله لن يكون الا دخولنا بأذنه تعالى غافرين غائبين * وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحذب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها الى المفاوز الموصلة الى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان الى عزت محمد باشا والى انجور بتجهيز الجيوش واعداد المعدات مددا عند ميسر الحاجة وسار كل من والى بغداد ووالى الموصل في عسكر عظيم مددا الى حافظ باشا قال بعض الكتاب ولم يكن سير هذين الاميرين بعسكرهما الا لامداد الامير ابراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الامير ابراهيم في خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجراءة ساكن القلب هادئ البال وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان آتى جاءت لقتاله في هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفا فضلا عما وصل أيضا من سفن الحرب الكبيرة والشواني المشحونة بالمسدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها الى مواقع القتال فسارت منها طائفة الى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع الى عنتاب لرد أهلها الى الطاعة فاتهم

لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم فاروا على عمال الأمير إبراهيم وشاغبهم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع إلى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم فقطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضا وانضمت إلى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد في فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والملازمين وبالغ في جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقا وغربا في طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضا سائر ما كان مودعا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج إلى بعض المدن مثل طنطا والحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها ليحضر الجباة والمأمورين على جمع المال وكتب إلى الأمير إبراهيم بقول * لا تنجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعا لأمها بما حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف بأهل تلك الاطراف من عبث الجيوش العثمانية واهلاكهم للثروت والنسل * وقدم طاهر باشا رسولا من قبل السلطان إلى حافظ باشا مقدم العسكر السلطاني يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب واصلاه نار الوغى وكانت عيون الأمير إبراهيم تنقل إليه الاخبار فأعلموه بخبر ما هو عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فالتفت حلب مقرا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثمانية على السمع والطاعة خلفوا فجيأ أهلها الجزية سلفا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه إياه فكان ماخص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفا وسير لحراسة بعلبك ومنع القدام من العساكر العثمانية إلى حوران وبنان طائفة من الارناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كي يخلدوا إلى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومديرى أمورهم وأعاد إليهم ما كان قد جمعه منهم من الأسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عربان أحد كبارهم ومقتدى خزيم عينا ليراقب أحوالهم وبحرس دروبهم وبالغ جدا في الحيطه والتحرز من أهل تلك الاطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال

ووردت كتب الدول إلى وكلائهم بالاسكندرية بأن يعاودوا محمد على باشا في كف ولده عن الزحف والقتال * قال بعض الكتاب * وكان كتاب كبير سياسة الروس في ذلك إلى

مطلب

اتخاذ حلب مقرا
لحركة العساكر
المصرية واستحلف
أهلها على السمع
والطاعة

مطلب

عود قناصل الدول
إلى مكاتبة محمد على
باشا في الصلح وما
كان من وراء ذلك

فصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد علي باشا في هذه الاثناء يجوب البلاد وقد وصل الى مدينة دمياط فسار اليه قنصل الروس وأبلغه الرسالة وأخبره بخبر كتب الدول الى وكلائها فغضب محمد علي باشا وعاد من فوره الى الاسكندرية فاجتمع اليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه في الافلاخ عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصالح قال فامتنع محمد علي باشا وقال ما بالكُم تسعون في الاضرار بي وباهلي وولدي وما بالكُم تضربون علي يدي وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء ويحرب ماشاء ويحرق ماشاء أولم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بيني وبينه والله لن أرجع عن الحرب والقتال وان ترجع عساكري عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بيني وبينه وهو أحكم الحاكمين * فجعل القناصل عند ذلك يخفون عليه حتى سكن بعض مابه ورسم الى كاتب سره أن يكتب الى الدول شيئا مما هم بصدده فكتب يقول * قد خاطبني قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب في أمر تقرير قاعدة للصالح بيني وبين سلطاني فلم أريدا من العود الى اعلامكم بما قد وطئت النفس على عمله آخذا بمشورتكم فان عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصري الى حيث أوتوا وتم ذلك في الاقرب العاجل سرت الى ولدي بايقاف عسكره ورجوعه الى دمشق مع حاشيته وأركان حربه وان خرجت سائر العساكر السلطانية وانجحت عن الديار الشامية استوقفت سائر جيوشى واستقدمت ولدى الى مصر فاذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك مايدى من البلاد فاني لأجزم عن استقدام بعض جيوشى الى مصر ولا آف من العود الى المخامرة مع سلطاني في تقرير قاعدة للصالح راسخة الاركان لايبقى من ورائها باقية والسلام * قال بعض الكتاب * كل هذا والسلطان يظهر الى سفراء الدول خلاف مايبطن فكان من جهة يقول انه مابرح بطاول محمد علي باشا ولده ويدفعهما عن بلاده بالسنى هي أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من بلد الى آخر بعلل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره في العساكر السلطانية فأهلك منهم خلفا كثيرا ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر في مضيق من الجبال وعز المسلك ولبثوا فيه لايتحركون أيا ما * قال الزاوى فلو كان الامير ابراهيم نازلهم في ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لآتى على آخرهم ولكنه لم يفعل حقنا للدماء ولكي لايقال انه البادى بالشر وشاع خبر ذلك في دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا في ذلك فلم يروا منه جنوحا الى المسألة ولا ميلا الى المكاملة وكثر الاغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسبى سفير الانجليز ميل الى معاداة محمد علي باشا وأوعز الى قنصل الانجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان في تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسيادى قيادة الجيوش

العثمانية في هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسيواى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا اذا ظل الرجل في خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنّس بالجنسية الانجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد في المنع يخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسبى وانبتت العساكر السلطانية في أنحاء الشامات فماتت وأفسدت واجتمع اليها أهل البطالة والفساد وآتت اليها الاحزاب من كل صوب وحذب ووصلت طائفة من الفرسان الى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة الى عامل السلطان على (أرول) في طلب الرجوع الى طاعة سلطانه وترك الامير ابراهيم وشأنه فأجابه الى ذلك وعلم الامير ابراهيم بخبره فرسم الى محمد معجون بك بالمسير عن معه من العساكر والعربان الى تل باشير فسار اليه ثالث عشر ربيع الاول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة في ولاية عنتاب والتقى الى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى في السمع والطاعة اليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلهم في الخروج عن طاعة الامير ابراهيم فأجابوه الى ذلك فأعطاهم الاسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم الى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول ان أمير المؤمنين جالس الى السلم كاره للحرب وانه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه

وكبر كيد الامير ابراهيم فلم يبق في امكانه السكوت لاسيما وقد انبتت العساكر السلطانية حوله وجأوا الى مواقع عسكره من كل صوب فارسل الى سليمان باشا الفرنسى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب في جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا عن معه وبينما الامير ابراهيم في طريقه اذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شمرهزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وعزق شمل من بقى منهم فأزجمه هذا الخبر وسار سيرا حثيثا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المايين السلطاني في خلال هذه المشاغبات يكثر من الضجيج والعجيج الى الدول من شرفعال محمد على باشا وولده ابراهيم وامتناعه من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية ويقولون انه ما يرح يظهر الى سلطانه كل بغض وعداء بتجيشه الجيوش واعداه المعذات بعد أن صفع عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة الى وكلاء الدول كتابا يقول فيه * قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والاحن التي قوضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفعل شر هذا الامر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداست بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به

القحة مبلغها والجسارة منتهاها فلم يبق في وسع الباب العالي الاغضاء بعد هذا كله * وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث الى الاسكندرية سفراء يعرضون على محمد علي الرجوع الى طاعة خليفته وسلطانه فان أذعن عفا الله عما سلف وان امتنع وكبر فالسيف والنار ولا هذا الخزي والعار * ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الانجليز التي وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدّها ان شاء الله أمرا مقضيا * وبعد فأمر المؤمنين يسأل الدول المتحابة أن تدعي جهدها في اقناع ذلك التابع بالاذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح الى مالا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن فوايا الدول المتحابة وميلهن الى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التي لم يبق في وسع أحد النظر الى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفعاله والسلام

ووردت على محمد علي باشا في هذه الاثناء الاخبار من ولده الأمير ابراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكي لا تنهمر الدول بسوء القصد بعد الذي هم فيه من الاخذ والرد فلم يصل اليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه موسستيك بك في طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موسستيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير ابراهيم وركب في طائفة من المصريين لقتاله وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان الى شق عصا الطاعة وتآلبوا جميعا على قتال المصريين واجلاّتهم عن البلاد ووصلت طلائع لوم موسستيك الى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير ابراهيم في اجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا في رابع عشر ربيع الاول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا الى المقائسين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير ابراهيم باغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف في البلاد وفيما هو فيها من مال وكراع * فلما كان سابع عشر ربيع المذكور غير حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما تراى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا فلم تلتفت اليها العساكر المصرية وكتب في الحال الأمير ابراهيم الى مقدم عسكر السلطان يقول ﴿ اذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الاخذ والرد في شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثماني في طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين ﴾ (بولاتيك) وكيف استجبت ارسال موسستيك بك في جيش جراد من الاكراد ليعاؤفوا أهالي (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم

مطلب

ما كتبه الأمير
ابراهيم الى حافظ باشا
مقدم العساكر
العثمانية وما كان
بعد ذلك

الحاج عمر أوغلي الى الكراداغ لا يقاط الفتنة النائة وهاجتم عرباننا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالاسلحة ومعدات الحرب ليقاتلوننا ورسمتم الى سليمان باشا العثماني بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدي وخرق حرمة العهد حتى زحقتم علينا بمخيلكم وربطكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التآني والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المحبابة الى التهؤور والاندفاع الى اصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسلطاننا والدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالككم ضرب من العجز أو شيء من الجبن حاشا ثم حاشا فان كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس بأصحابك فأعلن الحرب جهارا وناد بالجهاد علانية وسترى منا ان شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابا للقاء الابطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابي واصل اليك على يد محمود بك أحد مقدمي أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورجة الله وبركاته

فلما علم حافظ باشا ما في جواب الأمير ابراهيم كتب اليه يقول * ألفت كتابك مفجعا بعبارات الطاعة وإشارات الخضوع الى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف في أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال الى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيا زاهرا موفقا مدى الدهور والاعوام وبعد فانك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وان هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل والا كانت مروقا وعصيانا فان كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد محبوب بك في جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكريك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم الى القتال فكل هذه الامور قد جعلتنا في ريب من اخلاصك ودفعت بنا الى مناوشتك القتال فان أنت رجعت وتبت وندمت على ما فعلت فعليك الامان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورجة الله وبركاته * ولم يصل كتاب حافظ باشا الى الأمير ابراهيم حتى جاءه الخبر أيضا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهي مؤلفة من عدة شواني كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها ففسر الأمير ابراهيم الخبر بذلك الى أبيه وطلب المدد واستمرع النجدة فكتب اليه أبوه في ثامن عشر ربيع الاول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول * جاءني كتابك وعندي الخبر اليقين بما يلاقه عسكرينا من الحيف وما هو مشاهد في كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لاهل الشقاوة الخوارج وبهم في المدن والقرى لاهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التفاضي أخذا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف

عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فاذا أنالك كتابي هذا فسر على
بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحرا وأوقع به وبعسكره ما
استطعت وسر من فورك الى (كوليك) بوغاز ومن هنالك الى ملاشيا وقريوت وعرفة
وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لاعليك والسلام ورحمة الله وبركاته
وجعل محمد علي باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب الجديدة ولده وأقام
المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت
قلعة الجبل بروردواب الجبل وسحب المدافع والانتقال وطير قناصل الدول الخبير بذلك الى
الاتفاق فاهتمت له دولة الفرنسيين وسيرت على الاثر رسولين أحدهما الى محمد علي باشا واسمه
المسيو كاليه وثانيهما الى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الاسرار بما
اقتضاه الحال * واتفق أن قدم محمد علي باشا الى مدينة الاسكندرية ليجاهر بنفسه ارسال
المسدد الى ولده الامير ابراهيم فقدم عليه المسيو كاليه في نفر من الكتاب والحشم والاتباع
فأكرم محمد علي باشا مقدمه وبالحق في الحفاوة به فكلم محمد علي باشا في أمر الكف عن
القتال والتأني في الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة
فامتنع محمد علي باشا من ذلك وقال لا بد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى
يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه في الطلب وبالحق في استرضاء محمد علي باشا وطاوله أياما ثم
عاوده فأجابته ورسم الى خسرو أفندي بقبول وساطة دولة الفرنسيين وساطة فعلية في جعل
حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب الى الامير ابراهيم بأن يبقى حيث
هو متمم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسر وأفندي سفينة مصرية يريدان الشام
والانقاء بالامير ابراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملا بالكتاب الوارد اليه من
محمد علي باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرق نصيبين ونزل على قيد
فراخ من محلة العساكر السلطانية ❦ قال بعض كتاب الاخبار ❦ فاضطرب عند ذلك
مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمي عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر
السلطانية تطلق مدافعها تنبأ على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك
المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال نخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق
الحرس الفرار فنادى عند ذلك النقيب على المصريين بالزحف على مزار فانتصقوا بأسوارها
قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ
باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله وأخافه فرسم الى كبار عسكره
بأن لا يبدؤا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الامير ابراهيم اجماعهم سار بعسكره وعبر
الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر
السلطانية قد بلغت الى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان
وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على

مطالب
قدوم المسيو كاليه
منسوبة دولة
الفرنسيين الى مصر
ومكالة محمد علي
باشا في تقرير قاعدة
للصلح

الاربعين ألفا عدا أصحاب الخدم * قال بعض كتاب الاخبار وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها بنقصها شئ من الصفات العسكرية كالدرية على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهمة لاسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقها من الاغرار الصنائع الذين لا اخلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك في قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة في كل لحظة تمر في النهار وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الامير ابراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم الا أن تكملوا هذه الاعمال باكمل حسن الختام واعلموا أنكم ان تنالوا ذلك الا يبذل المهج فبكم اعزاز الوطن وبعونكم حياته وخير لنا أن نوت الحياة الوطن من أن نحيا لذل وشقاقه فآله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير * فصاح عند ذلك بجماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة الا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر في كبس المصريين ليهلا وأخذهم على غرة فرسم الى اسمعيل باشا أحد كبار العسكر بالاسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى اذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصاوم ناراً حامية قال الزاوي فلم يشعر المصريون الا ونيان السترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيمي الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسي فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يترقون كل عرق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا الى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الامير ابراهيم يتفرس في مواقف العساكر السلطانية فاذا هم على مرتفع من الارض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية في ذلك اليوم حرجة للغاية معرضة لنيان مدافع العدو فكبر عليه هذا الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الاجانب ما أدهشه وأخافه فرسم الى سليمان باشا الفرنسي بترتيب الصفوف واحكام مواقع الوقوف ونادى في العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شياً من العصيان فمجل بسوقهم الى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الارض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكسوا بالمصريين تنكيلا حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة في عرض الارض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فنفرقت الجنود التركية أشتاتاً وفر حافظ باشا الى مدينة مرعش فاستولى المصريون على مافي معسكر السترك من متاع وكرراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفاً من الاتراك ووجد الامير ابراهيم في خيمة

مطلب
هزيمة المصريين
ليلاهم انتصارهم
على العدو

حافظ باشا سائر الكتب التي كانت تأتية من السلطان بالاسراع في الزحف والقتال وقطع شافة المصريين

وكان السلطان قد رسم أيضا الى أمير سفن حرب الدولة بالاقلاع الى مدينة الاسكندرية وذلك حصونها ومعاقها بقنابل المدافع وعدم اليراح من مياهها حتى يقبض على محمد علي باشا ويأثر به الى دار السلطنة مكبلا بالاغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرسها عند كريد أياما كثيرة ترددت في خلالها الرسل بين أميرها ومحمد علي باشا قيل نخذه محمد علي باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشواني بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرسها بينا الاسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والاجناد الى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا الا أياما قلائل حتى فرقوهم في البلاد شرقا وغربا وأنزلوا أمير تلك السفن في بيت محرم بك ثم نقلوه بعد أيام الى دار مخصوصة وحرث عليه الارزاق في كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة قال بعض الكتاب وكانت حجة أمير تلك السفن في التسليم على هذه الصورة تأخيرهما كي العسكر وقطع بعض المرتبات * ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيين الذي تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد علي باشا الى حلب فلاقاه واليا وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترتيب فسار مجتدا يريد لقاء الأمير ابراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير ابراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والتظفر رسم الى معجون بك بأن يسير عن معه من العربان الى غزنة ويقابل من بها ويفتحها والي عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو في طائفة أخرى من العساكر والاجناد في سادس عشر ربيع الثاني يريد عنتاب لاختضاعها وارجاعها الى الطاعة ونزل عليها بجياله ورجله فخرج اليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت ثارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه الى معسكر الأمير ابراهيم فأحسن الأمير لقائه وبالغ في اكرامه فبات ليلة وعند الصباح سلم الى الأمير ابراهيم كتاب أبيه ثم تقدم اليه في الكف عن القتال وترك الامر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير ابراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فألح عليه المسيو كاليه رجلا يهون عليه الامر وهو لا يزداد الاعنادا ونفورا واختلف الكتاب في الذي دفع بالامير ابراهيم الى عدم الاذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فن قائل ان ذلك كان بايعاز من أبيه على يد ساهي بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير ابراهيم على الزحف والقتال ونادى في عسكره بمحضرة المسيو كاليه بالسير وعبر جبال الطورس واصلأ نار الحرب ما استطاعوا اليها سبيلا فمناعه المسيو كاليه وما زال به حتى رسم

مطلب

استمالة محمد علي باشا
الى أمير سفن حرب
الدولة وأخذ سائر
السفن غنمية بلا
حرب ولا قتال

الى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه منع ذلك لم ينكف عن تدويخ
 وارجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة
 السلطان وسير الى أبيه كتابا يقول * جاءني أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار
 ديوان السياسة الافرنسية والذي أحيطكم به علما أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر
 السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على ارجاعها
 وسرت بجيوشنا المظفرة الى مواقع العدو فوافاني أمركم الكريم بالنكف عن القتال وترك
 الحرر والزلا الى حين ولما كان الصعيد الذي قد تزلناه ليس فيه من المؤن والزاد
 ما يكف حاجة العسكر ولا من الكلا ما يفي بمؤنة دواب الجبل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا
 فيه قد خطرنا علينا من لقاء العدو وكان أقرب بلاد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء
 فقد نا اليه فشاهدنا من تأهب العدو واستعداده لصدنا واصلاطنا نارا حامية ما اضطرنا
 الى السير نحو عنتاب ومرعش وهذا مادفع بنا الى التقدم الى الامام والسلام ورجة
 الله وبره * وأما الميوقوت رسول دولة الفرنسيس الى دار السلطنة فانه لم يفلح في رسالته
 ولم ينجح من اقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أيا ما لم ينسل
 فيها با فاستعان بالورد بونسني سفير الانجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان
 دولة نيسيس بالحزب مع محمد علي باشا والمعل على أرغام السلطان وفعل كل ما يحيط
 به لئلا يذهب بكرامتها

و... الضيق بالامير ابراهيم وعسكره وأحشدت بهم العساكر السلطانية من كل صوب
 وحشد نخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الاطراف
 بغير تخطيط مؤخره جنده فساق بعسكره يريد التغلغل في قلب الاناضول واخترق جبال
 الطورس واحتل اقليم أطنه وماوراءه الى مدينة قونية ووردت الاخبار بذلك الى السلطان
 فكان يسقط في يده وكبر كيدته ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة في عسكر لرد الامير
 ابراهيم فسار رشيد باشا في عسكره يريد اللحاق بقونية والمدافع عنها وجاء الخبر بذلك
 الى الامير ابراهيم فجمع جيشا عظيما من الشام والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية
 لاسلافة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القناصل
 واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن الا فترة بين الزوال والغروب
 حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيرا في يدي
 الامير ابراهيم وكذلك أخرج جماعة كثيرة من مقدمي العساكر التركية فكانت هذه الواقعة من
 أنعم الوقائع وأشدّها هولاً على السلطان * واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ يومئذ في
 كيفية سقوط رشيد باشا في قبضة الامير ابراهيم فمن قائل ان ذلك كان باتفاق بينهما
 ومن قائل ببل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية في ذلك اليوم وحصانة موقفهم
 ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع في

مطلب
 وقوع رشيد باشا
 صدر الدولة أسيرا
 في يد الامير ابراهيم
 وعزوب شمل
 عسكره وما كان
 من وراء ذلك

النفوس وسار الامير ابراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه ارسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد ابراهيم وايقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبجوا هذا الرأي وقالوا لا تحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر الى محمد علي باشا فجعل يببالغ في الشكوى ويعظم في البسوى ويكتب الدول في هذا الامر وظهر على أثر ذلك حركة في دار السلطنة وتكلم الناس كثيرا فخاف السلطان شر العاقبة وعاد الى مخبرة محمد علي باشا في عقد الصلح وسير في الحال خليل باشا قبطان باشا قبلا الى مصر وفوض اليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب الى سفير الروس يعلمه بان الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على ارجاع الجنرال مورافيف الروسي عن عزم الذهاب الى ديار مصر والالتقاء بمحمد علي باشا فلم يفلح ودخل مورافيف الى الاسكندرية كاشارة قيصر الروس فعد السلطان حينئذ الى ملاطفة دولة الفرنسيين واستمالها الى التحرير أولا الى محمد علي باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التي قد تعهد بالمحافظة عليها ونانيا الى الامير ابراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغفل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الامير ابراهيم الى ذلك الحين لم يكتم عن الناس خطة تسيير جنوده ولم يخف عن الملا أنه سائر نحو قوطاويه وبروسا ومنها الى اسقودار ليجمع هناك مجلسا من كبار علماء الاسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيين ورجوعه الى طلب معاونة دولة الروس فسير في الحال كتبه الى القيصير بأن يمدد عند الطلب بعشرين ألفا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيين بذلك فكتب الى الامير ابراهيم في الحال يقول اياك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان الى محمد علي باشا فكتب الى ولده يقول اذا أتاك كتابي وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرك لك قدما حتى يأتيك آخر * وكان الامير ابراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة قوطاويه وأرسل محمد علي باشا الى السلطان والى دولة الفرنسيين يخبرهما بخبره ما كتبه الى ولده الامير ابراهيم ويقول للباب العالي ان الحاصل لولدي على الانحذار الى قوطاويه انما هي حاجته الى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التي لم توجد في قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذي كان ذهب للاتقاء بمحمد علي باشا الى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالي أن محمد علي باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبيد لمولاه وقد عقد النية عقد اوثيقا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بنانا * قال بعض الكتاب ولم يستعمل الجنرال مورافيف في كلامه مع محمد علي باشا شيئا من الشدة التي أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيئا من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسالته

ولكنه كان اذا اجتمع به لطفه وهون عليه أمر الصلح وحبيبه اليه ويقول له ان مولاي القيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبدأ ونسالة المقصد ومكارم الاخلاق فلا تكن سببا في زلزلة موقف سلطانك ولا تجعل على فساد ملكه ولا تحدث في الاسلام حدثا قل أن تحمد عاقبته وانق الله في نفسك وولدك وعسكرك * ووصلت كتب محمد علي باشا الى واده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الامر على ما تشاؤه الافكار * وما شاعت الانباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله الوساطة بين محمد علي باشا وسلطانة وكفه عن اراقة الدماء هدرًا وكأنه لم يعلم بخبر ما وقع الاتفاق عليه بين محمد علي باشا والجنرال مورافوف مندوب الروس فأرسل القنصل الى محمد علي باشا خطابا في المعنى محشوا بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد علي باشا اليه ولم يفلح القنصل في شئ البتة

مطلب
قدوم مندوب
الباب العالي الى
مصر بفرمان العفو
عن محمد علي باشا
وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالي الى مصر يعمل الفرمان السلطاني بالعفو عن محمد علي باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التي أعطيت الى محمد علي باشا وهي ولاية عكا وطرابلس الشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد علي باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأتزه منزلا رحبا وقدم له التقدّم من التحف والاعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يحجبه ما جاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشمامات ولا لولاية آتونه فكلم خليل باشا في ذلك وطال بينهما الاخذ والرد أياما حتى تم الاتفاق على فوال محمد علي باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه الى دار السلطنة * قال بعض الكتاب ومع ذلك فقد كان السلطان في ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونته دولة الروس ولم ينكف عن مكالمته وكميلها في ذلك من حين الى حين * قال وكان الحاصل له على ذلك كثرة ارجاف الامير ابراهيم وارساله البعث الى بلاد آسية لئلا يساءل الناس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يرض الا القليل من الايام حتى عاد الصدر الاعظم وكتب الى الدول الكبرى يقول ان أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق في امكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على اخراج الامير ابراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة في الاقرب العاجل واتفق أن وصل في عشية ذلك اليوم الى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيين وقد علم بما سير به الصدر الاعظم من الكتب الى الدول فاجتمع به وخطبه في الامر طويلا وحجب اليه أن يكتب الى دولة الروس بعدم الحاجة الى ارسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمرية خليل باشا عن طاعة محمد علي باشا ورجوعه الى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الاعظم وعدا جميلا وقال لا بد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الامر عليه وبينما كان مندوب الفرنسيين يراقب ما سيكون من وراء اجتماع المجلس اذ وصلت العمارة الروسية تخمر في عباب البصار وألفت مرساها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار

مطلب
حصول العمارة الروسية
الى البوسفور مددا
الى السلطان

من الطراز الاول وكانت بعض سفن الحرب الافرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيين فلما رأى ربانها تلك السفن والشواني الروسية هاله أمر حضورها وسير في الحال الى صدر الدولة يقول نظرا للانقلاب السريع الذي طرأ في هذه الأونة وتغيير الاحوال عن سابق مجراها صار يعز على البقاء بما مهي من السفن ان لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أنت وأكثرت رساله من التردد على الباب العالي في طلب الجواب فكتب اليه السلطان يقول **كأبي اليك أعزك الله** وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتي تشخص أمام عيني ذلك الود القديم الذي يربط بلادى بمملكة الفرنسيين وتدفع بي الى طلب المعونة والممدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيين الفخيمة فان أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيين بأن يكون عقد رباط الصلح بيني وبين متبوعي محمد على على قاعدة الشروط التي بلغها اليه خليل باشا عجلت بارجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام * فأجابه ربان السفن الافرنسية الى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ الا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيين رسولين على عجل أحدهما الى محمد على باشا ليفهمه على ارسال كتبه الى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثانيهما الى الامير ابراهيم ليلزمه بسرعة العودة الى مصر والكف عن كل عدا مع ولاية وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيين أيضا الى قنصلهم بمصر يقول أن شدد على محمد باشا بالانحياز وقبول شروط الصلح التي وصلت اليه على يد خليل باشا فان أطاع وأذعن فيها والا فلا مندوحة عن اكرامه

قال كبير السياسة المذكور في كتاب بعث به الى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل * ومن تصفح أدوار هذه الأزمة * يعنى بها الازمة القائمة ما بين محمد على باشا وسلطانه * مع عدم التميز حكم بنزاهة دولة الفرنسيين عن الغرض وطهارة نيتها من أدران التشبيع وتحقيق نبالة مقصدها في سائر أدوار هذه الازمة التي اختلط فيها الخابل بالنابل وكانت تذهب بالشرق الادنى الى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيين قد أخذت على عهدتها اصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق في وسعها العدول ولا ترك الامور هدفا للحوادث ولا غرضا للغايات الطامحة ولو أطوح بها الامر الى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فانها لانوى عنان الجهد ولا تنفهر أمام هاتيك العواقب التي قد حسبت لها ألف حساب اه

ورسم السلطان بعد ذلك الى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما يمينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيين على ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه فتعاقدوا فأتى سؤال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالي تداخل دولة الفرنسيين بواسطة سفيرها البارون روفارن في أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالي قبول محمد على باشا

مطلب
تعاقد الحاج محمد
عاكف باشا
باشكاتب الماين
مع سفير الفرنسيين
على كيفية ارجاع
محمد على باشا الى
طاعة سلطانه

بالامتيازات التي منحها لها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامة وبشرط رجوع محمد على باشا الى الطاعة والاخلاص لمتبوعه وان هذه الامتيازات لا تعدى ولايته على عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيس بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالي بأن يقرر ويعلن عدوله عن قبول أو طلب كل مسدد أجنبي أو مساعدة مادية يراد بها الاضرار بمحمد على باشا * وشاع الخبر بما رفع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيس وعزم دولة الفرنسيس على قهر محمد على باشا وارغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس في الامر كثيرا وكتب سفير الانجليز الى الامير ابراهيم يقول * كفى اليك وعندي العلم اليقين بما رضىه سلطانك من تقرير قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطبخانة السلطانية فامتدلاً قلى فرحا وتحققت آمالى بأنك ستكف عن تلك الحرب المشؤمة التي كادت تدك معالم المدنية وأنتك ترفع سيفك ان شاء الله عن هامة تلك الارزاء التي قد تولاهما الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أهلك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير اليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوچى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب اليك بذلك فى الاقرب العاجل وقد ورد الامر من لدن امبراطور الفرنسيس الى سفيره لدى الباب العالي بالمسير مع رشيد بك الى الاسكندرية ليشرح لايك وخامة العاقبة ان هو أغضب دولة الفرنسيس برفض الصلح على قاعدة ما فى فرمان أما دولة الانجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لايك ولا أشك فى أنه لا يجهل التأسير الذى يحصل للحكومة الانجليزية ان هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التي تكون من وراء هذا الرفض وانى لا لمخالط أيها الامير عن بأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام

وطير السلطان الخبر الى الاتفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الامير ابراهيم وتوجيه ماقد وجهه اليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانا يقول فيه * حيث ان محمد على باشا وولده قد عادا الى طاعة سلطانهما وأبديا من الاخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المسأل ان شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت ارادتنا السلطانية ومراجنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أجددهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسننا اليه أيضا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع امارة الحج ونسابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنيعة جده وقارنا التماسه بالاحسان عليه أيضا بولاية أظنة وملحقاتها وعهدنا اليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل الى اسداء المعروف والاحسان نعلن أصحاب الكلمة تولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الاناضول أن يفضوا الطرف عما

مطلب

صدر فرمان
السلطان بالعفو
عن محمد على باشا
وولده وتوجيه
ماقد وجهه اليهما
من الرتب وألقاب
الشرف

وقع من سكان تلك الممالك من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لافي روحه ولا في ماله ولا في عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته ارادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخافائية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكني الخواطر قريري النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات الى ما فيه خيرهم واصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكي يكون في علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحين واسلام ماشعلهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الارادة متوجبة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كي يبسط الكل أكف الضراعة والابتغال الى المولى ذي الجلال والاكرام بدوام دولتنا وتأييد سدتنا واعزاز شوكتنا عنه وكرمه اه

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الامير ابراهيم الى الباب العالي عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان الى أن قال ويعلم مولاي أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد مابرج على ما يعطيه فيه مولاه من الطاعة والولاء لستكم العلية لاسما وقد قلدني المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولاني تفضلا منسه ونكرما حكم ولاية أطنسه وجباية خراجها فلم يبق في النفس بعد ذلك شيء والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتغال بأن يديم أيام ملككم غرة في جبين الدهر وليعلم مولاي أني قد وطئت النفس على خدمة الاعتاب الشريفة بما في الطاعة والله خير مسئول يوفقي الى طاعتكم عنه وكرمه انه السميع المجيب ع قال بعض الكتاب ومع هذا فانه لم يمض القليل من الايام حتى جاءت الاخبار الى دار السلطنة ترى بزحف الامير ابراهيم بجيوشه وآلات حربه الى قلب آسية وانه ترك قونية وهو على قدم المسير الى بروصاء فاندش السلطان من سماع هذه الانباء وظنها مبالغة ووقية فلم تكن الا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك الى الباب العالي فسير السلطان في الحال الى سفير الفرنسيين من يكلمه في أمر ذلك فاندش السفير وكتب الى الامير ابراهيم بنقج مافعله ويحذره شر العاقبة وينعسه من التغفل في داخلية البلاد فرد عليه الامير ابراهيم يقول ان الحاجة الى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شيء من ذلك البتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشي الامراض في الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير الى بروصاء وانا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لامير المؤمنين وواقفين عند حد مرسومه لنا محمد علي باشا فلا تصغوا الى وشاية الواشين ولا تلتفتوا الى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فان العدو مابرج يدس السم في الدسم ويتمنى لو أن الدهر يري كياننا بالعدم فانه الله والسلام

واشتدت في هذه الاثناء على السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت

مطلب
اشتداد علة
السلطان وما كان
من وراثة ذلك

أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس في أسباب علته فمن قائل انها ذات الجنب ومن قائل انها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل انه السل وكانت أخباره كل يوم في شأن والباب العالي يكثر من نشر بشارت سلامته وعافيته والناس لا يصدقون ذلك فأنعقد مجلس في السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيابك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله اذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والده السلطان وولى عهده يغدون ويروحون الى مقر السلطان وبعد أخذ ورد بين أصحاب المجلس وقّع الاتفاق على أن يكتبوا الى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الامير ابراهيم بايقاف رضى الحرب حتى تأتيمها الاخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط في يده وطارت الاخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد الاطباء في عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الاول وقيل سادس عشر به سنة أربع وخسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيدا في مخدعه فكانت سلطنته زهاء احدى وثلاثين سنة وعمره أربعاً وخسين سنة على المشهور ❦ قال بعض الكتاب ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكا مهيبا مقداما على الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالامور صبوراً على الشدائد محباً للرعية ميالاً الى العارية عادلاً بعيداً عن العسف والجور ولكنه كان قليل الخلق حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوباً على أمره بحكم الايام فقد خرج في أيامه كثير من الايلات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والاصهبانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيين وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرد الجهد فى اصلاح الامور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق الى ذلك لسوء حظه ونكد ظالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستاً وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الاجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لأسباب نفوذا عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريركية الى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهباً بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريركية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة الى الازبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقراً لبطاركة المتأصلين الى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهباً بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

الفصل الثاني والعشرون

(في ساطنة السلطان عبد الحميد خان بن السلطان محمود خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبد الحميد ببيع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الاول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاهما والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والامور في خبال ونكال ودول أوروبا في اقدام واجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكشف عن طلب العمل بمعاهدة خوفناك اسكله سى التي تعاقدها فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه الى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية الى محمد علي باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية في الحرب القائسة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيين والانجليز تسكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان في أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيين والانجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس الى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر الى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتباحوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد علي باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والانجليز برد جميع ما فتحه محمد علي باشا من البلاد الشامية الى الدولة وأن لا يعطى اليه الا ديار مصر فقط فعارضهما في ذلك سفيرا الفرنسيين والروس وقالوا لا بل يعطى اليه ملك مصر وايلات الشام الاربع وطال الجدل بينهم وما زالوا في أخذ ورد حتى وافق سفير البروسيا سفير النمسا والانجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفير الفرنسيين والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى الى محمد علي باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما فتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولي اما في عاصمة النمسا واما في عاصمة الانجليز لاتمام ما بقي متعلقا بمصر فلم تصادف اشارته قبولاً وعارضه سفيرا الفرنسيين والانجليز وكذلك سفير الروس وقال ان مولاي القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولي حتى تجدد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسكله سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم ايلات الدولة اذا لم ينكشف الامير ابراهيم عن القتال والتغلغل في قلب بلاد الدولة فهال سفير الفرنسيين والانجليز هذا الطلب وخافوا ثم عاقبته وطلبوا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الانجليزية والفرنسوية العبور من بوزاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الانجليز الى القسطنطينية احدى مراكب حربيها

المسماة ستويقورد للخبرة مع السلطان في ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء ما فعله
سفير الانجليز وتجرد سفير الروس الى المقاومة والاصرار على ما طلبه وسير الى مصدر الدولة
يقول ان أباح السلطان لمراكب الانجليز والفرنسيين العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة
بين حكومتى ودار السلطنة وخربت من القسطنطينية بلا مهل * وكانت مراكب الانجليز
والفرنسيين على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد اليها من الاخبار * وأرسلت دولة النمسا
الى عاصمتى الفرنسيين والانجليز تقول ان ما فعله سفيرها من الشدة والغت لا يكون من
ورائه الا فصح عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهي تصمم على الانسحاب
من دائرة ذلك التحالف اذا بقي الحال هكذا وتكون مطلقا السيدين فيما تنوى فعله *
وكان السلطان ميالا الى اجابة طلب مبعوث الانجليز فكان خسرو باشا يحجب اليه ذلك
فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشي السلطان العاقبة فلم يجب
مطالب مبعوث الانجليز وأعرض الى الصدر الاعظم بان يخبر الدولتين في أمر ابعاد مراكبهما
عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعا وتفرقت كلمتهم وذهب كل الى مذهبه وتعللت الخبرات
أياما كثيرة

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سبرت دولة الانجليز
رسولا من قبلها اسمه اللورد بونسبى الى دار السلطنة العثمانية يقول للسلطان ان دولة
الانجليز متأهبة لان تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية
وترغبه الى الطاعة والاخلاد الى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب
الانجليزية الى بوغاز القسطنطينية لدفع الروس اذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة
الفرنسيين واستعظمته وأوعزت الى أمير مراكب حربيها الراسية في بحر الروم بان لا يعاون
مراكب الانجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها في أى عمل كان وأن يكون دائما
على قدم التاهب والاستعداد وطهروا الاخبار بذلك الى الاتفاق فعم الخوف وظن الناس
أن الحرب بين الدولتين الانجليزية والفرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت
بقية الدول حذرهما وكتبت دولة النمسا تقول لانها تأبى التدخل في هذه المسألة
بعد أن خابت سعيها في عقد المؤتمر الذى أشارت به وجا هرت دولة الفرنسيين بميلها الى الذب
عن محمد على باشا ونعصيده في جميع مطالبه وقالت لابد من اعطائه ولايتى مصر والشام
له ولذريته من بعده واقلبى أطنه وطرسوس له مدة حياته لخالفتهما في ذلك دولة الانجليز
وقالت لا يعطى اليه الا ولاية مصر فقط وأصررت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيين
قرما عنيدا عادت الى مسايرتها وأشارت باعطائه أيضا النصف القبلى من بلاد الشام مدة
حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلية في ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها
ذلك وألحت بقبول مطالبها اذ المصلحة فيها للطرفين وطال الاخذ والرد بين الدولتين أياما
فكان لا ينكشف فيها رسول الانجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى الى الاخذ بمشورته

مطلب

عزم دولة الانجليز
على اكراه محمد على
باشا على رد جميع
ما أخذ واشتداد
الخلاف بينهما وبين
دولة الفرنسيين
بسبب ذلك

حتى ظفرو فاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تفولان لهما ما أشار به رسول الانجليز ونعقدان مطالبه في السر والجهر

وكانت دولة الروس الى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتي الانجليز والفرنسيين واختلاف الغاية سيرت الى عاصمة الانجليز رسولا اسمه البارون دي برونو يقول ان دولة الروس تتوكل للانجليز حربة العمل في مصر ولا تأنف من مساعدتهم على اخضاع محمد علي باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش في مدينة سينوب الواقعة على شاطئ البحر الاسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية اذا زحف عليها الامير ابراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز يومئذ الى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بانفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة واصحاب الحل والعقد له واستنكارهم اياه ما أقعده فعاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال الى الموارد وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر في أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سي من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فاذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقده معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز الى رسوله بمبارحة عاصمة الانجليز فرحل عنها وتطلعت الخبارة وأعرضت عنها جميع الدول * وعلم محمد علي باشا بما تنويه له دولة الانجليز من سوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وارجاعه الى طاعة السلاطان ومساعدة جميع الدول لها الا دولة الفرنسيين وان لا قدرة لدولة الفرنسيين على الدفاع عنه ومعاذاة جميع هاته الدول فجد الى التآهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز الى سليمان باشا الفرنسي بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهدا استطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التي كانت في نجد والحجاز وأهل شأن تلك الاصقاع وأطلق سراح محمد بن عون شريف مكة وقد كان محجورا عليه بالقاهرة فسار الى مكة وجعل يتصرف في أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ الى ولده الامير ابراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الامير ابراهيم في ذلك وبث العيون والارصاد وما سب أهل الشام على الذرة والبره فانكمشوا وانكفوا وأخذ كبارهم الى الطاعة خوفا من جبروته وبقي الحال هكذا الى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية واذا بدولة النمسا قد عادت الى الالتحاق بطلب عقد المؤتمر في مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لاغراض الدول وسببا لوقوع الخصام بينهم فأجابتها الدول حينئذ الى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الانجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيين فلم يتفقوا على

مطلب
تآهب محمد علي باشا
للقنال بعد أن علم
بتألب الدول عليه
مع السلطان ما عدا
دولة الفرنسيين

قيام تيميرس كبير
سياسة الفرنسيين
لنصرة محمد علي باشا
وتعاقد الدول على
العمل ضد محمد علي
باشا

حال من الاحوال وأصرت كل من دولتي الفرنسيين والانجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخبرة ووقفت عند حدها الذي كانت عليه * واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولي الموسيو تيميرس رئاسة الحكومة الفرنسية وكان يكره أن تحمل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقر به المنصب حتى سير الى السلطان من يعلمه بوجوب ترك ايلات الشام ومصر الى محمد علي باشا وذريته من بعده ويتوعد به قيام دولة الفرنسيين للذب والدفاع عن محمد علي باشا ان أبي عليه ذلك وسير أيضا الى محمد علي باشا بعينه بالاماني الطويلة ويحضره على نية مطالب دولة الانجليز وعدم الالتفات اليها وان يشار على الحد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وانه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيين اذا هم الانجليز باكرهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد علي باشا قيل ولكنه كان يحسب ما وراء تأب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوسوس شديد الهواجس بعيد النظر في العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز بما فعله تيميرس صاحب سياسة الفرنسيين تجرد الى المقاومة وعمد الى اغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد اغارات الامير ابراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وارجاعه الى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد أولا - الزام محمد علي باشا بارجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلي من ولاية الشام دون مدينة عكا

ثانيا - محاصرة السفن الانجليزية والسفن النمساوية للمواني الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الامير ابراهيم والخروج على العساكر المصرية لاشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين

ثالثا - دخول سفن روسية وانجليزية ونمساوية الى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة اذا اتصلت بها العساكر المصرية

رابعا - عدم جواز عبور سفن احدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية مادام الامن مستقبا في المدينة

خامسا - وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد في مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق في مدينة لندن

وأضافوا الى هذا العقد صكا موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على اعطائه الى محمد علي باشا من الحقوق * قال بعض كتاب الاخبار * وعز على كبير سياسة الانجليز الصبر فعد الى دس الدسائس واثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز الى سفيرهم بدار السلطنة أن يجعل في ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) الى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياما حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الامير ابراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وجل المئون للجند فركب الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسيون والامير عباس

على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم إلى الطاعة صاعرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفؤا نار الثورة وبالف ساليان باشا في تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشجنها بالموث والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الأعداء برا وبحرا وأرسل إلى محمد علي باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الانجليز بذلك وأوعز إلى الأمير نايف من أمراء سفن الحرب الانجليزية بالوقوف بسفنه في طريق الشام والاسكندرية واحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسية بذلك فسير في الحال مركبا إلى مدينة بيروت أنخب فائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبا إلى محمد علي باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الانجليزية مع نايف إلى الاسكندرية فلم تعثر في طريقها على واحدة من السفن المصرية.

ولما كان خامس عشر جادى الاولى سنة ست وخسين ومائتين والف هجرية تم توقيع الاحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يرض عليها شهر حتى أبلغها فواصل الدول المتعاهدة إلى محمد علي باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من اعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم ترة إلى تلكه السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قبل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الاجل المضروب فلم يجب الابالسلب والامتناع وعدم التسليم في شئ مما تطلبه الاحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضا في أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشئ سوى ولاية مصر فكبر غمظه وراجعهم في الكلام فقالوا لا سبيل إلى غير ذلك وقد أمهلنا لك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الاخبار بذلك إلى دار السلطنة ولما ضربوا له الاجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس في دار شيخ الاسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا في امتناع محمد علي باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخاعه وقرئت هذه الفتوى في سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى إلى محمد علي باشا فأرسل إلى السلطان بفتح ما أفتى به شيخ الاسلام ويقول أما ولاية مصر فهي من حقوق وأولادى الوراثية وأما الشام فلا أنخل عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الاموال

مطلب

اطلاق سفن
الانجليز القنايل على
بيروت وسائر
السواحل الشاميه
وما كان من وراء
ذلك

وجاء الامر إلى نايف أمير سفن الحرب الانجليزية بالتأهب لاطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشاميه وأخذها من أيدي المصريين فسار بسفنه قاصدا بيروت وأخذ في طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية وعلق به أيضا الاميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء

سنة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الانجليزية ومقدّمها الامير واكر وأرسي نابيير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل الى سليمان باشا الفرنسيّ مقدّم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلّي عن المدينة والجلاء عنها وسير الى من يعكأ يخبرهم بذلك أيضا وطير الاخبار الى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد علي باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الامير ابراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد في تحصين القلاع والحصون ويبعث البعث الى بقية الثغور للحض على اليقظة والالتفات وأرسل محمد علي باشا الى الموسيوتيرس كبير السياسة الفرنسيّة يستنصه الى الوساطة في الأمر والرجوع بالاحزاب الى الدين وترك الشدة فتجرد الموسيوتيرس الى ذلك وبالغ في الارهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش وبعد المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد علي باشا * قال بعض كتاب الاخبار واكنه رأى أنه في حاجة الى شيء من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكدّ يسقط في أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيّين فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعالة ونادوا بالويسل والنور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث عرض محمد علي باشا على مقاومة الاحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلّى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزّون ويسخرون به ويصيرون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأزّل نفسه عن منصب الرئاسة واعتزل موقف هذه السياسة في سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين والف هجرية وجاء الأمر الى أمير سفن الحرب الفرنسيّة التي كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود الى جزائر اليونان ثم الى بلاد الفرنسيّين فأقلعت من فورها وتركّت الشام ومصر هدفا لرمي قنابل سفن الاحزاب فعند ذلك لدولة الفرنسيّين من الغلطات المسوّدة لوجه تاريخ حسناتها في ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عنه ظهور الثورة العربية كما سيتلى عليك في محله ان شاء الله

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدّمت سفن نابيير الانجليزيّ نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراست الرمي لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير الى سليمان باشا الفرنسيّ يقول له أن تخلّ عن الحصون والتجّ بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل اليه سليمان يقول لن تدخلوها الا خرابا بلقعا ولم تسلّم لكم فيها وفيها رجل وكان قد سير الى الامير ابراهيم في بعلبك أن يتحدّر الى بيروت بمن معه من العساكر والاجناد فحضر ونصب خيامه فظاهر بيروت وبانوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت في القتال شدة بالغة حتى أحرقت

المدينة ودكت أسوارها وتقدم الارشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والاجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء اشارة الى أنه بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذه شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المروعة واخوان الرحمة وتمكن نايمير من تزييل طائفة من العساكر العثمانية والانجليزية الى بيروت وسير بعض السفن الى عكا وبقية النغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حاميه * وانقض أهل الشام ولبنان وخان الامير بشير الشهابي العهد واليمين الذي حلفه للامير ابراهيم فاشتدت نار الفتنة وعتت جميع البلاد وصار المصريون بين منتطح عزين وتساقطت عليهم نيران الاعداء من البر والبحر فانجلى من بقي منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم في أسوأ حال لامئون ولا زاد ولا دواب للحمل الا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الاشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموت بالحيات الخبيثة وما زالوا يجمدون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفهم حتى وصلوا الى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام وتركوا تلك الديار التي تربط أديمها بدماء اخوانهم حينما من الدهر * وسار نايمير بست من سفينه الكبار الى الاسكندرية ورسا أمام مقر محمد على باشا برأس الثين وأرسل اليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التي تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نايمير في القول وشدد في الطلب وتهدهه بحرق الاسكندرية وبخلعه من منصب الولاية على مصر أيضا ان هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلا ضيقا وأرسل يقول ان مضي الاجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الامر على محمد على باشا وأحزنه جدا وتردت الرسائل بينه وبين محمد على باشا عسى أن يصلوا الى أمر فيه المصلحة فلم يفعلوا وأبى نايمير الا ما أراد فأجابه محمد على باشا الى ما طلب فأقلع نايمير بسفينه راجعا الى دار السلطنة وعاد محمد على باشا الى الشكوى فرفع أمره الى دولتي الفرنسيين والروس وشكاهما فعله نايمير فعمدت الدولتان الى ابطال ذلك العقد وعملنا جهد الاستطاعة على احباط مساعي دولة الانجليز نظرا لتفردنا بالعمل ونجاوزها حد الوساطة وشددنا في ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيين على ما فيه الاضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعمد الى اللطفة والمجاملة وأنفذ الى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر في عقبه والاسلطان أن يختار منهم الالبق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولا ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق

مطلب
وصول فرمان
السلطان الى محمد
على باشا بجعل ولاية
الديار المصرية في عقبه
وتحديد حقوق الولاية
وما جاء بعده من
الفرمانات

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك الى مصر فأبلغته قناصل الدول الى باغوص بك ناظر الخارجية يومئذ ونصه

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاقتنا الشاهانية والمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسئلة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الخبرة والحكمة فى ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظرا لتعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلا بد أنكم تقدرون احساساتنا اليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزايا التى التزمتم بها الى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود الميمنة بالطريقة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الاعظم وقد منحناكم فضلا عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية

عند ما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة فى حق أولاده أيضا الى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريبتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالارث من بعدكم وجب عليه الحضور الى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل وال منه لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهايونى الصادر عن كل حاله وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أولئك التى سيجرى العمل بها فى جميع ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابه يجب العمل بها جميعها فى ولاية مصر أيضا وتحصيل جميع الاموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى ولكي لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للضرار والضرائب الغير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزينة بابنا العالى العاصمة ربع الايرادات الناتجة من جميع الرسوم الجركية ومن بقية الضرائب التى تحصل فى سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شئ البتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والادارة والعسكرية ونفقات الوالى وأمان الغلال التى تقوم مصر بتسييرها فى كل عام الى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أدائه على هذا الوجه مدة خمس سنوات ابتدى من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصح تعديل ذلك بطريقة أخرى فى مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة الابلالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التى تطرأ عليها

ولما كان من واجب بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات فى كل عام وكيفية
تحصيلها لاسيما تحصيل العشورى منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول الى معرفة هذا
كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال ايلة مصر فينظر فى ذلك فيما
بعد وسيقرر ما يوافق ارادتنا السلطانية ونظرا لاهمية طريقة سلك النقود ووجوب تقرير
قاعدة ثابتة لهذا الامر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة
فقد اقتضت ارادتنا السلطانية أن تكون جميع النقود من الذهب والفضة التى يجوز لايلة
مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى الضرب بخانة السلطانية العامة سواء
كانت فى العيار أوفى الشكل ولا يكون لايلة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا
من الجند للحفاظ على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئا البتة
غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية
ايلاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزداد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى
فى خدمة الجندية بإيالتكم ما هو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم
الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى
ايلة مصر بحيث ينتخب من يكون فى الخدمة حالا بعد الذين أمضوا تلك المدة عشرين
ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والألفان الباقيان يرسلان الى الاستانة لاداء مدة
خدمتهم وحيث ان خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب
فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب
القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الانسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه
الاحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندي ممن ينتخبون حديثا ويرسل منهم
أربعمائة الى الاستانة فى أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد الى
بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواها ربما
يستلزم أن تكون أقنسة ملابس عسكريها غير أقنسة ملابس عسكرينا المنصور فلا بأس
بذلك انما يراعى جيدا أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود
المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرينا المظفر وكذلك ملابس الضابطان
وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن
تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان
البر والبحر الى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فارجع الامر فيه الى ارادتنا
الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشئ سفنا حربية الا بأذننا الخصوصى *
ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراة مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة
آنفا فاذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لا عمل له وبناء
على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريبتكم قدر ما جبلنا عليه

من الاحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتنعوا عن
أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا
السلطانية مع اخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها
لكم اهـ

وورد مع هذا فرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار الى
محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته الى السلطنة العثمانية فيولها السلطان لمن
يشاء ونصه ﷺ حيث قد تبتم على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطاني الصادر
اليكم ووافق ارادتنا الشاهانية توريث ذريبتكم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود
معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضا فضلا عن ولاية ديار مصر ايلات النوبة ودارفور وكردفان
وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير ثوارث فبناء على ما هو معهود
فيكم من الحكمة والاختيار وما أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الايلات
وترتيب جميع شؤنها بما ينطبق على عدالتنا ووافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب
السعادة لسائر الرعية وترسلوا في كل سنة الى بابنا العالى قائمة ببيان الإيرادات السنوية
جميعها

وحيث انه في غالب الاحيان يصير الهجوم من العساكر والاجناد على القرى
والبلدان بتلك الاصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والاناث
ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوفاتهم فهذه الافعال فضلا عما يترتب
على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار فانها من الامور المخالفة لشرعية الاسلامية
المطهرة وكذلك أيضا ما هو شائع ومستعمل في جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة
النساء فانه من أفظع الامور التي لا تنطبق على ارادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادئ
العدل والانسانية التي هي من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى
فعليكم مداركة جميع هذه الامور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها في
المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقي المأمورين الموجودين
الآن بديار مصر الا من وصلوا منها بما كبتا الحربية فاستسلموا وكم قلنا بفرماننا
السلطاني المرسل اليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البحرية والبحرية
لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من ارسال جداول باسماء من رتبتم من ضابطان العساكر
المصرى الى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا
ما اقتضته ارادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامية السلطانية فعليكم المبادرة في العمل
بمقتضاه اهـ

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف
والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب الى الدول يشكو

من جور هاته الشروط وشدة ما فيها من الجور والتضييق ويسألها الوساطة في تشديد شروط
الوراثة وجعلها لا كبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله ثدرا يحمل في كل عام
الى الخزينة السلطانية ومنحه حق اعطاء الرتب وألقاب الذرف للضباطان البريين والبحريين
الى رتبة الميرالاي فأجابته الدول الى ذلك وخبرت السلطان في الامر فأجابها الى ما طلبت
وسير الى محمد علي باشا الفرمان بذلك في عاشر جادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين
وألف هجرية ونصه

ان الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ما عطف عليها به الدول المتحالفة من النصائح
في هذه الواقعة أيضا ولذلك قد منحت محمد علي باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية
بشرط انقياده الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم في
مستقبل الايام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة * قد صار مسند ولاية
ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالارث من محمد علي باشا الى أولاده وأولاد أولاده
الذكور بكيفية أن يتولاه الارشد فالارشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا
هذا المسند من وال وقد تنازات سادتنا الملوكة عن أخذ ربيع ايرادات الولاية
المصرية مقابل تقشير مبلغ في كل سنة يحمل الى خزينتنا السلطانية خراجا وهذا المبلغ
سيقرر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة ايرادات البلاد كما وانه من
الآن فصاعدا صار من المرخص لمحمد علي باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضباطان
البرية والبحرية الى رتبة الاميرالاي فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالي
أماما يتعلق بإدارة الولاية الداخلية التي يجب أن تكون على مثال الادارة الجارية في
جميع مما لكنا المحروسة فهو وان كان محمد علي باشا لم يتكلم عنها بشئ حسبما يقتضيه
الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة التحالف ولكن
لكي لا يدع الباب العالي سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد علي
باشا في مستقبل الايام أمور مخالفة لوجه مهم من الالوجه المستندة على المعاهدة المحكي
عنها قد تقرر أن تطلب أولا الابضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كناية اه فقبلت
الدول المتحالفة هذا التصوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك الى محمد علي باشا ثم ورد
فرمان آخر في غرة جادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية
آلاف كيس خراجا يحمل في كل عام الى الخزينة السلطانية ووقفت المخبرات بين محمد علي
باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد

فلما كان رابع عشر شعبان سنة سبع وخمسين قدم الى القاهرة رسول من دار
السلطنة يحمل سيفاً ونيشاناً عالياً هدية من السلطان الى محمد علي باشا فأنزله في سراى شبرى
واحتفلوا لفاته احتفالاً شائفاً وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل في خامس عشر الشهر
اجتمع فيه جميع الامراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء قال بعض كتاب

مطلب
وصول سيف
نه من
د

الاخبار ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد علي باشا من فعال رجال دار
 السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الانجليز والبغض لهذه الدولة فقد علمت
 حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والجزائر وغيرها ولم تبق له الا ولاية مصر والنوبة
 وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الاصفاع ودقوا حواهدرا وانحصرت حدود مملكته
 وضافت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل
 الى الجزيرة السلطانية في كل عام وقل عدد عساكره الى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون الا زي
 العسكر السلطاني وقيدوا علاقته مع سائر الدول الاجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد
 عهود أو استئذنة شيء من المال الأبعد من دار السلطنة ولا يعطى شيئا من ألقاب الشرف
 ونياشين الاعتبار الا الى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاي للعسكريين نخسر
 بسعايتهم ما لم يكن له في حساب وقد كانوا يريدون اخضاعه وارجاعه الى طاعة سلطانه
 بغير عهد ولا شرط * قال وسعوا في حرمان ذريته من تولي منصب الولاية من بعده تشفيا
 وانتقاما لامور نقوها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع
 أرض أخرى متصلة بها يبلغ من المال وأنشؤا بها حصنا عظيما لعلمهم ما سيكون لتلك
 الارض من الاهمية في مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد علي باشا بالفتح الى خليج
 فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الاصفاع خاف الانجليز على مالهم من الاملاك الواقعة على
 شواطئ البحر الاحمر فكتبوا الى محمد علي باشا بان ينفذ الى عسكره النازلين على تلك الجزيرة
 بالانجليز عنها خوفا من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الانجليز النازلين
 بتلك الجزيرة فيكرهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد علي باشا عليهم ذلك فبقيت في
 حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها الى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار
 الحجازية بغير عهد ولا شرط * قال الراوي لهذه الحادثة ونقموا على محمد علي باشا
 أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون الى فعاله بعين
 المقت والحسد ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينكفوا عنه حتى أذلوه وأعدوه عن كل عمل
 فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية باصلاح شؤون مملكته وترتيب أمورها
 على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة
 وأظهر له غاية الاخلاص والولاء وسير ولده الامير محمد سعيد الى دار السلطنة ليرفع اليه
 فروض الاخلاص فنال الامير محمد من السلطان غاية الالتفات وحسن الوفاة فلما استأذنه
 بالرجوع الى مصر أذن له وأهداه كنسيرا من الهدايا والتحف النفيسة والتعالي الثمينة
 وأحسن الى من كانوا معه من الخدم والحشم والاتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن
 عند محمد علي باشا فتجرد الى الاصلاح * وكانت الحوادث المتوالية والهن المتراكمة قد أحملت
 البلاد وكادت تذهب ما بقي بها من آثار العمران فعمد الى انشاء المعامل وضبط الصنائع
 واحتكر تجارة جميع الاصناف ورأى الحياكة وجعل لكل شيء ديوانا وكتابا وجعل لكل

مطلب

كف محمد علي باشا
 عن الحرب والعناية
 باصلاح شؤون
 مملكته

ديوان لما يحصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد بأقلى إليها الزراعون بما يتحصل عندهم
بشئ مقدور فيخصم منه ما عليه من الخراج ويباع ما بقى الى تجار الاجانب الذين كانوا يأتون
الى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للسكنان ومثلها السائر
أصناف الاقشة من المقصبات والاجواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وأبني المباني
العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالاسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد
أتى بسفن الحرب والدوارع من البلاد الاجنبية وأنشأ بها أيضا مدرسة لعلم البحار وأتى
لها بالاساتذة من ديار الانجليز والفرنسيين واستقدم زهاء الالف وخمسمائة من فلاحي
الفرنسيين وفرقهم في البلاد البحرية والقبيلة ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبنوا بينهم محبة
وخدمة الارض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسي لزراعة
القطن وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طر بقا ففاز ونجح وكبرت زراعته
واتسعت وأتى بنبات النيلة والافيون وأكثر من غرس الاشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن
والبساتين العظيمة في جزيرة الروضة وشبرى والازبكية وبالغ في الاهتمام بأمر الطب وأتى له
بالطبيب الشهير العلامة كاوث الفرنسي فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بإدارتها
الى الست جوت الفرنسية وأخرى للطب البيطرى وسلم إدارتها الى المسيو هامون
الفرنسي وأنشأ دارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن ما يكون من النظافة والنظام

الهائز ولا يرضون الا بأموال المسعوديين وسجسين سائر
فطرقوا له الودع والقول وقاسوا الاثر وحسبوا النجم فكل ما قاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا
عليه ثم يكتبون له الاحجية والتعاويد والتحويلات الطويلة العريضة التي ربما بلغ طول
ورقتها ضعف طول المريض وربما أضعافا وبخرونها باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة
ونسج الغنكبوت والشب الابيض والميعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية
بعجيبة بالاحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرئ من داء فلان خرزة حراء
يسمون بها البذلة والرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفرقة والحصى
يسمون بها حجر الشفاء فإذا اسع أحدهم حكوا له الخريت وسقوه ماء أو وضعوا له على موضع
اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمايم والاحجية وخيطان الصوف وعظام
الاموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو اصبع الكافر ومن اهمال أمر الصحة يومئذ
اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيا كثيرا مثل مقبرة السيدة زينب
ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون
موتاهم في حيطان البيوت وفي المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة ووقع في سنة
سبع وخسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيرا حتى ان الاموات كانت

تشاهد ملقاة بالازقة والحارات وبجانب جدران البيوت في الشوارع ثم انتقل الى الماشية فأهلك منها شياً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله

قال بعض الكتاب رحمته وكما كان الطب مهملًا فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد علي باشا بالمسيو اينان الفرنسي فأكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسي الفرنسيين المدعو المسيو موجيل وهي من أكبر الاعمال الهندسية وأشرفها وهي مفتاح النيل ومغلقة عند فرعيه الشرق والغربي وعليها حساب رى الاقليم البحرى ونصف الاقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسي الفرنسيين فأظهروا في وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صناعة البناء وكانت ديار مصر الى هذا الحين قد فقدت صناعتها المهرة وأمسّت وهي في حاجة الى كل شئ لاستيعاب العمارة * أما اهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجانب الحارات وعلى أبواب الازقة وتحت الاسبطة وفي أركان الجدران وكان ما ينشأ من الهدم والاثربة ان اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فاذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحب من التراب نثر الرائحة كريح الشم يورث الامراض المعدية الوبائية فأين سترحت الطرف في البلد ترى المجذوم والمجدور والابرس والاعوى وغير ذلك من بقية الامراض * وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قدرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النتن ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فحدثت الامراض الجلدية كالحمكة والابجدية وغيرها كل هذه الادران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يحصى كروا الايام وينال عاينها ان شاء الله خير الجزاء من باري الانام

ولما كانت سنة ثمان وخسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فجعلها وأهلك زرعها حتى ورق الاشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الارض فوق الغلاء وقل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فرارا من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبثوا في البلاد لجبايتها بأمر من الامير ابراهيم فكافوا اذا نزع أهل بلد أضافوا ما عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها في الطلب وبالغوا في ايدائهم فضاقت خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجهم وأصجوا وهم بين منتطح كبشين اذهاب الحرث والنسل وايداه أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد علي باشا يوميئ بالاسكندرية فلما علم بالخطر اضطرب قيل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان

مطلب

ما أصاب البلاد من
الضربات السماوية
في سنة ثمان وخسين
ومائتين وألف هجرية

وتحقق أن ذلك من فعال الأمير إبراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس
التين الى بيت محرم بك عنده الممودة وأقام هناك أياما وهو يخلط في القسول ويكثر من
النداء على بعض الخدم ويقول يا الله قد خاني القوم فأيقظوا الفتنة وأبغضوا الناس
في وبقى على هذا أياما والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من
الاسكندرية الى القاهرة في نفر من الاتباع ونزل بقصره بشبرا فألقى اليه أصحاب الوظائف
ورجال الدولة فعنفهم وزاد في توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معارضة

وتأقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد علي باشا فدعاه للحضور الى دار السلطنة فاجى
دعوته وسار في سبعة اثنيتين وستين ومائتين وألف هجرية في قلة من الخدم والاتباع ونزل
ضييفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد علي باشا ثم
تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيرا فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفع وأجلسه بجانبه
ولاطفه جدا وحادثه ساعة * قال بعض الكتاب * واتفق أنه كان يحدث السلطان يوما فقال
له في أثناء الحديث حفظت يا بني وأحسن * ثم استدرج أن هذا الخطاب لا يليق بأمر
المؤمنين فقال ليعف مولاي عن زلة عبده فإن حبي لابناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة
الكبير منهم والصغير بيا بنى * فتبسم السلطان وقال لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبيت
في دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ماعدا الهدايا
النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها الى قوله
مسقط رأسه فبكت بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراء ودارا للمساكين ورحل عنها راجعا الى
الاسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث
ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الامر ويتصرف حتى
كثر هذيانه وقل ادراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سر يع
الغضب بذكره أن يرى ولده الأمير إبراهيم فإذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فانفذ
الأمير إبراهيم الى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت اليه حالته ويعلم أهل الماين بوجود
تخليه عن المنصب فأجابه السلطان الى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان
بذلك فغرى بقلعة الجبل في مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق ونقل محمد
علي باشا الى الاسكندرية وكانت أحب البلاد اليه وقد كثر خطه وكبرت علمته

فلما كان ثالث عشر جمادى الاولى سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية في ولاية
عباس حلمي باشا الاول مات محمد علي باشا وله من العمر ثلاث وعشرون سنة وقيل أكثر
من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد في صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ في جنازته
ونقل نعشه الى القاهرة مع التبالة والتكريم في مشهد حافل جدا ودفن بالمقصورة التي
ابتناها لنفسه في جامعته الذي أنشأ بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فزن عليه أهل
القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته * وكان رحمه الله أبيض اللون

مطاب

زيارة محمد علي باشا
دار السلطنة وما
لقيه من حقارة
السلطان به

مشرباً بمحبرة على الجهة أصابعها أسود العينين متوسط القامة جيل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكير إذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابولايون بونا بارتة بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالا الى مساهرة كبار الجنود ورجال الحرب لا سيما منهم سليمان باشا الفرنسي فإنه كان يحبه ويحمله * قال بعض الكتاب فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بحبة أحد غير ثلاثة أبي وبونا بارتة ومحمد علي باشا وكان محمد علي باشا إذا جلس في مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفي يده علبسة السعوط والمسبحة وكان سليم القاب سريع التأثر لا يعرف التكظم سريع الانقياد كريم النفس أيها سخى العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الامم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام باحوال الرعية قليل العزم ديناً صحيح الاسلام محبا للنصارى لا سيما القبط أهل البلاد قرب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا في خدمته وخدمة البلاد فسلم اليهم مقاليد الدواوين وصرفهم في ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الاجانب عموماً يسهونه بحبي ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف المماليك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم

(مطلب)

في ولاية الامير ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا

لما اشتدت علة محمد علي باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده ابراهيم باشا الى دار السلطنة يعلمهم بما آلت اليه حالة أبيه ويسألهم الاجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فخافه الامر بذلك في جادى الاولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف في الامور بالوكالة عن أبيه حتى يأتبه فرمان التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم الى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه فرمان بولاية ابراهيم باشا فقرئ في ثامن عشر شعبان بقاعة الجبل في محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر ابراهيم باشا الى دار السلطنة ليقبل الاعتاب على حكم ما في فرمان الولاية فاكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبت أياماً ثم عاد فوصل الاسكندرية في عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض في الباطن وما زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلزم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوماً ودفن بالامام الشافعى وكان جليل القدر مهيباً حازماً واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبباً قوماً عنيدا صبوراً على الحروب جسوراً راسخ القلب موفقاً بحسبه العدو بألف مقاتل في قومه * وكان لما عاد من حروبه

في آسية الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد علي باشا وسلطانة عزم على السفر الى بلاد
الفرنسيس للاطلاع على ما فيها من فنون القتال واستمرار الحروب فسار معه سليمان باشا
الفرنسوى ورافقهما الدوق نيمورس والامير چوانفيل فلما وصل الى عاصمة الفرنسيس قوبل
بغاية التجلة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الاسطبل الملوكي وقيل أحد كبار الدولة ومعه
فرس عربى مطهم بسرج من السروج السكلمانية قد أعد لركوبه فقدمه اليه فركبه
وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لابراهيم باشا وقد شاهد معه جميع
الوقائع والحروب في الشام وآسية الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافرا منصورا بعد
فتحه بالعسكر السلطاني فسير به محمد علي باشا بعد ذلك هدية الى قصر التويلرى بعاصمة
الفرنسيس ومعه تسعة من السؤاس المصريين ولبث ابراهيم باشا بباريز أياما أولت له فيها
الولائم العظيمة وكانوا يضعون له في كل مأدبة أو واجمة كرسيا موجهة الى جهة الشرق
اشارة الى انه نابغة الشرق ومحى دياره بعد الاندلس وكانت آلات الطرب والموسيقى
تكرر بحضوره نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحاسية اشارة الى الوقائع والحروب
التي اشتملها وفاز فيها بالنصر والغلبة ❦ وجال في باريز وشاهد ما فيها من الغرائب وتصدق
على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت اليه ملكة الانجليز تدعوه لزيارة بلادها
فاعتذر ولم يشا الذهاب لبغضه لكار الانجليز وبارح ديار الفرنسيس الى عاصمة
البرتغال فاحسن ملاءمتها وفادته واحتمل لقدمه احتفالا شائقا وأهداه نيشان
الصليب الاكبر ثم عاد الى مصر وعاد في ركابه سليمان باشا ❦ وقد سمعت بعض الناس
يقولون ان سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالا الى الثورة وقلب هيئته الحكومات فلما
اشتهر خبره بين كبار الفرنسيس خافوا منه فأقصوه الى البلاد البعيدة فجاء هاربا الى مصر
ودخل في خدمة محمد علي باشا وتقلب في الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية
والالقاب السامية واعتنق الديانة الاسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحاث عن ترجمة
حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا في ركابه الى معامع الحروب ومشاهد
القتال فلم أعرف منهم الا ما عرفه العامة وتحدثوا به وما زالت أبحاث حتى عثرت على ترجمته
لاحد كتاب الفرنسيس فنقاتها عنه وهى ❦ هو سيف بن أوكناف چوزيف انتلم
الطعان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا في أوائل شهر ابريل سنة سبع وثمانين وسبعائة
وآلف ميلادية أى سنة احدى ومائتين وآلف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس
طاغية قاسى القاب يلقب بالتركي لقساونه وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعا بالحروب
ميالا الى الغزو والجهاد والخص في معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار
الى طولون احدى أعمال فرنسا ودخل في خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس
سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تافت
نفسه الى الانخراط في سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال في

مطلب
في من هو سليمان
باشا الفرنسوى

البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلانتى مرات كثيرة وزار جزائر الارخبيل ثم عاد الى ليون لجراحة أصابته في ذراعه اليسرى في حرب ترافالجار وأقام مع أبويه أيلما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوه مشاجرة أدت الى المسلاكة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوه وقتله وقره هاربا من ليون الى ايطاليا خوفا من العقاب ودخل في عسكريتها جنديا في الفرقة السادسة التي كان يقودها الكولونيل باجول ولبت على هذا الحال حينما كان من نظام دولة ايطاليا العسكرية في ذلك الحين تعلم الفرسان الإيطالية جميع حركات المشاة أيضا قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فانتسعت شهرته * فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة الإيطالية لان يكون قائدا لجيوشها التي سافرت الى القتال في واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى في تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرارهم وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه في إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق ناراً ثم حمل أسيرا الى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ماشاء الله حتى شفيت جراحته ونجا من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فقال اليه وامتح بسألته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدم جميع الفرسان فظهر نبه واشتد أمره وحاز نياشين الشرف في معامع الحروب وكاد أن يسقط في يد العدو في واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفي منها فقلده القيصر قائدا لقيادة الجيوش الروسية وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن يسمح له بها رئيسه الجنرال بيرو فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدره قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت اليهما جوارحه فصار بين اقدام واحجام حتى علم بونا ببارته من أمره ما أعجبه فانفذ اليه بالحضور الى عاصمة الفرنسيين لبي اشارته وأتى مسرعا الى باريز فأكرم بونا ببارته لقائه وأدخله في خدمة الجيوش الفرنسية فسار سيرة حسنة للغاية وبالغ في الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر في خدمة بريئة شهرة عظيمة للغاية فقال اليه بونا ببارته وأحبه ومنحه رتبة القامقام * ورافق المارشال جروشي قائد جيوش الفرنسية في واقعة وأنزلو الانجليزية فقال شهرة عظيمة ثم تعيب عن ساحة الحرب فدارت في غيبتة الدائرة على الفرنسيين فانهمزموا شهزيمة وكان له بعيد ذلك في حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فقال رتبة الكولونيل أي أمير الاي مع نيشان الافتخار * فلما سقط بونا ببارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصاب وحزن على بونا ببارته حزنا عظيما واعتزل الجندية ومال الى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة في أراضي الجرنيل وجعل يفلح حينئذ تافت نفسه الى الخوض في عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه

أقسم أن لا يموت الا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار الى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيين فرسيف في طريقه بالاسكندرية ولبث بها أياما فأعجبه هواؤها وحن الى البقاء فيها وعدل عن الذهاب الى ملك فارس وكان يعرف بالاسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيين فقصده وكاشفه على ما في نفسه من الميل الى خدمة محمد علي باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيين وكان محمد علي باشا ميمالا الى ذلك جدا فلما علم بانخمار الكولونيل سيف وعرف مبالغ شهرته في تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته واقدمائه وتمكنه من الفنون الحربية مال اليه وأدخله في خدمته وسلم اليه مقابله كافة الامور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الارنؤود والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصري يومئذ غاية الجفاء والشدة فكافوا بمخاطبونه بفحش القول وبنادونه بالكافر واشتد بغضهم اليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد علي باشا باخراجه من ديار مصر والا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا الى جماعة منهم ممن دخل في نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرّب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتعافى الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من لين الجانب ودماثة الاخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامهمهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فاطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لابس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطري بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد علي باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنّة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لاختصاصهم جيشا من نجسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيرا من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفرقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدحرونها عن آخرها فانفذ السلطان الى محمد علي باشا في رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالاماني الكثيرة وبمخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه ببيد طغام الكفار وبعده بضم مورة الى ولاية مصر ان هو دّوخها وأرجعها الى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الارمني متوليا يومئذ رئاسة الخارجية وكتابة سر محمد علي باشا فلما اطلع على ما في فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم الى محمد علي باشا وهو يقول (ليضع الله يده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فان أهل لذلك يابون ببارته أفرقة) فسير محمد علي باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الامير ابراهيم باشا وكان الكولونيل سيف في هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الاسلامي وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية فسار مع الامير ابراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فتون

القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الأعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان في حروب الشام وآسية الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعازل التى كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الاعمال الخطيرة التى قل أن يأتى غيره بمثلها فى ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم فى بحبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة

وكان ابراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الارض فضم الى أملاكه أجنحة الاراضى وأخصبها بالأقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الاشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ فى ترتيبها وبذل النفيس فى اصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها وغت * قالوا وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقسما يحاسب على الذرة والبر ولا يترك لاحد منهم متقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله فى آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد واسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والخطيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان اليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الاول ابن طوسون بن محمد على باشا

(مطلب)

ولاية عباس باشا ابن الامير طوسون باشا

كان عباس باشا يوم موت عمه ابراهيم بالديار الحجازية فارا من وجه عمه اذ كان يحقه كثيرا ويريد البطش به لأمور نقامها عليه وقيل بل ذهب لاداء مناسك الحج والاول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته الى دار السلطنة فورد الفرمان بولايته فى سابع عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه الى قلعة الجبل فى موكب حافل وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد عليهم ويميل بالطبع اليهم وأنصى أصحاب رأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم اليهم مقاليد الامور وتدير مهام الرعية فعملوا لانفسهم واشتدت فى هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيين حق حيازة جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التى تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيين والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين

مطلب

وقوع الحرب بين
السلطان ودولة
الروس ومعاونة
الانجليز والفرنسيين
للسلطان على قتال
الروس

ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه
 فى الجزء الثالث من هذا الكتاب * وكانت دولة الروس تنكره ذلك وتسعى فى تعضيد
 جانب جماعة الأرثوذكس واعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكنيستة لاسيما فى بيت المقدس
 وتشتد رغبتهم كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدي قسوس الكاثوليك واعطائها
 الى قسوس الارثوذكس فجعلت تراقب القصر وتبين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة
 الفرنسيين بانحاد نارتوتتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بونابارته على جميع الممالك
 الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معه على الذب عن أهل الكنيستة فهدت
 الى نزع جميع ما بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها الى جماعة
 الارثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون
 حتى تولى نابليون الثالث رئاسة جمهور الفرنسيين الثانية فرأى من اهتمام أهل الكنيستة
 بهذا الامر ما أعجبه وزين له مخافة السلطان فى ارجاع تلك الحقوق والامتيازات الى ما
 كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الاخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين
 الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين
 ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب ولبث الحال على ذلك أياما كثيرة
 ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات الى جماعة الكاثوليك بيت المقدس وبرق بعض
 الامتيازات والحقوق الاخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر
 جادى الاولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وستين
 وثمانائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ هذا الصك وهدد قيصرها السلطان
 بالحرب والقتال ان هو رسم بتنفيذه وطالب نابليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ
 من جماعة الكاثوليك وشدد فى الطلب فأصبح السلطان وهو بين منتطح عزيز ولكنة عاد
 فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح
 أبواب الحرب والتجهيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد الى استعمال
 الشدة وسير الى دار السلطنة الامير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان
 فى عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدي الارثوذكس من الكنائس
 والديارات فوصل الى دار السلطنة فى ثامن جادى الاولى سنة تسع وستين * قال بعض
 الكتاب فاحتفل لقاؤه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى اجلاله وتعظيمه
 استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمة فنزل فى دار سفير الروس
 أياما لا يتقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جادى المذكور سار الى
 مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكله فى أمر
 الكنائس بيت المقدس وقال ان مولاي القيصر لا يطيق الصبر على ما يلاقيه أهل
 الارثوذكسية من أصحاب الكنيستة ولا يسمع بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سيربى الى

هنا لا كلمكم في الامر فان انتم فعلتم ما نحب فيها ونعمت والا فالسيف يحكم بيننا وبينكم
وطير الخبير بذلك الى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الانجليز ان هو
ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفير الانجليز في ذلك وفيما اذا كانت دولة الانجليز
تعاقده على قتال السلطان « قال » فاذا هي فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد
السلطنة العثمانية وأرجعناهما الى ما كانت عليه من النذل والصغار تساهلت معها وأنزلتها
أخذ الديار المصرية وبخيرة كريد وتخلصنا جميعا من مكايده هذا القرم العنيد فخبر سفير
الانجليز دولته في ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم في الشرق
ودخول القسطنطينية في عداد أملاكهم فيشاركون الانجليز في ملك البحار ويزاحونهم
على نيل الاوطار

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فحكم دولتي الانجليز
والفرنسيس في أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الانجليز التحالف على قتال
الروس وايقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى الموائيق القديمة وما زال بها حتى
مالت الى الحرب خوفا على هندها فسير في الحال بعض سفن الحرب الفرنسية الى اليونان
فألقت مرسائها في فرضة سلامين إحدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت
كذلك دولة الانجليز الى سفن حوبها الراسية في ميناء مالطه بان تكون على قدم التأهب
والاستعداد وكان الامير منشيكوف الروسي في غضون ذلك يتردد على الباب العالي في
طلب تجديد معاهدة خونكار أسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية
جميع طوائف الارثوذ كس الذين في بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويغنيه
بالاماني البعيدة ثم رسم بإعادة رشيد باشا الصدر المعزول الى منصب الصدارة وهو من أعداء
الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للفسائس
والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد الى الدفاع ووقف في وجه الامير منشيكوف وأبى
عليه كلما طلبه فاستعظم الامير منشيكوف هذا الامر وأنفذ الى الباب العالي بلاغا في شعبان
سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاة القيصر وضرب للصدر الاعظم أجلا
خمس أيام فلما انقضى الاجل المضروب أمدته بمائة أيام آخر فانقضت ولم ينل من الباب
العالي جوابا * وكان السلطان لما ورد اليه بلاغ الامير منشيكوف طير خبره الى عاصمتي
الانجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة في الامر حقنا للدماء فسيرتا في الحال سفنهما
الحربية نحو الدردنيل وعلم الامير منشيكوف بذلك فكتب الى صدر الدولة في تاسع
عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما
كان خامس عشر الشهر المذكور جاءت الاخبار باحتياز الامير كورنشاكوف الروسي
بفساكره نهر البرونه واحتلاله مقاطعة الدافوب فسير اليه السلطان من بسأله الجلاء وعدم
مجاورة الحدود فلم يلتفت الى ذلك ونادى في عسكره بالتأهب ووردت الاخبار

بذلك أيضا الى عاصمتي الفرنسيين والانجليز فاجتازت سقنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة امبراطور النمسا له في هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلاقات الودية وما للقيصر عليه من الايادي البيضاء لاسيما بعد قيام القتنسة في بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان امبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها الا الطامة الكبرى على مملكته ان نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد الى استعمال الموارد وخبر الدول جميعا في عقد مؤتمر بمدينة وينا لاصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول الى ذلك وتم انعقاد المؤتمر في سلخ ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين مبعوثي كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فاز عنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من الموارد والتعقيد ولم يقبلها الباب العالي وفضل الحرب على هذا السلم المخوف بصنوف المكارة فالتحلل المؤتمر على غير طائل وكان الامير كورتشا كوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن في خلال هذه الفترة من احتلال ولايتي الفلاق والبغدان والتحصن في حصونها فانفذ اليه السلطان باخلاهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم الى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فغير الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين

واستخف الامير كورتشا كوف بقدر الجيوش العثمانية التي عبرت الطونة فلم ينجح عن مواقعه وزاد في التحصن والاستعداد فسار اليه عمر باشا وقائله قتالا عنيفا و طال القتال أياما ثم انكشف عن هزيمة كورتشا كوف شر هزيمة وجلاته عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤثرة وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضا الى عبده باشا أحد مقدمي العسكر الساطاني بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياما ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والامطار فهال القيصر هذا الامر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب ان اشتد فيها أيضا عساكر الفرنسيين والانجليز وطلب المدد من امبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسار القيصر الى دولتي الفرنسيين والانجليز يسألهم عدم دخول مراكبهم البحرية الى البحر الاسود وتربصا عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم اجراء شيء من الحرب والقتال بالبحر المذكور فبقيت مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وتوقف ربح الحرب حتى ينقضي الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الاسود راسية في مينا ساقوب فلم يشعر أميرها الا وفد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطاعت عليها القنابل تياغا فسقط في أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد ربح مراكب الروس وتراست القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فأبلغه الصدر الى

سفراء الدول بقاء الامر على الاثر الى السفن الفرنسية والانجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الاسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدفوف من موافى السلطنة العثمانية عاجزته وسارت تخفر في طوله وعرضه وأرسل السلطان الى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصري فبعث اليه عباس باشا بجيش ضخم كامل العدد وأرسل الى الخزانة السلطانية شيأ من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفساله حبا في الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعة السلطنة فلم تساعده الايام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت في عدة مواقع كبيرة وأبلى بلاء حسنا ووردت الاوامر من قيصر الروس الى سفيريه بعاصمتي الفرنسيين والانجليز بالشخص الى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحبوا ووقع الاتفاق بين دولتي الفرنسيين والانجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيين الى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كالمى العدد وكذلك دولة الانجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتتكف عن القتال صاغرة فاذا تم لهم النصر عادت العساكر الفرنسية والانجليزية وتركزت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف في بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الفرنسية ومقدمها الماريسال دى سانت أرنو والجيوش الانجليزية ومقدمها اللورد ريجلان ومعهم شئ كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة فاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكدر تصل اليها حتى قامت الحرب على ساقها بين هراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا * قال بعض الكتابات وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الاحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرماتهم في بلاد عدوتها فسيرت دولة الانجليز بعض السفن الحربية التي اياها بالبحر الاسود لنقل قنصل الانجليز ومن معه من الرعايا الانجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمي بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الامر أمير السفن الانجليزية وانفق مع أمير السفن الفرنسية على الاخذ بالنار ان لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفر ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعة وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم الى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن في شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمي عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتمت السفيران جانبا منها ثم تركنها وسارت نحو سيباستوبول ودعت هراكب الحرب الروسية للترال فلم يبرز لئلاها فسارت على الفور بعض السفن الفرنسية والانجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الاسود فأنفذ القيصر الماريسال بسكيفتش في جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبه وسارت نحو

مدينة سلستريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطاني لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة الى وازنه لتجدة موسى باشا ومن معه فبات موسى باشا قبل أن يجذوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فالتجنى بعسكره عن المدينة فنبعثه العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار في مأمن من نيران العسكر السلطاني فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة ونشاوروا في أمر القتال مع العدو وكان الطاعون قد تفشى في حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على النزول على سباسبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا في المحرم اقتتاح سنة احدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيين والانجليز والترك والمصريين فكافوا زهاء ستين ألفا كملى العدد فنزلوا عليها ولم يستقر بهم المقام حتى التهمت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنسيين نصرة مؤززة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا الى فتح ميناء بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسفنهم التي كانت تأتي اليهم بالثمن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقتلوا يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيما جماعة الروس من تحصين سبا سنبول تحصينا منيعا وبالغت في ذلك من البر والبحر حتى صارت لاترام

وسارت جيوش الاحزاب نحو سبا سنبول وقد تفشت فيهم الحيات فكثير الموات بينهم وخم الماريسال سانت أرفو مقدم الجيوش الفرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سبا سنبول فنقلوا جثته الى عاصمة الفرنسيين باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كاتروبر فحاصروا سبا سنبول ورموا عليها بالقنابل في أوائل صفر سنة احدى وسبعين ولبثوا يرسلون الرمي ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين ونبعثهم طائفة من العساكر الروسية وقاتلتهم قتالا عنيفا ثم عادت ولم تظهر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثير الموات في عسكر الاحزاب وتفشت بينهم الامراض فأوقفوا رعى القتال ولبثوا على قدم الحصار فعادت العساكر الروسية الى تقوية ما نشعت من الحصون وترميم ما تهدم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيين والانجليز من اتحاد امبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فتزداد هذه الحزب وبلا وتعظم مصيبتها لاسيما وقد كانوا يرون في الروس خصما عنيدا وقرما صبوراً على القتال فعمدوا الى استمالة امبراطور النمسا وجلبوا اليه الاتفاق معهم على ما فيه المصلحة لبلاده أيضا فوافقهم

على ذلك وكان بينه وبين فريدريك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة الا بعد رضا الآخر فخبره امبراطور النمسا في ذلك وزير له الاشتراك معه على ما فيه المصلحة لبلاده فلم يلتفت الى شيء من أقواله فاتفق الأحزاب على محاربة قيصر الروس في الصلح وصكف القتال على قاعدة هي عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاح والبغدان وإباحة المرور لجميع مراكب الدول في نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور في بوزانات القسطنطينية لاسيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلوا سفير الروس بعاصمة النمسا في ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأمهله واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لأضرار نار الحرب اذا ولى الشتاء وجاء الصيف وبينما هم على هذا الحال اذ هاجم الروس مدينة أوبانوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصري في هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الاخبار بذلك الى معسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباسبول والالاحاح في قتالها وأكثروا من جمع الاسلحة والكرارح فلم يمض على ذلك الا أيام حتى مرض القيصر واشتد به مرضه ومات في جمادى الثانية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرحى اذ تولى الملك بعد موت القيصر المشار اليه ابنه أسكندر الثاني ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكثر من حشد الجيوش واعداد معدات القتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زينوا الى ملك ساردينا التي هي اليوم ملكة إيطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشا عظيما من عسكره الى حصار سباسبول وتحالف على الذب والقتال ففوت عزيمة الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم سجالا ثم تمكنت جيوش الأحزاب من احتلال مدينة كريس وبوغاز بريكوب ومدخل بحر آزاق فأتموا حصار سباسبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس ونجح في قتالهم من البر والبحر فانتهصروا في عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة في حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال مالك مهون الفرنسي عنوة في خامس عشر ذى الحجة سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباسبول وضافت عليها المسالك وانقطع المسدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب في ثاني يوم متخوفة ودخل الشتاء فوقفت رجي الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغبلة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباسبول فعمدت الى المواردية وتودد القيصر

اسكندر الى امبراطور النمسا فلكم الامبراطور الدول المتحالفة في تقرير قاعدة الصلح والكف عن القتال وحقق الدماء المهددة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول الى ذلك وقرروا القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم اليها وطلب عقد مؤتمر في باريس عاصمة الفرنسيين لتقرير أمر الصلح نهائيا فأجابوه الى ذلك أيضا وانعقد المؤتمر واولى الاجتماع أياما حتى تم الصلح بينهم وتسطر في أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة إضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثي الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانئ والنغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم في أجل لا يتجاوز الستة أشهر وأن تجلي دولة النمسا عن ولايتي القلاق والبغدان في بحر ثلاثة أشهر وكذلك تجلي الروس عن مدينة قرص وقلعها وتردها الى الاملاك السلطانية في بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقي من العساكر المصرية الى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتى والارهاصات الداخلية وخروج بعض الايالات عن طاعة السلطان وبوالها شبه الاستقلال بتعصيد دول أوروبا لها مما لا يحل له هنا خوف الاطالة

وكرر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فاخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته في معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فانفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون اليه بالانخبار المقلقة والحوادث المكدره ليباعدوا بينه وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء الممالك الجلب والاماء السود وأقام طوائف الترك على بابته يحرسونه نهارا وطوائف الممالك يحفرونه ليلا وكان شديد بغض لاهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد ابراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ في تشكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القاصي باشغالهم الى سندر وفيز وغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكسروا وقبل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورهبهم بالتم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونهم وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الامير محمد سعيد من النفرة والشحناء ما لم يبق معه الا القتال فادعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنجده فاعمل فيهم القتل والتشريد والتباعد الى أقاصى السودان وبالغ في تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاختنق من بقي منهم ونزحوا الى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث في الاسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والارصاد فضافت على الامير محمد سعيد المذاهب واستبعد ببعض رجال الدولة وبكار النزلاء من الاجانب فلم يفلح اشددة بأس عباس باشا وعظم هيئته في نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال الى سكنى البيداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الاحمر خارج باب الحسينية سمى العباسية نسبة الى اسمه فكان اذا ذهب الى أحدهما أقام به

أياماً لا يصل اليه الا المقربون من قومه وابنتى مبانى أخرى كثيرة كالحلبة وغيرها بنيل شجعه ورسم يبناء دار بظاهر بركة الازبكية بجوار جامع الكرخيا فشرعوا في العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الاحمر وجمعوا لذلك البنائين والنجارين والحشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من السرك يحملون العصي والاسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن مر الامير ابراهيم باشا يوماً بالازبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فسأل عن ذلك فقيل له انهم عمال في بناء الدار التي ينشئها الامير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأخذه فسير في الحال الى الامير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هي نخاف الامير عباس وصرفهم وترك البناء في ذلك المكان ولم يتم منه الا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الامير ابراهيم بجعله مناسخا للجمال المرتين لخدمة الدولة وبقي كذلك الى أيام اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا فأزاله وأنشأ في جانب منه التزل المعروف بالوقاندة الجديدة وأمر ببيع الباقي منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمتها ترتيباً وتنسيقاً * وكان شديد البغض للأجانب جبارة على الرعيه سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين اليه ميالا الى الوشاية وايقاع الفتنه بين أصحاب الوظائف حذراً من تألفهم واتحادهم على ما يشاء وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد في الاكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابهم وتزينهم بأغنى الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الاورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم اغضائه عن الصغائر كثير التخليل لا يمكن أحداً من الدخول منه حيثما سار فكان عشي وحوله طوائف السرك فاذا رايهم من أحد ربيبة في طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضرباً بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنأدى بالشرقية * قال جماعة وتزوج بأحدى بناتهم وكانت غاية في الجمال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان * وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولداله ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هي الحقيقة بلا مرأى وكان قريبه منهم باعنا لهم على التمر والشقاوة فاذلوا أهل الشرقية وطاولت أيديهم الى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يبقوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفاحشة من مال وغلال فاذا تعذر جمعها عاثوا في البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان الى قتال عربان البحيرة لميلهم الى عمه الامير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلاً حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرذ نساءهم ونهب زروعهم على يد رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة * وأبطل في يوم

واحد جميع معامل القطن والكتان والاقشة والاجسوخ والحسري والمقصبات التي
أنشأها جده محمد على باشا وشرّد من سكان بها من الصناع والعمال ٥ قال بعض
الكتاب ٥ وقد تم ذلك باغراء من الجنرال ميري فنصل جنرال الانجليز فكان فعلة
هذا من أشدّ الفعّال المحترمة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها
وقلة معدّاتها والاعتماد في حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعدّر
وصولها الى حد الكمال التي هي عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت
من الصنائع ما أماتته الايام وأذهب به جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم
وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش في ظلها العدد العديّد وتراحت آمالهم
فيها الى المرحى البعيد ولوبقيت الى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغني البلاد عن كثير
من المصنوعات الاجنبية على اختلافها وأمست وهي مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر في
مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكورا

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم اليه فنصل جنرال الانجليز
في تحجير الطريق من باب الحسينية الى مدينة السويس تسهيلا لنقل السواح من الانجليز
الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وفي بعض الترك
بهذا العمل فأخشوا في الجور وايداء خلق الله حتى أغوّه في عهد قريب ٥ وعمر في سنة ست
وستين مسجد السيدة سكيّنة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الاجر وجدّد كذلك
جامع العسماوي بشارع العسماوي بالازبكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه
منه وتقدم اليه الجنرال ميري فنصل الانجليز في انشاء خط حديدى أيضا بين الاسكندرية
والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة
الانجليز وهندها وما زال به وهو يمينه بالامانى البعيدة حتى رسم باشاها فمما كان مدّ محور
الخط في تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية ٥ ووجّهت أمه فخرجت
من القاهرة في كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجنند وخلفه الخدم
والخشم والعلمان والاتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئا كثيرا وفعلت
كذلك بمكة وغيرهما وعادت الى القاهرة فأولم لها الولاثم العظيمة وأطعم وكسى أولاد
المكاتب والايّام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الاولياء وأقام المقرئين والفقهاء
يتلون القرآن في دارها أياما وزارها جميع الامراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية
من النساء وقدموا لها الهدايا والتعابى النفيسة

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الامور ثابت الاعتقاد في صحة الكهانة والعرانة
والزاريجات فلذلك منه جماعة من أصحاب اقربيهم وسألهم عما يكون في أيامه من الحوادث
والكوائف وما سيقع اليه من خير أو شر فأبهموه عليه الأمر فهددهم فقالوا انا نخاف
عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون في شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد

خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابجات فجعلهم وأقصوهم الى أعلى
السنار والدارفور فتطاوت عند ذلك أيدي أعوانه الى خيار الناس من كل ملة فكان
صاحب الوجهة لا يشعر الا وقد كبس داره بجاعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد الى
حيث لا يدري ويرجعون فيبحثون عما في داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت
اليه أيديهم من حلى ومتاع فيكثر لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فأنكشوا
وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمته اذ كان من المحتم على
كل خادم أن يبلغ شيخه في كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل اليه من
ما كول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت الا وهو بين يدي صاحب
الشرطة يسأله عما قاله في ليلته أو فعله في صباح يومه فإذا أنكر أنى اليه بألف دليل من
أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان اذا أغضب المخدم خادمه أو أغلظ عليه في القول
وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى * وكان يحب اقتناء المعزى
والنعاج وكبار الكباش للضاربة والحمام والسباع والقبيلة والضباع وجياد الخيل وكان
شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للاتيان بها من أقاصى البلاد
كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية نالقا على النصارى
لا سيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبأنف
في تذايلهم وأتى للبائسين منهم بطائفة من الاحداث الاغرار وأبناء المكاتب فجعلهم في
وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية ونطرق
الفساد الى جميع الاعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت * قيل واشتد به البغض للنصارى
حتى دبر أمر اخراجهم من وطنهم وتبعيدهم الى أقاصى السودان وأرسل الى الاستاذ الشيخ
الباجورى شيخ الاسلام يومئذ يسأله في ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تنكته
على قال وما هو يا أمير قال انى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى
الى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى
النصارى تعنى يا أمير ان كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم
يطرأ على ذمة الاسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حق تغدر بمن هم في ذمته الى اليوم
الاخر وان كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين في بلادك فانى أخاف اذا فعلت بهم شرا
أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيين * قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه
عنى فقام الشيخ وهو يقول اى ويعلم الله اى ويعلم الله * وكان اذا أبغض أحد من بطانته
آخر أيا كانت درجته قال له ان فلانا (يريد خصمه) فيه شئ من الاوصاف التى قال
عنها فلان صاحب الزابجة وفلان صاحب تحت الرمل فلا يشبهه ذلك المبعوض الا وقد
دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه الى حيث لا يعود فكان الرجل أية كانت وجاهته
يقضى بياض يومه في حساب ما سيكون في سواد ليله فكان اذا غضب على أحد غضب

الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكلمه الصديق خوفا من العيون فاشتد الخوف بالناس الى حد القنوط والياس

قال أحد كتاب الاخبار فتجردوا للعداوة وابتهلوا الى الله وتوجهوا اليه بقلوبهم واتفق انه خرج من القاهرة في شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره بينها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوقس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطانته وكثير من الخدم والحشم والاتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تأمر أولئك الغلمان على قتله فذبروا الامر وأحكموا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصبح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم انما خرجوا يريدون القاهرة لامر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظاهر قريبا ولم يدرك أحد بما جرى عليه واتفق أن مر في ذلك اليوم بينها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب الى اقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع الى الديوان وسأل عنه فقبل له انه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلوني على حجرته فومسه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فاذا هو ملق على فراشه فأمر من كان معه بكتفان الخبر واستدعى كبير الخصيان وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء الى القاهرة في هذه الساعة فتركوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والاتباع وجماعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر الا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته جملا على الأيدي وأجلسوه في عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا الى القاهرة في الكيكبة المعتادة وأنزلوه بقره بالحلبة وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الأمير محمد سعيد بالاسكندرية محجورا عليه فوردت عليه في صباح ذلك اليوم رسائل التهاني وأرسلوا اليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون اليه والعائشون في نعمته وأبطؤا في دفنه فلم تخرج جنازته الا بعد الظهر وكان اليوم شديد القيت فسارت جنازته في نفر من خواصه وبعض الجند ومرت من الغورية فالتحاسبين والناس في دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر الى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الاسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله

(مطلب)

ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجبل الحاج محمد علي باشا الكبير لما ورد الخبر الى الأمير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل انه اندهش وكاد أن

لا يصدق له لولا ترادف رسائل التهاني عليه من كل فج وصوب فجمع اليه قناصل الدول وسار بهم من الاسكندرية يريد القاهرة فعلم في الطريق أن أنى باشا أحمد أخضاه عباس باشا تعاهد مع أمير جنس قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها واستقدام الأمير الهامى ولد عباس باشا من الديار الاوروبوية وكان قد سافر اليها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ وساروا في ركابه الى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الاجانب ففتح لهم أمير جندها الابواب وقابله الجنود بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء اليه ودقت البشائر وطيروا الخبر بولايته الى الآفاق ففرح الناس فرحا عظيما قيل فلم يرض على أنى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الأمير محمد سعيد باشا ابن محمد على باشا في عشرين شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع ونجسين وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة لاهلها ورد جميع الاطيان التي كانت أعطيت الى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا الى أصحابها من الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والاحداثات التي كادت تدمر البلاد منذ ولاية إبراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الاموال الاميرية عن الفلاحين ورد المشردين منهم الى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الاسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مائة رزقه فأسرف وبالف في السفه حتى لم يبق ولم يذر

وكان يحب الجنسية ويحب بها جدا فبالغ في تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالاسلحة المتقنة وجع اليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكل هيثة وأجمل نظام فكان اذا سار الى بلد سار جميع الجنود في ركابه وخافها المكاحل والمدافع ودواب الجبل كأنها زاحفة للحرب والقتال واذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبيكة ونزلت بالخيام ظاهرا القاهرة ومصر القديمة أود خلت الى منازل الجنود كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الامر بالرحيل الى مريوط أو أدفينة أو بني سويف أو غيرها فكانوا دائما على قدم الابهة والاستعداد لا تفر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجنود وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتناكبا من تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كاحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاما وملبسا وماكلا ومشربا

وظهر في أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعطى فيهم القتل والتشريد قال بعض كتاب الاخبار وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم في مصاف الجنود فيكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم وأنفذ

مطلب
عصاوة عربان منية
ابن خصيب وما جرى
لهم

الى مدير منية ابن خصيب باحصائهم فجمع المدير ~~مكبارهم~~ وأصحاب الرأي منهم وكلهم في الامر فامتنعوا وقالوا لاسبيل الى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد علي باشا الكبير الى هذا الحين فلا يصح ادخال أولادنا في مصاف العسكر واذهاب ما يديننا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير في ذلك فامتنعوا فالح عليهم فتجافوا وخطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوقبهم ورفع أمرهم الى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قبيلا وكان ببعضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا اليهم وتحريرهم على قتال عربان أولاد علي نكاية بسعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ الى مدير منية ابن خصيب يقول لاسبيل الى غير ما سيرت به اليك فإياك والتقاعد واهمال هذا الامر فشدد المدير في الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمرهم وسرحهم وضرب لهم أجلا فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا اليه وجاء الخبر بذلك الى محمد سعيد باشا فكاد يتيغ غيظا ونادى في عسكره بالرحيل الى منية ابن خصيب وبني سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقتلواهم أياما كثيرة فترفع العربان الى الجبل الشرقى وبعضهم الى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنت وأتوا بهم الى مدينة الفيوم وبني سويف فكانوا يعطونهم الى أصحاب البيوت كالاماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعهم السجون وكان الجند اذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا مصففا ليس فيها الا مائتة رجل وحملته وبخس منه فيأخذونه فاذا ابتعدوا عنها قليلا وجدوا الاطفال مطروحين مثقلين بالرمل كي لا يقدر على الزحف فيموتون حيث وضعهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم الى بني سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم الى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظمى الصولة كبرى الاهابة فعاثوا في البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لاسيما يعقوب بك مدير بني سويف فأفحش في قتلهم وبالغ في البحث عنهم وتبعهم أينما ساروا ونزح منازلهم وشرد من بقي منهم الى أقاصى الشام والجزائر فاختفى من لم يتمكن من الفرار في القرى والكفور وتزايدت العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وتلك ما يلائمه العرب في كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلام وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالتهم وبحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة الا بالانجاء الى أصغر بيوت الفلاحين واشتد الخوف بأهل الفساد والصوص وقطاع الطريق فاختلفوا فأمنت السبل وسدكت المسالك واشتدت يعة أهل البلاد فأقاموا المنزلة على الحدود ورؤس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتي من مربوط الى أقاصى الصعيد الاعلى برا من غير رفيق فلا تجرد في طريقها من يعترضها في مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو الى أين وكبرت هيبة سعيد باشا في أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن

ايذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعتة فصنفت حالهم وكثرت أموالهم
وغزرت مادتهم وغت زروعاتهم ودرت الارزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا مالم يأكلوا
ولم يشربوا ولم يلبسوا في أيامهم الغابرة * ونظر الى مستقبل موطنى الحكومة وأرباب
الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم اذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم فى خامس ربيع
الثانى سنة احدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل
المزايا التى لا يعادلها شئ عند جميع موطنى الدولة وهو معمول به الى يومنا الذى نحن
فيه حتى أصدر اسمعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته
فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون * وأنشأ القلعة القائمة على
بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى
جمادى الآخرة من السنة وبالع فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المباني وأتقنها
وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازا لها اليوم جماعة الانجليز ولم يبقوا منها حجرا
على حجر * ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهیضة بالقاهرة ومصر واشتدت
فكثرت الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن
مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحصى فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من
هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت * وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا
من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعة بيلك من منفاه بالديار
السودانية حيث كان أبعد عباس باشا لوشاية الواشين وسله مقابلد تلك المدارس فأفلحت
وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد

وقدم فى ولايته الشهير فرديناندى لبس الفرنسوى الى القاهرة وكله فى حفر خليج
يصل البحر الابيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس الى ما يجاور الاشتوم المعروف
باشتوم الجبل على ساحل البحر الابيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر
سعيد باشا هذا العمل وعنده رابع المستحيلات وطاول دى لبس ومناه فاشتدت عزيمة
دى لبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا ووافدت على سعيد باشا
الرسائل تترى بعضها طعنا فى أعمال دى لبس وبعضها استهزاء بشروعه وسخرية به **فقال**
أحمد الكتاب وأكثرت دولة الانجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف
أخبارها يسبقون دى لبس بالسنة حداد وبالعون فى الهجاء والسخرية فنهزم من سماء
سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو اسكندر المقدونى ابن قليس ومنهم
من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم الى اتصال البحرين ببعضهما
ولم يبق لعلهم أثر على ما كان لهم من بعد الصب واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب
ومع هذا كله لم ينتن لدى لبس عزم ولم تفتقر لهمة وثابر على اللامح فوعده سعيد
باشا ومناه فرفع اليه فى ثمانى عشرى صفر سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا

يقول فيه

يامولاي - لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لاسيما ملوك مصر الأولين بأمر
ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قبل عن سيزوستريس
فرعون مصر الشهير والاسكندر المقدوني وقصر ملك رومية وعمر بن العاص وبونا بارت
ووالدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم في سبيل انجاز هذا المشروع الخطير
وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمر بالنيل وبقيت هذه
الترعة مدة غير طويلة في منتصف القرن التاسع قبل الهجرة الحمديّة ثم علاها التراب
فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيد ذلك وأعاد
هذا الاتصال فبقي زهاء أربعماية سنة وخمس وأربعين سنة في أيام خلفاء الاسكندر
المقدوني على ديار مصر ولبت الحال على ذلك الى القرن الرابع قبل الهجرة الحمديّة
ثم علاها التراب وطمها حينما حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ
باطراف هذا الامر العظيم ونهض الى استرجاع ذلك الاتصال فجاز ونجح وجري الماء فيه
فعبّرت السفن مائة وثلاثين سنة واقام الفتن وتو الى البلايا والحن علاه التراب فطم وامتنع
سير السفن منه

ولما دخل الشهير بونا بارت بجيوشه ديار مصر وشاهد بعيني رأسه موقع ذلك الاتصال
ود لو استطاع ارجاعه فينال شهرة عظيمة لا يحوها كرور الايام والسنين وعمد الى تشكيل عمدة
من كبار المهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الاروباوية لينظر في انجاز هذه
الامنية وسألهم اذا كان في الامكان ارجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فاجابوه الى
ذلك ورفع الى مقامه أحدهم الموسيولو بير تقريراً عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما
يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونا بارت صاح قائلاً انه لعل يستحق
مزيد العناية والاهتمام ويجب على انجازها ولكن من أين لي النفقة الآن وبدي خالية
فعسى أن يأتي يوم تعود فيه السلطنة العثمانية الى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال
فيخلد ذكرها على مر الاعوام فها قد آن يامولاي الاوان وجاء اليوم الذي قال عنه الشهير
بونا بارت نعم ان العمل خطير ولكن انجازها سيكون داعياً الى ظهور شأن السلطنة العثمانية
ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع أسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال مجدها ويرجعون
فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذي لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن
في بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدينة والمران ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا
على الذب عن الاستانة وحفظها مقراً للسلطنة العثمانية والذود عن ذمارها ورغبتها في بقاء
السلطنة المشار اليها زاهية زاهرة موفقة معزة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند
أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عثرها لقتاله وارجاعه الى الطاعة والخلود الى
السكون انما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذي

يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد احداهن عليه فتصبح هي المالكلة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التي يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى * وامسى إذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاثف سائر الدول على معاونته السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربي والشرقي بالجمع بين البحرين فلا بد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصبح مقاتيح العالم بأسره في يدها ولا خوف عليها فانه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء جعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها اذ هي صاحبة الدار * وقد كان الموسيوي لوبير من نحو الحسين سنة قدر عدد الفعلة اللازمين للعمل في الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفرنكات وقال انه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيوي طلائوت الذي سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سبقت بهم الجمعية الفرنسية التي تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر في هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واضعة من مدينة السويس الى الاسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر النفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليوناً من الفرنكات ونحو عشرين مليوناً أخرى لعمل ميناء ورصيف بمدينة السويس وأما نيمان بيك الموظف بخدمته الاسكندرية المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترعة وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من النراية والخبرة المشهود له بهما في جميع الدول فترأى له صلاحية مد ترعة بحيث تمر بصيرة السماع وان يعمل بالبحيرة المذكورة ميناء ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التي هي آتية الى البحر الأحمر أو من السويس الى البحر الأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أبيك قد كان رفع الى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة اينان بيك المشار اليه وموچيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء الا وكان يطنب لوالدك المبرور في مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فانه في سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى التكونت دي والوسكى الذي كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيوي كاليس الموصى اليه وكله في أمر هذا الاتصال فرفع اليه كاليس تقريراً بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمغن النظر مع التأمل في جميع آراء

أولئك العلماء الافاضل والمهندسين الامثال مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للإنجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسسها وأصوبها وأقواها بحجة وبرهاننا فنعمل به وليعلم مولاي حفظه الله أن الموانع والمراكب والعقبات التي طالما أفلقت القدمات وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فان تحمل الصعاب مع الصبر والجلد في سبيل انجاز هذا الامر الخطير لهو من أوجب الواجب بل من أسمى المطالب بقي اذا علينا أن ننظر في أمر النفقة وهذه أيضا ليست بالأمر البعيد فانه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدها على أحسن ما يرام اذ ستكون ايرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لي مولاي أدامه الله بأن آتي اليه بالبيان الآتي بعد فيتضح له أن المصاريف التي يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيأ في جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على اعادته فضلا عن كونه سيقتصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الاستاذ الشهير والجيولوجي الماهر الموسيو كورديه

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة ما بين المين المذكورة الى بومباي		الفرق بين الطريقين بالفرنسخ
	من المحيط الاطلسيكي	من طريق الاتصال الجديد	
قسنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠ بالفرنسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	» ٣٧٧٨
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	» ٣٦٢٠
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	» ٣٢٧٦
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	» ٢٩٧٦
بسيون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	» ٢٨٥٠
بورجو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	» ٢٨٥٠
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	» ٢٩٧٦
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	» ٢٨٥٠
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	» ٢٨٥٠
أمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	» ٢٨٥٠
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	» ٢٨٥٠
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	» ٢٤٣٩
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	» ٢٧٢٦

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بأنه بهم
جسدا سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره إعادة هذا الاتصال * وليعلم مولاي
أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأننا من هذا العمل العظيم
فليعمل مولاي على ذكر اسمه في مصاف أولئك الذين غلبوا على ديار مصر وينجز هذا
المشروع في أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل وتيسر الأمانة المصرية
فتتجه نحوها الأبصار وقد إليها الاعناق وينادي باسم مولاي في سائر أنحاء المعمورة ويخلد
ذكره في بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر ما لم يناله الفراعنة الذين شادوا
الاهرام والهيما كل الضخمة التي لا فائدة فيها لنوع الانساني كالفائدة المترتبة على إعادة
ذلك الاتصال وانما هي مبان تدل على القدرة البشرية التي منحت لكل نوع لمخفها
واظهار مجدها * ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التي لا ينكرها مكابر تسهيل طريق
الحج الى بيت الله الحرام وتعاقب الناس بفن الملاحة وتسيير السفن واتقان السباحة في
أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع
ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرق أفريقيا وملكة سيام وسنئين
واليابان وملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربع مائة مليون فضلا عن جزائر فلبين
وأستراليا وجميع جزائر البحر الابيض المتوسط التي هاجر إليها الكثير من الاوروابوين
فتجري المواصلات بينها جميعها وتيسر حالها

هذا ولقد ظهر من الاحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الاوروابوية في كل سنة
عن طريق رأس الرجا الصالح ورأس هرون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فاذا سارت
هذه السفن بطريق خليج العجم ونزعة السويس المراد انشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة
عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليوناً من الفرنكات باعتبار عشرة
فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة
المذكورة وحسنت الملاحة فيها * ويجب مراعاة أن إعادة هذا الاتصال بين البحرين بهم
جدا دولة الانجليز التي هي سيده البحار وأغنى سائر العالم مالا وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة
في تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون ان إعادة هذا الاتصال
تضر جدا بمصالح الانجليز وتخط بها لأنها تقرب العالم بعضهم الى بعض وتوسع نطاق ملاحه
جميع الدول على أن الانجليز لا يحبون تقدم غيرهم في شيء من ذلك البتة ويميلون الى
أن يروا أنفسهم السابقين في كل شيء والراغبين لكل شيء ولذا أصبح هذا البحث الدقيق
الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الاسباب الباعثة على تأجيل
المشروع في هذا العمل الجليل ولولا تأمل أصحاب هذا الرأي فيما جاء في المعاهدات التي
أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالي في هذا الشأن أتحققوا أن الامر على غير
ما يتوهمون وعلموا أن دولة انجلترا تملك أهم وأعظم بوزارات العالم بأسره مثل جبل طارق

وما لاطا وجزائر الارخبيل وعدن وغير ذلك في الهند وسنجاپور وأستراليا فلا يضر بشئ من مصالحها ارباع ذلك الاتصال فاذا سمح مولاي بالأخذ باطراف هذا العمل لا يبع دولتي الفرنسيين والانجليز الا الاذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمري الحق من ينظر الى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا الى رؤياه برزخا يجمع مابين البحرين أما مد خط حديدي من مدينة الاسكندرية الى مدينة السويس كما تمنى ذلك الدولة الانجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتي بالقائدة المألوفة الا اذا كان المراد منه مساعدة الملاحة في الاتصال المذكور

واذا نظرنا الى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضا على هذا العمل لانها أباحت حرية الملاحة في نهر الدانوب والسو بيليانا فلا سبيل لها الى غير الاذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى في هذا العمل سوى زيادة أهمية ميناء تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فتم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهي على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول * وان قيل ان دولة روسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لانها تود ظهوره وهي الآن في غناء عن أن تعارضنا لاسيما وجلالة قبصرها قد فاز بكل ما تافت اليه نفسه فافصح لكل بلاد دنحت في دائرة حكمه طرق المدن والعيان فاذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه الى أقاصي الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتفتح لهم أبواب الرزق وتسهل أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات اسبانيا مع جزائر الفلبين وهولندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة ايطاليا الشهيرة قسديا مع اليونان والابجال يسر العالم بأسره سرورا عظيما يوم يعم خبر الشروع في هذا العمل العظيم * وانى أعد مولاي حرسه الله بأنى سأل بذل جهد المجتهد في الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدي والسلام

فأفحص سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيودى لسبس الى الأخذ في أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ اليه اجازة تتضمن اثنتى عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع في حق الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة في الاموال اللازمة للنفقة والارباح الناتجة من الملاحة فيه وفي تسمية شركة لذلك وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التى يستلزمها هذا العمل العظيم * ولما كان لا يتأتى الجزم بالشروع في هذا العمل عقب اعطاء هذه الاجازة للموسيودى لسبس الا من بعد شجيرة دار السلطنة العثمانية في ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عزى سعيد باشا

الى الموسيوى لسبس بالشخص الى دار السلطنة ليخبر صدر الدولة في هذا الأمر
فسار اليها فكان بينه وبين الصدر الاعظم أخذ ورداً أياماً كثيرة وورد مرسوم الصدر
الاعظم الى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم
التأني والتروى فيه قبل انفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث
أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرّح للموسيوى لسبس بالشخص الى حيث شاء حتى
يأتيه أمر السلطان

وجاء الموسيوى لسبس الى القاهرة غير قانط ولا ضعيف الاًمل ولبت بها أياماً يغدو ويروح
على مقر سعيد باشا ثم سار الى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثير
تحدث كبار الدول في هذا الأمر وانفدعت أصحاب صحف أخبارهم تبدي وتعيد كل حسب
ماتليه عليه أهوائه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس
ويحركون مافي صدور أهل الحل والعقد ويعملون على ابطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع
من أن عاد دى لسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع
الآلات ومعلمي طبقات الأرض والمعادن وشرعوا في العمل فرسم محمد سعيد باشا في سادس
عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفاً من
أهالي البلاد بالمناوبة في حفر ذلك الاتصال وركل مديري الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت
شدة عظمية للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلّوهم وتمكن العدو من عدوه
وشمت الغريم بغريمه وكادت تنعطل أسباب الفلاحة إذ هاجر الكثير من أهل البلاد
ونزحوا من أوطانهم فراراً من هذه المحنة الكبرى * وسار دى لسبس في العمل سيراً حثيثاً غير
مبال بعمد رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال
من بيلاوز على البحر الأبيض التي على أرضها الآن مدينة بورسعيد الى مدينة
السويس فتبعهم البياعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والحانات وأهل الخلاعة
والقصف فمشرت تلك الاصقاع وصارت أهلية باخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة
والمصريين وغيرهم من جاء من البلاد البعيدة في طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب
الامن في تلك الانحاء فرتبوا لها العسس والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلاً ولأنهاراً
وقام سعيد باشا بجميع تعهّداته التي تعهد بها الى دى لسبس مادياً وأدبياً فاندش
العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك في محله ان شاء الله

وبينما كانت الاحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة إذ جاء الخبر بزحف
نجاشي الحبشة على بعض الاملاك المصرية الواقعة على الحدود وشبه الغارة عليها وأنه نهب
أهلها وساق مواشيهم وأسرمهم خلقاً فهاهنا سعيد باشا هذا الامر وأزعجه لجند جنداً عظيماً
لقتال النجاشي وعزم على لقائه وكان الى هذا الحين لم يرتق كبير ولس بطرك المتأصلين
مسند البطريركية بل كان مطراناً ووكيلاً للدار البطريركية بعد موت بطرس البطريرك وكان

بين كيرولس ونجاشي الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فانه كان سفيرا من قبل بطرس الى النجاشي وقد نزل في جواره أياما كثيرة * والحبشان يجلبون بطارقة القبط ويخضعون لسلطانهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك انما هو أقرب جميع المخلوقات الى نوع الملائكة والارواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من مقامه ولا ينظرون اليه فاذا نظروا اضطرارا فبطرف خاشع مطرق * وبعد أن تأهب سعيد باشا للسير للاقاء النجاشي عاد فحسب ما وراء هذه الحلة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل أخذ في الهبوط في غير أوانه فخاف الناس وتراحت ظنونهم الى المرحى البعيد فسلك سعيد باشا في الامر مسلك التأنى وشاور أصحاب الفكر فاشاروا بانفاذ رسل الى النجاشي يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكام كيرولس في الامر فأجابه الى ذلك فرسم سعيد باشا فخزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت اذا هربت باخرتهم باحدى المديريات أطلقوا لها المدافع اجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشي بقدم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار اليهم في أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التي كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاصر الرأس فقام كيرولس للقاءه فقبل النجاشي يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله حتى دخل مجدة تحت الملك يومئذ وشاع خبر مجيء كيرولس في جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة في جميع الكنائس وبالغ النجاشي في اكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كي يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما كانت تسمي أبناء بني اسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان الى هذا الحين لم يعتبر النجاشي نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة اذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشي أن يمسحه فأجابه الى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والامراء وسائر قواد الجند والوجهاء والاعيان من أقاصى الحبشة الى مجدة وأقيمت الولائم والافراح في كل صوب وحسب أياما ثم مسح بين الملوك والامراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشي بذلك فرحا لا يوصف وكان في مجدة نفر من الانجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالانجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشي بعمل المدافع وصنع الاسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال اليهم وأحبهم وأباح لهم التجول في جوف البلاد بخلوها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبثوا تعاليمهم حتى كادت تم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التي هي أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الامر على مطران الحبشة وخشى العاقبة فهدى الى ايقاف هؤلاء المرسلين عند حدودهم فلم

يفلح وقد كبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس
شكى اليه المطران بما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم الى النجاشي في
تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس الى ذلك ولما تمت الافراح
بسم النجاشي ورجع من حضر من الملوك والامراء والقواد والجند الى أوطانهم كلم كيرولس
النجاشي في سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يرده ما أخذه من بلاد مصر وأن يقطع عما
يفعله في الحدود منها لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحققنا للدماء التي حرم الله سفكها
فأذن النجاشي وأجابه الى كل ما طلبه ورسم فكتبوا الى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه
كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكتبه أيضا في أمر المرسلين الانجليز
وزين له تسييرهم الى أوطانهم فقال انماهم عندي لجهل المدافع وتدريب عسكري على القتال
فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال والله المنفعة والجد ما كان بينك وبين والي
مصر من الوحشة والنفور فان كنت في حاجة الى صناعات الحروب أو الى من يدرب
عسكريك أنت لك من مصر من لا تحتاج معهم الى غيرهم فقال النجاشي هذا ما أبغيه ثم
رسم بالخارج من كان في البلاد من جماعة الانجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشقق
عليهم الامر جدا واستعظموه وصمموا على الانتقام

وكتب كيرولس الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير اليه بطائفة من الصناع
والمعلمين وعلم قنصل جنرال الانجليز بمصر بالخبر فبعد الى الاخذ بالثار والانتقام من كيرولس
جزاء ما فعله يجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس
مطران القبط سأل مولاي أن يبعث الى النجاشي الحبشة ببعض صناعات الحروب ومعلمي
الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاي يجهد أن عند القبط كتابا يعتقدون
صحته ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر في يوم معلوم عندهم فيأخذونها
عنوة قال لا علم لي بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكني أتقدم الى
مولاي في أن يأخذ حذره من كيرولس فانه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتمل
قال الراوي لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وتراحت الى المرمى
البعيد وجمع اليه رجال ديوانه وأهال الدولة وشاورهم في الامر فأشاروا بالقتال واعداد الجند
والاعتماد على التأييد والاستعداد وكتب الى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت
وتجاوزت حد المصالحة فبجل بالحضور وقام في جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها في
سادس عشرى جادى الاولى سنة ثلاث وسبعين وما تثنى وألف هجرية قال الراوي فلما
تمت حملة الانجليز بقيام سعيد باشا بعسكره الى حدود الحبشان دسوا الى النجاشي من أعلمه
بأن قدوم كيرولس الى بلاده انما هو لمنعك من اعداد جندك وآلات حركك لتذهب عن
مملكته من اغارة والى مصر وقد أتى الى السود ان يركب عليك بخيله وزجه فبدأ أخذ ما كان
ويذهب سلطانه وأنت آمن مطمئن وقد سير اليك أيضا مع كيرولس كساء مسمم النسيج

حتى اذا ابسته تسم جسدك وميت من يومك وكان مع ما أتى به كير ولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعالي الثينة برنس من الجوخ الاحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشي هذا الامر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا الى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فتكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراما وأمر بكير ولس فسجنوه في مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه في الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسرارهم ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكير ولس لا يعلم بالخبر ولا يدري ما هذا الامر ثم لم يلبث أن نادى في عسكره بالخروج وكثرت المنادة في كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا فكانت شيا كئيبا للغاية وصاروا على قدم الرحيل الى حيث يلتقون بالعسكرو * ورأى النجاشي أنه اذا ترك كير ولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كير ولس من الخروج فيمسخ أحد بيت الملك أو أحد كبار قواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عزيزين فعزم على أن لا يتركه فكان اذا سار من بلد الى آخر ساقه معه في حلقة من الحراس ونفر من الخواص واذا نزل بعسكره للراحة استدعاه وجعل يؤنبه ويعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالت يا امام النصرانية فشق هذا الامر على كير ولس وأحزنه جدا وأخذ في التدبير فكان كلما كلوا الملك في أمره زاد غضبا وغيفا فلبث كير ولس على هذه الحال من الشدة أياما طويلا الى أن تمكن من إلقاء أم الملك وكانت تقيّة صاحبة دين وورع فشكى اليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليها خبره واستجار بها وسألها أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فاجابته الى ذلك وكلمت النجاشي واستخففته أن يجمع اليه رجال دولته ويشاورهم في أمر كير ولس فلم يربدا من طاعتها وجسع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ما علمه من أمر قدوم كير ولس الى البلاد ثم أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا الى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التي قدمها الى الملك فوقف بين أيديهم والتمع ليحذر على لحيته وبالغ في بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالغ في اخلاصه وولائه للنجاشي وجسع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن ابداعه حتى يش الملك وزال عنه بعض الغضب فقال كير ولس وأما الكساء فهو هدية الباشا اليك أيها الملك العظيم فلا يأخذك ريب في أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا الا أخلاص الناس في الأمانة وأقرب الى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فان كنت في ريب من أمر هذا الكساء فأذن لي حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته وأمر بالكساء فأثوا به وألبسوه اياه على لحه ووكل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر فاستغرب الملك من ذلك وأمر بجيء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكل به

من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصيبه شئ البتة فالتفت الملك الى قومه وقال ماذا تقولون قالوا هي فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا الى كيرولس فليجعلنا في حل مما وقع فقال بقي علينا أن نسأله ارجاع سعيد باشا الى مقره فان فعل شكرناه وكنا له من المحسنين ثم أرسل الى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال هل لك أن تكتب الى سعيد باشا بالانحذار بعسكره الى تحت بلاده ويكفيها وياه شر القتال فان فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما ساف قال سأفعل الساعة ان شاء الله وكتب من فوره الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتيما لمساعدة الصلح التي تفررت مع النجاشي وسير بالكتاب مع نضر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب الى كيرولس * قد رحلنا عن الخرطوم الى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أننا مازلنا على حسن الولاء والمحبة * فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحا لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافي الاقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وساحبه وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الافراح وأولت الولائم ونودي في العسكر بالخروج فخرجوا أفواجا ومروا بالمكان الذي كان به كيرولس والنجاشي وصاحوا بأصوات التهليل وأمر النجاشي فجاء اليه بورقة العهد الذي رسم بعقد مع سعيد باشا فوقع عليها وهويين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدته النجاشي الى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الامراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاجت على بابه أقدماء المهنيين وأنوا اليه من كل صوب وحذب ثم استأذن الملك في الشخصوس الى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبار وزرائه وكابا الى سعيد باشا فلما وصل كيرولس الى الاسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشي بدار الضيافة الخاصة وقد رفع الى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبت أياما كثيرة لم يرفها سعيد باشا غير المرة الاولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجوابا الى الملك

وأحسن كيرولس بعيد رحيل وزير النجاشي بغيت محمد سعيد باشا منه واعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقعر سعيد باشا لعله يعرف شيئا من الامر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلي الحقيقة ويظهر الصدق لدى عينين * واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس الى دير انطونيوس بالجبل الشرق ومعه بطركا الروم والأرمن الاورثوذكس ليقضوا فيه أياما ترويحيا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بني سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياما حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها * قال الراوى لهذا الحديث * وعلم قنصل الانجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار الى مقعر سعيد باشا ودرس اليه بأن كيرولس انما ذهب الى الدير بمن معه من البطارقة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الاورثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة

القبطية تحت حياية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا
جرف تحيط به الاخطار من كل جانب * قبل فأنذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ
الى مدير بنى سويف يقول * سر الى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى الينا عاجلا
فانا فى حاجة الى حضوره فسار اليه بعزبة فوش وأبلغه الرسالة فقال انى ذاهب مع رفاقي
الى الدير بالجبل الشرقى فاذا عدنا ان شاء الله ذهبت اليه وتمثلت بين يديه فقال المدير
اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير الى سعيد باشا
فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ماسيد كرفى محمله ان شاء
الله تعالى

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عند ما نزل على الخطوط الحرب المنتظر وقوعها بينه
وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شؤون الرعية واصلاح ما أفسدته أيدى الحكام والعمال
من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وابطال بعض المكوس فأنفذ الى جميع عماله على
السودان فى سلخ جادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه * ليس منكم من
يجهل ما ألقى من التعب فى سبيل احياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران وابراد
كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فأتى لما
قدمت الى هذه الاصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلقى أهله من الضنك والفاقة
وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحوال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلا عن
الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الاعمال
التي لا قدرة لهم على القيام بها والانتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلسلة فى الاسواق فكان
ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكبرى لاسيما وقد علمت بأنهم أخذوا بها جرون من أوطانهم
الى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والحن المستراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد
عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد
المجتهد فى اصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما
نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء لقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم
وسألته أن يؤمروا عليهم أميرا يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بامارته ويتوسمون فيه
الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود الى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى
يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل سقاية
خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبني ذلك منهم لكثرة مع حاجة البلاد
الى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان
من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلوف فعشرون قرشا لا غير فكان
لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا الى السكون
والطاعة وهنا بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وتركوا الاوطان

ولما وصلت الى الخرطوم جاني أوائل المشايخ والاعيان فأحسنتم لقاءهم وأكرمتم مشاوتهم وطيبتم خواطرهم مما لم يسبق له مثيل عليكم تفتشون بي واني لم أقصدكم المناصب الا لتمكونا عوني على استتباب الأمن واصلاح أمور الرعيمة فايأكم والعصف والجور ولا تجبوا الخراج الا في الاوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية في الثلاثة شهور التي لازرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها الى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق ارفعوه الى ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج وانخلعوههم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم في مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية في كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث ان لأوائل المشايخ والاعيان بيوتاً ينزل عليها كل طارق وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة في كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة شيئاً من أهالي البلاد لزمها أن تقدمهم ثمنه حالا بزيادة اثنين في المائة عما تشتري به الأهالي بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء

وحيث يوجد في هذه البلاد من الأخشاب الصالحة للمباني والسفن والحريق وغيره شيئاً كثيراً فاشترى منه من الأهالي كل ما تيسر وشيروا به الى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلاً وعملوهم الصنائع والفنون وأنشاء المباني المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرق وإذا أعطيت أحد أرضاً للفلاحة من الأطميان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التي أتم في دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر الى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة اليه وجب ردها إذا لم يرض على انسحابه خمس عشرة سنة وارففعوا عن الأهالي جميع المتأخرات لغاية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربع مائة قصبة وان كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحاً عظيماً وعاد منهم من هاجر ورحل عن الاوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكمة بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم الى مقر سعيد باشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بانهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والولاء الى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل ما يمتنون من الخير لبلادهم

وكان ميلاً جداً الى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة الى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار في النيل بين الصعيدين فسكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى الى رحيل الكثير من الاجانب الى تلك الاطراف * وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شيء ولا يتطلع الى ما في أيدي الرعيمة ولم يظلم أحداً قط وكان اذا علم بظلامة

أحمد هاج وعاقب من تكذب هذه الظلامة لاسيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك دارا لنفسه فان جميع ما ابتناه جعله ملكا للخزينة وسار في عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس في رابع عشره وركب من يومه الباخرة المسماة بجسد وزار الحرمين وتصدق في مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالا كثيرة وقام من المدينة في سادس شعبان فوصل ينبع في ثالث عشره وسار منها الى مدينة السويس فوصلها في سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزبنوا له مصر والقاهرة ثلاث لبال فكانت كلها أفسرا * وكان بينه وبين نابليون امبراطور الفرنسيين محبة كبيرة وكانا على وفاق في كثير من الأمور فابغضه لذلك كبار سياسة الانجليز وعملوا على نكايته وتذليله * قال بعض الكتاب فدخلوا الى السلطان أنه انما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعة دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ في غاية الارتباك والخيال لخروج الكثير من ايلاتها كالخيل الاسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى الى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن في سبيل اصلاح الاحوال وارجاع الامور الى سابق مجراها فكانت اذا عمدت الى اتحاد فتنة في احدى الايلات ظهرت ثورة في أخرى واذا تجسدت الى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهودون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسموننها بالغلظة والجفاء فسعت وبذلت المنهج في سبيل اتحاد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من اعادة السكينة الى ربوع الهرسك وبوسنة واصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الاعداء وكادت تتمد نار الفتنة الى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ على باشا الامر بحكمة منه وخلع والى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفریق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه وشدد الصدر الاعظم في مراقبة الاحوال واستطلاع الاخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى في ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بجحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسي وكاتبه بجراحه عظمية وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فاهتم له الصدر الاعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتماما عظيما وسيرا في الحال فريقا من الجند ومقدمه اسمعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار اسمعيل باشا قاصدا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالامر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتي الفرنسيين والانجليز الى بعض سفن حربهما بالشخص الى جدة ورميها بالقنابل تباعا حتى تذكها دكا وأعلتها

الباب العالي بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله * وكان لما وصل الخبر بما جرى في مدينة جدة الى عامل السلطان على مكة سار من فوره الى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتباعد ورفع أمرهم الى دار السلطنة ولبت ينتظر الجواب فوصلت في هذه الاثناء احدى سفن الحرب الانجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير الى العامل على مكة يطلب التجميل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلا أربعين ساعة فاعاد اليه الجواب لأعمل عملا حتى يأتيني أمر السلطان فلما مضى الاجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعا واشتد الرمي وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقي بها حجرا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحذب اذ وصل اسمعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثماني فكلم ربان السفينة الانجليزية في الكف عن رمي القنابل فأجابه الى ذلك وأرسل من معه من العسكر وكذلك أنزل اسمعيل باشا عسكره الى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الاخشاب وبالقوا في التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر

وكانت هذه الدسائس وأشباهاها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالمة سعيد باشا ل نابوليون ودسوا اليه أنه انما يتودد الى نابوليون ليكون له عوناً على الخروج والاستقلال بملك مصر خشي العاقبة والبسلاذ باب الحرمين وطريق الحج الى بيت الله فبث العيون لئلا يأتوا اليه بالاخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية طامحة في النفس فأخلى الى السكينة مع التحذر والاتفات وما زالت الأمور بينهما على مايرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات في سابع عشر ذي الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يوماً

ومات في أيامه بطرس بطرك المناصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقياً ورعاً زاهداً متقشفاً محباً للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منسكاً على المطالعة ولا يجلس الاعلى الارض ولا يلبس الا الصوف الخشن ولا ينام الا على حصير من القش بعيد الغضب اذا تكلم فع التآدب والحشمة ولا ينظر الى وجهه سامعه وكان قد استقدمه ابراهيم باشا الى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ في تعظيمه ثم أعاده الى القاهرة * قيل ولما احتضر سأله بعض كبار الامنة عن يخلفه في المنصب فرفع عينيه الى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عربة بوش فاستقدموه عاجلاً وكان قد كتب اليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن احضر ولا تبطل فاني في حاجة اليك * وكان لا يتعرض الى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الامور

وإذا سار في الطريق أرنخى على وجهه ثامنا أسود * مات في ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا في تاسع عشر رمضان من السنة أي بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يوما فقد كان رسوله إلى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذي كان بين الحبشة ودار البطركية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان ~~الملك~~ بأرض بيت المقدس * وتحرير الخبر أن القبط بأرض بيت المقدس ديرا عظيما يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الاغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى الخصامة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا اخراج أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه في وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضاً وكأنه قد كبر مصابهم على فنصل الانجليز ببيت المقدس فتجرد للاخذ بناصرهم وبالف في تعصيدهم لأمر لم تصل اليها معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا ان الذي أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وانما السلطان للحبشان وقال القبط غير ذلك وان الذي بناه هو الاسعد أحد عظماء القبط في خلافة محمد المهدي ثالث خلفاء بني العباس وقد كان الخليفة المشار اليه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقعة عليها بناء الدير المذكور ورسم بينائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السيد ~~الشيخ~~ إجلالا للخليفة المهدي وتعظيما واشتد الخلاف وتخرجت الأمور بين الفريقين فأرسل وصل الانجليز ببيت المقدس إلى جماعة الحبشان برفع ظلامتهم إلى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم إلى القسطنطينية ووردت ~~كتب~~ التجاشي في ذلك إلى بطرس البطرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف باق هي أحسن فبذل المطران الجهد في اقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفعل الأمر وتعذر الوثام وكبر التساهل على الفريقين وقنصل الانجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزبة بوش التي هي مفتاح دير انطونيوس بالجبل الشرقي ورسم له بالذهاب إلى الحبشة سفيراً إلى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور اقبال وحسن سياسة فسار في نفر والتقى بالرسا على وكلمه في الأمر قال بعض الكتاب فلم يفلح لسعاية فنصل الانجليز وطال مقامه على غير طائل فجاء اليه الطلب في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى التجاشي في ذلك فلم يأذن له وعوقبه أياماً آخر ثم سرحه فوصل القاهرة في تاسع عشر رمضان فكانت مدة لبثه عند التجاشي سنة وبضعة أشهر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلا قاء الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطركية

ضيفا ولبت بها أياها على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأي فيهم وتشاوروا في اقامة داود خلفا لبطرس فانغفت كلهم على ذلك وكان الامر يومئذ الى عباس باشا حلمى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا الى عباس باشا رقعة بطلب اقامة داود مكان بطرس البطرك * قال أحد كتاب الاخبار فطاوولهم وسأل أصحاب الزايجات عما يرونه في اقامة داود بطركا فأرجفوا وهولوا وقالوا نكده ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وغزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشد في السؤال فلم يروا في حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيخه فاستدعاه كخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لاسبيل الى ولاية داود منصب البطريكية فان أبوا الا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلهم وانقسموا فذهب منهم من قال لانتخاب غير داود ومنهم من طلب الانبا يوساب أسقف اخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الانبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الاهواء وكثر الحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أياما وجاد أفندى يغدو ويروح على كخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم

فلما كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الاحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجؤا الى المستر ايدر أحد مرسلى جمعية التبشير الانجليزية واستجدوه فكلهم قنصل الانجليز فى ذلك والقنصل كلهم عباس باشا فطاووله فأخ علمه قناه وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم الى بيت القنصل ويسألونه التعجيل * واتفق أن قدم فى هذه الاثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة الى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل الينا علم ما فيه فأنزلوه فى دار الضيافة فلم يحض على حضوره الا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود انما سار الى النجاشى ليستجده وكثر تحدث الناس فى هذا الامر فلما كان فى أحد الايام جاء الى دار البطريكية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه الى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطرك الى النجاشى وطلوا على هذه الحال أياما ثم رسم عباس باشا بحمل داود الى مجاس الاحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرة ويشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم باخراج جميع مباشرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم الى سنار ودارفور وبالغ فى تذليل من لم يكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد ما بأيديهم يشترى المصالح الديوانية بالناقصة وكثر

ذهب أنصار داود الى بيت المستر ميرى فنصل جنرال الانجليز يستفرونه الى الاخذ
بناصرهم وعباس باشا لايزداد الا اباء وعنادا ثم سير كتحدا الباشا يوما في طلب جاد
أفندي ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفا لبطرس وأن يجعلوا في ذلك كي لا يبقى
لوساطة الفتنصل محل فقام جاد أفندي واجتمع من ساعته بجميع الاساقفة وأخبرهم
بما يريد كتحدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل
فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل الى مذهبه ثم طال بينهم الكلام واشتد
الامدد والحصام ففشا سرهم وانكشف خفي أمرهم وتفرقوا في ليلتهم تلك على غير طائل
وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندي وتكلموا في الامر وبعد أخذ ورد اتفقت
كلمتهم على مبايعة الانبا يوساب أسقف اخيم وكتبوا عهدا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر
فلما كانت الليلة الاولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع
الاساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندي ونفروا
من أقدارهم وأغلقوا الابواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة وبينما هم على هذه الحال
اذ برز أعمى من عرفان المكاتب اسمه بني وجعل يطوف في الازقة والحارات المجاورة لدار
البطريكية وينادي بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد قضى الامر اليوم يا قوم هاهم يبايعون
الليلة انبا يوساب فان تغافلتم ندمتم وان نشطتم غنتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت
الصلاة بادروا قبل الفوات هذا كم الله هذا كم الله * وما زال يكرر النداء ويكثر من الصباح
والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا الى دار
البطريكية فتبعتهم الغوغاء واقصموا الابواب وعلت الموضاء وكثر الصباح وهب جماعة من
الحشاش كانوا نياما بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزبنوا لهم اخراج الاساقفة من المسجد
فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمسارق واقصموا المكان الذي كان به جمع الاساقفة
ورسل الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الابواب وفرقوا شمل جميع الحجاب
وصاحوا في وجوه الاساقفة وأخرجوهم قسرا فعلت أصوات العامة وكثر الصباح ووقع بينهم
الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس في الماء أو عرج به الى عنان السماء
وظل جماعة الحشاش والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريكية حتى مطلع الفجر
فتفرقوا وانصرف جمعهم

وقد بدأ التعصب يدب في صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علامت اليأس فذهب
فنصل الانجليز الى عباس باشا وأخبره بما جرى وبالف في الامر وهول في سوء العاقبة وأشار
الى ما سيكون من وراء الابافة والمنع نخاف عباس باشا ورسم بأقامة داود وكبلا لدار
البطريكية فرضى الفتنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا ان أول الغيث قطر فلما كان
خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسوما بذلك فأقاموا الصلاة سرا خوفا من قيام
جماعة الحشاش اذ كانوا لا يحبون داود ولا يرضونه بطركا فلما كادت الصلاة تم حتى برح

الحفاه وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلقى بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقصموا
الابواب وبأيديهم العصي والمساوق وصاحوا في وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم
نما سكوا بالاطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الاصوات واشتدت الجلبة
وتطايرت العمام عن الرؤس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الاساقفة
واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان
لا يظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على اقامة داود خلفا لبطرس فلما كان يوم
الاحد التالي اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارا وسموه كيرولسا وولوه مطرانا على
كرسي مصر وكيلا للكرسي البطريكي فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع
الخلاف فتفرقت الكلمة ونحزبت الاحزاب وذهب كل الى مذهب في أمر كيرولس وكبرت
الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمي القوم وأصحاب الكلمة فيهم فخبروا عليه
في جميع تصرفاته ومنعوه من النظر في شئون المسئلة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان اذا أراد
النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا واذا جاع لا يطعم الا ما قدموه اليه واذا زاره
أحد فلا يأذنون له باقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهدا في تأليف
القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح في ضم الكل الى الكل فصاروا على
الخير أعوانا وفي ذات الله اخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا الى الاستنجاد بفنصل جنرال
الانجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم الى ذلك وما زال بعباس باشا حتى
رسم في سلخ شعبان من السنة أي سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته
فلما كان تاسع رمضان بايعه الاساقفة في أبهة زائدة وطبروا الخبر بذلك الى الآفاق
وفرخوا بولايته ووفد عليه المهنئون من كل صوب وحسب ولم يمس على ارتقائه منصب
البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه
محلا * ولما استقر بكيرولس المنصب جمع اليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة
وألح - أوف - التحاقد فقال الناس جميعا اليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فهدى الى
اخراج سبيلية قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة الى أوج المعارف
والتمدن وصروح التعلم والتفكير فأنشأ لهم المدارس التي لها بكار الاساتذة والمعلمين من
الفرنسيين والانجليز والاطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المدارس والادوات والكتب
المرتبة وغير ذلك * وكان المشار اليهم في تعليم الاطفال يومئذ جماعة من الذين يعرفون
باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما احسوا
بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخيبة وسد أبواب الرزق في وجوههم فجردوا الى
العداوة وايقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الاولاد وأمهاتهم على
العصيان وشنق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم الى التهلكة وصاحبكم
كيرولس قد عاهد الدولة على أن يجند لها من أولادكم ألوانا لتدفع بهم الى حيث لا يعلم

العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان وثبغوا ونجسوا نجاحا عظيما ثم أنشأ
بعيد ذلك مدرسة ثانية بالخطبة المعروفة بحارة السقاين فكان شديد الولع بها وكان في
نهاية كل سنة يولم الولاثم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم
يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب وبعد الموائد الفاخرة وكان اذا سمع
من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أو استكبرها على قائلها اصغره وعدم بلوغه حد النقد
فرح به فرحا عظيما واستعادها حرارا وأخبر بها كل من يراه في يومه فيقول سمعت اليوم
فلان بن فلان يقول ~~كيت~~ وكيت فسمري جدا ادراكه وتحقق لي نجاحه ان شاء الله *
ووجه عنايته الى ترميم المعابد واعادة ما تخرب منها فأعادها الى ما كانت عليه وأنشأ بالخطبة
المعروفة بحارة السقاين كنيسة وقد كان الى ذلك الحين يصعب جدا انشاء الكنائس تمسكا
بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الامور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ
أيضا الكنيسة الكبرى بالقبيصة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ دارا
للطباعة وسماها باسمه وسلم أمر نديرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة
الطباعة فطبعوا فيها كثيرا من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن
الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها في دار مخصوصة قد
أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة
بالخط والتعريف فصصحوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقوس
الاكليزيكي وهذب الزى الشماسي فجاء حسنا مقبولا جاريا الى يومنا الذي نحن فيه
وأحبنا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة
الانجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت الى آخر أيامه من أهم اللغات التي تتكلم
بها أبناء المدارس * وكان ميالا الى تعليم البنات وتهذيبهن الى حد يكن فيه معينات لازواجهن
ومهربات لاولادهن فصادف من المقاومة في ذلك اشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص
ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال أربه من ذلك

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب مارماه به الانجليز من
سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حاية الدولة الروسية
كما تقدم بيان هذا كله في محله ما أوجب تخوفه وانكاشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال
الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يهدده ولكن

ولا يمنعك الطير شيئا أردته * فقد خط بالاقلام ما كنت لاقيا

وطالت أيام عزلته ورسل القيصر تَعُوْدَه كل قليل وتجاربه في أمر الاتحاد الكنيسيتين
القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لا يصح انكارها فقد كانت من أعظم رغائب
كسبرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدهم تمسكا بأهدا بها وقد بذل في الوصول اليها
النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهود الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد

الكنيسةتين أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا ۞ فلما كان في أحد الايام جاء اليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه الى الديوان لأمر لا يتم الا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى ۞ فعاد اليه ثانية وثالثة فلم يربدا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فزالزم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فانوا اليه بطبيب فصرف العلة وأشار بالدواء فلم يأت به حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ في علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة ۞ من سنة تسع وستين

ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخسين وعثمانية وألف ميلادية ودفن بترابته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حط القبط جميعا وحط بنهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين الا أياما رحمه الله رحمة واسعة

۞ قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالى من قسم صومعة شغلاق باقليم اخيم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية الى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوقا تقيا ورعا محبا للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا الى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم أوى اليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم ناقت نفسه الى الرهبة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فنعته من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية الى دير أنطونيوس الاعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوبا موقرا يشار اليه فى المهمات ۞ فلما كانت سنة خمس وخسين ارتقى الى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبه الناس وفى سلخ جمادى الاولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطريرك وولاه الوكالة على الاحباش والاقواق فدير أمورهما وأحسن تدبيرهما وأكمل نظامهما وعرفه الناس فمالوا اليه وتقربوا منه فرأوه شهما حازما واسع الدراية بقطا نشيطا وفورا حسن السياسة ميالا الى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى احياء ما اندرس من معالم مدينة الامة القبطية والارتقاء بها الى درجات الرفعة والتقدم * وفى آخريات سنة خمس وخسين ومائتين وألف هجرية ولاد بطرس البطريرك الرياسة على دير أنطونيوس الاعلى فأحسن التدبير ورتب الامور على أحسن ما يرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فانست فى أيامه جماعة الرهبان فتنه كبرى ولبثت أياما حتى تمكن من اخذ نازها وبقي رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسيربه الى الحبشة رسولا الى النجاشى كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم الجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لا يلبس على جسده الا
أخشن الوبر يظهر الاعتناء بعظام الأمور وهو غاية في العفة والتعشف حليم بعبد
الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيع لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس
أيها رزين خبير بالأمور وبعوته خلا الكرسى زهاء سبع سنين كان يدبر الأمر فيها
مرفس مطران البحيرة ثم قام بعده ديتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة
أربع وخسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل
وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله
ان شاء الله تعالى

(الفصل الثالث والعشرون)

فى خلافة السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود خان

ثم قام بالأمر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز خان بن
السلطان محمود خان ببيع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين
ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت بذلك الاخبار
الى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد
الى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرئ فى ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به
السلطنة نظر الى أمور الدولة من أبوابها وأجهده النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب
القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدو ينشب أنظفاره فى جوفها فبالغ
فى اصلاح ما أفسدته الايام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ هراكب الحرب
وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الاسلحة الثقيلة فعادت كلمته وكبرت فى أعين
الخصوم هيئته وتقرّب منه الاسكندر الثانى قيصر الروس وتجب اليه وسالته وأخذ بقوله
وعمل بمشورته حتى كاد ينفذ ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الانجليز شرف ذلك
وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبدلوا النفيس
وتفربوا الى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال واعطاء
العطايا العظيمة وما زالوا يميلون ببناء البلادينة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم
تركية الفتاة وأمدوها بالمال فتمت وعظمت وكثر عددها وانضم اليها الكثير من خول
الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة
السلطان عبد العزيز ما قال مالك فى الحجر ورموه بالمروق عن الدين ووسموا بولاية الروس
أعداء المسلمين وأكثروا من التفريع والوقعة بعلى باشا الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وأهل
الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القعة الى حد كانت رسائلهم المشهورة

بالسبب والشتم وخش القول تلقى في مخادع الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وقد وصلوا الى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيين وعاصمة الانجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفعال أمرها واتساع كلتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك في محله * ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والاخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد الحميد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لاسيما الصدر الاعظم عالي باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم الى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم يتمكن رجال الدولة من استغلاله ولا مؤاخذته بأمر من الامور السياسية لافي الداخل ولا في الخارج ولا هبت للفتنه بسبب ذلك ناري في جميع أيامه لاشغالهم عنه بالكثير من الكوائن والحن الداخلية فكان في مأمن من كيدهم وفي حوز من شهرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة * ومات في أيام محمد سعيد باشا الامير أحمد أكبر أولاد ابراهيم باشا بن محمد علي باشا مات غريبا في النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بأقليم الغربية في يوم عيد اضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالاسكندرية وقد دخل عيد الاضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملاكين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الاحراء من ذرية محمد علي باشا لعمل تشريف العيد بقره بالاسكندرية فعمل التشريف في ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع الى القاهرة وكان جسر كفر الزيات الحديدي الموصل لخط السكة الحديد بما بين الاسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه الى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والواطورات جسرا مضركا على ظهر سفينة تسير في النيل بالبخر فكان اذا وصل المسافرون الى كفر العيس من الاسكندرية وقف القطار هناك فباتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحما بضفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقعدون بحملاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا الى أن يرسو ملتحما بالجانب الثاني فيدفعون بها عليه من العربات بمن فيها من المسافرين الى الخط الحديدي الموصل الى القاهرة أو بالعكس الى الاسكندرية وكان ممن ركب في قطار ذلك اليوم يريد الرجوع الى القاهرة الامير أحمد بن ابراهيم باشا والامير عبد الحليم بن محمد علي باشا وبعض الباشاوات مثل أدهم باشا وغيرهم ونزل أيضا الامير اسمعيل وأخوه الامير مصطفى فاضل أخوا الامير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الاسكندرية باعزاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار الى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين الى ظهر ذلك الجسر وقد كان في احدها الامير أحمد والامير عبد الحليم

وغيرهما من الباشاوات قبل انهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا
 بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتمزكت واندفعت الى الامام فسقطت جميعها في النيل
 وغرقت وكان الامير احمد شابا جميلا قوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فأت
 غريقا أما الامير عبد الحليم فانه لما سقطت العربية ألقي بنفسه من نافذتها الى البحر فعاونه
 بعض أصحاب السفن التي كانت هناك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا
 بالعربية مع الامير أحمد فكان المنظر مرورا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولوات النساء
 وانتشرت محاليلك الامير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادي
 السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضا من
 بقية الاموات وجاؤا به الى القاهرة وغسلوه في بيته الذي بجانب القصر العالي ثم دفنوه في
 ثاني يوم في مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيرا في أمر موته فقالوا انه أغرق بأمر من
 سعيد باشا كي لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكي تنتقل الوراثة بموته الى أخيه
 الامير اسمعيل * قلت وقد حدثني أحد محاليلك الامير أحمد قال جاء الامر من سعيد باشا
 الى مولاي الامير وهو بالقاهرة بشخصه الى الاسكندرية للحضور في تشریف عيد أضحى
 سنة ثمان وسبعين فقمنا في صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا الى الاسكندرية قبل المساء بقليل
 وبنا ليلتنا تلك والامير ساكن البالي رائق الحال وأصبحنا وقد دعاني فدخلت عليه فرأيت
 الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاي ما باله يبكي وقد كنا بالأمس على
 أحسن ما يكون من السرور وصفاء البالي قال رأيت البارحة في نومي كأنني وياك على
 شرفة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل في طلبنا جماعة من العبيد
 السود فما وقع بصبرهم علينا حتى هجموا على هجمة الاسود الضواري وأخذوا جميعا بيدي
 ورجلي وألقوا بي في تيار النيل فمقت مذعورا من نومي وتعوذت بالله وغت بجفائي هاتف
 يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولما ذا قال قد أنت المنية فلا مفر فمقت مذعورا
 وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فمقت فاذا بشخص في رى الفقراء
 وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب مني وقال قم يا أحمد فقلت ومن أنت يرجعك الله قال
 رسول ملك الموت فمقت يا كيا من ساعتى كما ترى * قال فقلت يا مولاي هذه أضغاث أحلام
 وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشریف
 فقام ولبس كسوة التشریف وركب وهو في قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا
 بقولق من قولقات العسكر قاموا اجلالا وتعظيما ونفخوا في البوق فيبكي ويذرف الدمع
 فلما انقضت ساعة التشریف قال لابد من السفر الساعة فقلت يا مولاي ارحم نفسك
 ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لا بل نسير الى القاهرة عسى الله يفرج كربتي فركبنا القطار
 وركب معنا جميع الامراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد
 رجال ديوان سعيد باشا وهمس في أذن الامير اسمعيل فالتفت الى أحد أتباعه وقال أنزلوا

مناهي فقصت عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل ان كان ولا بد من بقائك
اليوم فاني مرافقك ونزلا معا وتركنا فصار بنا القطار حتى وصلنا الى كفر العيس وكان من
أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصي والدان فآله الله ولا حول ولا قوة
الا بالله اهـ

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فانه مات سادس عشرى رجب سنة
تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف
ميلادية * قال بعض الكتاب من الغربيين لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء
خبر ذلك الى الأمير اسمعيل وهو بالقاهرة سير الى الاسكندرية أحد المقربين اليه من
جماعة الفرئيس واسمه ديفيوليرسل اليه باخبار سعيد باشا في كل يوم ومنه بالاماني
الكثيرة والعطاء الجزيل ان هو بعث اليه بخبر وفاته فلمبث ديفيور بالاسكندرية أياما يرسل
فيها الاخبار الى الأمير اسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل اليه يقول أعدوا
البيت فقد عزم الساكن على الرحيل * يشير بذلك الى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار
الدينية وتأهب اسمعيل باشا للدخول فيها * فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيرا ولمبث ينتظر
ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير الى الاسكندرية من يجهزه ويدفنه هناك
وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا الى القاهرة ولم يبق منهم بالاسكندرية الا نفر
قليل مع محمد شريف باشا الذي لم يفارقه طرفة عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بان
يدفنه في القاهرة وقيل في الاسكندرية فخرن عليه الناس كثيرا لاسيما أهل الاسكندرية
وأقامت النساء عليه المناسبات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته
زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه
الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جناته

(مطلب)

ولاية اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا

يبيع في اليوم الذي مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة
تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمير اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا
بايعه في قلعة الحبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطبخوا
الخبر الى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الافراح والولائم وبولغ في
ذلك مبالغة زائدة جدا وفرقت والدته في ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة الى أرباب
الدولة والعلماء والمشايخ شيئا كثيرا وأقامت الادعية في المساجد أياما ورسمت بتزيم بعض
أضرحة الاولياء والصالحين من مالها تفاولا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاءه

فرمان السلطان عمداً الى تغيير الكثير من عادات البلاد والاحداثات المتبعة وتصرف في الامور ونظر في ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب في المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجباة والعمال والقباض والرقباء وتقرب كثيراً من رجال السلطنة وأهل المايين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم في عظام الامور وأجرل عطاءهم فهدوا له العقبات ودلوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الابواب وحسبوا الى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فقال الى ذلك ووردت الاخبار بعزمه على الحضور في نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ اسمعيل باشا في الاستعداد لقدمه وأنفق النفقة الواسعة في اعداد معدات اللواتم ولوازم الافراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماماً عظيماً فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية على باخرة عظيمة يحضرها الاسطول العثماني الحربي وفريق من العسكر وكان في انتظاره في الاسكندرية اسمعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقبول في أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لملك من ملوك المشرق والمغرب وسار في شوارع المدينة والذهب يتربين يديه وكان في ركابه مراد أفندي وعبد الحميد أفندي ابنا السلطان عبد الحميد خان ورشاد أفندي ويوسف عز الدين أفندي والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الاسكندرية الى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبي الطريق من الاسكندرية الى القاهرة فلما دخل اليها قوبل بأحسن ما قوبل به في الاسكندرية وشرق من وسط المدينة فانطلقت السنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع الى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقراً بها فزينوه بأنواع الحرائر والمقاصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على ما دُن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسيني والزينبي والنفيسي وغيرها فكان اذا مر بالناس وقفوا صفاً واحداً واحداً وتعظيماً فينظر اليهم عنة وبسرة نظرة لطيفة وهي كناية عن السلام في عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة اذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر اليهم كأنه يحییهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهي حالة لم يرها السلطان في بلاده فإنه اذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلاً أو في أيام الموكب أطرقوا بأبصارهم الى الارض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الاضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف الا القليل وكان اذا ركب سارت خلف عربته الجنايب السلطانية وطائفة الحرس السلطاني بالعمائم البيض والبرانس الحرير الابيض وفي أيديهم القرابينات على شكل جمل للغاية

مطلب

مجيء السلطان

عبد العزيز الى ديار

مصر

ولبت بالقاهرة أياما ثم سار الى الاسكندرية وركب منها الى دار السلطنة وتبعه الاسطول
الحربي والسفن التي تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند
العامة ومن لاخلق لهم وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه الى مصر وقد أخذتهم
الطيرة اذ لم يسبق لاحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض
مصر وكبر خوفهم وقد أخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم الى المرحى البعيد
فلما كانت سنة احدى وعثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء في
البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يسترك قرية ولا كفر الا ودخله واشتد شدة
بالغة حتى كاد يفتي جميع البقر وقول وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس
الدهن والزيت فأمر اسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الاجنبية كالنمسا والمجر ونواحي
الاناضول السمن وهو في غاية الرداءة والتفن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا
فكانوا يتزاحون على الوكائل ومخازن التوزيع بالاحطاط وهم في ضجيج وجلبة تصم الاذان
واستمر الحال هكذا أياما كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد
الى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكذب ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت
الاسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا في سواحل بولاق
ولا في مصر القديمة ولا في جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء في الاسواق
يحملن المقاطف لملهن يجدن من يبيعهن قمحا أو دقيقا وعلم اسمعيل باشا بما عليه الناس
من الضر فهاه الامر وأزعجه ورسم يجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فاتوا له بشئ
كثير منهما وفرقوه في الوكائل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين في الصباح والمساء نادوا في
الناس بذلك ففرحوا وتزاحوا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تراحم الجباة واستمروا على هذا
الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الاقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان
الدولة وعم الوارد منها الاقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن الفسلب حتى ظهر
الوباء في الناس ثانی عشر المحرم افتتاح سنة اثنين وعثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد
الموت شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء
تموت بجانب جدران البيوت وفي الازقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث
الى المقابر وبالغ محافظ المدينة في نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته الى رابع
عشر ربيع الثاني فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزع الكثير من الاجانب وأهل البلاد
الى الديار الخارجية فرارا من الموت وخط الناس وخطوا وقالوا ان هذه الكوائن انما
هي ناجة عن دخول السلطان الى مصر اذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم
بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة ونشاموا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه
وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمتبحرين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا
وابتهلوا الى الله تعالى وتوجهوا اليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة

وما انقطع الوفاء وسكنت الخواطر حتى جعل اسمعيل باشا يتصرف في أمور الدولة بحسب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع دى لسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد في حفر ذلك الاتصال كما كان العهدين سعيد باشا ودى لسبس واستعان اسمعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب الى الباب العالي يقول

ان عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه في عمل قد أضرب بالحرب والناسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز الى أصحاب صحف الاخبار المصرية فهبت من نومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة الى إبطال هذا العمل والاختذ بأسباب الحزم ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان الى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة بجواز عمل ذلك الاتصال بعد أن سار دى لسبس الى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكام الصدر الأعظم في ذلك مرارا فكتب على باشا الى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيين في شأن ذلك يقول ❦ غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثيرا من أنفس أوقاتها في بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومع كونها تود من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل المهم بالاتحاد مع الدوالتين البحريتين العظمتين لعلها بأهمية وخطارة هذا الاتصال الا أنه قد ورد على الباب العالي في هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها ابداء رأى أمير المؤمنين في هذا الامر ويحزنتي جدا أن أرى انه قد بدئ وكاد أن يتم عمل ذلك الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الامور بين الباب العالي والدول المتحالفة معه كما يعز على أيضا إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبر الاهمية على أنى مع ذلك أقول انه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال الا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالي على جعله حرا مستقلا تحت رعاية حكومة البلاد التي هو فيها بمثابة بوغاز البوسفور والدرنيسل في دار السلطنة العثمانية لاسيما وقد تكلفت تلك البلاد أعني البلاد المصرية بتسغيل زهاء عشرين ألفا من أهلها في حفر هذا الاتصال عونوة وسخرة مع سبق النشر والاعلان بإبطال هذه العادة الخسنة التي يابها العدل والشرف ومما يحول دون اعتراف الباب العالي بتتيم عمل ذلك الاتصال ما جاء في عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسى دى لسبس صاحب ذلك المشروع حيث بعد محمد سعيد باشا الموسى المشار اليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة جميع الاراضى التي تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة وعلى ذلك لم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع وبحيرة التمساح

ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة
ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة
أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا أخالكتم تشكرون على القول بأنه مامن حكومة
رزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ
استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفجعة جورا وخذلانا
لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث
محمد سعيد باشا بصورة منها الى الباب العالى وهو يعلم حسره الله ما وراء ذلك من تعبير
سائر الامم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الحق فان أجازته فانما يجزيه بعد
قبول هاته الخصال الثلاث

الاولى منها جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية
دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الاحوال
الثانية رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد

الثالثة العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شئ من الاراضى
لشركة هذا الاتصال الا ما كان لازما لانشاء معاملها وورشها فقط

فاذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الدبار وسهل التصديق
على بقية الشروط المدونة بالعقد * فالذى نسألكم اياه الآن هو أخذ رأى الدولتين
المحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والانجليز عما يلىق عمله الآن أيليق منح شركة حفر
هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائها الا هضم حقوق رعايا الدولة العلية
واذ هاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياح كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق انه
اذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على
ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أو تسلمه لشركة أخرى بشروط
وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته
اذ كان اندفاعها الى العمل بغير اجازة ولا مسوغ أفيدوا الجواب * ووردت الاخبار بهذا
المعنى الى اسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب الى الموسىو
دى لسبس يقول

لا يلىق بنا أن نفخى عليك معرفة انه لما كان ما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال
البحر الابيض بالبحر الاحمر قد كنا خابرا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى
أن يفتينا فى الامر بخافنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخاطرة مع شركة الاتصال
المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد ادخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع
المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الابهة وعدم قبوله لغاية
الآن ولا إخالك فجهل انى مذ وليت الاحكام الى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شئ

يعادل هذه المسئلة وكان الذي لم يقبله الباب العالي وهو عيان فيه للآن كل الممانعة
 أمرين الاول تسخير أهل البلاد في ذلك العمل والثاني تنازل الحكومة عن منفعة الاراضى
 الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور فلاجل أن لايزداد الامر اشكالا والاحوال بيننا
 جدا الا قد رسمت الى فوبار باشا بجل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء
 الشركة وافي لوائى بانك تبادر الى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة
 النية كى لا يقع بسبب ذلك في مستقبل الايام مالا تحمد عقباه وقد ضرب لنا
 الباب العالي أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فان مضى الاجل ولم تنفق على أمر
 يحسن السكوت عليه لم يعد اذ ذلك في وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل
 المسئلة في دور جديد مع الباب العالي وبغز الوفاق ومعاذ الله أن نصل الى هذا الحد * وسترون
 أن الذى رسمته الى فوبار باشا ليخبرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم
 مع انجاز مشروعاتكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر
 الى تبليغ مقدره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض
 المراد جعله حسبا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قابلا لسير
 السفن الحربية فان أمير المؤمنين حرمه الله لاشئ أحب اليه من المحافظة على السلم
 واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول اه فاجتمع فوبار باشا بعد أيام مع الموسىودى لىبس
وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين في حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين
ألفا الى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل
عن جميع الاراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة
الى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضا بجميع نفقة التربة المراد انشاؤها من
النيل الى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الاخذ والرد واشتد الجدل وكاد
يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع اسمعيل باشا الامر الى ناپوليون
امبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف اليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار ناپوليون بوجوب
تقرب الفريقين واصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب
الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن
فتم الوفاق على ما شاء اسمعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الاراضى التى
كانت الشركة تنازع فيها وبنفقة التربة الحلاوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان ما أنفق
على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف ألف وخمسمائة
ألف قرش وورد فرمان السلطان في ثنى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية
يقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك المحنة
وحسبت مكرمة الى اسمعيل باشا على مر الايام
 وكان اسمعيل باشا قد سبر غور رجال المايين وأصحاب الحل والعقد في دار السلطنة بعد أن

مطلب
 سعى اسمعيل باشا
 في حصر ولاية مصر
 في ذريته دون ذرية
 محمد علي باشا

تم له ما أراد في أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية في نزع حقوق الوراثة المحصورة في ذرية محمد علي باشا بمقتضى فرمان السلطان المؤرخ في شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها في عقبه من بعده أى في الارشد من ولده وفي عقب ولده قال بعض أهل التحقيق * وقد كانت رغبته في ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير عبد الحليم ابن محمد علي باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى في دار السلطنة وأنفق الاموال الطائلة وأجرل العطاء لارباب الدولة وتزلف الى أصحاب الحل والعقد ورجال المايين وهادى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص الى الباب العالي يشكون من أفاعيل عزاها اليهما وقال انهما كادا له وعلا على قتله وكان أخوه قد نزل في جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب ووعده فانكمش عمه بمقره بشبرى بضواحي القاهرة وانزوى عن الناس فرادى في التضييق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين اليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبائع في نكايته حتى أخرجه مدحورا الى دار السلطنة فنزل على أصحاب المايين مستجيها فلم يدعوا له بدا قد بسطوها الى عمه فأقام يراقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال اسمعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبذل النفيس حتى مال السلطان الى طلبه وحقق أمينته ورسم في ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من اسمعيل باشا الى أكبر أولاده ثم للارشد من عقب ولده وجاء فرمان بذلك الى القاهرة ففرح اسمعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعلت الولاة والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الافراح وتصدقت والدته اسمعيل باشا وأطعمت وفرقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكسيت أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالي بعد قليل من الايام انه لم يحدد في فرمانه الخطة الواجب اتباعها عند ما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن في اغفال ذلك تعقيدا واشكالا فسير في ثاني صفر من السنة الى مضر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الاقوال في شأنه وتراحت الظنون الى المرمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما في ذلك فرمان وتناقلته أصحاب صحف الاخبار على اختلافها

وبدأت من هذا الحين تعلو كلمة اسمعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة الى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخالطة رجال المايين وأصحاب الحل والعقد في دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه الى التشبه بكار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما في ذلك من استرضاء الناقسين من كبار الدول الاورباوية فرسم في شعبان من السنة أى

سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرة بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق وترتيب
 مجالس الأئم المتدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ في الامر وطير الخبر بذلك الى
 الآفاق وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر ذلك
 المجلس وقالوا هو من مقدمات الاصلاح ومبادئ السلاخ وانتقال البلاد من دور الخشونة
 والهمجية الى دور العمران والمدنية قال بعض الكتاب ولم يكن في الامر شيء من
 ذلك البتة فانه مانع اجتماع أعضائه وجعلوا يتظرون في مصالح البلاد حتى زادت الضرائب
 وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على
 الرعية شدة بالغة وفواب الامسة لا يعرفون من مواجب النياية غير الطاعة لمن قال من
 كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكأنوا جلا ثقيلا على عاتق أهل البلاد
 وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنهض عند ذلك بعض
 أصحاب صحف الاخبار الاجنبية الى الطعن وتجردوا الى التعيب ورموا فواب الامسة
 بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيات مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية
 والاشكال السخرية وحدروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير فلم
 يضعف هذا كله لاسماعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة
 وأصحاب الكلمة في المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الاخبار في التقرير والتعيب
 زاد هو أيضا في التقرب الى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف
 العظيمة فيقضون له كل ما في نفسه واشتدت رغبته في التسمي باسم لم يسم به أحد ممن
 تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزير مصر وأن يرسل له خطا بذلك فطاوله
 السلطان ومناه فكثرت رسائله الى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق بقاء الخبر بأن السلطان
 قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لاحد نوال مثلها
 من الوزراء وكبار القوم فان لقب عزير مصر انما هو دون لقب خديو اذ كان يوسف
 ابن يعقوب عليهما السلام عزير مصر أى وزيرها والأمين على خزائنها ففرح به هذه
 البشرية وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الاول من السنة جاء فرمان
 السلطان بذلك على يدى أحد القراء السلطانية فقرأ في محفل حافل للغاية ودقت البشار
 وطيروا الاخبار الى الآفاق ودعوا للسلطان في جميع المساجد بالقاهرة ومصر والاقاليم
 القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو اسمعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت
 وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الاجنبية والقروض مع أصحاب
 الاموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل المكوس وفعل كل ما يختار من
 غير معاودة ولم يعض على ذلك الا اليسير حتى مالت به النفس الى الاستزادة وتآقت الى
 الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد الى تنظيم الجند والاكتار من معدات الحرب وحسن

الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بثغر دمياط ورشيد وأبي قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشتري الكثير من البنادق الجديدة المستعملة في جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الامريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل في جيوش الممالك الاجنبية وأكثر من التزلف الى نابليون امبراطور الفرنسيين وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله في المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تحف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما في نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم الى على باشا الصدر الاعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون في شئ وكان صفاء الود الذي بين الخديو والصدر المشار اليه قد تكدر لاسباب لم تصل الينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون الى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبررة

واتفق في هذا الحين أن تدم الى دار السلطنة على نابليون امبراطور الفرنسيين بدعو السلطان الى الوليمة المزمع اعمالها في عاصمة الفرنسيين عند فتح المعرض الذي أقيم فيها وقد دعا اليه الامبراطور كثيرا من الملوك والامراء والخديويين ليعمل تسار الخديو من الاسكندرية في سابع صفر ووصل السلطان الى باريز في تاسع عشره فقبل باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بهازهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المايين فكلسه الامبراطور في أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهون عليه الامر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان الى دار الخلافة في سادس ربيع الثاني سنة أربع وعشرين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياها فعرفه من حضر الى باريز من الملوك وأولاد الملوك والامراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف اليهم وبالغ في التظاهر بظاهر كبار الملوك فأنفق وأهدى وأجزل العطاء وحبيب اليهم الحضور الى مصر عند عمل الافراح لفتح خليج السويس فتم من أجاب الى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد الى الاسكندرية وأقام بها أياها يذبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما في أصغر بلاد الفرنجة كمراسم الشخص ومواقف المغاني وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد الى القاهرة ورسم الى بعض المقربين اليه من الاجانب بإنشاء مسرحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة ولبه وهي منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثاني على يسار الاول وسموه باسم (الاوربا) وبالغوا في تزيينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والنقوش البديعة وأتوا اليهما من الديار الاوربانية

بجماعة المستخصين والمشتخصات والمغنين والمغنيات وأسائذة هذا الفن وعملوا لهم من
الملبوس والخلى الفاخرة شيأ يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجاكي والمرتببات
الواسعة ورسم الى شركة ترعة السويس بأن تنشئ على نفقة الخزينة أيضا دارا في مدينة
الاسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والامراء والكبراء فأنشأتها فكان ما أنفق
عليها زهاء ثمانين ألفا ذهبا * فلما حل الاجل المضروب لاقامة تلك الافراح والولائم وكان
الاتصال بين البصريين الأبيض والاحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطا وهو كاف لخلل
البواخر والسفن التي تشق عبابه سير الخديو رساله الى الديار الاوروبوية بدعون
ملوكها وأمراءها الى تلك الافراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ في الأبهة
والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم وطبولهم
وزمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فجمعوا بمدينة الاسماعيلية وهي إحدى المدن
التي أنشئت على شاطئ الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية العباسية وأمر بجمعوا سائر
المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال
متنوعة بهجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحزاقات والاشكال النارية ووضعوا الرايات
الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى الى هذه الافراح وجاءت الى مدينة الاسماعيلية
طوائف العساكر والاجناد بالمدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن
الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت اليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وغول
الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكت أجال المأكول والمشروب
بمحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الافراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر
الاعظم يخبر الدول الكبرى في أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين
واستتغاره لواجبات التبعية وأنه اذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب
من الانسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمرا من أهم الامور وأكبرها بغير اجازة وأنه
ليس من الحكياسة ولا من حسن السياسة في شئ أن تذهب الضيوف الى دار أمير
المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ
كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع * قال بعض
كتاب الاخبار وكان قد بلغ الباب العالي أن الخديو انما يريد بهذه الافراح واستدعاء ملوك
الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تابعة السلطان فهال
السلطان هذا الامر وأزعجه جدا ورسم الى الصدر الاعظم بمداكمة الخطب قبل استفعاله
وشدد في ذلك فكاه الصدر الاعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أجمع بعض الملوك
عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفصلوا أو كادوا ولاحت بشائر
التفكر للصدر الاعظم فكبر الامر على الخديو واستعظمه وشكى حاله الى نابوليون واستنجد به

فكلم نابولايون المصدر الاعظم في ذلك وشدد وهدد وما زال الامر بين أخذ ورد أياما حتى تقرررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والامراء اجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه الى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير الى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء في هذه الولاة لتفتح مراسم النهائي باسمه الشاهاني وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأنايب السلطان عنه مبعوث دولة الانجليز وزوده بما شاء مما لم تصل اليها معرفته

فلما كان ثاني شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرة قدم الوافدون لتقديمهم أو جنية امبراطورة الفرنسيس وامبراطور النمسا والمجر مع ولي عهده وولي عهد ملك ايطاليا وكثير من الامراء والكبراء وولي عهد البروسيا فباتوا ليلة في مدينة بور سعيد بين مظاهر الانس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم والحشم وكابر ممالكهم ونزلوا الاسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الانجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا لياليتهم ورأوا من اتقان نظام الولاية وحسن ترتيبها ما لم يحس على مثال سابق وكانت الموائد تمتد تباعا في الخيام والصواري والسفن والاماكن التي أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة * قال بعض كتاب الاخبار * فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم في حيرة وأصبحوا رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا في مجلس أعد لهم وبينهم أو جنية امبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الافرنسية فقامت فيهم الخطباء والقضاة فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا في الاطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف في وسطهم مبعوث الانجليز وقد كان لا يظن وصوله في هذا الحين فقام الخطيب خطابه بالثناء على الخديوي وامتنح من حسن لقائه وكرم أخلافه فصاح رسول الانجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البروهنتف الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحذب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعا بعضها آت من البحر الابيض المتوسط وبعضها من البحر الاحمر وهي مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الاسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالي الصواري وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة على هذه الولاة والافراح ما قدره ألفا ألف ذها ما عدا الهدايا والتقايم النفيسة التي أهداها الخديو من ماله وهي كثيرة جدا * ورجع من

حضر من الملوك والامراء ولم يبق الا أوجنييه امبراطورة الفرنسيين ومن معها من الحشم والاتباع وبعض الامراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدا فبالغ الخديوي في اكرامها ولازم ركبها حيثما سارت وجعل الامير حسين ثانياً أولاده في خدمتها وطاف معها الخديوي جميع ضواحي القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والاهرام وسقارة وغيرها على ظهور الخيل وأراها جميع العادات المصرية في المأكول والملبوس وفي الاعراس والولائم وفي تشييط العروس وجسوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوج بعض خطيباته الى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الاعراس على أحسن ما يكون من الابهة والعظمة الشريفة ثم سارت أوجنييه من القاهرة تريد الصعيد فسار الامير حسين في ركبها وخصص الخديوي لخدمتها سبب عشرة باخرة تغر في النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الحشم والاتباع وبعضها لجلب الماء كل والمشر في كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الاموال شيا كثيراً ثم عادت ولبثت بالقاهرة أياما قلائل ثم سارت راجعة الى عاصمة الفرنسيين ومعهما من التحف والهدايا الفاخرة والاعلاق الثمينة مالا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن الوصف

ولما فرغ الخديوي من ثلاثين مرة السويش وأفرأحها عاد الى التفكير في أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الارسانيات العلمية والعسكرية الى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأمياهم وغير ذلك واهتم بتحصين فرضتي سواكن ومصروع الواقعة على ساحل القلزم وقد كان تقدم الى السلطان في ضمهما الى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية في مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة الى الخزينة السلطانية وإبلاغه الى سبمائه وخمسين ألفا من الجنهات فأعطاه إياها السلطان فحصى سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرابطين من العسكر المصري وفعل كذلك بمصروع ثم تأهبت عساكره وشتت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما الى جوف السودان والدار فور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعانت جنوده في تلك الاصقاع وأعملت فيمن عصاها السيف فقتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا باسمهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جبابة الاموال من أهل الخشونة والقوة وول بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآهلة بالانسان والحيوان والضرع والزرع منقيا لاصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولة الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنخاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلوههم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل نقصير * وكان ممن سيرهم الى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتعرب من بعض

كبار رجالها رجاء الغنم رجل مساوى الاصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره
حينما ثم عاد حاملا شياً من محاصيل البلاد وزين للعديو التغلب عليها وضمها الى مملكته وقد
كانت الفتنة يومئذ فائمة بين ملوكها وأمرائها وانطلق ضارب فيها أطنايه قيل وأقسم مشنجر
للعديو بأعظ الأيمان أنه يملكها ويدونها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة
فأعجب العدويو رأيه ومال اليه ومازال مشنجر يتردد على أبواب العدويو حتى ولاه المحافظة
على فرضه مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان العبرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار
مشنجر اليها واستقر بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرب اليه بعض مشايخ السواحل
واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم الى دس الدسائس وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا
ولبت على هذا الحال حينما ثم استقدمه العدويو الى القاهرة وعرفه أياما ثم أعاده وأنفذ اليه
جيشا خفيفا معقودا لوائه الى ارندروب بيك الامر بكاني أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم
العدويو للخدمة فى الجيش المصرى ورسوم له بالزحف على البلاد وقبضها وأقام مكانه فى
المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمى المحدث لابس به فخرج مشنجر بالعسكر
من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرا بطيئا وجعل يستميل فى
طريقه مشايخ القبائل الضاربة فى الطرق والمسالك وقرب منه شيخ قبيلة الحبشيين وبالغ
فى التودد اليه ومناه بالامانى الكثيرة فلازم الشيخ ركابه خديعة ومكرا وسار معه وهو على
قدم السبع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير الى أراكيل بيك
يعلم بالخبر فكتب أراكيل الى العدويو يبشره بذلك * وتآقت نفس أراكيل الى الخروج
والغزو مع مشنجر لبشاطره النصر ويشاركة فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالجملة وساروا
جميعا وعيون النجاشي من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما
بلغوا بلدة (جنسدت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع
مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والاتباع كانهم ذاهبون الى
عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فينما هم نيام على فراش الاطمئنان اذ دب
عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الاثر وأحاطوا بالخيام احاطة السوار بالمعصم
ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعلموا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم
مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأنخنوا فيهم قتلا وطعنا حتى
أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر فى سرادقه فذبجوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح
النساء وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شابا جميلا حسن
السمائل عاقلا ذكيا مواعا بالعالى وقتلوا كذلك ارندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجري
بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح وموئن وذخيرة وخيام ودواب
للحمل ورجعوا نظافرين غافين

وعاد من بقى من العسكر الى مصوع فى أسوأ حال من العبرى والجوع وكلهم مقنن

بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر الى الخديو فهاله وأزعجه * قال بعض الكتاب
وأقسم بالايمن الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار
ورسم الى راتب باشا أحد مقدمي العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند واعداد المعدات
وشدد وبالع في ذلك وكان قد عاد في هذه الاثناء من الديار الاورباوية الامير حسن ثالث
أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم في عسكر الانجليز وعسكر الامان حينما
فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر
والاجناد وتسبيحهم الى مصوع فسار أولا عثمان رفيق باشا أحد مقدمي العساكر من
الشرا كسة على رأس الألبان الى مصوع ونزل بها أياما ثم لحقهم الجيش كله في ذي القعدة
من السنة في ثالث عشره ولبثوا بها جميعا زهاء أربعين يوما حتى تكامل وصول مؤنتهم
ودواب حملهم وذهبيتهم وآلات حربهم ووصل أيضا الامير حسن ومن معه من
أركان حربه ومقدمهم الجنرال لوريج الامريكاني المعروف بابي ذراع لبتذرعا الى مصر ثم
بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار في مقدمتهم عثمان رفيق باشا بن
معه من العسكر الى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهي تبعد مسيرة يوم للمجدد المسافرين
ويومين للراكب المظلي وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع في
يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا
على بلدة (بعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب
فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أجمالهم يوم الاربعاء وباتوا ليلة الخميس وفي
الصباح الذي هو أول المحرم افتتح سنة ثلاث وتسعين ساروا الى (عدرسه) فنزلوا عليها
في غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قبح خور) التي يقال لها أيضا
(قباخور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها في ضحوة يوم السبت ثالث
المحرم المذكور وقباخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار الى أركان
حربه بتهيئة مكان انزول العسكر فأنزلوهم غربي البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم
وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشؤا قلعة على ذلك الاستحكام على
أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخذلوا حولها خندقا على أعظم ما يكون من العنق
وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع الى قباخور وأزالوا
ما يتخلله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للارتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء
الشعير مؤنة الدواب والدقيق والعسل فاشترؤا من ذلك شيا كثيرا وآخرون لاسترقاق سمع
الاخبار عن النجاشي يوحنا ومن معه من العساكر والاجناد وقد سار عن (عدوة) تحت
مملكته يريد الالتقاء بالعساكر المصرية والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد
الى بلد حتى وصل الى ناحيتين يقال لاحدهما (دنبه) والاخرى (لمزه) وهما يبعدان
عن المعسكر المصري زهاء ست ساعات فتربص هناك * وجعل الامير حسن يرأس كبار

الجبشان وأمرأعهم ويستميلهم الى طاعة أبيه وعينهم بالاماني الكثيرة فكان أول من مال الى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر الى معسكر المصريين في نفر من الجند والاتباع فأكرم الامير حسن وقادته وأهداه شياً من الملابس وشقق الخريز وهذا الرجل من أهل العصاة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية في واقعة ارزندروب وجاءهم أيضاً (دجاج) ولد تكايل صاحب الجاسمين في جيش عظيم وطبول ورايات فللقاه الامير حسن ومقدمو عسكره وأحسنوا لقائه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلان الكاشميرية وشقق الخريز والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصري يوماً وليلة وأطلقوا اقدموه بعض المدافع وحادثه الامير حسن فيما هم بصدده * وولد تكايل هذا من دهاة الجبشان وأصحاب الكامة فيهم واجتمع حول المعسكر المصري بذلك الصقع الكثير من السوقه وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعير والسمن والعسل والبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعرز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدي التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الصرا كسبة شديدي الفسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغار * قالوا لكى لا ينفشلوا * ويلقونهم في أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أتعس الايام وأشدها ويلاً * وكانت عيون الامير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشي وعسكره في كل يوم أشكالا حتى أتت فأخبرت بان النجاشي على أهبة الزحف بخيله ورجله في يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا في العسكر المصري بالتأهب والاستعداد للملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشي عن دنيه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان الى عنان السماء فاطلم الجؤ والنقت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف فأظهر الجبشان الفهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصري ومارالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم نارا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورا هناك وطلعوا على قطعة من اليمس توصل الى خور نان وكلاهما يجرى فيه الماء والجبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة الا وقد أخذ الجبشان المصريين من خلفهم يعملون في أفقيتهم السيوف والحراب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطنين والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة لاقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك بالحكمة لا يعلمها الا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان

الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند
الخور الاول في جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف
وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من
حاشيته والعدو في أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصري أي
انفصال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج
الحصن والواو الرمي بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكس الاجسام من العسكرين
كسبا بل فعلت بالمصريين فعلا تنفطر له الاكباد وتترق من هوله القلوب وما زال الرمي
مترا سلا الى قرب الزوال فتفرق من بقي من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمي
القنابل وقد امتلأ ذلك الوادي بالجلث والجرحى من العسكرين وجرى فيه الدم جريان الماء
في خوره وكان المنظر مزججا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا
على ذلك أياما

ووقع في أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف
بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذا قوهم من العذاب * قال أجد رفعت بيك مقدم كتاب هذه
الجملة في رسالته التي ألفها باسم * جبر السكير في الخلاص من الاسر * وقد كان وقع في أسر
الحبشان في هذه الواقعة ووفقه الله تعالى الى عقد رباط الصلح مع النجاشي ما نصه * وقد
حضر اليينا والحرب قائدة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة اذ ربما يكون قد
دهمها جنود الاعداء وعلنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كانلى
في القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به الى مخدومه
لتوصيل ماء اليه فنادت الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدى بذلك أن يوجد جوادى
بجانبى حتى اذا فاجأتنا الاعداء بالهجوم واضطرتنا الحال الى مغادرة القلعة ألفت الجواد
بجانبى ونجوت به مع التابعين * قال ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع الى يستحضره
ويحجزه فلم يعد هو أيضا فاشتد حنقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ما شيا ومعى قريينة
وجحشانة بقصد ما يكتفى سعيها على الحصول على جواندى وألها في مشا هذه الحرب ومشاركة
القتال وقد ظننت انه اذا حصلت هزيمة عساكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما
شاهدت ذلك في محاربة كريد فأكون ما بين ذلك قد تمكنت من العود الى القلعة غير أن
الامر كان بخلاف ذلك اذ لم يكن عساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية
وما كنت أظن هذا الامر ولا أتخيل حصوله * ولما أخذت في السير وبعدت عن القلعة
بمسافة ألف وخسمائة متر تقريبا وجدت حسن أفندى أحد الكاتب معى حاضرا خلفى على
قدميه ثم رأيت حضرة محمد على بيك الحكيم راكبا بجير ومعه خادمه وشا هدت خادم محمد
بيك جبر الميرالاي راكبا على بجير محمل ماء لتوصيله الى مخدومه فأمر محمد على بيك الحكيم
خادم محمد بيك جبر بالنزول عن البجيركى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القريينة للخادم

المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القرينة للخدام من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا
ببرهة لم نشعر الا والعجاج التأثير غشنا شياً فشيئاً وقد رأيت وقتئذ شاين من عساكرنا
راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا ان عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالبحير
قصر عن الاسعاف ثم حزن وعمد الى التقدم مجفلاً عن الرجوع فلم أجد سبيلاً سوى الترحل
فزلت عنه ولسان حال يقول

أنل فدمي ظهر الارض انى * رأيت الارض أثبت منك ظهرا

وقصدت العود ما شيا ولكن هيات اذ بعثت المسافة ولم يمكنى الجرى قال أما
الكتاب فاندش وانذهل وقال هات يدك ثم اتفق في الى الجبل وقد رأيت محجاً على بيك
الحكيم راجعاً بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو في الحال ثم القلعة بالهجوم
فأحاطت بنا احاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سداً محكماً ثم أقعدني أحد
فرسان العدو فعمد الشابان المنهزمان الى ضربه فقال لهما أمان فكفأ أيديهما عنه فعاد الى
وجدي بنى من يدي فتخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوب نحوى بندقيته ولم
يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه اياها من باب الارهاب ثم عمد الى
سيفه وضربني به ضربة جاءت خلف أذني اليسرى فأسالت الدم في الحال غير أني لم أشعر
بها الا عند نزول الدم على ملابسى لما اعتراني من الدهش والانذهال وشتات الذهن
وتفرق البال ثم شفع الضربة الاولى بثانية صادقتني خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة
التأثير فائلاً * كيدن * ومعناها بالحشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمي القرينة
للخدام المتقدم ذكره اذ لو كنت حاملاً لبعض السلاح لظننى الفارس محارباً وابتدرنى بالقتال
والكشفاح * قال ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طار عنى الفارس المذكور
خائفاً وجللاً فاختفيت في شجر المرسين فلما سلم منهم عاد الى فادركنى بعقبى ومخبتى وقهرنى
على القيام وكانت النيران في أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدو صداً لهجماته وردا لغاراته
فأخذ العدو فى القهقري ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بي عن جواده اتقاء الاصابة
بالمقذوفات النارية راجعاً الى وراء مخنياً في سيرة مشيرة الى بالاقتراء به حتى أسلم من
الاصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم في
مناحم الهجوم ومزدحم الرجى يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد
أفضت بنا القهقري الى نفق بالجبل فأوينا اليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا
مقذوفات المدافع فتصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجع أخذ
الأسر المذكور يمضى بي على مهل حتى وصلنا الى نهير فاغترف لى منه ما بيده وسقانى وبعد
أن شربت شرع فى سلب ما على من الثياب فاخذ منى أولاً الباطون وكان ملطخاً بالدم وعلقه
بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا الى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية
عشرة نهرا تقريباً فرأيت هناك جوعاً شقياً ولم يمكنى أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى

أعهدده من قبل وذلك بسبب ما أصابني من الدهشة والفرق ووجدت هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سألت الأسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميرا من الأمراء أو غير ذلك فأخبره وكان لا يعرف أنني منهم مستدلا على ذلك بزي وهيتي ثم رفق الأسر ساعتي وسلمتهما وأراد سلهما فأخرجت نخمي من السلسلة بحيث لا يراني وأخفيته في جيب البنطلون لتعلق به إذ هو عندي من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ مني الساعة والسلسلة وعلقهما بعنقه وصار يدور حولي رابكا ويقول كلاما أفهمه قيل لي فيما بعد انه عبارة عن ترغ به شجاعته وذكر حسبه ونسبه وأنيانه بأسير وبعد ذلك وصل بي إلى محل في هذا الميدان وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحدا وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا الميدان وهو الكائن شرقي (فرع) الذي كنا اتخذناه معسكرا لنا في أول الامر إذ وجدت في المكان الذي كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمي فقلت سبحان من أحلني بهذا المكان أسيرا وقد كنت فيه البارحة أميرا وأعلى منيت بالأسر لحكمة مستورة علمها عند الله إلى أن قال وفي صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحشدون زمرا وأفواجا على هيئة القبولات واحتفروا للتوجه إلى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا في معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت البنادق والمدافع منبهة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحى الوطنيين بين الفريقين فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند إذ يصرن قائلات أيت أيت وهي كلمة تضرع ومعناه ياسيدي ياسيدي وكن يسجدن على الأرض يأخذن الغراب ويذررنه على رؤسهن وهذا جميعه طلبا لنصر والتماسا للتظفر وبعد ساعتين تقريرا عاد قوشو أسرى وعلت من حاله انفضال أحمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالنعائب إلى آخر النهار وسيامهم الحزن والاكدار إلى أن قال ولم يكن العدو أن يتغلب على الاستحكام في محاربة يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوبا مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار إلى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريرا من العساكر فلو أن السبع أورطات يعني كامل العساكر التي ساقوها لهذه الغزوة التي خرجت من الاستحكام أقامت به وعلقها الثلاث أورطات التي كانت في قياخور لتكوين من ذلك قوة عظيمة في الاستحكام ولا نهزم جيش العدو شرهزيمة ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التي أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف التيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا لكسره وتبديد جموعه قال وحصول الامر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة وتباين الآراء لان جناب السردار رأى أن تحصن العساكر في الاستحكام وتلحق بها الاورطات التي كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العساكر لمقابلة

العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم اخلاء قباخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات * الى أن قال * ولكن اذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فان صاحب ذلك الرأي يريد (الامير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى اننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف أن كانت مقذوفات مدافعنا تصل الى معسكر العدو أم لا وما علمنا وصولها الا بعد أن غادر جيش العدو هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها الى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعي ولا يضح ايجاد العساكر في مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه واشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فانه لما اصطفت عساكرنا في ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه الا الهبوط الى النور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه الى ذروة الجبل فتسلط على عين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا الى الرجعي منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بهيواناته وانكبت جملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا في أسر العدو اهـ

ولما لم يتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوههم ونقلوا جراحهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا في الحال على من عندهم من الاسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفجعوا في ذلك جدا ثم ساروا أفواجا وهم في عدة كثيرة بكرائهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (أفلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك في طاب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبليلة البال مأخذاً عظيماً فقام وسار مع رسول الملك ومعهما الأسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب الى حيث النجاشي يكلمه في شئ من أمر الصلح والكف عن الحرب * قال أحمد بيك فلما وصلنا الى ساحة الملك وجدت الأسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له واذا هي كخيمة الملك وهي مصنوعة من جوخ أحر أما خيمته التي يقيم فيها فن قماش أبيض قال وبعد برهة طلبت اليه وكان أول من قابلني على باب خيمته شخص يعرف قليلاً من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحفير ولم يبق لديه الا عمه المدعور رأس سريه فقال لي ذلك الشخص الذي قابلني أنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شئ فقلت نعم ولما دخلت في الخيمة ألفت الملك متلماً حتى لا يمكنني من معرفة صورته وقيل لي فيما بعد ان من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الاجنبي المعادي خوفاً من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمرة عارى الرأس مضافور الشعر مستطيل الوجه عسلي

الغنيين ضخم الانف بارز الاسنان حافى الاقدام نظيف الملابس وعليه منها جلالية ولباس وفوطة مننح بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه محسدة وعلى يساره أخرى وهما كبيرتا الحرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الارض كيمان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألتى عن وظيفتى ثانيا وكان اذ ذلك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصارت ترجم بينى وبينه

فسألتى الملك بواسطة ترجمانه قائلا ما سبب حضوركم وما القصد منه قلت ان القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والالفة بين الفريقين ولما أرسل اليكم أرندروب بيلك أحد النواب المدعو محمد عبيد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال نحن لم نأمر بسجنه الا لكونه قال ان الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع الى المارب ومن العادة أن من يريد المفاوضة فى هذه المسائل لا يأتى ومعه العساكر فأرندروب بيلك حضر الى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فان كان ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيلك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان شحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجول فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيلك لم تكن الا للمحافظة عليه فى أثناء الطريق واتصال خط المواصلات والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقي العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر اليه والى من معه حتى لا يكفوا جناب الملك بشئ ما فقال ولو أن كلامك من هذا القليل غير أنى عارف ببواطن الامور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم ولكن أخذه الأسر فأمر الملك حينئذ باحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الجهور الى أن قال * ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الاسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحراب وبعض أمتعة فطلبت قمرطاسا وقلما ودواة فاحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى مستى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الاقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسسته وطالب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والاحسان اذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الاحرام بعضا من العسالية فتناوتهم مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية اخرجوا وقصدى بذلك اخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تهجبا من اخراجهم مع كونهم هم أصحاب الحبل ثم أخذت القمرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك الى جناب السبرنس حسن باشا وذكرت فيه

اننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الانغم ولكن حال دون هذه الامنية تمويهات مشنجر باشا محافظ مصوع وبشبه الاكاذيب حتى بقى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والرام من حضوركم بالجند الى بلادنا فالاولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الامر الذى نحن فيه الى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محو ولا اثبات ثم عرض على الملك فغتمه وحررت منى كتابا تركى العبارة الى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القليل مع الاختصار وختمته باستلقات نظره الى ضرورة حسن هذه المشكلة بالحسنى

وقامت رسل النجاشى بالكتاب الى المعسكر المصرى وسلموه الى الامير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا انما نحن آتينا فحمل خطاب الملك لا أن نناجيكم فى أمر الصلح فرسم الامير حسن بأن يكتبوا الى النجاشى بأن يرسل اليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أباما كثيرة وسار فى عسكره عن (أقالبه) الى ناحية دوايه احدى بلاد الحبشيين وهى التى وصلت اليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت التجارة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك الى الامير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الامير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال لم يأذن لى مولاي بالكلام فى شئ من ذلك فكبر الامر على الامير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد بخائه طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قباخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك العرق وكذلك كتب أبيه وكأها فى معنى ما هم فيه * واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم الى إعادة الكرة على المعسكر المصرى ما زاده قلقا وزعاجا فسير الى راتب باشا سرا يسأله تجهيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله وعدم التطويع الى إعادة الحرب التى لا تؤمن عاقبتها على حالة أن النجاشى موصوف بالحنان والرفق كارها لارافسة الدماء راغبا فى المسالمة والتؤدد فأجابه راتب باشا الى ذلك وحسنه على عقد رباط الصلح والاسراع فى عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومنه بالامانى الكثيرة ان هو عجل فى العمل فتقدم أحمد رفعت بيك الى النجاشى فى طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستماله وهون عليه الامر فرسم له النجاشى بطلب أحمد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شئ من ذلك فسير أحمد رفعت بيك الى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعوث بضره فلم

تسكن الا أيام حتى جاءت الاخبار بقرب وصول على أفندي الروبي أحمد مقدى الفرسان
المصريين وأجد أفندي عبد الغفار ويوزباشى من الاقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح
والكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الالفين
من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللفظ في معسكرهم بقرب وصول المبعوثين
فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى
مع بعض الامراء الذين هم في ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيراً
ورسم بنزلهم على الرحب والسعة فأنزلهم في خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شياً من المأكّل
والشرب ولبنوا يومين يتكلمون في قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من
قبله الى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب
ليكا منكاس ورقى أياما وعاد معه شئ من الهدايا والتحف ومبعوثو الأمير حسن المفوضون
بعقد رباط الصلح فتناجسوا في ذلك أياما فكان ما طلبه المصريون من الحبشان رد سائر
المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصر والحبشة فكره
النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لاسبيل الى رد شئ من الاسلحة البتة اللهم الا اذا كان
ما قدره خمسمائة بندقية لا غير فألح رسل الأمير حسن فى الطلب وجعلوا يهتفون على
النجاشى الامر فأخذته ثورة الغضب وقال لاسبيل الى رد شئ وقد أخذتم من بلادنا
سمنيت ومصوع بغير مسوغ شرعى ومصوع هى مينا الديار الحبشية ومفتاحها
البحرى فلا سبيل قط الى شئ مما تطلبون وما كنا لتتوقع من خسد بويكم أن يناوينا الشر
على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعاله هذه ما هدرتوه من دم أولئك الإبرياء فالتهم
عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الأمير فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الاعراض
والازدراء بعد الذى اقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن باعراض النجاشى
عنهم وعدم الالتفات الى شئ مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شئ من السلاح والمتاع
ولا رد شئ مما غنمته عساكره البتة سوى ارجاع الاسرى والتعاقد على الحبسة والولاء وفتح
طريق التجارة بين الممالكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول
فرسم النجاشى باحصاء الاسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الاسرى
حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أمرىكى اسمه
دورهام فانفت اليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحيمهم تحية الوداع فخرجوا فسادر أمامهم
أصحاب الطبول والزمر بضربون بطبولهم ويعزفون بزاميرهم والحبشان من نساء ورجال
على جانبي الطريق حتى دخلوا الى المعسكر المصرى سالمين

وعاد الأمير حسن بن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدى العساكر المصرية من
جماعة الشراكسة الى القاهرة ثم طفقهم طائفة من العسكر وقيت طائفة أخرى بعضها
بقياخور وبعضها بعد رسة وبعزره وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا الى القاهرة

وحل محلهم جماعة الباشا شيدوزق والعربان وبقي راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه في إحدى السفن التجارية وأنزلوا ما بقي من المدافع والأسلحة والمهمات في ثلاث سفن كبيرة وبينما هي تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها السماء فنقله بصخر في الماء فغرق بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على الأثر إلى رأس الوادي فأقاموا بها أياماً ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أتعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتي النصر لمن يشاء من عباده

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم المتقدمة والدول الكبرى في الترتيب والنظام وتنسيق المباني وتوسيع الطرق وغرس الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ في هذا الأمر ورتب له ديوانا مخصوصا وقيده بجماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة في توسيع الطرق وإنشاء المباني وعمل المراسم ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة وإنشاء الحدائق والمنتزهات البديعة وإزالة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الأرض بالحصى الأحمر وكسوها بالرمل الأصفر وهدموا الكثير من الدور والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتسكيات توسيعا للطرق وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئا كثيرا فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سبى على بعض سببا في انحلال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التي مدت إليها يدها بعد ولاية اسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيئا من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهام من شركة خليج السويس فنكرت من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبدت أيديهم فأعطوا وسحبوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقرروا وتلطفوا في المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضا باسم أملاكه وزروعائه الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكن الحديد الزراعية والأبنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغربية وبالع في أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والقصف الجميلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمباني الفاخرة في باب الخرق وخطة الاسماعيلية والقبه والخيرة وبولاق التكرور وزوج الكثير من جواربه وسراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبقي لهم الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر

الأواني ورتب لهم الجماكي والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف وكان اذا نصب الايراد وأجلت الخزينة وعز الدرهم عمد الى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا واعادة أشكال المكوس الغربية التي كانت على عهد ملوك دولة السرا كسنة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والارغال وأصحاب الاموال تطاولوه وهو يمينهم بالاماني البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الاموال تجوب البلاد شرقا وغربا وأصحاب الاموال من اليهود والروم تتبعهم فاذا تعذر على الممول سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرائين بأبخس الاثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص * ولم تكن هذه المحن لتقعد الخديوي عن اعطاء نفسه كل ما تنهه اذ سار في سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أي سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهم من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقائه وبألف في اكرامه فأقام في قسطنطينية شهرا أنفق فيها من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولاة الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم اليه من طاحنة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المراهي الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف من الجنيهات أي ثمانية وعشرون مليوناً ذهباً بحجة وفاة جميع ما على الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى في شؤون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة مجالا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقي أوراقا * هي المعروفة في عسرف أصحاب الاموال بالسندات الاسمية * فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى الى خزينة الخديوي هذا المال في آجاله فلم يهتم له الخديوي وتقدم الى أمير المؤمنين في قبول ثلاثة آلاف ألف منه اعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال الى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوي العود الى القاهرة وفي خزينة شئ مما بقي من ذلك المال فعمد الى شراء الخوازي الحسان والجواهر الثمينة والاعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليلة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الالعب النارية والانوار والفرش والمأكول والمشروب مالا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولت كذلك والدته لوالدة السلطان وليلة أخرى وقدمت لها من الثعابي والاعلاق الثمينة مالا يمكن وصفه قال بعض كتاب الاخبار وتحقق لهما في تلك الليلة أنهما من اقرباء بعضهما تجتمعان في جند واحد ففرحتا بذلك فرحا عظيما وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما في كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوي

بعد ذلك أياما كلها أفراح ومواسم ثم تقدم الى السلطان في أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الاسكندرية في أوائل ربيع الثاني من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله اليها ودقت البشائر وزاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع اضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لترتبة الخديوية اليه وتحدث الناس في ذلك كثيرا ولم تقض الا أيام حتى قرئ الفرمان في محفل حافل بديوان السلطان الملك الغوري بقاعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والامراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان ما في الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة مانه

قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار نخط سلطاني يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المأخوذ المرحوم الوالي محمد علي باشا الحكومة الارثية سواء كانت تلك الفرمان متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ في المستقبل حكم تلك الفرمان جميعها بما يتضمنه مما سياتي بعد ويكون دائما نافذا مراعيا الاجراء

ان كيفية وراثه الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوع كرسيا الى كبير أبنائه ومن هذا الى أكبر أبنائه أيضا وهم جرا علما بان ذلك أدنى الى المصلحة وأرشد ملائمة لاحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطاف الذي صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وانباتنا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمات سواكن ومصروع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية ابكر أبنائك ثم ابكر أبنائه من بعده فاذا لم يرزق من ولي الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لا كبر اخوته أو لا كبر بنى أخيه الا كبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغي أن تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية

اذا توفي الخديوي وكان كبير ولده قاصرا أي غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة وأما اذا كان الخديوي المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفية وذوى ادارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الاوصياء يقبضون اذ ذاك على ازمة الاعمال عقب وفاة الخديوي ثم ينهون ذلك الى الباب ليشبههم في مناصبهم ولكن اذا توفي الخديوي بغير وصية وكان ابنه قاصرا فجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الادارة الداخلية والخيرية والمالية والخارجية والحفانية وقائد العسكر ومفتش الاقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوي وصيا باجماع الآراء لا بالاغلبية فاذا تساوت الآراء لاثنتين من المنتخبين كانت الوصاية

مطلب
فرمان السلطان
القاضى بنقل وراثه
الخديوية من عقب
محمد علي باشا الى ذرية
اسماعيل باشا

لأرفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها وبشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعا أمور الخديوية ويعرضون بذلك اسلطانتنا السنوية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما أنه لايجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما اذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول أحد أعضاء المجلس وبديل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصص على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أى مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها مالا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمواقف وأمزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة والازوم والاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضا الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتحديد المفاوالت مع مأمورى الدول الاجنبية فى أمور الممالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الامور المالية فقد أعطيت له الرخصة فى عقد الفروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنفيذها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبشكل أو بتقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب الازوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالأعلام التى لعساكرنا

السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان
أما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته أن ينشئها متى شاء

ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل
القدر من ديواننا الهمايوني وأعطى لكم ممتما ومعتدلا وشارحا للخطوط الشريفة والاوامر
المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت في وراثه الحكومة المصرية وفي كيفية الوصاية
أو في ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط
أن تكون احكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الاجراء على ممر الازمان قاعة مقام
احكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته ارادتنا السلطانية فينبغى أن تعملوا قدر لطف عنايتنا
وتؤدوا الشكر لها ونصرفوا الهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ
باسباب وقاية الرعية واصلاح شؤونها وتأيد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة
والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا احكام
الشروط الواردة في هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على
الديار المصرية سنويا في أوقاتها المعينة الى خزينةنا العامة السلطانية على القوانين
والقواعد المرعية انتهى بنصه

وظل الخديوى سائرا على ما بهواه من السرف وتهميد العقبات أمام أصحاب الاموال حتى
تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأنقلوهم بالديون التي لاخلاص اهم منها ونال أموال قرض
الثمانى وعشرين ألف ألف مائال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة
في عرفهم بالديون السائرة الى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الايراد والخديوى مع
ذلك لا ينكف عن انشاء المباني الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتعالى في
أسباب الزينة والترف والاتيان بهجائب المقتنيات من بلاد الهند والعين غير مبال بما
وراء هذا كله * وكان المنولى النظر على الخزينة في هذا الحين المشير اسمعيل صديق
باشا فاعمل الفكرة في رأب هذه الصدوع فلم يكن في الامكان اصلاح ما كان واشتدت الازمة
واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجاكي والمسرقات والعلوفات
ولا سيما جماكي الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاجوا على
أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير اسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد
الى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخطون
ويحبطون ويعنون غيرهم بالامانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكهمش أصحاب الاموال
وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم اليها واشتد الطلب على المشير
اسمعيل صديق باشا وقد سدت في وجهه أبواب الخيل ولج الخديوى باصلاح الحال تعاميا
وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التي كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم
الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الانجليز وكلهم في شرائها باسم دولته

مطلب

بيع سندات خليج
السويس الى دولة
الانجليز

فأجابه الى ذلك وعجل بشرائها كي لا يسبقه الى ذلك قنصل جنرال الفرنسيين * فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم الى المشير اسمعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات الى المستر جورج قنصل الانجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار اليه فقضيت في تسليمها أياما فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها الى عاصمة الانجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض ما لم يكن لأحد في حساب وفرح كبار سياسة الانجليز بشراء تلك السندات فرحا عظيما وتكلم أصحاب صحف أخبارهم في الامر ففصلوا وقاسوا وألبسوه قوب الاطراء والمدح وصدوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا بقرعون الخديوي وينذرون به ويرمون به بالخيانة ويسمون المشير اسمعيل صديق باشا بالثغري وظلوا على هذه الحال أياما كثيرة لم تكن لهم بدا فيها أيضا خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الاحاح في طلب الوفاء * واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الانجليز من التفريع والتعديد الى تحريض صاحب سياستهم على التداخل في الامر والاخذ بناصر أصحاب الديون والبحث في الاسباب المترتب عليها احوال الخزينة ونضب الإيرادات وأطالوا الكلام في ذلك وبالغوا فلم يرض الا القليل حتى وردت الاخبار بقيام مبعوث من الانجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيث) وهو مزود بشئ من الاسرار فاهتم الخديوي لحضوره رايا من شأنه رايا قصر الترهة من ضواحي القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المساكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل الى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوي بقره بعبدين فاحسن الخديوي لقاءه وأولم له في تلك الليلة ثم لم يلبث أياما حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا ان كيث هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف الخبا من أعمال الخديوي والحامل له على السرف وانفاق الاموال الطائلة التي استدانها باسم الخزينة في حين أن الخزينة لم تأخذ منها الا القليل وأما العلانية فهي البحث في حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد والمصرف منذ تولي الولاية والاسباب الحاملة الى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها الى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير اسمعيل صديق باشا الى ذلك المبعوث فكنت أؤدي رسالة كل منهما الى صاحبه وأحمل الى (كيث) الصكوك والاوراق الديوانية التي كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلا عاقلا رزينا واسع المعرفة وكان اذا طلب شئ من الصكوك أو الاوراق نقيه تنقيا فلا يتركه حتى يأتي على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر الى عاصمة الانجليز فظن الناس أنه عاد صفر البدين والامر على غير ذلك فانه لم ينكشف عن البحث والاستقصاء والاثبات على جميع الامور من أبوابها حتى عرف ما لم يعرفه أقرب الناس من

مطلب

حضور كيث رسول

من قبل الانجليز للبحث

في سبب عن الخزينة

مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألتى المشير اسمعيل صديق باشا عما استطلعت من أعمال كيف ونواياه مسدة مكثى معه فأعلمته بما عرفتته وكشفتة بما استكشفتة فظن أن فى الخبر اطراء ومبالغة وان الرجل سار عنا وهو لا يعرف شيأ من عوراتنا * وما جاء الخبر بوصوله الى عاصمة بلاده حتى أرسل كبير سياسة الانجليز الى الخديوى يستنضه الى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الاحوال بسبب استنجد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير اسمعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الاخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزيمة باكثر مما كانت عليه وبقي الحال هكذا حينما وشاع الخبر بتشكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقيه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الاخبار الانجليزية فى ذلك وبالغوا وهولوا * فلما كان سابع عشر ربيع الثانى سبر السلطان سرياورانه الى مصر ومعه خط شريف باس تحسان مساعى الخديوى لدى الذات العلية * فمضت طمنا منها مع احالة فرضة زيلع ومطقاتها على الخديوية المصرية مقابلة

مطلب
حضور فرمان من
السلطان باستحسان
الخديوى اسمعيل

هذا الامر وكبر عليهم جدا وخبرد بهرهم من ...
فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيين ميالين الى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الانجليز الى ما طلبوا وكتبوا الى الخديوى يسألونه التجيل فى فض هذه الأزيمة بالتي هى أحسن ويحذرونه شر العاقبة فنهام وبقي الحال هكذا أياما كثيرة

وعاد أصحاب الديون الى الوقوف على باب المشير اسمعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشئ منه فلم يفلحوا فهدوا الى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الامر الى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء الخبر الى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيين والانجليز على تسيير رسولين الى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيين والانجليز ونحدث الناس فى هذا الامر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران الى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد بركة الازبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى الا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وان جميع طلباتهما المتعلقة بأمور يتما انما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الامر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الانجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه چوير

مطلب
حضور جوشن
الانجليز وچوير
الفرنسيين لتحقيق
ديون البلاد

وبالغ جوشن ورفيقه في البحث والاستقصاء عن موارد الايراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصص الحق وبان ولم يعض على ذلك الا القليل حتى رفعا الى الخديوى محضرا بما رأياه من أوجه الاصلاح وهى * اقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والاخر انجليزى وتقسيم أعمال الخزانة الى قسمين قسم للايراد ويرأسه الانجليزى وقسم للصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه الا الاذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر الى القاهرة ذلك الذى تولى على الايراد واسمه المستر رومين وحضر أيضا الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزانة وأمرها ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذ ما فى يد المشير اسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة الا الاسم فقط ثم رفعا الى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك الى رجل من الانجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى واثنيهم انجليزى وثالثهم مصرى يختصون بشغال السكك الحديدية غير تابعين الا الى جهة واحدة هى نظارة الاشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه ان تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الامر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الايراد من قبضته فلا يعود فى امكانه الحصول على شئ مما كان فعمد الى المراوغة والتطويل وسير الى جوشن ورفيقه يعلمهما بان مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الامور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير اسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الاخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد الخديوى واصراره على الاباءة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوى بمقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول ويتهدهد بأفشاء ماعله من خفى سره * قال بعض الكتاب * وأرسل اليه يوما رقعة يقول فيها * لقد كنت أتمنى أن لا تحذوبى مأمورىتى الى حد توجيه السؤال الى شخصك الكريم عن أمريهم دولة الانجليز معرفته ولكنى أرى نفسى مع زميلى مضطرين الى سؤالك أين صرفت الاربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزانة والايراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا الى هذا الحين * قال فلما اطلع الخديوى على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الامر فجعل يردد ويزيد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع اليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الامير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الاقاليم وشاورهم فى الامر فتكلموا فيه كثيرا ثم استقر رأيهم على تكليف المشير اسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوى الى جوشن بذلك واستدعى اليه المشير اسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لاجواب عندى البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال ان كان ولا بد فلا جواب عندى سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تتبشك بما فعلته بتلك

الأمرال وما يبدته في الحل والترحال قال فاستعظم الخديوي هذا الكلام واضطرب منه أي اضطراب وراجع المشير فقال لاسبيل الى غير ذلك * وعاد رسول الخديوي ومعه جواب من جوشن يقول لاجاسة لنا البتة الى السؤال من اسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولا نطلب الجواب الا من شخصك بجمع الخديوي اليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم في ذلك اليوم أيضا المشير اسمعيل صديق باشا وتناجوا في الامر طويلا ثم انفض اجتماعهم على ما لم تصل اليها معرفته * فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر الى مقر الخديوي بعابدين أحد أتباع المشير اسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيري باشا المهر دار وسلمه اياها ففرضا واذا هي خطاب الى شخص الخديوي غاية في الشدة وفي بيان ما أصاب خزينة البلاد من الاحمال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال باسباب أفاعيل الخديوي وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والتفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الامر لمن بيده سبحانه وتعالى تدير سائر الامور فدخل خيري باشا على الخديوي وناولته الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح على به الساعة فسار اليه خيري باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء اليه طونينويك أحد رجال التشريفات فامتنع أيضا فارسل اليه أحد نشات بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء اليه خيري باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا الى مقر الخديوي بعابدين فلما دخل على الخديوي أحسن اقامه وبش في وجهه وعاتبه وتلطف في عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير اسمعيل صديق باشا من عنده في نحو الساعة الثالثة ليلا وفي ثاني يوم الجمعة صباحا جاء رسول الخديوي يدعوه كالعادة فسار معه الى عابدين وصعد الى مقر الخديوي فلم يلبث الا قليلا حتى جاءت عربة الخديوي أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوي ومعه المشير اسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما في الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل الى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى وعقد الخديوي في تلك الليلة مجلسا بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتي الديار المصرية وتكلموا في أمر المشير اسمعيل صديق باشا وأسندوا اليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخديوي وحرروا محضرا بذلك وحكوا بتبعيه اليه الى دنقلة إحدى مدائن السودان ووقعوا جميعا على ذلك المحضر فلم يعلم الناس الى هذا اليوم شيئا مما جاء فيه غير ما قلناه وقد قذلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول * حدثني صاحب لي * قال أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير اسمعيل صديق باشا الى دنقلة وموته بها مبطونا * قلت نعم هو الصدق الذي لامراء فيه فقال اعلم أنه لما ركب الخديوي مع المشير

العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفروها الى قصر النيل وكان به الامير حسن ونسأوه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلالمك النفث الخديو الى المشير وقال تبق هنا قليلا حتى أزور ولدي وأرجع اليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة واذا بالامير حسن قد أقبل وهو يتلدا في مشيته وسلم فقام المشير اجلالا له وحياء فنظر الامير اليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التي ستقلك الى دنقلة مبعدا فقال وما سبب ذلك يا مولاي وأى ذنب حنيتته وأنا أصدق الناس في خدمة أبنيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لشارته فقال لست أدري ويعلم الله هل لك من حاجة تسألنيها ففاضت عينها المشير بالدمع وقال لاشئ أسالك وانما أسأل الله الرحمة بي ثم نادى بأعلى صوته * يا غياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا اليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجعاعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم اسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الامير حسن وخلفه الامير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادئ اللب ساكن القلب فقال له الامير حسن قم فقد تم كل شئ فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الامير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه الى اسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمي باشا محافظ المدينة يومئذ

قال الراوى لهذه العبارة وسمعت ممن يدعى أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الاميرين حسن وحسين أن الامير حسين لما رأى جنبه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له لقد خانتك الايام بالثيم فانذهب * قال وعندي أنه لم يحصل شئ من ذلك فقد كان لوقوع هذا الامر الغريب في ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه الى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبايبك وأرسوها في وسط النيل فكان المشير يصيح وينادى كل قليل كأنه في غرفة نوم ثم كثر هذيانه واشتدت جلسته وما زالت الباخرة في مراسها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الاقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفي صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة الى الصعيد وقد طيروا الخبر الى الآفاق بعدم دفو أحد منها ولا خروج أحد منها الى البر فسارت في عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس في ريب من صحة الخبر حتى وصلت الى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال الى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير مبطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضي دنقلة ومديرها وبعض مأموري الحكومة فيها وعادوا الى القاهرة وقد شوهده في سبابة اسحق بيك النبي جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة ونحدث الناس في أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد

رحمه الله تعالى رجة واسعة قال وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به الى نسائه فقام الصباح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات في نعمته الى دوره وأقن الصباح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الاصوات فكانت ساعة تنفطر من هولها الاكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعمال وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بنات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجدوه من الامتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوه على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذريته الى دار فى خبطة التبانة تحت قلعة الجبل وشرّدوا ممالئكه وغلمايه وخصميانه وأقصوا بعضهم الى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزنتارته واثنين معها ليدلن على خبايا المشير وأمواله ونقلوه الى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترفن بشئ وقلن ان جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا ما بقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالعوا فى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطالب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحذب فعيّنوا اهل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا مالا لأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الامير حسين ثاى أولاد الخديوى بأن للخرزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة الى ما طلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأواني فاخرة وغير ذلك فاشتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأجنس الاثمان وظلوا على هذه الحال أياما ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الامر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجلها زينة فأعطى الخديوى واحدة منها الى المشير محمد شريف باشا فانتقل اليها بعباله ورسم بجعل الاثنين الآخرين مقررا لبعض دواوين الحكومة فأنزلا فيهما الخارجية والحفانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها الى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

قلت وقد كان بين المشير اسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الانجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان اذا أتى الرجل الى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الانجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر الى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وچوير فاجتمع بالمشير اسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجحانها وكاشفه على كثير من المسائل المهمة التى لا محل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالحق

هـى فقال له المشير انى عزمت على خلع نفسى وترك مناصبى فيوليه الخديوى من يشاء من أولاده فان منهم من يزاحنى عليه أشد المزاحمة قال ومن هو قال هو الامير حسين فاذا تخليت عن المنصب واعتزلت وجاءنى الطلب من جوشنكم * يريد جوشن الانجليز * وسأنى عما أعلمه من أمر المصرف والايراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه الا فاعل ذلك أطلعته على ماظهر من الامر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى منذ تولى الى هذا الحين فيخف عنى ما ألقيه من اضطراب الحال وبليلة الببال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه * فقال له أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وانى أراه داهية غادرا خذاعا يظهر غير ما يظن فقال لم يبق فى قدرته فعل شئ من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فانا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلى ما عليه * فقال الرجل لا يغرنك هذا الامر فسلطانك فى شأغل نفسك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المداهمة فلا تعجل فى الامر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم اقتربا على ذلك فلما رفع المشير قصته الى الخديوى وقد تهدهده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير الى صاحبه المشار اليه فجاء فقال لى قل لى انى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أرى خلاصا الا فيما فعلت فاذا تقول * فهبت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال قد قضى الأمر وغد ربك صاحبك فقال لى قل لى لا تخش من ذلك فانه غالب على أمره ثم انتقرا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير الى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير الى الباهرة ودخل على الخديوى وتقدم اليه فى أن لا يصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فانه ما برح منذ أنزلوه الى الباهرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فرما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا * واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف الببال فرد على السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لا محالة

وتقدم الامير حسين الى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير اسمعيل صديق باشا فولاه اياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الامور وكبيرها ولم يقدر على ارجاع جوشن ورفيقه عن عزيمتهما من إقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شاء وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديوى بدا من الاذعان ودرسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضا إقامة مراقبين من جانب الدولتين الانجليزية والفرنسية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم

أمرنا الإيجشورتهم ولا يعمل عملا إلا برأيهم بحيث يبقى منهم ما دائما لا يتزعزع واقامة عمدة
من جميع الدول يكون من اختصاصها اجراء جميع الاعمال المتعلقة بديون الخزينة
ومراقبة تحصيل الاموال الاميرية وصرفها الى أصحاب الديون في آجال ضربت لذلك فرسم
الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة الى القاهرة فأنشؤا لها مكانا مخصوصا
سموه * صندوق الدين * وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون
في الامور فجمعوا اليهم جميع ايراد المديرية والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا
على جميع الاعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا الى
بلادهما يظنان ان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الاخبار من
الانجليز والفرنسيين يثنون عليهم بكل لسان ويقولون انهما انما أقاما بحكمة منهما دون
تطاؤل يد الخديوي الى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن في الامر شئ من ذلك
النتيجة اذ عاد الخديو الى العبث بموارد الاراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها
ما شاء من الاموال الى خزائن زر وعاته وبعضها الى خزينة الخاصة وأعضاء صندوق
الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومربياتهم الفادحة التي لم تكن تخطر لاحدهم
على خاطر ولم يعض على ذلك الترتيب والنظام الجوشني الجوبيري سوى بضعة أشهر حتى
ظهر العجز في الاراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهبا وتعدذر القيام بمطالب أصحاب
الديون السائرة في آجالها وعادت الأئمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون
على أبواب الخزينة وأكثروا الالحاح واللباج وصاح بعضهم في وجهه الامير حسين
وخاطبه ببذى الكلام وفش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة
فحكمت وشددت في التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأمسلاكها فاشتد
الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت الامور خبالا واشكالا وأنفذت دولة الانجليز
الى المسترقيين قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوي في الامر ويسأله سرعة القيام
بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفعال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو الى
ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت اليه من أموال الخزينة وبقي الحال هكذا أياما
قد وقف فيها دولاب التجارة وضافت على أهل البلاد مسالك الرزق

وبينما كانت الأئمة في مصر تشدد والحال في ارتباك وخبال كانت الفتنة في دار
السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان
يعملون على خلعه ويحزبون الاحزاب ويهيئون العصب ويفتحون لافتنة أوسع الابواب * قال
بعض الكتاب * وتحسير الخبر * أنه لما أحس السلطان بمكايد الانجليز واتخاذهم رجال
الدولة وكبار السلطنة آلة صماء في أيديهم هم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تقدما
نحو أملاكهم الهندية أو تعطيل لرواج تجارتهم الاسيوية فتخسر السلطنة العثمانية
باسباب ذلك من الرجال والاموال والبلدان ما لا يمكن معه بقاء عين أو أثر لمملكة آل عثمان

مطلب
المواصلة على قنصل
السلطان عبدالعزیز

فقطن الى الامر وهم بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الانجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الامير أغناتيف ففرح القيصر بذلك وتحيب الى السلطان وترددت بينهما رسل المودة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا ما بين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جراح الانجليز وابعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تديرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الانجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسيربه الى كبير سياستهم فبعثته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والارصاد حول الامير أغناتيف وتجرّد الى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشترهم بالذهب الرنان ثم كلمهم في التدبير على خلع السلطان والتخلص منه قالوا اليه وباعوا آخرتهم بأبخس الاثمان وكان من وافقه على ذلك نوري باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدي باشا الصدر الاعظم وعوني باشا وقيصر لي أحمد باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام ومدحت باشا رئيس شوري الدولة وبقي هذا السر مكتوما بينهم حينما كانوا يحزبون فيه الاحزاب ويهيئون لايقاد نار هذه الفتنة أعظم الاسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الامر بعد ذلك الى محمد رشدي باشا ومدحت باشا وحسين عوني باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام وانضم الى عصابتهم أيضا السلطانة والدة مراد أفندي بكر أولاد السلطان عبد الحميد وجاعة من المايين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلي بيك ونفري بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الانجليز عهد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الاعظم الى الادعاء على السلطان بالدعوى العريضة واتهمه بمخالفة العدو والتفريط في أعظم حقوق الامّة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الاسلامية الى الضياع والنفاق قد مع قيصر الروس على ادخال جيش من الروس في قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وانه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جاعة الفرنجة في عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع الى شيخ الاسلام هذا السؤال وهو

اذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لاقدرة له على سياسة الامّة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة في ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية الى حد لا تطبيق الامّة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالامور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته

﴿الجواب﴾ يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين ومائتين وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عوني باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الاسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصاة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد الحميد خان فأنفذ الصدر الاعظم الى أمير

سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض فوافد مقره فاستغربه وسير الى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس في الامر ما يستوجب الخوف وانما هي مناورات لابد منها وعلم الصدر الاعظم ومعدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشياً أن يفتضح أمرهم ويتضح ماخفي من سرهم فلما كانت الساعة الثمانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصاة في باب السر عسكري وخرج رديف باشا في ألفين وخمسمائة من الجنود وأحاطوا بسرار السلطان احاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة ابوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عوني باشا في عربة وسار الى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه في العربة وهو لا يدري ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصل الى باب السر العسكرية لاقاهما شيخ الاسلام والشمري عبد المطلب وأخذوا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجنود وقفا على الاقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسي وحوله زعماء العصاة وتولى جماعة من العسكر حراسة الابواب كي لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الاسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الامراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجنود وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفرع ووصل الخبر الى رديف باشا بتمام البيعة الى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز الا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجنود فاضطرب واستكبر الامر جدا وقال كيف تأتون الي في هذه الساعة بغير اذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الامسة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح في وجوههم فقال له رديف باشا انظر من الطاق فنظر واذا بالجنود قد أحاطت بمقره ومسدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال أو أنتم فاعلمون بي شياً الساعة فقالوا لا وانما سنقوم بحراسة ابوابك حتى ينقل بك الى سرار طوب قبو وفي نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً أطلقت المسدافع من السبر والبحر ونادى المنادون في الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحذب الى باب السر عسكري وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره الى سرار طوب قبو فذهب معه السلطنة والدته وولده يوسف عز الدين أفندي وباقي أولاده ونسائه فأقامت والدته في حجرة بجانب حجراته خوفاً عليه من فعال الاعداء وقد وكالوا بحراسة السرار نفر من الجنود معهم نجيب بيك وعلي بيك وهما من أصحاب الفتنة * قال أحد كتاب الأخبار * ولما تم نقل السلطان عبد العزيز الى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومسدحت باشا ونوري باشا وبقية أصحاب

الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبيد العزيز وأرسلوا الى نجيب بيك وعلى بيك في أمر ذلك

واشتد القلق بالسلطان عبيد العزيز من بقائه في سراى طوب قبو وتطير من ذلك فكتب في عاشر جمادى الاولى الى ابن أخيه السلطان مراد يقول * بعد انكالى على الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع اليك مراسم التهانى بارتقائك تحت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الامة كما تبغى ولكنى أوّل أنك تباع هذا الارب وانك لاتنسى انى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى الى ما أنا فيه الآن انما هم الجند الذين سلمتهم أنا بيدي وحيث انى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا الى معاملتهم بالمعروف فأرغب اليك أن تاذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن الى مكان آخر وانى أهنى نفسى بانتقال الخلافة الى ذرية أخى السلطان عبيد المجيد خان ﷺ فرسم السلطان مراد بنقله الى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتولين حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان وأخفوه عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه نقرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم نقرى بيك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقبيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلقنوا جثته بقميص أبيض وحملوها الى ججرة قهوة وحقاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هنالك وقد شاهدت بعض ماحل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعرويل وعلت الضوضاء وكانت والدته السلطان قد خرجت من حجرتها اقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ماحل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأغلاق ثمينة الى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر الى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الانجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الاطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحجوها عما فيها فاختلفت كلمتهم وتجاجوا وطال بينهم الجدل وقال طبيب سفارة الانجليز ان السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الاطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الاطباء واشتد الجدل بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على

الابادة وقد شوهد في حجة السلطان طعنة خنجر في جانبه الايسر وبعض خدوش في فمه
 وذهاب إحدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة اطباء ساعة ثم
 أشاروا بدفن السلطان فدفنوه في مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ الا
 انه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الاخبار الروسية
 وقالوا وعادوا وبانغرا في الشكوى تخاف رجال الدولة وخشوا العقوبة فأشاعوا أن قد أصاب
 السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله
 وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية في بغاز المدينة ترسل رعى القنابل على
 العدو واشتد به هذا التخيل الى حد أذهب نومه في الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب الى
 الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل الى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر
 الشبائيك والابواب ففعلن فتركهن وخرج الى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد
 الخروج من الباب الموصل الى البحر وفي يده غدارة فضعه الموكل بحراسة الباب فتمرده بتلك
 الغدارة ثم عاد الى حجرته وقد اشتدت به الاعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا
 هاجم عليه فيصبح على الجند والحراس بان تطارده وعلى السفن بان تمنعه قالوا ثم طلب
 من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومراة لينسدم لحيته فأحضرتهم له من والدته
 وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم
 حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائه وجلس معه برهة فيجعل يقص عليه خبر العدو الذي
 كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفي أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه
 الايمن فهم الرجل بمنعه فلم يقدر فأسرع الى والدته السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان في
 الحال وأقفل الباب وجميع شبائيك المكان وقطع عرق ذراعه الايسر أيضا ونام على فراشه
 حتى خرج دمه ومات * ويروون عنه غير ذلك أيضا مما لايسعنا ايراده هنا * وعظمت الفتنة
 بعد موت السلطان عبيد العزيز وكاد يتطاير شررها الى سائر الايالات وتظاهر جماعة من
 أصحاب الكلمة المسموعة والرأى الم محمود في دار السلطنة بالتشجيع اليه والرغبة في الاخذ
 بشاره تخاف أصحاب الفتنة وبالغوا في الحيلة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا
 الى بعض أصحاب صحف الاخبار التركية فحملوا على السلطان عبيد العزيز حملة منكرة
 ورموه بالمرور عن الدين وازهاب كرامة سائر المسلمين ووسعوه بالخيال وذهاب العقل
 وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة في حل مما فعلوه
 * ومما سبى عيسى من تحقيق حادث خلع السلطان عبيد العزيز وموته وما جرى في
 شأن ذلك في خلافة السلطان عبيد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين اصح
 وأى الجنتين أقوى وأشد فتحك اما لأصحاب الفتنة واما عليهم والله يحكم بينهم وهو
 أحكم الحاكمين

مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنان

وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا الى خبير الرعية وايراد البلاد موارد التقدم والعمران بعيد العسف غير متعجب ولا مشاغب مبعضا للانجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهدا الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيدا جراته رجه الله برحمته الواسعة

ومات في أيامه ديتريوس بطرک المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ في وضعها على النحو الذى نجاه كير واس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسي بعده أشهر ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة ترمنت باقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير السبراموس بيرية شهات وهو بطرک المتأصلين الآن وله من الاعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر في محله ان شاء الله

الفصل الرابع والعشرون

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالامر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويج بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين ومائتين وثلاثمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته الا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قيل وكثر هذيانه فكان عيل الى العزلة والانفراد ويخاف من كل شئ ويضطرب لاقبل شئ يراه أو يسمع به * وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياورلر كاه فى أيام أبيه اسمه حسين بيك ابن اسمعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا الى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عوفى باشا السر عسكر بعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه فى دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسميره الى بغداد ليتولى رئاسة فريق من بها من العسكر السلطاني وأرسل اليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبس فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة فى الرحيل الى بغداد وطلب مهلة يومين فأملوه فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الاولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عوفى باشا وسأل عنه فقيل له انه فى بيت مدحت باشا فسار الى بيت مدحت وسأل الخدم عن عوفى باشا فقالوا انه مع بقية الوكلاء فى مجلس مخصوص فأعلمهم بان معه تلغرافا يتعلق بباب السر عسكرية يريد توصيله الى عوفى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد الى حيث

مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال سالم أغا خادم الصدر الاعظم فقال ادع الى خادم عوني باشا فاني في حاجة الى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك في الحال الى المكان الذي فيه الوكلاء وقصد حسين عوني باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابته فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه في عنقه فمات لساعته ومال على فيصري أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فألقاه بالجراح وقد تمكن فيصري أحمد باشا وبقيّة الوكلاء من الهرب الى بيت النساء وأغلقوا دونهن الابواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الاعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتلا وقصد كسر الباب الذي حال بينه وبين بقيّة الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصابيح وأخذ شمعة ليوقد بها الاستار كي يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر اذ جاءت طائفة من العسكر وكسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرو بيك ياورد كاب الصدر الاعظم وزجوه ليلته تلك في السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا * فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجنود وعلقوه على شجرة في ميدان بايزيد وبقي معلقا الى يوم الاثنين * قال بعض الكتّاب وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القاب هاديّ اللب لم تأخذه أخذه من الخوف وكان يظهر الاسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أني أذقت فيصري أحمد باشا أيضا كأس المنون كما ذاقها عوني وراشد * وتحدث الناس بما فعله حسين بيك فاختلقت الاقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على انه انما فعل ذلك بهم انتقاما لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه قيل واشتد هذيانه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع وكان الصدر الاعظم يخفي حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل ورزين وتعمل على اخفاء حقيقة أمره ولا تقرب منه أحدا فلما طال تحججه عن الناس لاسيما عن فئاضل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا نمساويا اسمه ليدزورف قد اشتهر بعبادة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا الى خير الله أفندي شيخ الاسلام سؤالا في معنى ذلك وهو

إذا جنّ امام المسلمين جنونا مطبقا ففان المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهدته (الجواب) يصح والله أعلم * كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه * واجتمع الوزراء في يوم الاربعاء عاشر شعبان وفرروا خلع بيعته والبيعة لاختيه السلطان عبد الحميد فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الاخبار بما وقع له الى القاهرة

فكان الخديو في شغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبليدة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الانجليز لنصرتهم كما سنراه في محله ان شاء الله تعالى

الفصل الخامس والعشرون

(في سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد الحميد)

وقام بالامر بعد خلع السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد الحميد خان بوبيع بالملك في يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية تولى السلطنة والملك في ارتبائه والفتنة قائمة والعمالات في اضطراب فعد الى سن القوانين والنظامات الدستورية المحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تفرقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك ما لم تنله بمحمد السيف وكرات المدافع * ورسم في خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هئتين احدهما ينتخب أعضاؤها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاؤها الحكومة وتسمى بمجلس الاعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا نخلعه وولاهها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ اليه صورة من القانون الاساسى الذى أنشئ لجميع الاصلاحات الواجب العمل بها في جميع ماوراء الباب * قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه في جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك في سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والاعيان وابطال مصادرة الناس في أموالهم وترك القسوة والتعذيب في تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة الا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاية وجعل التعليم اجباريا واعطاء الحرية للطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا ابراده هنا مفصلا * قال بعض الرواة فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وارجاع السلطان مراد الى تحت الملك ويسعى في فصل الخلافة الاسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عريضة فبين بقى من قريش من أشرف مكة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فأشارت الى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والابهام * قلت وهذه سياسة غلام ستون زعيم الاسرار بيدار الانجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيرا ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان واعطائه الى من بقى من قريش أولم يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربيا

فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم في حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين
بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد
أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لاغير * قال بعض كتاب الاخبار ولم
يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الاسود وجعلنا
تحتشد الجيوش وتعد المعدات وتدرّب العساكر والاجناد على فنون القتال وقدم جماعة من
ضباط عسكر الروس فتطوعوا في خدمة جيوش الامارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون
الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخم على الحدود فلما تم للامارتين
ما أراد تاسير كل من نقولا وميلان أميري الامارتين الى دار السلطنة يطلبان كثيرا من
المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الاخذ والرد بين الطرفين
وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود
وزحف على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطاني من كل صوب وحذب
ومقدمهم الغازي عثمان باشا وعبد الكريم باشا السرعسكر وقاتلوهم حتى هزموهم
شرهزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطاني الى مدينة ميناشيوار ففحقوها عنوة وساروا
الى مدينتي عالكيناس ودلجراد ليقاتلوها فلم ينالوا منهما حصانتهما ومنعهما فرحلوا عنهما
وعبروا نهر مورارا فلم يشعر العدو الاوهم قد صاروا على الشاطئ الايسر من النهر وساروا
يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الأمر وأزعجهم جدا فخلو
المدينة من يدافع عنها ويقاومونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطاني
فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم الى الفرار
من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لابعانهم في طريقهم مما منع وجاء
الخبر بذلك الى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سار الى سفراء الدول بدار الخلافة في
طلب الوساطة بينه وبين الباب العالي خوفا من الهزيمة والعار فكلموا السلطان في ذلك
فناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الاخبار بذلك الى
السفراء فقاموا وقعدوا وشدوا في الطلب فسير السلطان الى مقدم عساكره بالكف
عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة في أمر الصلح وكثر الاخذ
والرد وترددت السفراء على الباب العالي أياما والقلوب في اضطراب فأبى الباب العالي امضاء
الصلح الاعلى ثلاث خصال * الاولى حضور أمير الصرب الى دار السلطنة وتقديمه
مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية * الثانية أن تحتل الجيوش
السلطانية ثانيا جميع القلاع التي كانت الدولة سمحت لامارة الصرب باحتلالها مؤقتا في
سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية * الثالثة ابطال الرديف من ايلة الصرب وأن
لا تجيش الايلة من الآن عسكرا الا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع
لحفظ الأمن في الداخل فلم يررض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على اكراه الباب العالي

على ارجاع حالة الصرب والجبل الاسود الى ماكانت عليه قبل الحرب وتأسيس ادارة وطنية مستقلة في البوسنة والهرسك لتراقب مأموري الحكومة وكذلك في البلغار وأنفذ اللورد دربي صاحب سياسة الانجليز يومئذ الى الباب العالي مكاتبة بذلك وأوعز الى سفيره في دار السلطنة بأن يلج في الطلب فبالغ السفير في ذلك فلم يلتفت السلطان الى قوله وأوعز الى مقدم الجيوش المحاربة باعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدوين العدو ويرجعه الى ماكان عليه من الطاعة فرخفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشيرنايف الروسي ومعظم العسكر الصربي فقاتلوه ثم قتلوا عنيقا ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دبلراد فدخلتها طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة

وطار الخبر بذلك الى الاتفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس الى سفيره في دار السلطنة بطلب ايقاف رضى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الاسود مدة شهرين فان لم يجب الباب العالي الى ذلك انقطع حبيل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالي الى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال واضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لاسيما دولة الانجليز فخبر صاحب سياستهم كبار ساسة الدول في عقد مؤتمر في دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التي صارت على قاب قوسين فاجابته الدول الى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها الى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التي لايطبق الباب العالي الصبر عليها ولا الاذعان لها ثم اجتمع جمعهم في سراي البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا في الامر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الاديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثي الدول فاستعظموها وقالوا هي مثله وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل الى قبولها وفي المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم في الامر فقالوا جميعا الحرب والنار ولا هذا الخزي والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطوروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ الى أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالي عنادا وتصميما وكانوا لايتوقعون منه غير الطاعة والاذعان فجعلوا ينعون الروس بالأمانى البعيدة ويهتفون عليهم الأمر فينبأهم على هذه الحال ان عاقدت الدولة العثمانية الامارة

الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فغشيت دولة الروس العاقبة وفطنت الى الامر وتحققت أنها ان لم تبادر الى اشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقده أمير الجبل الاسود الصلح أيضا انفسل الروس وسقطوا في أمرهم فخص القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحالها فأجابته الى ذلك وأرسلت الى دار السلطنة انذارا تهديد فيه الباب العالي بأن تركه وشأنه مع دولة الروس ان هو أصر على الاباء والعناد فرد عليهم القول ردا جريلا وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ الى التآهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخيرة وأنفذ الى مندوب الباب العالي في عاصمة الروس بان يرجع الى سلطانه وبانه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب الى دار السلطنة فاصلى الخبر الى الباب العالي وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتد بينهم الهرج ونودي في جميع العسكر بالخروج وأفتى شيخ الاسلام بانه قد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبان يضاف الى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازي عملا بحديث صاحب الشريعة القائل ﷺ من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ﷺ

وورد الطلب من الباب العالي الى الخديوى بارسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الامير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن الى دار السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطاني في عدة مواقع * قال بعض كتاب الاخبار * وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس في عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل بل كانوا يدفعون بالامر الخفيف ثم ألحوا في القتال فاحتلوا مدينة ترنوف ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركوفا في عسكره فاحتل مضائق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثير منهم بالجللاء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان في جادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بمجعل دار السلطنة تحت الاحكام العرفية فانكماش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدو على المدينة في كل لحظة واشتد الروس في القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلقنه وكان بها عثمان باشا في ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير الى دار السلطنة في طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح في الطلب ووردت رسائله تسترى على ديوان الحرب مفعمة بالحض والاستنهاض فلم يلتفتوا الى نداءه والروس تشدد في حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاومهم في كل يوم من وراء الاسوار كي يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتقونها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها

فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الاخبار بذلك الى السلطان فكبر عليه الامر ورسم بخلع عبيد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانتته وسوء تدبيره وخلعوا أيضا جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم نظياتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفي والتبعيد وأكثروا من التغيير والتبديل في مراكز الجند ومواقف القتال استدرا كما لم فات وسيروا المسدد الى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول اليه لاحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحذب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولي عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وارجاع العدو فاقتتلوا قتالا شديدا وأبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فصار من فوره في قلة الى ميدان القتال وقبيل بل جاء جريدة وسير الى أمير الجبل الاسود يسأله العون والمسدد بجاءه في نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الاسلحة والكرع وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم في عدة وقائع واشتدوا في حصار بلقنه شدة بالغة وألحوا في قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينسكفون عن الرمي عليها في الليل والنهار ومازال الرمي من الفريقين متراسلا حتى نفذ ما عند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقي من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فاما أنهم يموتون جميعا شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو انهم يسلمون تفرجوا جميعا واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصلهم نارا حامية حتى أصابت عثمان باشا مقدمهم جراحة في ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضا ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفسلوا وسقطوا في أمرهم وهموا بالرجوع الى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدو بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فآلقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا الى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابله أحد كبار ضباط الروس وبالغ في اجلاله وتعظيمه ونقله في إحدى العربات الى مدينة بلقنه وبينما هو في الطريق قابله الغرنديق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلماه عليه وبالغا في ملاطفته اظهارا لفضله واكبارا لشهامته

وتقوت عزيمة الروس لسقوط بلقنه في أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم في طريقهم من الحصون والقللاع تفرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالي من العهد ونهض الى معاونه الروس بالرجال والمال فاشتد الامر على الباب العالي وسدت في وجه العساكر السلطانية أبواب القلاع وبولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان الى الدول الكبرى في الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا الى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والامطار وهم مع ذلك لم ينسكفوا

وسارت جيوش الروس تريد الاغارة على بلاد البلغار والرومللى الشرقية وتقدم الجنرال
چوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفيه تحت البلقان واحتلها ثم
سار الى مدينة فليبه واحتلها أيضا وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف الى مدينة
أدرنه فقاتلت من بها واحتلها عنوة ولبنوا في هذه المدن أياما حتى أصلحوا حالهم وساروا
في كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم أو ينشأوهم الحرب فدخلوا
الطريق حتى صاروا على أبوابها وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة في عدة وافرة
كانت عساكر الجبل الاسود تقايل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت الى
ضواحي أشقودره ودخلت أيضا العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الاعداء بمعظم بلاد
الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الامر وبلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم
عن أوطانهم ونزلهم على دار السلطنة وهم في أسوء حال من العرى والجوع فملأوا شوارع
المدينة وحاراتها واهتم الباب العالي بما كولههم ومشروهم وملبوسهم ووقودهم لوقر البرد
وتبرع أهل البر والاحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت
بينهم الحيات الخبيثة وكثر فيهم الموت واشتد فكافوا بموتون بجانب الجدران وعلى أبواب
بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة الى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه في
تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها ابطال الحرب وحقق الدماء فساروا الى
قرانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه في الامر فأجابهم الى ذلك وسار بهم الى مدينة أدرنة
وقد سير الى القيصر في طلب اجازته بعقد شروط الصلح فأجابهم فامضى معهم عهدا
في الحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الادارى لامارة البلغار
والاستقلال السياسى لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الاسود وأعطاهم بعض
أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فان لم تدفعها
عينا أعطت بها قسلا أو حصونا من قسلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودى
في العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا
الخبر بذلك الى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها الى المرمى
البعيد لا سيما دولة النمسا فانها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ
امبراطورها الى الدول في طلب عقد مؤتمر لينظر في شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على
دولة الانجليز في ذلك فأجابته الى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس في الامر
فطاول التمسر وحاول ولم يبلغ الدول شأما مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالي
وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم في أمر الصلح وطال الأخذ والرد بين الدول
وبعضهم أياما فازعج الدول امتناع القيصر وعدم اجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط
عليهم الحال وكثرت الاشاعة بدخول الروس في دار السلطنة وعقدت دولة الانجليز الى

استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حرجها الى دار السلطنة لمنع الروس من الدخول من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغتهم وتحديثهم في هذا الامر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعييون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهم نار الفتنة في جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فعمل يكثر من العزل والتولية في مناصب الدولة وخلع الصدر الاعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد جدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضا وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين في هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل في خامس عشر ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الازمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الاصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصاة التي كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى اسمعيل وسماها باسم (چون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الاموال الطائلة فكان لها في قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتبنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعهد صعاوى هذا الى ايقاد نار الفتنة في جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد واعادة السلطان مراد الى منصب الخلافة وكان في دار السلطنة زهاء مائة ونجسين ألفا من المهاجرين وكاهنهم ناقون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار في جماعة منهم في ذلك اليوم الى سراى چراغان التي هى مقر السلطان مراد واقحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فتراح الناس من كل صوب وحذب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوق دخول الروس الى المدينة واعمالهم السيف في أهلها فتسابقوا الى غلق حوانيتهم وهرعوا الى بيوتهم يدفعون عنها ايذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطاني الى سراى چراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن الساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم الا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بك مقاما هذه الفتنة وجاء الامر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجسوارى والعلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم الى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى

ثلاثة أيام حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار في دوائر الباب العالي فاشتعلت اشتعالا عظيما واندلع لسان لهيبها الى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الاحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسته الوكلاء فخلع في سابع عشرين جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد اليه لقب صدر أعظم فلم يكذب بتقريبه المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا

ولما دخلت سفن حرب الانجليز ورست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدوه اهانة لهم وتحقيرا فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية في طلب دخول طائفة من عسكره الى المدينة وشدد في ذلك فمانعته دولة الانجليز وطال الاخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياما وجاء الغراندوق نقولا الى أدركه قبل انتهاء الهدنة فسير اليه السلطان نامق باشا ليكلمه في منع دخول عساكره الى المدينة فلم يقبل الا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيولك بكمجه وكوبك بكمجه من ضواحي القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية الى ما وراء ذلك مع جعل مركز الخبازات في قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرية وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق الى قرية سان اسطفانوس في ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى اليه المدد في كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدل بين الفريقين أياما وكان رسول القيصر في عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطا غاية في الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فان انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة في سان اسطفانوس الى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعهم رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الاجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان يتقربون في تلك الشروط كي لا يحل الاجل المضروب الا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض اجلالا لعيد القيصر ولبت ينظر ماسيكون من رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار الى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب في تلك الساعة والاسارت جميع جيوشه الى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الامر وما زال الأمير اغناتيف يتمدد بهم حتى تم توقيعهم على الشروط وخلق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فتأوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعا بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا

على الارض سجدا لله عز وجل الذى أناح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القيسيين فصلى
بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعا سجدوا وطير الغراندوق الخبر الى القيصصر بما جرى ففرح فرحا
لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهانى من كل فج عميق وكان مما أخذ عهدا وميثاقا
بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته
بعد ان حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين
لاجل تحرير مقدمات الصلح رغبة فى تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة
والامنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان
نصهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغناتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر
ومن أعضاء المجلس الخصوصى وعنده نشان روسى مرصع وهو نيشان صان عكسا نذر
نوبسكى ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة
الأمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الأولى مع
السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والاجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة
السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثمانى المرصع
والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الاجنبية المتنوعة والثانى (سعد
الله بيك) سفير الدولة العلية فى مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من
الطبقة الأولى والنيشان العثمانى من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطاعوا
على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للاصول والعادات قرروا
المواد الآتى ذكرها فيما بينهم

المادة الاولى انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه
الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء
المنازعات والمصادمات المتتالعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبر وزيجيه
على الوجه الذى عينه المؤخر الذى كان عقد فى الاستانة الى (غوريتو وبيليكه) والحد
الجديد يستطيل الى (غاجقه) وعلى هذا (توزكيا غاجقو) تبقى فى تصرف الجبل الاسود
وتتعد الحدود أيضا من مجمع أنهر (بيوه وناره) وتغر من نهر (دريين) الى جهة الشمال وتنتهى
الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (نيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدئ من
نهر (نيم) الى (بريرة بولره) ومن (روستراق الى سوق بلانسا) ويهور وروستراق تبقىان داخل
الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغو بلاوا
وكوروزه الى باقلى ومن رؤس جبال قوبريونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الارناؤط
الى أعلى ذروة جبل (روفلتى) ومن هذه النقطة الى (كنيب بيسقاشيق) وينتهى الحد على
الخط المستقيم الى عين الماء فى جيستى هوتى ويفصل فيما بين جيستى هوتى وجيستى
فاسترانى ويتجاوز ماء أشقوره الى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر الى مصبه فى

البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقة وأشبوزى و يورغور بچه وز ايلماق وبار ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة لجنة مركبة من بعض مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الاسود معهم أيضا فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة الى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك ما رأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر يوبانه لم يزل يجلب النزاع فيما بين الباب العالى والجبل الاسود فلاجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة

المادة الثانية § ان الباب العالى يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والامارة المذكورة كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة فى الاستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضا أمر إعادة أرباب الجنايات الذين يقرون من بلاد الدولة العلية الى الجبل الاسود ومن الجبل الى بلاد الدولة وأمر اطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظمات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستعقد أيضا مقابلة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالانشآت العسكرية فى قرب الحدود وأحوال ومناسبات الاهالى المتجاورة هناك واذا اختلف الباب العالى مع الجبل الاسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحشة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود ماعدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما الى دواتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد امضاء مقدمات الصلح الى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الاسود أن تخرج من البلاد الغير داخلة ضمن الحدود المذكورة أعلاه

المادة الثالثة § ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوجك أزورنيق وسقار فى ادارة الصرب ويمتد هذا الحد الى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدى الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رازوه الى نهر راسقه ومنه الى يكي بزار ومن يكي بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قرى مهنتره وارغويج الى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى الى منبعه ويمتد الى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى ايبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر ايبار وسيدج ولاب الى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل عزايا شيخه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قربه

وترتجة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميوا واجقه حتى ينتهى أيضا الى نهر ديرنجه ويسير مع هذا النهر ويقطع ميوا واجقه وبلاطينا ويصل الى جهة موراوه في قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوجى ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر الى موراوه ويمتد من النهر الى جهة فوق حتى يصل الى قوتقاويجه ويقطع سوق بلاطينا ويجتمع بنهر نيساوه ويتصل بقرية قروزياج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق قره ولبور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر اخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب لاجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى في برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضا المسائل المتعلقة بجرايز نهر درين وتقطعها وحينما تتدئ هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم في هذا الامر

المادة الرابعة § ان المسلمين الذين لهم أملاك في البلاد التى صار الحاقها بالصرب اذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار ان يحبوا أجروا أملاكهم وان أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه في ظرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضا في برهة ثلاث سنين أمر فراغ الاملاك الميريية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والائناس المقيمون أو الذين يحولون في بلاد الدولة من تبعه الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بحقتضى الحقوق الكائنسة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد امضاء مقدمات الصلح الى خمسة عشر يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التى ليست داخله ضمن الحدود المذكورة أعلاه

المادة الخامسة § ان الباب العالى قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تفضيمات الحرب وتجري المذاكرة في هذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعه رومانيا الامن والامتياز طبق تبعه دول أوروبا

المادة السادسة § تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة امانة مختارة في ادارتها تدفع مبلغا معلوما الى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر الملية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعى بعرفة لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والروسيه وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم الى وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التى ينبغى اجرائها وتلاحظ مليه أكثر الأهل الى وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لفن

تخصيص الاراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا في قطع الحدود * وخط الحدود يبتدى من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من نهرد بو جيجه الى درينة غرب قوما نوه وقوجاني وقلقان وان الى جبل قوارب ومن هنالك يمر من نهرد بو جيجه الى درينة وبلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء (الخرى) حتى ينتهى الى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجة واستاديه ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاسترياو يلتصق بنهر موغليجة ويسير مع النهر الى يكيجه وعبر عن نهر واران يكيجه ومن مصب نهر واران قرية غاليقو الى قراء يارغه وصارى كوى وهنالك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه بشمك كل الى مصب نهري أستروما وقره صو ومن السواحل الى بور وكل ويمتد الى الشمال الغربى وعبر على سلسلة جبل رودوب الى جبلى جالنيجه وأوشوه ويمر من جبال أشك قولاج وچييلون وقره قولاس وچيقلر الى نهر أردنه وبلتفت الى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمره وارناد كوى وأفارجى وأينجه الى تنكه دره سى فى قرب أدرنه ومن تنكه دره سى وجورلى دره سى الى لوله برغوى ومن هنا وعن نهر حوجق دره الى قرية سوركن ومنها الى التلال ويقطع حكيم طاييه سى حتى يتصل بساحل البحر الاسود وينتدى أيضا من صقالبة السواحل وعبر من شمال حدود لواء طولجى ومن فرق رأسه الى نهر الطونة

المادة السابعة * أن أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الاهالى بالحرية التامة والباب العالى يثبت بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوروبا الجالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة اما فى قلبه واما فى طرفه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسى وفي حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقا لامثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحمة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالى من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضا إحالة تأسيس هذه الادارة الجديدة فى البلغارستان مع مايلزم من النظر فى صور اجرائها لعهد مأمورين موظفين من طرف دولة الروسى من هنا الى سنتين وفى انقضاء السنة الاولى من تأسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسى والباب العالى ودول أوروبا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسى

المادة الثامنة * ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للإقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هنالك بمعرفة الحكومة المحلية وان الباب العالى له حق أن يتصرف فى الادوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار اخلاؤها من العساكر بموجب

سند المتاركة الذي تحرر في حادى ثلاثين كانون الثانى والاكتات الحربية الكائنة في مدينتى شمنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية في البلغارستان مقيمة الى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلا باعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وان مدة اقامة عساكر الروسية في البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها نجسون أنفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات في المملكتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنه وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون لها المخازن المقنضية على الشطوط المذكورة

المادة التاسعة § ان المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان ايفاءه للدولة العلية يتسلم الى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء اصول الادارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لاراد البلاد والاراضى التى تكون في ادارة الامارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد باقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية الى شركة سكة الحديد في طريق وارنه وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومسح الباب العالى وادارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة

المادة العاشرة § ان الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخيرة من الطريق المعينة في داخل البلغارستان الى الايلات العثمانية التى وراء البلغارستان ولاجل عدم وقوع مشا كل في هذا الخصوص وتأمين الاجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والامارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر في ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشيوزق والجرأكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة أعلاه

المادة الحادية عشرة § ان المسلمين وغيرهم من اصحاب الاملاك اذا أرادوا الإقامة في خارج الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوضوا أمر ادارتها الى من يريدونه ثم ان مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون في طرف سنتين والاملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه

النفع الزائد لجهة الباب العالي ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والأراضي التي تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها في المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين في الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين

المادة الثانية عشرة * ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعا ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية في مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة في أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على أصلها

المادة الثالثة عشرة * ان الباب العالي يتعهد بتنظيف البحر في مضيق سنه وارجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذي حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة الى الباب العالي لاجل هذا الامر

المادة الرابعة عشرة * ان الاصلاحات التي تباعث الى مرخص الباب العالي في أول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغي حالا وضعها في موقع الاجراء في بوسنه وهرسك مع التعديلات التي ستقرر فيما بين دولتي الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الياالتين بقايا الاموال المبرية وأن لا يؤخذ شيء من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحلية وبسذجهما عوز الاهالي والعيال الذين أصيبوا في الاحوال الأخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المباح نني يلزم على الاهالي دفعه في كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتي الروسيه وأوستريا

المادة الخامسة عشرة * يتعهد الباب العالي باجراء أحكام النظام الاساسي الذي وضع في سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبق مطلوب الاهالي الذي بينوه مقدما ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في ترحاله ويأتيه وفي سائر جهات الروم ايلي التي ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالي المحلية في كل ايلة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديعها الى الباب العالي وهو يتذاكر مع دولة الروسيه في ذلك

المادة السادسة عشرة * ان خروج عساكر الروسيه من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضي الى المناقشة والاختلاف فيما بينهم فلذلك يتعهد الباب العالي حالا باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية في الولايات التي سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الاكراد والجراكسه

المادة السابعة عشرة * ان الباب العالي سيعلم العفو العمومي عن المتهمين في الاحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

المادة الثامنة عشرة § ان الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه القطعي

المادة التاسعة عشرة § ان مبالغ التضمينات الحربية التي طلبها حضرة قيصر روسيه هي في مقابلة الاضرار والخسائر التي تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها في هاته المبالغ أولا - تسعمائة مليون روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التالفة وثانيا - اربعمائة مليون روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجارية وفي طرق الحديد وثالثا - مائة مليون روبل في مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ورابعا - عشرة ملايين روبل لاجل الخسائر التي حصلت لتبععة الروسية المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد واربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة واربعين مليوناً ومائتين وسبعة عشر ألفاً وثلثمائة وأحد وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف * هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل في مقاصدها التي توهمت عنها في هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الاراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضاً عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة أولا - لواء طوالجى يعنى قضاء كيليا وسنه ومحمديه وابساقجى وباجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة في نهر طونه قد تركتها الدولة العلية جميعاً الا أن الدولة الروسية ليس لها فكري بالحق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التي أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف لحدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضى كيليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تغريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة ثانيا - اردهان وقبرص وباطوم وبازيد مع الاراضى المحاذية لها الى جبل جوغانلى سيصير تسليمها الى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يتدئ الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنضبة في نهر هوبا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء وارثوين ومن جوار قريتي والانت وبشاك ومن فوق درونيسك وكفى وهو جسه زاد ويحفرين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تحتل بنهرى تورقم وجورف ومن فوق قراء بالى وهين ولم كايما الى أن ينتهى لنهر تورقم ومن هنالك يمر من سيورى طاغ ومن مضيق سيورى طاغ ويتصل بقرية نرمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى زوين ومن زوين يمر من غربي طريق أردوست خراسان الى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيليمان ومنها يمر من جبل تريا ومن قرية نجير ومن أون رست مسافة

ومن تلال طاندور ومن جنوب وادي بايزيد وينتهي في الجهة الجنوبية من قازلي كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديماً فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضي دولة إيران وإن الأراضي التي صار الحاقها بعمانك الروسية ومذكورة في الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفه مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الأراضي وأسباب تأمين حسن الإدارة

ثالثاً * إن الأراضي التي صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقي من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها

رابعاً * إن العشرة ملايين روبل التي تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا . أعني أن سفارة الروسية في الاستانة تجري التديققات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن ونعرض الكيفية على الباب العالي وهو يجري التسوية على مقتضى تبايغات السفارة

المادة العشرون * إن الباب العالي يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً في حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه إذا اقتضى الامر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الاعلامات

المادة الحادية والعشرون * إن أهالي البلاد التي سلمت الى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم في هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة . والأهملك الاميرية واندوقوفة يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية في بحر السنين المذكورة وهما يتمان ابقاء كيفية نقل الادوات الحربية الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي سلمت الى دولة الروسية أو غيرها

المادة الثانية والعشرون * ان القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسبحون في الممالك العثمانية في الروم ابلى والاناطول من تبعة الروسية سبناون الحقوق والامتيازات التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الاشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون في الاماكن المقدسة وبالنصوص في اينورز فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة في اينورز مع مشتلانها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية

المادة الثالثة والعشرون * إن المعاهدات والمقاولات التي كانت موجودة فيما بين

الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبتبعية الروسية المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجرى أحكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات الى سابق مجراها قبل هذه الحرب في الامور التجارية وغيرها فيقتضى احكام عرى المعاهدات والقوانين المذكورة ما عدا المواد التي نسختها هاته المعاهدة

المادة الرابعة والعشرون § ان خليج الاستانة وخليج جنات قلعه سواء كان في زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التي تريد المرور منه الى بلاد الروسية من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس له من بعد هذا أن يستبد بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الاسود وبحر الأناضول الخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في رابع ابريل سنة ١٨٥٦ ست وخسين وثمانمائة وألف

المادة الخامسة والعشرون § ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة في أوروبا بالروم ايلي ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة أشهر هذا وان العساكر المذكورة اهتم أن يأتوا الى الاسا كل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة في الممالك العثمانية وفي رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة أشهر ولهم أن يأتوا الى طرابزون لأجل الركوب في السفن ومن هناك يسافرون الى القريم أو القوقاز

المادة السادسة والعشرون § ان قواعد الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسية في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا فان أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذي يعينه الباب العالي عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالي أن يجري الاحكام من قبل أن تسلم له القلاع والايالات

المادة السابعة والعشرون § ان الباب العالي لا يجازي أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية في زمن الحرب وليس للأموري الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الاهالي الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية

المادة الثامنة والعشرون § ان أسرى الحرب يصير ارجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطي مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون الى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية في ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسطا بموجب الدفتر الذي يحضره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا ولصرب وامارة الجبل الاسود فيصير

اجراؤها على هذا الاساس الا انه يصير تنزيل العدد الذي تستلمه الدولة العلية من العدد الذي تستلمه من الأسرى

المادة التاسعة والعشرون * ان حضرة امبراطور الروسية والحضرة السلطانية سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها في سان بطرسبورج في ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن وكذلك يجري التصديق رسميا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية في المعاهدات الصلحية وان الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة تعدان أنفسهما رسميا بانهما متعهدتان بان مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقيها صاحب الجواب) ثم جاء بعد ذلك مانصه * ان معاهدة مقدمة الصلح التي صار امضاؤها في هذا اليوم أعني في تاسع عشر شعبان وثالث اذار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهوها في الجملة الاخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزءا متما للمعاهدة المذكورة وهي

ان الذين يقيمون أو يسجون في الممالك العثمانية من أهالي البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى

قال بعض كتاب الاخبار * فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الانجليز فانها أصبحت وكأن الطير على رؤس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا الى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لا سبيل الى ترك بوسنه وهرسك مضغة لبنة لغيرنا ولا بد من أخذ ميناسلانيك لتغنيانا عن تريستا التي أكثر ايطاليا تهديدا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الانجليز الى دولة الروس يقول ان كل عمل تأنيسه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخسين وثمانمائة وألف المبرمة في عاصمة الفرنسيين لا يعمل به الا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول في عقد مؤتمر في مدينة برلين عاصمة الالمان للنظر في مدعياتها فأجابتها الى ذلك واشترطت دولة الانجليز أن يكون لاعضاء هذا المؤتمر حق النظر في جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والاتيان عليها من سائر أبوابها فما نعت دولة الروس في ذلك وشددت في المنع وعظم الخلاف بين الروس والانجليز واستفعل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الانجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن حربيهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية الى الجزيرة المذكورة كي يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة اليهم وبالغت دولة الروس كذلك في حشد الجنود وتسلح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتستحق بها سفن تجارة الانجليز عند

انتساب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة في البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا في الجبال فعز على الروس ارجاعهم الى الطاعة وعت الفتنة جميع البلغارستان وضواحي صوفيا الى حدود الصرب واشتدت وبقي الحال هكذا أياما ومراكب حرب الانجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشيت الأمراض في عسكر الروس ووقع في الجسد الموت فكبر الامر على القيصر وسير الى خاله امبراطور الالماني في الوساطة بينه وبين الانجليز وأنفذ الى سفيره بعاصمة الانجليز في ذلك أيضا فانفتح باب المخبرة في الصلح والوقوف عند حد يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والانجليز على عقد المؤتمر في برلين عاصمة الالماني كطلب دولة النمسا وكتبوا الى البرنس بسمارك كبير سياسة الالماني في أمر ذلك فانفذ الى بقية الدول بان تبعث سفراء من قبلهم فجاءت سفراؤهم الى برلين بعد أخذ ورد وانعقد المؤتمر وتكلموا في معاهدة سان اسطيفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها قال بعض الكتاب * وقال اللورد بيكنسفيلد كبير سياسة الانجليز يومئذ ولماذا لا تسحب العساكر الروسية عن ضواحي دار السلطنة العثمانية فاجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تسحب السفن الانجليزية من ميناء القسطنطينية فعارضه بيكنسفيلد في ذلك ورد عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته * وما زال المؤتمر يوالي جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا في عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أي ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهي تحتوي على أربع وستين مادة قد أضربنا عن إيرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك الى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده واعطاء اليونانية جزءا من أراضي الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الاسود واعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغاري المهمة الواقعة على بحر الادرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزءا من الاملاك العثمانية اسوة بغيرها أما دولة الانجليز فانها لم تكتف من الغنمة بالاياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط وعهود قد أضربنا عن إيرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشؤمة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والاراضي ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحي ما بقي من آثار مجدها القديم والامر يومئذ لله الواحد القهار

ولما عادت الامور الى سابق مجراها أظهر السلطان مبعه الى موالاة الروس ومحبة قيصرهم وكرهه لسياسة الانجليز ثم عمد الى قطع شاقة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للانجليز من كبار النولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه

السلطان عبدالعزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد في تلك الفتنة وشدد في الامر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته في ارتكاب هذه الجناية * قال أحمد الكتاب فكانوا خمسة عشر شخصا منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونوري باشا ومحمد جلال الدين باشا أمهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدي باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام والساطنة والده السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لحماكتهم فأقضى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خوستوفوتيدى يوناني الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمني واسمه اسكندر أفندي والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التي عهد اليها النظر في هذه الدعوى سرورى أفندي رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر في قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الاخبار فلما استقر عن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية بلدز حضر أولا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونفري بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نوري باشا ومحمد جلال الدين باشا وكان المدعى العموى اسمه لطيف بيك فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ في تعريف المتهمين وقد محض النسخة للعامين الذين انتدبوا للدفاع عنهم ثم أشار بتسلاوة المثبت في صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندي باشكاتب الدائرة واستمر في تلاوة هذه الاوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل ما فيها

انه بعد خلع السلطان مراد وجلس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراي السلطانية وبحث في أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صفار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم فعلم انه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا ان محمد جلال الدين باشا ونوري باشا أمهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياها على فعل القتل وان محمود باشا زودهم بما يلزم فعله وزادهم علماءه نوري باشا وشدد عليهم بكتمان الامر بأيمان القسامة وقد وافق على اجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من محمد رشدي باشا الصدر الأعظم ومدحت باشا وحسين عوى باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام فانهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعهم فرمانا بان لايقع في داخلية

السلطنة وخارجها ثم الا بأمر هذه الهيئة فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عند العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتأمرين كان من قصدهم أيضا اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعا الى مأدبة أعدها جلال الدين باشا في قسطنطينية في أعالي بك أوغلي فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب الى تلك المأدبة * وبناء على ما ظهر في هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم محمد جلال الدين باشا ونوري باشا وممدحت باشا ومحمد رشدي باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام والسلطنة والدة السلطان مراد بالاشغال الشاقة الى أمد طبقا للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضا وبأن يعاقب من ذلك لاختلال عقله وحكمت بالقتل على نوري بك ومصطفى الجزائري ومصطفى البهلوان والحاج أحمد أغا ونجيب بك وعلى بك وسعيد بك ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات * وبعد تلاوة الاوراق لخص سروري أفندي الرئيس دعاوى وأخذ في استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا فقال

قد استدعاني محمد جلال الدين باشا يوما وقال لي انه رتب لي مائة ليرة عثمانية في كل شهر ورفيق مصطفى الجزائري أيضا على أن نقوم بهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعده لنا ثم استدعاني نوري باشا أنا ورفيقي وأوصانا بما ذكر وبالغ في الوصية وشدد علينا في الامر وقال لم يبق لنا حيلة سوى التخلص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا واستخفافنا على كتمان السر خلفنا فناول كلانا ثلاثين ليرة عثمانية فلما كان عصر اليوم أدخلني نجيب بك وعلى بك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراي بأورطة كوري أنا ورفاقي وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة نوري بك وهو الذي قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزائري والحاج أحمد أغا قبضا على سابقه بعنف وشدة كي لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثاني وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث وكان نجيب بك وعلى بك في هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبته حملوا جثته وهي ملفوفة ببعض الثياب ووضعت في حجرة قهوة وجاق الحرس على حضير من القش كانت هناك

فسأله الرئيس - أصح ما قيل ان السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به الى الحرس فقال البهلوان لا أعلم لي بذلك غير أني أظن أنه كان قد مات وشبع موتا فالتفت الرئيس الى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئا ثم سأل مصطفى الجزائري فتلعثم وتلون واختافت أقواله عما اعترف به في التحقيق الابتدائي ثم قال ان ما قلته من أن نوري باشا قد خلفنا اليقين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ مني فان نوري باشا لم يأمرنا بشيء من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وان نقترب من مقامه ان شاء أن نكون بحضرته وأن نعتني بحراسة مقرة غاية الاعتناء

فعلنا بما أوصانا به الى ان قتل السلطان نفسه - فقال الرئيس - أولم تشترك مع رفاقك في قتل السلطان فقال حاشا فقد كنت وقت قتله في أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت ان السلطان قد قتل فقال الرئيس قد خالفت ما اعترفت به في التحقيق الاول فقال اخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا في السراى فهرولت اليها فقالوا لي ان السلطان قتل نفسه

فتنظر الرئيس الى نفرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبيد العزيز وانتقاله الى طوب قيو واقامته بها بعد أن كتب ورقة الى السلطان مراد وهو في سراى سراغان ثم قال - ان السلطان عبيد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان فقد رأى حزمة في أرض الجنيحة لتذويب المكس فاضطرب منها وقال انها من علامات السوء ودلائل النحس ثم سمع طلق مدفع فقال ان أهل البلاد انقسموا الى حزبين وهاهم يتضاربون من أجله - قال - وكان السلطان يقول انه لابد من ان يقتل كما قتل السلطان سليم واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخلون السجائر تحت شبابيك السراى فجعل يشتمهم ويعزهم على كفرهم بالاحسان - ورأى مركبا حربية آتية لترسو فجاء قصره فصاح مناديا بانهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره - قال - وفي تلك المدة دعيت الى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فأخبراني بان عندهم ثلاثة أشخاص لابد من ادخالهم الى مقر السلطان تنفيذا لارادة الشاهانية وان هؤلاء الأشخاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فعارضتهما ولكن اضطررت بعيد ذلك الى الانعاز فدخلوا وقد رجعت الى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهم نارا وان الاعداء أوقدوا فيه النار عمدا وقد طلب مرآة ومقصا لكي يهندم لحينه وكنت أمرت أن لا يعطى شيئا ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فازوى في مخدعه وقفل بابة فحضرت احدى جوارى والدته وجعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت الى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا في دمه - فقال الرئيس - قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف - فقال نعم ولكن وضعته مع بقية الاشياء التى أخذت بأمر الذات السلطانية - فقال الرئيس - لمن سلمته - فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس - الرئيس - من هو هذا الحارس - لا أعرف اسمه

الرئيس - قد نظروك مساء وأنت تشكلم في موضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عوفى باشا ونورى باشا

نعم - قد كانوا استدعوني ليحدثوا معي بشأن خدام السراى

الرئيس - لمن سلمت السيف - لا أعرف - لا يخطر لعقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فأذكره وأكد أنه قتل نفسه - قال - وقد كنت مكثما بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى فى ليلة هذه الحادثة ذهبت الى سراى دوله بفجسه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت الى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر السلطان مراد فقضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة وبينما أنا راقدة فى الليل اذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت ان السلطان قتل نفسه

الرئيس - ان بعض المتهمين قالوا انك كنت قائما بالباب عند ما كانوا يباشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس الى محمود باشا وقال قد ظهر انه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشبكت هيئة فى السراى بارادة سلطانية فصار من المحتم ان كل شئ يقع فى البلد لا يكون الا باشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها - فقال محمود باشا لا علم لى بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها * نعم انه فى ثلثى يوم جلوس السلطان مراد توجهت الى السراى فكلفوني بقبول منصب احدى الوزارات وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم البتة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا كذبا فيما قالا

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز الى سراى طوب قيو طلب منك أن تنقل اليه جميع أمتعته وعهد اليك أيضا المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك الى سراى قرية فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر فقال حاشا حاشا وكلا لم يعهد الى بان أخفر السلطان فى مقره - فقال الرئيس - وأين كنت يا ترى ليلة مقتل السلطان - فقال كنت فى دارى بالفندق الى أن توجهت الى محمد رشدى باشا - فقال الرئيس - محمد رشدى باشا يكذبك فانهم قد نظروا ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع نقرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال لم يحصل شئ من ذلك البتة - فقال الرئيس - الشهود عابك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظروا القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت الى محل الحادثة عند ما علمت بها - فقال لالا - قال الرئيس - ومن أين اذا علمت بهذه التفاصيل - فقال علمت بها من صحف الاخبار التى تكلمت عنها

فالتفت الرئيس الى نورى باشا وقال من الذى دعاك ماريشال السراى أى أمير أمراء جنود الحرس السلطاني - فقال السلطان مراد هو الذى دعانى بهذا الاسم - فقال

الرئيس - قد شككت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة في السراى فمن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة - فقال نوري باشا كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عوفى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا - فقال الرئيس - اذا ما هي الاعمال التى نيظت بتلك الهيئة - فقال هي جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع في الدولة شئ بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان - الرئيس - ومن الذى بعث بالسلالة وجال الى مقر السلطان عبد العزيز - فقال أرسلهم المباشى سعيد باشا حيث أتى بهم الى بأمر ساطانى وبما أتى مارشال السراى كان لابد من مخابرتى في جميع الامور فأرسلتهم بصفة كونهم خدما الى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا - الرئيس - هل أعطيتهم تعليمات سرية * حاشا فأنى أدخلتهم في مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ - الرئيس - كيف هذا مع ان مصطفى الجزايرى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال انك طلبت منهم كتمان السروانك حافظهم بين القسامه * ليس ذلك بصحيح البته - الرئيس - هل توجهت الى محل القتل - نعم عند ما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحشا طيبا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الاطباء

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نوري باشا وكرر القول بأنه لا يعلم البته بتشكيل تلك الهيئة - فقال الرئيس - كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نوري باشا مصطفى البهلوان - فقال انى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة في ناحية جامحة وأوصيت نوري باشا به ولم يكن في خدمتى أو يتردد على قط قبل الآن ثم دخل مدحت باشا ويده مفكرات ودفاتر وأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت اليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسي كان أمامه - فقال له الرئيس - يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك مما ورد في أوراق الدعوى - فأجاب مدحت قائلا قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول انى أعيد نفسى سعيدا اذ دعيت لأبرى نفسى من تبعة جنائية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء اذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بمأموريتهم فتصرفوا بنوع من البهولة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محكمة عظيمة وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الاحالة وأوراق الدعوى وقبل أن تتم تلاوة

جميع الاوراق عاد مدحت باشا الى سياق مقالته الاولى فقاطعه الرئيس وقال يجب عليك السكوت فان ادارة المحكمة هي من خصائص الرئيس لا المتهم ثم قال له قل ما تعلمه من امر الهيئة التي كانت في السراى فقال لاعلم لي بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة وانى كنت أحد أعضائه ولم تؤمر قط بقتل السلطان عبدالعزيز فقال لرئيس من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان الخلع سيف السلطان سليم فقال مدحت باشا أتعنى بذلك بعد اطلاع فقال الرئيس نعم قال قد أمر بعد نقله الى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الاسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته - الرئيس - متى تمت وفاة السلطان فقال مدحت باشا يوم الاحد توجهت الى الباب العالى لاحضر الجلسة التي كان من معها عقدتها فوصلت اليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقبل لي ان المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدترنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ ما يترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خالق الله في هذه الحادثة بمجرد الشبهة - الرئيس - لمكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك فقال مدحت ليس لتكذيبه عندي أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت الى دوله بفنجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هناك جماعة الوزراء وجن من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيباً فكلمهم قالوا لي مع نظري بل ان السلطان قتل نفسه فلم يعنى الا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس - الرئيس - قالوا انهم وجدوا عدا الجروح التي كانت في ذراعيه جرحا آخر فوق يديه الشمال وأما أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث انك كنت في ذلك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص في أمر قتله فقال مدحت اذا اعتبرتموني لاجل ذلك مسؤولا يجب اذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسؤولين مثلي ولكنى لست أراهم قائلين بجائبي في هذا الموقف حتى أقتسم بيني وبينهم مسؤولية عدم أمرهم باجراء الفحص - الرئيس - هل كان في السلطان رفق من الحياة عند ما نقلت جثته الى وفاق قهوة الحرس * فقال مدحت لاعلم لي البتة بذلك - الرئيس - كيف ومحمد رشدي باشا لا يقول ماقلته أنت الآن فقال مدحت ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدي باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل - الرئيس - ان المجلس يرغب أن يسألك أيضا عن الاسباب التي جعلت على الالتجاء الى دار قونصلية فرانسا * فقال مدحت باشا هذه الحادثة تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول انه قد كانت وردت لي مكاتبات من الاستانة تعلني بكل ما كان يقال في حقى وكشفت لي عن التهمة التي زعمت بها في ظروف لا يطمئن معها فلي ثم لم ألبث أن رأيت في صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل الى أزمير ثم أتى القوناق وجعل في الحال يرسل السراى السلطانية برسائل الارقام وقد أبلغنى بذلك رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هناك فعلت أن ذلك الامر يختص بى ذاتيا ثم بعيد

وصول هذا المعاون بإيام فلائل علمت أيضا بوصول مأمور عسكري وهو على بيك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه انما جاء لاجل أن يرتقى الى رتبة ميرالاي وان لباسه الرسمي لم يكمل لغاية حضوره الى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكري ثم جعل بعد أيام من وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب الى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القبض على وفى تلك الليلة نفسها رأيت انه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة جندي فداخني من الخوف ما ألجأني الى عدم التأخر عن السير حتى لا تنالني هذه الحراب المشرفة ولا أقع في أيدي رجال على بك المذكور ولهذا السبب خرجت من باب الجنينة وركبت أول عربة وجدتها وسرت الى المحلة الاورباوية فاوّل باب وجدته مفتوحا كان باب دار قونصلية دولة الفرنسيين فدخلتها وانى لأ كذب كل التكذيب ما قيل من أنى فتحت بابا في الجنينة عمدا لهذا الغرض قبل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهمى بانى هيأت العربة في تلك الليلة قبل الامر

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وانه لدى افتتاحها تسمع شهادة كثير من الشهود ولما كان اليوم الثاني افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة وأخذ في تلاوة طلب المدعى العموي وقرار المجلس المشتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجي محمد ومصطفى الجزائري ونفري بك بان لهم اليد في قتل السلطان وعلى محمود باشا ونوري باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك بانهم شركاء فدافع عنهم المحامون وقال بعضهم أمام هيئة المحكمة انهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التمييز وقال البعض الآخر انهم يسلمون أمرهم لحلم ورجة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامي عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه ثم قام الاعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثماني وهم مصطفى البهلوان وحاجي محمد ومصطفى الجزائري ونفري بيك ومحمود باشا ونوري باشا وعلى بيك ونجيب بيك وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشرين سنة في الاشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونوري باشا فانه كان بالاغلبية ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك لحكموا على مدحت باشا ولم يحضريين القضاة سروري أفندي فانه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العموي القاضي بقتله لاشتراكه في مقتل السلطان عبد العزيز ثم سأله الرئيس هل عندك شيء من الملاحظات تقوله لهيئة المحكمة فقال ان عندي كلاما طويلا في طريقة المحاكمة والسير الذي سارت به فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له في هذه الهيئة من محل وأمره بالسكوت فقام شهري أفندي المحامي عن مدحت باشا وقال ان موكلني مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء

بالقتل لاشترائه في قتل السلطان عبد العزيز وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس انه لا بد من تقديم تقرير الاستئناف في ظرف ثمانية أيام * فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يهولون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الانجليز يطلب من حكومته باسم الانسانية وبشرف الامة الانجليزية التداخل في أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التي هي ثمينة عندهم وجعل يبالي في الاطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الايادي البيضاء على الدولة الانجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهمكا * خفف عندك يا صاح ولا تجزع فان رجال حكومتنا عافاهم الله لم يخجلوا بان أنفذوا الى دوفرين سفيرنا في دار السلطنة العثمانية بالوساطة في استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونوري باشا فانهم قد دفعوا كثيرا عن السياسة الانجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لاسيما مدحت قال ولا إخلالك تنسكركه على القول بان قومك الانجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت جهم لانفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاه كحلي الشام وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالوبل والشبور ولولم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذي كان قابضا على زمام الحكم على بلادل يومئذ لارانا من دسائسه في تلك الاصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتهأمل عافاك الله واحكم ان كنت من المنصفين اه

ورفع مدحت باشا الى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها * اني وان كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عند ما ظهرت منه الرغبة في عزل الوزراء وتسليم البلاد والامة وادخال جيش روسي في دار الخلافة الاسلامية ولكني لم أعمل على موته ولم أشرط في ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه الا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان * فلم يلتفت السلطان الى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه (قال بعض كتاب الاخبار) وقد نسب أصحاب صحف اخبار الانجليز ما وقع لقائى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات الى دسائس الروس واتساع كلمتهم في دار السلطنة العثمانية فتحمل ذلك خواطر العامة والخاصة من الانجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الاحكام على مدحت ورفقائه كأنهم انجليز أولاد انجليز ثم قام خطباءهم في دار ندوتهم ينادون واتخذناه وانسانيتاه وامرجتاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة جل فيها أهل اليمن على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الاصوات وطال الجدال واشتد اللجاج واحتدم التكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤسهم الا وهم على بينة مما سيكون ولم يرض على ذلك الا القليل حتى شاع الخبر بصدر فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفي والتبعية الى الانقار الجازية * فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت

ورفقاه فاصدة جعدة ولم ترس بالمينا بل دخلت من البوغاز وسارت الى السويس مسرعة فاغضب قيصر الروس هذا الامر وعلم أنه من أفاعيل دولة الانجليز فاضمر لها سوء وعهد الى معاكساتهم في أواسط آسيا وتنكيس أعلامها في جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور الى قلب التركمان تلك وحدود الافغان التي هي حصن الانجليز الاكبر الحائل بين غارات الروس وبين هندهم ففعل ذلك الجيش فعالة وتغلغل في جوف البلاد وأرهب وهدد وأخضع المصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الانجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضائق عليهم المذاهب فكادوا يسقطون في أمرهم * وبينما كان القيصر ينظر الى ظفر جنوده في تلك الاصقاع نظرة الساهر على الاخذ بالثار اذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العديمين وقيل حركتهم أيدي الانجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكيدة وتبعوه أينما سار بالآلات الجهمية قصد اذهاب روحه فتخفط وبث العيون والارصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ في تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغت حتى خيل له أنه في مأمن من شرها * واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادي عشر من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين الى مشاهدة معرض الجنود على عادته فيمنما هو عائد الى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة مخشوة بالمواد الاتهابية فسقطت القنبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا من كان معه فأسرع هو ونزل من العربى فرارا ولكن لم تصل أقدامه الى الارض حتى سقطت بين رجله قنبلة أخرى نفلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجنود في نقله الى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا في نزع شديد حتى فارق الحياة وقدمات أيضا بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد في القبض على مرتكبي هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالوف ومكوف وصوفيا برسوكا وألقتهم في السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصر على الروس وبايعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر في مشهد وأخذوا في محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعا بالقتل * ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر اسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الانجليزية رجهما الله تعالى فهو الغفور التواب

وعادت دولة الانجليز وكأنها قد تفرغت الى تهديد الخديوى اسمعيل وارغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التي حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت الى قونصلها المستر فيثيان أن يشدد في طلب ذلك والخديوى يحاول ويحاول * واتفق في هذه الانشاء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيين بهيئة أخرى كان فيها المسيو وادنجتون وزيرا للامور الخارجية فنظر هذا المسيو الى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم انجليزى أقام سفيرا للفرنسيين بدار الانجليز أعواما كثيرة فيصح أن يقال عنه انه انكليزى بحث فكتب في صفر سنة خمس وتسعين الى وزير الانجليز يعلم بما آلت اليه الحالة

مطلب

رجوع دولة
الانجليز الى تهديد
الخديوى اسمعيل

بصرفه ويستفزه الى الاخذ بالاحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقررر القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التي اتخذت للنظر في حالة خزينه البلاد وأرباب الديون وكلوا الخديوى في ذلك وما زالوا به حتى رسم في سادس عشر ربيع الاول سنة خمس وتسعين أى في غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برئاسة المسيو فرديناند دلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الانجليز المسمى ريتشرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور في جلسات المجلس لاسباب سياسية لم تصل الى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس في العمل تحت رئاسة ويلصون الانجليزى وجعل يبائع في البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه * وكان الوزير محمد شريف باشا في هذا الحين في منصب وزارتي الخارجية والحقانية فسير اليه ويلصون يستدعيه يوما لسؤاله أمام المجلس عن شئ يريد فاستعظم الوزير هذا الامر وأكبره وامتنع من الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلًا نائبًا لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس قيل ان مصطفى رياض باشا جعل يزين الى ويلصون الاصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والسبرة فشد ويلصون في الطلب ومال على الوزير شريف باشا وقال لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع وقال لاسبيل الى ذلك وطال بين الفريقين الاخذ والرد وتداخل في الامر قناصل الدول واشتدت الازمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير الا التخلي عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار فرسم الخديو باقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بايعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياما وأحست دولة الانجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت باقامة ويلصون رئيسا فأجابها الخديو الى ذلك وأتاب عن هيئة الحكومة في ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كان أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون في البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الامور من أبوابها وكتبوا بما علوه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكروا فيه أمورا كثيرة كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التخوطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لاحقيقة لها البتة وما هي الا من قبيل النقش على الماء وأن لاسبيل الا الى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الاركان لا يعتورها شئ من الزور والبهتان وكتبوا الخديوى في ذلك فاطهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الامر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى شهر

مطلب

امتناع الوزير شريف
باشا من الحضور
أمام هيئة التحقيق
وخاذه لنفسه
من المنصب

مطلب
تشكيل الوزارة
المختلطة وخلع
الوزراء المصريين

أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الانجليز الى الخديو
بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم نفعهم طائعا فرسمت له بتأليف وزارة أخرى
من ويلصون رجلها ودي بليشار الفرنساوى الذى كان ممن جاؤا للتظافر فى أمر ديون
الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نو بار باشا فأجابها الى
ذلك وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الانجليزى لوزارة المالية ودي بليشار
الفرنسيلى للشغال العمومية ومصطفى رياض باشا لاداخلية وأخذت على الخديو العهد بان
لا يأتى عملا الا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا الا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية ومصادق
أصحاب سياسة الفرنسيين والانجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها
وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق وأعقب ذلك أن استدان
الخزينة فرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحمد كبر أغنياء الانجليز
المسمى روشيلد وجعلت جميع اقطاعات الخديو واقطاعات عائلته على اختلافها رهنا لوفاء
هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشؤا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله
ادارة عمل تلك الاقطاعات وجعل أموالها وتدير شؤونها وكانوا ثلاثة انجليزى وفرنساوى
ومصرى واشترطت دولتا الانجليز والفرنسيين عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه الا بعد
رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث
ولم تقف عند هذا الحد بل طلبتا أيضا إقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة
على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع مالا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة
البلاد وراست دولة الانجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيثيان قنصلها الجنرال بمصر
وأظهرت للخديو غاية التجميل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فالح عليه القونصل وأكثر
من الالحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الامر وأحزنه وقال للقونصل يوما
ما هذا الالحاح وقد كنا والانجليز يشيرون علينا اشارة الصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا
تهديد العدو الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو براوغه ويحاوله

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف
المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة قبل وكام
الخديو فى ذلك فاستحسنه وحجب اليه العمل به وقد كانت الخزينة الى هذا الحين فارغة
والجماكي معطلة لاسيما مرتبات سائر الجنود والعسكر وعلوفات كبارهم وقد مضى عليهم زهاء
عشرين شهرا لا يحصلون على فضة ولا نفقاس فعمد ويلصون عند ذلك الى الاتيان على أوجه
الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجنود والعسكر زهاء الالفين الى أوطانهم
تخفيفا على الخزينة وجعل ينتظر فى جميع مصر وفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك
أمره الجنود وكبارهم واستعظموه وشكوا منه الى مقدمهم وتزاحوا على أبواب ويلصون
والوزير نو بار باشا يطلبون صرف بما كسبهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم

وهو أن عليهم فكانوا لا يزدادون إلا الحاحا وتشديدا في الطلب

فلما كان خامس عشر صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أي ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين ومائمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برجسة عابدين حتى أتوا شارع الدواوين في نحو الظهر وتفرقوا في أنحائه يرقبون مرور ويلصقون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلحم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا في وجهه لا يحل لك يا ظالم أن تعيش رغدا متمعا ونحن نموت جوعا أعطنا جاكينا الساعة بفعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فترامخ خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلحم الخيل وعادوا به إلى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصقون ولم يشعربهم أحد من المناشرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وترامخ الناس فاغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا إلى الديوان ووقفوا على الأبواب يحرسونها ووصل الخبر بما جرى إلى مقر الخديوي فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادئ القلب كأن لا خوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا بأصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلهم في الأمر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جباكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة إن هم عادوا إلى منازلهم فصاحوا لاسبيل إلى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد في ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلهم فلم ينصرفوا فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم إلى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليقرقوهم فأنعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والنخم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض البعض واشتد الدك والضرب فأمرع الخديوي وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار إلى مقره وجمع إليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلهم في الأمر طويلا وبالغ في الشكوى إلى أن قال للقناصل قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث في داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة إن لم تعد إلى السلطة التي سلبتها مني هيئة الوزارة الجديدة وإنني لأرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا قابضا على زمام الحكومة وقد رأيت ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على ما لم يسبق له مثال قيل فاستعظم القناصل هذا الأمر ولم يبق عند أحدهم شك في أن الخديوي هو الذي هيأ هذه الفتنة وأضرمت نارا لها لغاية في

مطلب
تحزب طوائف
الضباط وأهانتهم
للوزير نوبار باشا
ومن معه

مطلب
شكوى الخديوي
من الوزراء وتصميمه
على خلع الوزير نوبار
باشا وويلصقون
الانجليزى

نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد في طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم
ويطعن في شخص ويلصون الانجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وانه عامل على تخريبها
وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الازهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير
نوبار باشا من الاضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية
المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفا من
الدراويش هم ارباب الاشيار والطرق ومشايخ السجاجيد وأصحاب العكاكيز والمتهمين يشكون
بما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصون والوزير نوبار باشا * وتكلم مع الخديو
في ذلك وأكسر من الترداد على مقره * قال بعض الكتاب فكان اذا اجتمع عند الخديو
قناصل الدول أو بعض كبار الاجانب أرسل في الحال الى الشيخ البكرى فيدخل على
الخديو فيقوم له الخديو اجلالا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم
مع الرهبة والوقار فاذا خرج نظر الخديو الى الحاضرين وقال هذا هو كبير الاسلام
وشيخ مشايخ الدراويش وان في خدمته وتحت أمره وأشارته سبعين ألفا من الدراويش
وهو اليوم يطالبني بحقوق الامة فلا أدري ما ستكون عاقبة الامر معه * ونادى بعض
العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضيده
لنصرانية وأهلها ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصون وينكرون
عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإلحاح موارد الإيراد وذهاب ما في خزينتها من الاموال
وأرسل صاحب شرطة القاهرة الى مصطفى رياض باشا يقول * دبر للخلاص أمرا فان البغض
الك في ازدياد ولذلك فاني غير مسئول عما سيحيق بك اذا لم تغادر البلاد فاني أرى الخطب
شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جدا * ورأى الوزير
نوبار بعيد ذلك استحالة بقاءه في منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه في ذلك مصطفى رياض
باشا وبقي ويلصون الانجليز ودى باينار الفرنسي في القاهرة ينتظران الأمر من دولتهم
وما وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو الى الديار الاوربانية خوفا من البطش به * ولما تم
تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو الى تشكيل وزارة يرأسها
أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك الى دولتي الفرنسي والانجليز فوافقاه
على كره واشترطنا أنه ان حدث أى حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم الا على شخص الخديو
فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رئاسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الازمة
واستحكام حلقات الضيق بإحمال الخزينة فخلع رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين
ومائتين وألف هجرية أى سابع ابريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية
وأقيم بذله الوزير محمد شريف باشا * قال بعض الكتاب وقد كان لم يصل لأحمد من
الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم الا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على
زمام الاعمال فتنحوا عن المراكز وهم صاغرون وطبروا الخبر بذلك الى الاتفاق فلما علمت

مطالب

رجوع وزارة
الوزير شريف باشا
بعد وزارة الأمير محمد
توفيق وما كان من
وراء ذلك

دولتنا الانجليز والفرنسيس بما جرى خلافا للعهد هالهما الامر وحرك منهما ساكننا فأوعزنا الى وكيلهم بالقاهرة أن يكلموا الخديو ويحذروه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهم وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فريد في عدد العساكر والاجناد الى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالع في التأهب والاستعداد قبل وأوعز الى بعض أصحاب صحف الأخبار فتملوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا يا لثارات الدائنين يا لثارات حاملي السندات ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضا في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع المنظمات والتعديلات التي كانت تقررت للخرينة سنة ست وسبعين وثمانائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملائمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياسيي الفرنسيين والانجليز للذب والدفاع وعمدوا الى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا الى سفيرهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعوا أفكاره وكلوا في ذلك أيضا بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الألمان فسير بسمارك الى دار السلطنة في طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفعاله فاشتدت عزائم الانجليز حينئذ وتقدموا الى السلطان في تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم ان فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضون بدا فلا يصح له بعد ذلك أن ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم اشارة * وأحس الخديو اسمعيل بذلك فبث العيون في دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المايين فأنت اليه الاخبار بعضها يناقض بعضها وطال الأخذ والرد بين سفراء الانجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة في سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيين الى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت اليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت اليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالارهاب والتحويل ويطلب منه التخلي عن منصب الخديوية وكان قونصل الانجليز في ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجد في استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كي لا يتمكن الدول الثلاث من خلعه * ويتما هو على هذه الحال اذ ورد عليه الخبر من ابراهيم باشا كابو كخباه بدار السعادة بان السلطان أبي على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر الى الاتفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الاخبار في سواد ليله تنبئ بانه ان لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سابه لياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أي اضطراب وكاد يسقط في يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيين بدار السلطنة العثمانية الى تريكو بأن يلج على الخديو بالتجسس في خلع نفسه والتنازل لولده اذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك في تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحمدهم فيه وجع اليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه ابراهيم باشا

وطوائف المشايخ والعلماء والاعيان ونواب الأمة وتناجوا في الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقت تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أي ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيين والانجليز الى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرّر في دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الأمير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على إعادة حقوق الوراثة الى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الاباءة والعناد ثم قاموا جميعا وقد مضى من الليل أكثره وساروا الى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فأنع في ذلك كبير الحصيان وقال كيف أفتح لكم الابواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعهم الوزير فلم يقبل فصاح به وقال ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته * فيمنعهم على هذه الحال مع كبير الحصيان اذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا يا غلام الابواب فصعد الوزير ومن معه ولا قاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلا في أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه في ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذي جاءه من كابوتخدها بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدل واشتد اللجاج فقال الخديو لا أتنازل حتى يأتيني أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الاجل وبلوغ نهاية الامل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو الى سفير الفرنسيين بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد الى خيري باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطبا الى الخديو بمخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيري باشا ولم يجسر على اخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فاعلمه خيري باشا بالخبر فقال ولما ذا لم ترفعه لمولاي فقال لا أجسر على الدخول عليه الآن فقال قم وادخل معي فقام ودخلا معا وفي يد خيري باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال ما هذا الذي أتيتني به الساعة فقال الوزير هو خبر ورد من دار السلطنة فذ الخديو يده وأخذه ونظر الى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفراء ولبث برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر الى الوزير وقال علي بولدي توفيق الساعة * وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا في أمر خلع الخديو وفيما هو جارين الدول ودار السلطنة العثمانية في شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلا بسرأي الاسمعية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ اليه فأكبر الخديو هذا الأمر ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراي الاسمعية الى سراي القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقي محجورا عليه حتى سبر الخديو في طلبه في تلك الليلة فأتوا به الى سراي الاسمعية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار اليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به الى عابدين فلما مثل بين يدي أبيه قام له اجلالا * وهي أول مرة قام له * فتقدم

مطلب

خبري الأمر السلطاني
بمجلس الخديو
اسماعيل وتولية ولده
الأمير محمد توفيق
وما كان بعد ذلك

الأمير وقبل يده فأذنه بالجلوس بفلس وهو ينتظر اليه نظرة البأس الحزين * وقال له يابني لقد اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى وارادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابني باخوتك وسائر الآل برا واعلم أني سائر عنك آسف لعجزى عن ازالة جميع ما سئلناه في أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى وائق بحوزتك فأتبع يابني رأى ذرى سوراك وعش سعيدا لا كما عاش أبوك * فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر في القاهرة ومصر القديمة بجلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك الى الاتفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به الى مقره بالاسمعية ثم تركه وعاد الى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسي فدخّل الوزير على اسمعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم اليه وكلهم في أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفي ميله الى العزلة ما بقي من أيامه وكان الى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهرا فتقدم اليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الاسراع في جمع ما يشاء من متاعه لينقلوه الى البلد التي يختارها قبل فاصفر لونه وتلجج لسانه وعرض على اصبعه ندما على ما بدا منه من التخلي عن المنصب قبل ان يستوثق لنفسه ونظر الى تريكو وقال يعلم الله ان هذا التباعد ما كان لي في خلد ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو في القول وتجاوى في الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهتفون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيرا من المطالب فأجابوه الى جميعها ثم قال أطاب مائة ألف ذهباً للنفقة وباخرة للخدمة وأن آخذ معي جميع مقتنياتي ومن يريد الخروج معي من نسائي والحواري والحاشية والاتباع وجميع الامتعة وأن أقيم في جزيرة أزمير احدي جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساؤلوا معه جهدا لاستطاعة وقامت بشأن ذلك المخبرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس في القاهرة في خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب

وأخذ أتباعه في نقل المتاع والصناديق من عابدين والجزيرة والجزيرة الى بولاق التكرور وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأحرار يخبرونهم بالخبر وهم في بكاء ونحيب فخرج النساء في ذلك اليوم وتزاحن على أبواب عابدين وهن بايات مولوات رافعات أصوات النحيب وخرج أيضا نساء اسمعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودعات فكان يوما شهرة قطرير وفي اليوم الثاني الذي هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو وقبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والاعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع اسمعيل باشا والعائشين في نعمته وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال الى الساعة الثالثة عري فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا الى مقر اسمعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر

مطلب

رحيل الخديو
اسمعيل عن وطنه
ومسقط رأسه
وسكنه

على خذيه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحمه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الامير توفيق وخلفه ولده حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم فلما انتهى الى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودع الدار ومن فيها فتقدم اليه قاضى القضاة وقبل طرف أنوابه وهو ينتحب بالبكاء فالتحنى اليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا وصاحبه فتبعه في ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الامير توفيق وركب في عربة ثمانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجسم الغفير صاح النساء من شبابيك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضا بالبكاء واشتد الهرج والمرج وتراخ جماعة الحصيان والجاويشية حول عربته وهم يبكون ويولولون « على من تركتنا ياسيدنا » « من أوصيته بنا ياسيدنا » وكان اذا مررت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبابيك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل الى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للفائه فريقا من الجند ففزل الامير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند خفيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالتشيد الخديوى فدخل الى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت الى ولده الامير توفيق يريد أن يخاطبه فحنقه البكاء فضمه الى صدره وقبله وبكى بكاء مررا فقبل الامير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت اسمعيل باشا الى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودعهم فلم يقدر فصعد الى عربة القطار فسار به الى الاسكندرية وأنزله بالقبارى حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسارين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولده حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلماؤه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة الى ريان الباخرة مرشوما وأمره أن لا يفيض ختامه حتى يبعد عن الاسكندرية فراسخ قيل وهو يتضمن منع تنزيل اسمعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسيرة الى أى جهة شاءها من الممالك الاجنبية فلما أعلمه الريان بذلك قال نسير الى مدينة نابولى احدى أعمال دولة ايطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك ايطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبالغ في إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوما ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها في شهر رجب واعتزلها في شهر رجب فسبحان من لازوال الملك ولا اذلال الجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهداه انه الثواب العظيم

مطلب

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا الى الامير محمد توفيق باشا يقول

بناء على أن الخطة المصرية هي من الاجزاء المهمة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتصاد انما هي تأمين أسباب الترقى وحفظ الامن والعمارة في الممالك - وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية - وبناء على تزايد أهمية ما حصل في القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى اسمعيل باشا - ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الاضافية من الرشيد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجأ الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون الى استحصاى أسباب الأمن والرفاهة اصطفوا الاهالى وإدارة أمور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العالمة بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئصال صفا نيتكم - وبناء على فرمان العلى الشان الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التى صار شرح حدودها - وبناء على ما كتب بالتغراف الى حضرة المشار اليه اسمعيل باشا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التغراف انكى يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعا وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجيهة الى أثر استحقاق اصفا نيتكم لتجربى التنظيمات والترقيات مبدأ وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ابداء لوازم التهئة لحضرتكم أيها الخديو المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر انتهى

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديو الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكية زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيما ودخل عليه رجال الدولة و كبار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيون ووكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهنئوه وتراجعت ذوات البيوتات على باب والدته وأنت اليه رسائل التهاني تباعا من كل صوب وفرح الناس جميعا بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدق وتكب الخديو الى الصدر الأعظم يقول

وصل ليد التجميل تلغرافكم السامى الامر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن
الحكومة المصرية وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية
لعهد ريفكم هما من مقتضى على ارادته السنية السلطانية وبالحقيقة ان تكرم حضرة
صاحب الخلافة الاقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهد هذا العبد كان دليلا على
جليل المباني وركنا بالفخر لا يعادله ثانى على وجود عبدكم مشمول بفيض النظر الملوكانى
وبما أننى مهما بذلت من الوسع والمقدرة لايفاء ذرة من الت شكرات المفروضة على هذه
العنايات والآلاء أرى ذاتى عاجزا بالكفاية عن حق الايفاء والاداء فلذا رفعت الى مقر
اجابة الرب القدير أكف الادعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتفاع شأن وشوكة الحضرة
السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية نفاعتكم وبمقتضى منيف ارادة
الجناب السلاطانى السنية قد سعدت الى قلعة مصر فى الساعة العاشرة من يوم الخميس
وهناك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والاشراف والوجوه والاعيان والرؤساء
الروحانيين والمأمورين الاجانب ولكافة الاهالى وأطلقت المدافع ثم أخذت بزمام الحكومة
وبدأت بتليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن
سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم
العبودية والتابعة للسلطنة السنية وان بقاءها لايقوم الا بالصداقة والاخذ بالاص للذات
السنية الملوكانية فاستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة
ورفاهية أهالى مصر وسكانها والمتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية
متخذ ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات نفاعتكم العلية وفى جميع الاحوال الارادة والفرمان
لحضرة من له الامر انتهى

ولما استقر بالخديو المنصب رسم الى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها
على ماشاء ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند الى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند
العامل سوى اثني عشر ألفا فبدأت دلائل الاصلاح وظهرت اشارات الفلاح ففرح
الناس فرحا عظيما ورفع الكثير من الاجانب المستوطنين بالاسكندرية والقاهرة على
اختلاف أجناسهم العرائض الى وكلاء حكوماتهم بالاطراء والمدح للهيئة الحاكمة وبشكرون
لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الاصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء
جلدتهم الى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد الى أهلها قالوا لايتهم أعلم الناس بها
وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير الى الاتيان على جميع
أوجه الاصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الامور وإحكام نظامها * وكان الى هذا
الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخديوي برجال السلطنة العثمانية وأهل
المباين الهمايونى على طرفى تقبض فان بعضهم يعمل على تقلييل امتيازات مصر الممنوحة
لها من أيام محمد على باشا الكبير وان السلطان مبال الى ذلك فخفى الوزير محمد شريف

باشا العاقبة وكام وكيلى الفرنسيس والانجليز فى الامر فمكتبها الى كبيرى السياسة الافرنسييه والانجليزيه فى ذلك فكلما الباب العالى وشددا فى الطلب وطال الاخذ والرد بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمه أنصار الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المايين تخاف سفيرا الفرنسيس والانجليز بدار السلطنة شرعاقبه هذه الحال وأعمال الفكرة وأكثر التردد على الباب العالى وما زالوا حتى تفررت القاعده بينهما وبين الصدر الاعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك الى القاهرة فزال عن الوزير محمد شريف باشا ما كان يخشاه

فلما كان ثالث عشرى شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت الى مدينة الاسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الامير على فؤاد بيك كاتب أول المايين يحمل فرمان المشار اليه فأترل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم الى القاهرة فى رابع عشرية فأترل مع حاشيته بقصر النهضة بشبرا من ضواحي القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا فى اجلاله وتعظيمه وطبروا الخبر بقدمه وفى صبح الخميس خامس عشرية هرع الناس الى قلعة الجبل وتقاطر اليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والاعيان واصطففت الجند تباعا من صليبيه ابن طولون وطريقى محمد على الى ديوان السلطان الغورى بقلمة الجبل وفى نحو الساعة الثانية صباحا صعد الخديورا كبا فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى وهو من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفير ودوى المدافع حتى صعد الى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناوله اياه فأخذه وقبله ورفعته الى رأسه ثم ناوله الى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضا وارتقى مكانا مرتفعا أعده له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأنثم المحترم نظام العالم ونظام مناطم الأمم مسدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب مهندس بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الخائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنشانتنا الهمايونى العثمانى المرصع ونشانتنا المرصع الجيئدى وزيرى سمير المعالى « توفيق باشا » أدام الله اجلاله وضاعف إقداره واقباله انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على انفصال اسمعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ تسع مائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم ومداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولنافع دولتنا العلية

مطلب

ورود فرمان
الولاية على يدى
فؤاد بيك كاتب أول
المايين

ولما هو معلوم لدينا من أن الحكم وقفا ومعلومات بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالقرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد - وحيث انكم أكبر أولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية - ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام القرمان العالى الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحاضرة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فذلك صار تشييت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فما تقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية

ان كافة ايرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفائها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعه دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة والمالية والعديلية بشرط ان لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعسّد في وقت من الاوقات فخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظمات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة - وأيضا خديو مصر مأذون بعقد وتحديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولا أجل نسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب بشرط عدم خال معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفي حقوق متبوعة مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تفديعها الى بابنا العالى - وأيضا يكون حائرا للتصرفات الكاملة في أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا في نسوية احوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها - وحيث إن الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا - ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه في كل سنة في أوانه - وكذلك جميع النقود التى تضرب في مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لأن هذا القدر كافى لامنية ايلة مصر الداخلية في وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزداد مقدار العساكر بالصورة

التي تستتب فيها حالة دواتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرينا الشاعاني ويباح لخدديو مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أمير آلاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخدديو مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن والحصول على رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية - ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها - وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرا هذا الجليل القدر والموشع أعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحة افتخار الاعالى والاعاظم ونفاز الكبر والافاخم فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن أعاطم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتي مكانه الشيخ سليم عر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته والخدديو ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديو بموكبه الى مقر عابدين فانصرف الجميع وتراحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة في ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليل وأطلقت المدافع من قلعة الجبل في الاوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيرا ۞ وسار الخديو في الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفتق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ في الاحسان فلم يرد سائلا ولم ينزع مستعطيا وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا في رفع الخراج عن جميع الاراضى المأخوذة للنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيا كثيرا وتقدم اليه أيضا في طلب كثير من الامور النافعة للبلاد وأهلها فأجابها اليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوء والطمأنينة ورواج الاعمال أياما والناس في فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلى عنه طائعا في الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت نظنونهم الى المرحى البعيد واختلفت الأقوال في الاسباب فمن قائل انه تخلى لخلاف بينه وبين قونصل الانجليز والفرنسيس ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيين لأمور تقهها عليه ومن قائل بل بايعاز من دولة الانجليز اذ كانت ترى منه فرما غنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحسن بذلك فبادر هو بخلع نفسه ومن قائل غير ذلك وعندي أن القول الأخير أرجح بل أصح فخرن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كبسا حازما صائب الرأي شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل الى نصره المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا الى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو اسمعيل وبذل جهدا مجتهدا في بثها

مطلب
تخلى الوزير محمد
شريف باشا عن
منصب الرئاسة
وما اشتهر به بين
الناس

في جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعها الى الخديوى اسمعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتملأ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرئاسة يومئذ ان هو أصر على الابادة ثم حدث في ذلك الحين من الكواثن ما كان سببا لتلك ذلك القساوتون في زوايا الاهمال فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرئاسة اليه أحسن الظن بمخدمه وأخلص له النية * قال بعض كتاب الاخبار فأبان له عما في الشورى من الخير والبركة وجعل يحجب اليه العمل بها فقال الى رأيه ودعاه الى سن قانون لايس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئا من سلطته الوراثية فرفع اليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه اسمعيل قال فاستشار رجال ديوانه في جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموهوا عليه الحقائق وهزلوا في العاقبة فاعرض عنه فراجعته الوزير فلم يرض فانزل نفسه عن منصب الرئاسة في الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت) وهذا قول آخر في أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لاصحة له والاول أصح * وكان مصطفى رياض باشا الى هذا الحين نزيل الديار الاورباوية وكان قد فتر هاربا من وجه اسمعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فارسل اليه الخديو يستقدمه ويسمحه على الحضور ليؤليه مسند الرئاسة وأقام هيئة وزراء مؤمنة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشى باشا وعثمان رفقي باشا وعلى ابراهيم باشا فحدث الناس في أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرئاسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغتهم في ذلك فلما كان سابع عشرين رمضان قدم رياض باشا الى القاهرة فبالغ الخديوى في اكرامه ولبث أياما يغدو ويروح الى مقر الخديوى والناس في تخوف كأن على رؤسهم الطير ثم شاع أن استقدمه بعد ذلك التبعيد انما كان بايعاز من دولة الانجليز والحاج من قونصلها بمصر * قال بعض كتاب الاخبار وتحرير الخبر أنه لما سار الى لندن عاصمة الانجليز بعيد قراره من القاهرة اجتمع به وياصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد اسمعيل باشا وشكى اليه حاله وما لاقاه من مضض التضيق وذل التبعيد عن الآل والوطن فقصر به وياصون من كبار ساسة الانجليز واستمالهم اليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من اسمعيل باشا * قال الراوى فسأله بعضهم قائلا ماذا تفعل اذا أرجعناك الى ديار مصر ووليناك منصب الرئاسة قال أكفل انكم تعضيد سيادتكم واعلاء كلمتكم والعمل في سائر الاحوال بحسب اشارتكم فوعده بذلك ان هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على ارجاءه وتوليته فاحس الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الانجليز وقد زاد الناس اعتقادا في صدق هذا النبا ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية أمر توليته منصب الرئاسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الامور على أحسن ما يكون

وقد تطرف بهم الاطراء الى القول بأنه على عزم أن يرفع الى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لا بد منها ولا مندوحة عنها الاول جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشورية بان تؤلف من وزراء مسؤولين ولا يكون أمير البلاد مسؤولا عن أى خلل يحدث فى الخزينة أو فى ادارة البلاد الثانى عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة الا بحكم يصدر عليه الثالث أن لا يرأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية ابداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بان هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لانهم يعرفونه عدوا للشورى * قلت وقد سبق لاحباب هذه الصحف طلب تقرير هاته الامور على عهد اسمعيل باشا فحضوا جوشن وجوير يوم كانا بديار مصر على تقريرها واكرام اسمعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا فى خلع اسمعيل باشا وتبعيده

مطلب
تولية رياض باشا
الناصة للمرة الاولى

فلما كان رابع شوال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى الى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكّلها على نحو ما أراد ووافق الخديوى على تشكيلها فتراجعت على بابها أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فامر ونهى وتقدم الى الخديوى فى اقامة المراقبين الماليين الانجليزى والفرنسى الذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فاجابه الى ما طلب ورسم به بقاء من قبل دولة الانجليز أحد رجالها واسمه الماچور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيودى بليشار وهو الذى كان متوليا نظارة الاشغال العمومية على عهد اسمعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الاعمال فجثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذوا فى اصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لاصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الاموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا وأبطالا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أوجهه الاصلاح من أبوابها وقيدا الاعمال بالوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الامم المتقدمة ونظروا الى فلاحي البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الاب الشفيقة فأنفقوا كل ما فى وسعهم * وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأصلها شرفها والى رياض باشا يعمل أيضا على تعزيز مقامه واعلاء كلمته وبسط يده على جميع الامور واحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرق به حب هذه الاثرة الى التعبدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى اشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه واحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندبه ونهاه عن التحدى عليه فلم يلتفت الخديوى الى قوله فأكبر الرئيس هذا الامر من الخديوى وكتب فى رابع عشرى ذى القعدة

من السنة الى جميع دواوين الحكومة يقول * انه لا عبرة قط لهذه الرتب في أمر الجماكي
والمرتبات في جميع الخدمات الملكية فساء الخديوي ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما في
نفسه فزاد في الاحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّر
قرارهم على أن لا يعطى شيء من ألقاب الشرف والناشين الى مأموري الحكومة وموظفيها أيا
كانت درجته الا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار الى الخديوي ليصادق عليه
فكبر الأمر عليه وأزعجه فطاول وحاول أيا ما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون من وراء ذلك
من الفشل واستفحال الخطب ان هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا
الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوي والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى
الخديوي بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجول في أنحاء القطر والترحال الى الاقاليم
القبلية ترويحاً للنفس من شر هذا الحال * فلما كان صبح الخميس التاسع عشرى صفر من السنة
أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصداً الاقاليم القبلية ومعه
آل بيته وحاشيته وأتباعه وعلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعد أهل البلاد للقائه وفرحوا
بمحضه اليهم فرحاً لا يوصف وأظهروا من الاخلاص والتلطف للقائه ما لا يكاد يصدق العقل
فرزبوا البلاد بالانوار والرايات والرياحين والازهار وقابلوه بالطبول والزمر واطلاق البنادق بين
ضجيج الفرع وأصوات الدعاء والابتهاال الى الله فكان اذا نزل ببلد هرع أهلها رجالاً ونساءً
وأطفالاً وقابلوه بالدعاء وبالغوا في تعظيمه فكان يقابلهم بالمشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد
ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يرد لهم سائلاً وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط
فلما استقر بها ركبه كتب الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

* أنا الآن بأسيوط وليس في الامكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الاهالى من
الجزية الى هذا المكان من عظم الفرع والمسرة وحسن الترحب بنا ولا شك أن مثل هذه
الافراح والمسرات لا تصدر الا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة الا بوجود العدالة والاستقامة
ويرى أن الرعية الآن آمنة فينا واثقة بنا * تلك نعمة الهبة عظيمة المقدار توجب علينا
الاستمرار على نهج منهج العدالة والامانة لتزداد الرعية حباً لنا وثقة بنا جل الله القدير اجتهادنا
بالفلاح * ثم رجع الى القاهرة في مكتبته وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه
وسار منها الى الاقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولوا لقدمه الولائم والافراح
وبالغوا في ذلك بما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعاً الى القاهرة وقد بلغه من أخبار
الرئيس مصطفى رياض باشا واستهتاره بالامور وتحامله على منصب الخديوية وشخص
الخديوي ما أنساه تلك الولائم والافراح فجعل عند ذلك يراقب الاحوال والرئيس لا يلبى
عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتراحم على بيته أصحاب
السعاية وتقرب من مجلسه أهل التهمة والوشاية واشتد على كل من آنس منه جأشاً فهابه
الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع اسمعيل باشا منه

مطلب

فاتحة الخلاف

ومبدأ الشقاق بين

الخديوي والرئيس

مصطفى رياض باشا

شرا اذ مال على بعضهم يريد الانتقام واستد عليهم شدة بالغة فهاهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم الى بعض وتألّبو مع الفريق شاهين باشا كنج الذي كان رئيس ديوان الجند على عهد اسمعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بماهم عليه سيرا الى شاهين باشا يتهدده ويقول ان لم تقلع عما أذت عليه ساءت حالك وكذب فألأ ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس اليه فكبر الامر على شاهين باشا وأرسل الى اسمعيل باشا يعلمه بما آلت اليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فخب اليه اسمعيل باشا تركا تابعة السلطنة العثمانية والالتجاء الى دولة ايطاليا فقال شاهين الى ذلك فرارا من ايذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فانع **(قال بعض الكتاب)** وحرض بعض مشايخ البلاد التي بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على اسمعيل باشا في التججيل فوردت اليه أوراق التابعة فقام من فوره وحضر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث اليه برزقها في حينه وتأهب للرحيل الى مدينة نابولي حيث يقيم اسمعيل باشا فكبر الامر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير الى قونصل دولة ايطاليا في ذلك فلم يفلح * فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة الى الاسكندرية يريد الذهاب الى نابولي فجمع الرئيس في صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيا قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبته وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود الى ديار مصر منعاً مؤبدا ثم رفع هذا القرار الى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس في الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول الى شاهين باشا فأعطاه اياه وهو على ظهر السفينة التي كانت قائمة ذلك اليوم الى مدينة نابولي * حدثني صاحب لى قال كنت في ذلك اليوم على ظهر السفينة التي كان بها شاهين باشا وكنت مودعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولي احدى أعمال ايطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بأصلاح متاع السفر اذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب على وجهه فتقدم الى شاهين باشا وناولته ورقة مختومة ففضها وقرأ ما فيها وهو هادئ اللب ساكن القلب ثم التفت الى ذلك المأمور وقال قل للرئيس أصلى الله حاله انى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت اليها وقال وهو يتبسم تالله لو بنى جبل على جبل لذلك الباغى قال صاحبي فقلت جعلت فداك هل هي وصية يجب العمل بها فقال بل هي فرية يجب أن تخلد في بطون النوارنج ليعلم صاغر عن كبركم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد * قال صاحبي فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه مجدثي مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فتظرت الى شاهين باشا لعله يعيد علينا

مطلب

الحكم بتبعيد
شاهين باشا وتجريده
من رتبته وألقابه

حدث ما في تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شيء وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت
وأنا في خوف طائنا أن قد وصل خبري إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمته داري أياما حتى
سكن جاشي وأطمأن قلبي ولم يقدر الله على تكرره * قلت وقد عدت فرار شاهين باشا و خليل
أغا كبير خصيان جنة الخديوي والخاصة ما سمعيل باشا ذنبا لا يغفر إذ عقد الرئيس مصطفى
رياض باشا في ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتباحوا في ذلك طويلا وبعد أخذ ورد تقرر
القاعدة بينهم على نزع سراي عابدين مع ما يتبعها من الابنية وغيرها من جميع المحطات وسراي
الاسماعيلية ومحطاتها وما يتبعها من الابنية وسراي القصر العالي ومحطاتها وما يتبعها والمكان
الكائن بمصر القاهرة بخط الاسماعيلية ومحطاته المعروف بخزن الموبليات ومطبعة بولاق ومحطاتها
مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والابنية واصطبلات بولاق وسراي الجزيرة مع ما يتبعها
من الابنية والجنيئة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والاراضي التي تتبعها وقدرها ثلاثة
آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع المحطات الكائنة بالجيزة وسراي الجزيرة وما
يتبعها من الابنية والجنيئة والاراضي من جميع المحطات التي قدرها خمسمائة فدان وسبعة
عشر فدانا والمزول والكشك والحمامات الكائنة بمدينة حلوان وجنيئة النزهة القديمة المعروفة
بجنيئة باستريه بالاسكندرية على ترعة المحمودية وسراي الرمل بالاسكندرية وجميع ما يتبعها من
الابنية والشكبات والاصطبلات وغيرها من المحطات الكائنة بالرمل وسراي دفينه وما يتبعها
بمدينة البحيرة وسراي المنصورة وما يتبعها وسراي الروضة وسراي المنيا (أي منية ابن خصيب)
من ملكية اسمعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا لانه قد تبين لهم أن بناء البعض
وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولانها لازمة جميعها للنساع العمومية أو لاقامة
خديوي مصر ولانها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك * فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس
وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس ثم أعقب ذلك أيضا أن سير الرئيس إلى
ربان السفينة المسماة المحروسة التي كان اسمعيل باشا اتخذها مسكنا لنسائه أمام مدينة ناولي
بأن يسرع الكرة إلى الاسكندرية بالسفينة والاعذ تأخيره عن الحضور عصيانا وخروجاً وكتب
بنذلك أيضا إلى اسمعيل باشا فكبر الامر على اسمعيل باشا وأخرته جدا ولم يسعه إلا إعادة السفينة
ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له دارا بناولي وأسكن
بها من بقي من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديو توفيق في ذلك وعاتبه وبالغ في الشكوى
من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات
وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد آتت أعمالها على وجه ما تقدم بيانه وعملت
بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به * فلما كان يوم السبت تاسع
شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الاسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوي
بسراي رأس التين فتقدم إليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصالحهم جميعا ثم خاطبه
ويلصون بعبارات التهاني وقص عليه مجمل ما عملته اللجنة فاجابه الخديوي بعبارات التلطف

مطلب

الاحتفال برفع
قانون التصفية إلى
مقام الخديوي

وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الاولى وكذلك ناول كلامن بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو برا ولى والمسيودى بوغاز والمسيو نيكو والمسيو يتجره والمسيو لبرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال تلك اللجنة وبعد انصرفهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الاولى وعلى المسيو دى بليسا المراقب الفرنسى بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى أيضا وأحسن كذلك بعدة رتب ونيشين الى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بقره برأس التين وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلا وخارجا فأتت الى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهنئة من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة الى رحبة السراى طوائف الجند مابين مشاة وركبان بالطبول رافعين أيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا الى أن وصلوا الى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هنالك وبعد برهة لطيفة نادوا بأصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا الى ميدان المنشية فوقفوا هنالك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الاشيار والطرق تتقدمهم المشاعل والانوار والطبول والزور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم الى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالانوار وكذلك جميع السفن الراسية فى الميناء وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجاهير من الناس وكانت مزدانة بالانوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتبهوا الى مقر الخديوى وهم يعرفون ويضربون الطبول الى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فاطلقت شنكات البارود والحراريق والالعب النارية أمام السراى ومن باخرة الخديوى الخصوصية وباخرى محمد على ومهر واستمرت كذلك الى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا الى مديرى الاقاليم فوردت رسائل التهنئة ركاما من سائر البلاد

وكان أول شئ بدئ به من نفقات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الاطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الاراضى وبعضها قالوا وستبقى هذه الضريبة معمولا بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزينة فلم يتم توزيعها حتى اثبت أصحاب الجباية يعيشون فى البلاد لجمعها فشق هذا الامر على أصحاب تلك الاطيان وشكوا منه وتراجعوا على باب الرئيس فنامهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقرررا فى ضرائب الاطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين

الضرائب الاصلية فرق وأن جميع الاطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية
يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الاساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى
بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الاطيان الميرية التي تنقل من الآن فصاعدا
من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة
المناسبة لها فأنت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتهد انقباض الناس من فعال
الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الاشاعة بقرب خلعه وتزيله عن
منصب الرياسة * وأعقب ذلك أيضا أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما
يلاقون من عثمان رفيق باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية
واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب * قالوا * سوى الميل الى الجنسية
ورغبته في تبعيد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا الى الرئيس مصطفى
رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياما فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم
حاجة العيال فكانوا يجتمعون في كل ليلة في دار محمد أفندي فني رئيس المترجمين بديوان
الخزينة يتناجون في أمهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل
البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به نخب اجتماعهم
فبحث حولهم العيون والارصاد وهم لا يشعرون فلما كانوا في احدى الليالي يتناجون في حوادث
يومهم ذلك اذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة ومأمور من مأموري الضابطية
وقبضوا عليهم جميعا وساقوهم الى الحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنفلوهم الى سجن قلعة
الجليل ورسم الرئيس فهبوا لمحاكمة منهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثرت تحدث الناس
في ذلك وقطاوات ألسنتهم الى التقرير والسباب فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين
حكموا على محمد أفندي فني صاحب البيت بالطرد من خدمات الحكومة والسجن بقلعة
الجليل سنتين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية
* واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا في التضيق عليهم وخلعوا
الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعهم برقع الجاكي فكانوا ينفوا ألف ضابط
وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع في أطفالهم عملهم فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم
ببعض بالايمن والعهود وانضم الى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين
لاسيما من نقلت عليهم يد الرئيس * حدثني صاحب لي قال لما ظهرت علامات الفتنة
وكادت تبدو اشارات الخروج وأحس الخديوي بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا
وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان اذا شدد عليه الخديوي وحذره وألقى عليه
النبعة ذهب الى قونصل الانجليز وشكى اليه واستعان به على الخديوي فبلغ من نفوذ
القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولي من يشاء من مأموري الحكومة وأرباب
الوظائف وألقى بجماعة من قومه فأدخلهم في خدمة الحكومة وسد بهم أبواب الرزق في

مطلب

أول شكوى لضباط
الجند مما يلاقونه
من عثمان رفيق باشا

وجوه أهل البلاد وجاراه في ذلك قونصل الفرنسي فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف
لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخيوى لا يرى للخلاص سبيلا

مطلب

ظهور الوحشة بين
المراقب الفرنسي
وقونصل جنرال
وطهور عصابة الجند

ورأى المسيودي بليمار مراقب الفرنسي من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته
وتطاول يده الى أعمال الحكومة والعبث بمنصب المراقبة ما أنزججه وبليل أفكاره فحكم الرئيس
مصطفى رياض باشا في ذلك وحذره من سوء العقوبة ثم جعل يمانع في تداخل القونصل ويعمل
على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقم عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين
قائمة الشحنة واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال الى جانب القونصل
فكبر بغض المراقب له أيضا واستفعل بينهما الخلاف واستعصى الوثام ٥ وبينما كان
الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون المنفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفيق باشا رئيس
ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصصهم عن مناصبهم ويولي بدلهم جماعة
الشراكية وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار
وكان له منزلة وحرمة بين قومه فاشاع خبر عزله حتى انضم اليه جماعة الضباط المعزولين
وجعلوا يجتمعون في كل ليلة في داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون اليه في
أمورهم وتدير شؤونهم فوقع اختيارهم على أحمد أمراء الجند المدعو أحمد بيك عرابي أمير
جند الاي الرابع فابي دعوتهم وتجرد لخدمتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على
ما يناسب مصلحتهم * قات وأحمد عرابي بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده
في ليلة السبت ثالث عشر جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية
وقيل ولد في صفر عام سبع وخمسين في قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزقه على بعد بعض
فراسخ من الزقازيق أنشأها محمد علي باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين
يقال ان أجداد أحمد عرابي هذا منهم وأقطعهم بعض الاراضي لزراعتها واستغلالها
رزقة بلا مال الى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابي من تلك الارض ستة أفدنة
سودا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم فلما بلغ أحمد عرابي أشده سلمه أبوه الى قبلى
اسمه المعلم مخايل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلزمه زهاء خمس
سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه في مصاف
طلبة العلم بالجامع الازهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية
فلبث به زهاء الأربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد
الى قرية وأقام مع والديه الى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ الى العسكرية
قهرًا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قرية بالبعسكر جاويز بروحي اسعد باشا اسمه
حسن حلمى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابي ولازمه واحتسب عليه فأحبه وعمل على
مساعدته فرقى بواسطته الى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الارطة الرابعة من الاي المشاة
الاول وكان يعرف بين الجند بومثد بالشيخ أحمد عرابي فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى الى

رتبة ملازم ثم الى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم الى رتبة الصاغفول أغاسى والبيكباشى الى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائم ومات فبكاه أحمد عرابى بكاء مرًا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طبيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حينما ثم اعتزل الخدمة حينما أيضا ثم عاد اليها فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها الى أن وقعت بينه وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فهيئوا للملكة أحمد عرابى مجلسا حربيا لحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمرورق عن جادة العدل والاخذ بالوجه فرفعوا أمره الى اسمعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة العسكرية فابعدوه وبالعوا فى تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبث مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فادخلوه فى خدمة الدائرة الحلبية وهى دائرة الأمير الهامى باشا ولد عباس باشا الاول فأحسن الخدمة واستمال اليه كبار الدائرة فزوجوه بابنة مرضعة الأمير الهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى اسمعيل بسبب زوجته فأعادته الى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يث بين الضباط من المصريين روح اللفة والاتحاد ويقرب بعضهم الى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنيامين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاي وكان ذلك فى رجب سنة ست وتسعين واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقي باشا كبير ديوان الجند فى سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند الى الرتب العالية حيث قضى على العسكرية أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب الى بلده امداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى ويأتى الى مركز المديرية شهرين فى كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضي الخمس سنوات يقيم فى بلده بتغيير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطاب مدة ست سنوات ثم يعي اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بأنه انما سن هذا القانون على هذا المبدأ لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يتجهون العمل به وشكوا من فعال عثمان رفقي باشا وكان بين الباشا المذكور وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أمير ألاى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعبد العال أبى حشيش نفور ووحشة لامور لم تصل الى معرفتها فاجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار باحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال

عثمان رفيق باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتهيج ضد جماعة الشراكسة وقيح لهم فعال عثمان رفيق باشا ثم استضافهم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا على مساعدة أمراء الأليات الثلاثة في عملهم والمحافظة على أرواحهم اذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضباط الالات عريضة يطلبون فيها بعض المطالب الذين هم في حاجة اليها فأخذ أحمد عرابي العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

مطلب

تحالف الضباط
المصريين على
السيف والمصحف
وانتداب أحمد عرابي
للزعامة ورفع عريضة
بالطعن في عثمان
باشا رفيق

مقدم هذا لاعتاب دولتكم بعباية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم انه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقية وأبنت بالعدل في أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل أوليته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذي طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لنشيد دعائم أركان العدل والانصاف محفوفة برياض الحرية المبنية على المساواة في الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفيق باشا نظارة الجهادية رأينا سعادته يعامل ضباطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والاضرار كأننا الاعداء الالاء وكأن الله سبحانه وتعالى يطالب منه نظم المصريين والابحاف بحقوقهم مقتفيا في ذلك أثر راتب باشا في آخر العهد السابق من تهيج الافكار واثارة الفتن التي تكون سببا في توقيف حركة الاصلاح الادارى قصد أن يتمكن مما ساقته اليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الامر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عن ترقوا في الخدمة بوجه امتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم في العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الالف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحد من غير الوطنيين وهذا مضاف للمساواة ومحجف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واستقامة الاحوال كبر ذلك عليه وقصد تهيج الافكار باصدار أمره المبني على الاستعداد والاستعداد برفت أحد قاضى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار بيل بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبلنا وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الايقاع بنا واحدا بعد واحد مادام سعادة المشار اليه في مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمع القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك التوانين مسائلنا كنج جاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر في أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا في العلوم والآداب العسكرية وغيرها وما أثر دولتكم في تسكين الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام واجبات الشكر

الحقيقي والامر لمن له الامر انتهى

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما في هذه العريضة كبر عليه الامر ونقمه على أحد بيك عرابي وجع اليه في الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفيق باشا كبير ديوان الجند وتكلموا في الامر طويلا فطالب بينهم الاخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديو بالخبر فتكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأني وترك العجلة ورسم بالجمالة والتأطيف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد الى المقاومة وعهد الى التهديد فبث العيون وشدد في الشكير والضباط لا ينكفون عن التحزب والتأليب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضرر بفعل الرئيس * فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الاول من السنة أي سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء في جلسة خصوصية وكلهم في أمر أحمد عرابي بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكري من كبار الشراكسة لهاكمة كل من له يد في تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم اليهم من الاهلين وقد أخذ عثمان رفيق باشا على عهده تنفيذ ما يتعلق برعاه العصابة وقام من ساعته وذهب الى مقر ديوانه بقصر النيل وجع اليه رجال مجلسه الحربي وكلهم من الشراكسة فتكلموا في الامر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا في الحال ثلاثة أوامر الى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوي وأحمد عرابي بيك أمير جند اللاي الرابع وعبد العال حلمي بيك المعروف بابي حشيش أمير الجند السوداني يستدعونهم الى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الاميرة جيهانة هانم أخت الخديوي فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ماوقع الاتفاق عليه ومع ذلك فانهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا الى قصر النيل ومعهم من يأتي بالخبر الى أصحابهم اذا حصل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفيق باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم الى حيث المجلس العسكري فلما وقفوا بين أيدي رجال المجلس اتفت اليهم خسرو باشا أحد الاعضاء وقال قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكري بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فأخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلوها . فقال أحمد عرابي بيك قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لكون على علم بما جئنا ونعرف ما اذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو ... فقاطعه أحد رجال المجلس بان قال ومن أين أثبت لانفسكم حق هذا النظر وكيف تطالبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم

مطلب

تشكيل المجلس
العسكري للحكم على
عرابي بيك ومن معه
من كبار العسكر

الساعة واذهبوا بهم الى حيث أمرناكم نخاف الامراء عنهم سيوفهم وسلوهم وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم الى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم في سجن منفردا تخفزه الجند وبعض كبار الجرا كسة وكان ذلك في نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوي برحبة عابدين وكان محمد أفندي عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الامراء نادى في جنده بالخروج فخرجوا جميعا بأسلحتهم وعدتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت الى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه في احدى الجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند الى قصر النيل وهم في ضجة وجلبة وبلغ الخديوي الخبر فاشرف على الجند من شرافة السلامك ورسم الى الفريقين راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب الى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروحى قرا قول السراى بان ينفخ في البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوي فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم في ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا اليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجيء الجند فامر بالابواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الابواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكمسروها واقصموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن وبأدروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وقتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام اليه ناظرها الماس بيك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الاعين ببعض الاكياس الفارغة فتوارى هناك

حينئذ اتفقوا على ان لا يخرجوا من الديوان حتى لا يطلعوا على ما يدور في القصر الى ان ياتوا بالامير الخديوي فخرجوا على الامير الخديوي فخرجوا على الامير الخديوي فخرجوا على الامير الخديوي

ورسم الخديوي بالاجرة فاضطرب رأى اضطراب وسيرى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضرهم فرسم بذهابهم الى قصر النيل ليتسددار كوا الامر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعههم الامراء الثلاثة وهم ينفخون في البوق وخلفهم العامة في ضجة عظيمة فعادوا مسرعين الى مقر الخديوي وأعلموه بالخبر ولم يكذب يقرهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى احاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر في هذه الاثناء الى معسكر طرا والعباسية فحضر منهم ما على الفور فرقان بالبنادق والحرب وانضموا الى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الاثر ونادوا بالويل والتمسور على عثمان رفقى باشا وأشباعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير اليهم الخديوي يقول هو نوا عليكم فسرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوي ثلاثا وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا الى رحبة عابدين من كل فج عيمق وتزاحوا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت

الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول الى مقر الخديوى وهم في دهشة واضطراب وكان أجد عرابى بك قد أرسل اليهم في الحال يعلمهم بالحادثة ويطمئن خواطرها من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم انه لا علاقة لهذه الحركة قط بالامور السياسية ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا في الامر طويلا ثم استدعوا أجد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيرا وبالسبح في الشكرى وعظم البلوى ثم قال اننا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفيق باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا في الامر طويلا ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الامراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أجد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بما جرى ووقع الاتفاق عليه ونادى في العسكر بالمسير فنهتفوا جميعا بأصوات الدعاء ثلاثا وانسحبوا الى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب (ومدخلن بقصيدة دنانير) وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك الى طرا وسار أجد عرابى بك بعسكره الى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند بدلا من عثمان رفيق باشا المعزول فالتحاز جميع الامراء ومقدمى الجند اليه وتقربوا منه ليكون لهم عوناً فأعجبه ذلك منهم ومال اليهم وتقدم الى الخديوى في طاب العفو عنهم جميعا وما زال به حتى أجابه الى ذلك فلما كان يوم السبت عشرين ربيع الاول رسم الخديوى بحضورهم جميعا الى مقره بعابدين فحضروا في الساعة الخامسة وفي مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما غفلوا بين يديه قام فيهم خطيباً يقول انكم تعلمون حق العلم ما عدي من الميل والمحبة للعساكر والالنفات الى شؤونهم من يوم استلأى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدى من أنهم متحدون معى على سادى احسنه الى نى اى حفظ الامنية واستقامة الاحوال الادارية في هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الاسف بأسباب الحركة التى عادت وانقضت ومع ذلك فاني قد عفوت ولم يبق في قلبي من آثارها شئ بالكلية فليزكم من الآن فصاعداً أن لا تشتغلوا بشئ خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا في أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعي واجتهادى متجه الى اصلاح الاحوال وتحسين الامور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى في هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة في تنعيم ما يجب من الاصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم به هذا القطر من الاصلاحات المالية والادارية في ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر ابداء الشكر واطهار الممرة وحاصل ما أقول لكم ان العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعي في أداء واجباتهم والامتنال لولى أمرهم وانى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بان أكل الصفات العسكرية هي الاستقامة والامتنال في جميع الامور والاحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتبجلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور اه فلما أتم خطابه نهتفوا

مطالب

تولية محمود باشا
البارودى رئاسة
ديوان الجند

جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الامراء الثلاثة الى قونصلى الفرنسيين والانجليز وتكلموا معهم فيما هم عليه من السكينة والتسلل بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو الى القلق أو الاضطراب ولله در من قال

فلا يمنعك الطير شيئاً أردته * فقد خط بالاقلام ما كنت لافياً

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديو من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفيق باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالامراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لا نجاح له ولا فلاح الا بالخلاص من البارودى فعمد الى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وافشاء اسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيين بمحادث البلاد قبل اذاعتها قيل وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيين وتحبب اليه فأحبه ومال اليه انتقاماً من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديو وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب الى رئيس جمهور الفرنسيين يشكو من فعال القونصل ويعيب تدخله فى أعمال الحكومة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييباً وأكثروا من اللوم والتفريع بدولة الفرنسيين لتركها قونصلها يعمل على إضاءة الخواطر وبإسالة الافكار وأعانهم المراقب الفرنسي على ذلك أيضاً لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاجاة على النفوذ * ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيين نزلاء القاهرة والاسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضراً وبعثوا به الى مجلس نواب بلادهم وسألوه أن لا يعبروا بشكوى الرئيس وشاية المراقب جانب الالتفات وان يستبقوا القونصل فى منصبه كي لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكرامة فلم يكذبصل خطابهم الى عاصمة الفرنسيين حتى جاء الطلب الى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وهاجوا ورفعوا عريضة ثانية الى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الاول من السنة فشيعة العدد العديد من الفرنسيين وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا الى بلاده وفرح أصحاب صحف الاخبار الانجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك فى مؤامرة الخند وخروج الامراء الثلاثة وقالوا انه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكايه بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف اخبار الفرنسيين وأغلطوا فى الرد وتجاؤوا

مطلب

اشتداد الخلاف

ما بين قونصل

الفرنسيين والرئيس

مصطفى رياض باشا

وما كان من وراء

ذلك

في القول وقامت بينهم حرب الاقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بأصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسوي جاكين وألف لجنة أوعصابة سماها العصاة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين بأرض الفراعنة وكتب الى كبير جهور الفرنسيين يقول اني بصفتي رئيس للجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين في ديار مصر أطلب بالخاح أن تنظروا بعين الالتفات الى العريضة التي بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور في رابع ربيع الثاني اعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيين نزلاء مصر والاسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الألوان الثلاثة يعني الراية الافرنسية بالنزل المعروف بنزل أبات بالاسكندرية لاقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيين عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فاي القوم دعوته وتراجوا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنخماء ورموا الرئيس بالخيانة لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا في السب والتعيب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة الى كبير جهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشي العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل الى منصبه فتقدم الى الخديو في التحرير الى كبير جهور الفرنسيين بمنع رجوع القونصل الى ديار مصر كي لا يتكدر صفاء المودة بين البلدين فأجابه الخديو الى ذلك وكتب

ولم يكذب طمأن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل الى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم في دار البارودي وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبد العال بيك حشيش أمير الجند السوداني قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السوداني يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا انه مرفوق عن لسان جميع الضباط والجند بانهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديو عما سلف من طاعتهم لأمرهم وإخراجهم اياه من قصر النيل قالوا وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديو يومئذ هو الذي استقدم اليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسمائة جنبيه ذهباً عينا وأوصاه أن يبذل جهد المجتهد في التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط في نظير ذلك ثلاثة جنهات وللعندي جنيه وله هو في مقابلة ذلك الرفعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه في ذلك أونباشي أي كبير عشرة من الجنود فوافقه الاونباشي ووعدته ثم تركه وذهب الى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وقتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعاً فكبله بالحديد وألقاه في الحال بالسجين وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام في الحال الى عبد العال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها الى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا الى البارودي باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا في الأمر

مطلب
القبض على أحد
الضباط الشراكسة
وهو يستكتب
ضباط الجند السوداني
بالشكوى من عبد
العال بيك حشيش

ثم قام البارودي ودخل على الرئيس وأعلمه بما جرى فلم يهتم به ولم يلتفت اليه فساء البارودي ذلك وذهب الى الخديو وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فصار الى أرض له بالأقليم البحري ونجحت بتبعيده نار الفتنة وسكنت خواطر زعماء العصاة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجند والحزامة فتقدموا الى البارودي في ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر في حالة الترقى والجماعى والمرتببات وسن قانون يكون اليه المرجع في تقدم كل عسكري وواجبانه وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الاصلاح فأجابهم البارودي الى ذلك وكأم الرئيس مصطفى رياض باشا في الأمر فحاول وطاول والبارودي يلح في الطلب فلما أعبته الخيلة سأل الخديو في ذلك فكلم الخديو الرئيس فلم يلتفت وأصر على الاباة فرسم الخديو بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا واسماعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمسترجولده اسمث مفتش الدائرة السنية وغيرهم من الضباط لينظروا في طلبات زعماء الجند ويقدموها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياها ثم رفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حدا للترقى في الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا انه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا في الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الاقرار على هاته القاعدة فأجابهم الى ذلك كارها ورفعها الى الخديو فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جاكهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودي وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا الى طاعته والاجتماع عند اشارته الانفرا من الضباط فسعى في عزلهم وتولية أنصاره مكانهم

ورأى البارودي بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصاة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج * فلما كان حادى عشرى جمادى الاولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا اليها جميع الوزراء والمراقبين الانجليزى والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودي وخطب فيهم فكان ما قاله * هذه ليلة أنس دعتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف تذكارا لما نثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها الى اصلاح أحوال الاهالى جميعا ونعيم العدل فيهم وايصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديونا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذاك الا من حسن مقاصد هذا الجنب وطهارة سمجابه - الى أن قال - ولا ريب فان هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جيعنا مخلصا للحكومة فى خدمته فأثما بواجباتها

مطلب

مطلب زعماء الجند
من البارودي سن
قانون للجندية
يكون المرجع
اليه

معصدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التي هي السبب في هذا الخير العظيم وعلى ذلك لا بد أن نشأ جميعا فليحى الجنب الخديوي أطال الله بقاءه * فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط - الى أن قال - ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التي امتازت بها أيام حكم الجنب الخديوي في هذه الاوطان أمر معلوم يعتد بعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة الى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح - الى ان قال - وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت اليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فإذا بادأكم الحاكم بحسن الاتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالمكم أن تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولي الامر الذي هو السبب الاعظم في جميع هذه الخيرات - الى ان قال - وعلينا جميعا أن ننتهز الى الله تعالى ببقاء الخديوي وتأيينه عزه وأن تنادي بلسان الحال فليعش الجنب الخديوي فأجابه الحاضرون على ذلك

وقال ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب مافي نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم في العمل على خلعهم والتخلص منه فانه لما تمكن أحمد عرابي بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد الى استمالة أهل البلاد وعندها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعث فكلوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون في صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج الى أن كتب الى عد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على أيدي رسله يقول * ان الوزارة الرياضية يعني الهيئة التي يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على ما فيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الاراضي الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم واعطائهم الرواتب الفاحشة المثقلة على اكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الاجار الطبيعية الموجودة ببوغاز اسكندرية لتمكن سفن الاجانب من الدخول الى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا واضربنا عن هذا كله يعتد من الجبن والعجز والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل اجحاف بحقوقكم والدود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم الابتزير وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجاس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة اليكم على يد حاملها والغاية منها جعل نائباً عنكم في كل ما يتعلق باحوال البلاد * فأجابه الى ذلك كثير من عد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الاراضي واتفق في غضون ذلك أن قام الخديوي وحاشيته

مطلب
في عد أحمد عرابي
بيك الى استمالة أهل
البلاد

ورجال ديوانه الى مدينة الاسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته في كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة بخلاف الجور لزعماء العصابة فأكثر رسالهم من التطواف على بيوت الاعيان والدخول في مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبضون فعال الرئيس ويحضونهم على تعضيد العصابة والأخذ بيد زعمائها * وظهر في هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى في كل ليلة بشكل جلي حتى اضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره الى رموز واشارات شتى ويقولون ان هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لا تتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا اليه جميع الوقائع والحوادث التي وقعت في غير ديار مصر وتكلم أصحاب صحف الاخبار عن هذا النجم فقالوا انه النجم ذاو الذنب الذي سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكي الشهير فقال انه ظهر في سنة ست وسبعمئة وألف ميلادية وشاهده في سنة سبع وثمانمئة والاف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ * ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الاقدمين تنبأ بان العالم بأسره سينقرض نهارا في رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمئة والاف ميلادية يعنى في ثاني المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال وتستمر الاحوال من هذا التاريخ الى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما بأنى كل يوم منها بداية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض في اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاوس العجائبي عندهم بعد أن يشاهد الكثير من هذه التوازل الطامة التي منها تلاشى أسماك جميع البحار وان يوم البعث والنشور يكون في ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق الا يوما واحدا قال المتنبي ثم يعود بعد ذلك كل الى وظائفه العادية اه * قلت فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيمون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لاتعنى لحظة الا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل الى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة في المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم في بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أواني النحاس ويفججون ويهجون ويقولون بالطيف بالطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب طاهر للبيان * وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير في هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاية وغير ذلك * وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا ارجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الاراجيف الباطلة والاشاعات الكاذبة ويستفزونهم الى الخروج عن طاعة ولاية الامور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بان ما كان في البلاد من الضنك والخراب واحمال الارض انما هو من فعال الرئيس وبغضه للاهالى

ورغبته في تسليم البلاد للتجار حتى صدقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعث هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الأجانب المستوطنين في البلاد وطمعت نفوسهم في أموالهم وأرزاقهم فكان إذا استدان أحد ديناً من أحد هؤلاء التجار وحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فإذا شدد عليه الطاب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده بخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لاهل البلاد ونزح الكثير منهم الى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الارزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الأجانب وتعذرت الحباية وقلت حيلة أصحابها وزهد الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على المديرين وأمورى الحكومة بمراقبة الاحوال ومنع هذه القلاقل وايقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد الى الاباطيل والاخذ باقوال الاولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايجات التي كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد

وبينما كانت أفكار العامة في اضطراب وقلوبهم تنقد غيظاً من الزلا ويطمنون لو أنهم يبطشون بهم جميعاً إذ حدث بمدينة الاسكندرية أن جندياً من مرابطة القلاع كان سائراً بميدان المنشية فصدته عربة لاحد الزلا فسقط ميتاً في الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا اليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قس في الماء أو عرج به الى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها الى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوق والغوغاء وهم في صباح وجلبة فاذا مروا بأجنبي أوسعوه شتما وسباً وتهديداً وكثر صباح الغوغاء وتخطفهم الاشياء من حوانيت الناس بخاف الناس العاقبة وأغلقت حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجنود نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فأنعوا وأبوا إلا الصعود بها الى مقر الخديو وما زالوا سائرين بين صباح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شبك مجلس الخديو وصاحوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا في أيامك أئت لنا بصاحب العربة يا أفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديو في الحال من الطاق ولطفهم وهون عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة الى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا النصارى تقتلهم جميعاً فأرسل اليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهتفون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر في هذه الاثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهراً وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك الى القاهرة فبالغ الناس فيه وخططوا وخبطوا حتى قالوا انه قد قامت الحرب بين الجنود والطوائف الافرنجية بشوارع الاسكندرية والامر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندي وألقاهم في السجن أياماً ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد

مطلب

قيام جنود الاسكندرية
بسبب موت أحدهم
بصدمة من عربة
أجنبي

فلما شاع خبر الحكم عليهم تحرك جند الاسكندرية وأظهروا غاية السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثرت طوافهم في ذلك اليوم في الأزقة والخارات التي تسكنها الطوائف الافرنجية فم الخوف جميع سكان الاسكندرية وجاء الخبير الى البارودي فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أو هو من أراجيف زعماء العصابة التي ما برحوا يذيعونها للتحويل والارهاب

مطلب

تطواف عبد الله
نديم على أهل
البلاد يستنصرهم
لرجال عصابة الجند

وأعز في هذا الحين أحمد عرابي بيك الى رجل من أهل البلاد اسمه عبد الله نديم صاحب صحيفة من صحف الاخبار اسمها (التنكييت والتبكييت) أن يحجب الاقاليم القبلية والبحرية ويدعو الناس الى نصرة زعماء العصابة ويستنصرهم الى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد اسمعيل باشا لينالوا بواسطته ما لم يقدروا على نواله الا أن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبد الله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قولا سهلا العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميل أهلها فطفق يحجب المسدن والبنادر والفري ويخطب في الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وما حل بالبلاد على أيامهم من الويل والحرب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال اليه خلق كثير من الاعيان والوجهاء من كل صوب وحذب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر في عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاية الامور ومن يدهم زمام الاحكام الى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربقة الاستعباد الذي أنقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطني وعاد عبد الله بذلك المحضر الى القاهرة وسلمه الى أحمد بيك عرابي ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصابة فنهضوا الى طلب الشئ الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل الى ثلاثين ألفا - وجعل زمام الجيش وادارة جميع أموره بيد أمراء الآليات دون غيرهم - وزيادة جماعى العسكر - وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا في حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه الى الرئيس على يدى البارودي فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس ولكنه جعل يطاول ويحاول وعنى البارودي والبارودي لا ينكشف عن الطلب ولم تفترله عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل فكاشف الخديو على ماخفي من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس انما يعمل منذ اليوم الذي عفا فيه الخديو عن الجند وزعماء العصابة على سلب امتيازات الخديو وازهاب حقوقه الذاتية وأطلعه على كثير من الأمور الخفية التي لم تكن تخطر له على بال * قال الراوى فاندش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه اليه وحقد عليه ولكنه اعتصم بحبل التأمي ورسم بان لاتعقد هيئة مجلس الوزراء الا برئاسته وأن لا يقع شئ الا بعد مشورته وأن لا يأتي الرئيس عملا الا بعد التصديق عليه

منه فأجابه الرئيس بالسمع والطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان اذا أطلع الخديو على شئ أخفى عنه أشياء واذا أخبره بأمر ستر عنه امورا والخديو يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقي الحال على هذا المنوال أياما

مطلب

تقرب البارودى

من المراقب

الفرنسوى وقونصل

جنرال الفرنسيس

وما كان من وراء

ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فقال اليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيودى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس مصطفى رياض باشا * قال بعض الكتاب وتحابوا وتوادوا فرأوا من الخديو عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن الخديو بدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصابة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى الى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا الى قونصل جنرال الانجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصابة * قيل فهون عليه القونصل وشدد عزمته وحسن له الاصرار على الاباءة * قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة ان القونصل انما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فغابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز الى زعماء العصابة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل واللقاء خطب التهديد على لسان عبد الله صاحب (التنكيك والتبكيك) وكثر الاخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكام قناصل الدول الخديو فى ذلك فأرسل الخديو فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء الى الامكنة فصاروا اليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلهمم الخديو فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتحبافه وحطه من مقام الخديو وقال لا بد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كي تحمد نار هذه الفتنة وترجع الامور الى سابق مجراها وشدد فى ذلك وعنف الرئيس * قال الراوى لهذا الخبر فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال لست بمخجل عن منصبى ولا أنا بمنزل نفسى وفى بقية من الرمق بل ان أعترف بما يطلبه الخديو من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من سوء البلاد وأهلها فكثيرينهم الأخذ والرد واشتد اللدد فتجلبج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى اوكد فكبر الأمر على قونصل جنرال الانجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يحتاجون فانصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم الى الخديو فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديو وتراعى على أقدامه وقال والله ان يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديو الى ذلك ورسم

في الحال بتقليد الامير داود باشا ابن الامير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك في نحو الساعة السابعة عربي من تلك الليلة وفي النفوس ما فيها * وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودي وطن انفسال أصحاب الحركة وانصرام حزمهم فقرب اليه الامير داود واستخذه على عدم التهاون حتى بصغائر الامور فشدد الامير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا في بيوت بعضهم وحرر بذلك منشورا وأوعده كل من يخالف بالتبعية الى أقاصي السودان فلم يرتدوا وظلوا على ما هم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ الى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح اذ كانوا يتمددونه ويتوعدونه بالقتل وكان اذا هم بعمل شئ علموا به قبل الشروع فيه وسدوا عليه جميع أبوابه فلما أعتبه الحيل تمارض وطلب التخلي عن منصبه فأترلوه وولوا مكانه عبد القادر باشا أحد أمراء الجند على عهد اسمعيل باشا فدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا اذ عصاه أصحاب الشرطة ونبدوا كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره وانهمه ضباط الجند به انما يطوف حول دار أحمد عرابي ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخطبوا وخفوا عبد القادر باشا شر العقاب ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الامير داود الرئيس مصطفى رياض باشا في ذلك فاستعظم الامر ولم يطبق الصبر على حر هذا الجر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين

وبينما الناس في شاغل بالحوادث المتردفة والبلايا المتراصة اذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الاول غير أنه صار ضعيف الضوء لا يكاد ينظر الا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيرا لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه في الشمال الغربي بأسفل الدب الاكبر ومع ذلك فقد كان ينظر في نحو الساعة الثالثة عربي ليلا الى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا الى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الاسطحة ورؤس الجدران يرصدونه وهم في ضجة وولولة وابتهاال الى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم في خامس عشر رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية

فلما كان سابع عشره وردت الاخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدي المنتظر على رأس القرن الثاني عشر من الهجرة الحمدي واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الابيض وهى مستقر المهدي المذكور ليأتوا به الى مقر الولى وقد تنبه على مقدمهم بان لايسير اليه الا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره في الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدي وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح

مطلب
ورود الخبر من
عامل السودان
بظهور كذاب يدعى
المهدي

والبنادق فأوعز مقدم العسكر الى العسكر بان يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا
جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا لا نضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لانهم من الدراويش
فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعطوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة
عسكري وستة من الضباط وفر من بقي والتجأوا الى النيل * ولما رجع أصحاب المهدي
اليه ظافرين اشتد ظهره وتفتت عزيته وبث الدعاة في البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة
وأهالي الجبال وكثرت لمومه فعبث بهم الى الجانب الغربي وظهر من هذا الحين أمره وعلت
كلمته ثم دخل بلدة جبال نقلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضي البقارة وجعل بها
مقره وطير الخبر الى الآفاق يدعو الناس الى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة
الكفرة الملحدين فجمع الوالي عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم الى فاشوده
ليسيروا منها غربا والوالي يومئذ رؤف باشا وأرسل الى القاهرة في طلب المدد من الرجال
ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم الى الأمير
داود بان يسير اليه طائفة من مرابطي قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابي بك النازلين
بالعباسية فأحسن زعماء العصاة بما وراء ذلك فبشوا أعوانهم بشيوعون تكذب خبر الفتنة
بالسودان ويقولون انها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لا بد منها عند خروج أصحاب
الجباية لجمع الخراج فشدد الأمير داود في طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم
وبالغوا في الامتناع وتجرد عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيك) للذب والدفاع وكثر
بين الفريقين الاخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر ماليت فونصل جنرال
الانجليز في ذلك واستعان به فأعانه وتقدم الى الخديو في طلب صرف جميع الجند الى أوطانهم
علما تسقط كلمة أحمد عرابي ويذهب نفوذ زعماء العصاة فرسم الخديو بذلك الى الأمير
داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكامهم في الامر فأجابوه بالسمع
والطاعة ولكنهم لم يفعلوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على
استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الامر على غير ما يريدون * فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم
الرجاء والامل كتب الأمير داود مرسوما في ثالث عشر شوال الى جميع طوائف الضباط
ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العقوبة وطاف في ليلة تحريره ذلك المرسوم على بيوت
الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماعهم وهم في هرج وجلبة فأصبح وقد
كتب اليه عبد العال بك أمير الجند السوداني يطعن في مرسومه ويعيب قوله ويرجى الهيئة
الحاكمة بالجرور والعنف ويقول ان هذا النهي مما لا يصح الامتثال اليه اذ هو مخالف
للقوانين العسكرية واردة أمير البلاد ومقتضيات الملة الخفيفة وأن تعاضد الجند واتحاد
العسكر في أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتألفهم وتجميعهم في أعمالهم كل ذلك عنصره
القوة والنظام العسكري في كل أمة وملة ولا سبيل الى النهي عنه فاستعظم الأمير داود
هذا الجواب وأكبر ما فيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار الى قصر النيل وجع

ضباط الفرسان المراطين هناك وجعل يستميلهم وينهم بالاماني العظيمة وما زال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استخلف ضباط الالاي الخامس النازلين بمدينة الاسكندرية وضباط الحرس الخديوي وطن اخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم الى أحمد عرابي بالقيام بجميع عسكره الى مدينة رشيد والى جند قلعة الجبل بالقيام الى دمياط وأنفذ الى مقدم جند دمياط أن يأتي بعسكره الى مدينة الاسكندرية والى مقدم جند الاسكندرية بالحضور الى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابي وجند قلعة الجبل الى رشيد ودمياط * فلما وصل مرسوم الامير داود الى مقدم جند القلعة بالانحدار الى رشيد وكان ممن لايميلون الى أحمد عرابي وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر الى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فغنقوه وانحدر جماعة منهم وأعلوا زعماء العصاة بما جرى نفاقوا العاقبة وجتمعوا في الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية في معسكر الحرس الخديوي وقام فيهم أحمد عرابي خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبانغ في الشكوى وعظم البلاء وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاقد وما فيهم من الخير والامن على الارواح ثم استخلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون ارواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الاعداء والاحتراس على موارد ايراده من أيدي الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الحكمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع في كل الامور اليه * وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابي بيك الى الأمير داود يقول قد تحقق لنا ولعموم ضباطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمرهم الى الالاي السادس بالتوجه الى الاسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضي ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكين من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والاخلاص ولا نذب اهم سوى طلب الاصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لانسلم أنفسنا الى الموت وأن كافة الالايات ستجتمع يوم تاريخه في الساعة التاسعة نهرا بيمدان عابدين للنظر في حل تلك المسائل بحيث ان هذه الالايات لا تنحرك من موضعها الا اذا حصل التأمين الكافي لسن قانون عادل يوقف كل انسان عند بعهه وسنشعر وكلاء الدول الاجنبية بما يلزم اه بنصه

مطلب
كيف كان اجتماع
العسكر بيمدان
عابدين وما كان
من وراء ذلك

وكتب الى قناصل الدول أيضا يقول أشرف بان أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة احدى وعشرين أي من وقت ابتداء الفتنة التي أحدثها عثمان رفيق باشا الى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفي كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعايا وتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتوقع افئدك والاعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فرج بك السوداني وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس * قلت وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما

يومئذ ونحن مع كل ذلك نسعى في تحسين الحال وقطع المفسد بالحكمة والتدبير رغبة في الحصول على الراحة العمومية وحقق الدماء والمحافظة على كافة تبعه الدول المتحابية ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد الى أن شرع في تجزئة الجيش المصري وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا الى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذي يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة الى تحرير هذا الجناحكم لتعلموا باننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الاورباوية واقبلوا مزيد الاحترام اهـ

فلما وقف الأمير داود على ما في خطاب أحمد عرابي بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوي بعابدين وكان الخديوي قد عاد من الاسكندرية منذ أيام وحدته بخبر تحزب جميع الضباط وما في خطاب أحمد عرابي بيك فسير الخديوي في الحال في طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الانجليزي لغياب ماليت فوصلهم الجنرال فخصروا فمقد مجلسا وتناجوا في الامر طويلا وكثير بينهم الاخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذه الحال اذ حضر من يعلم الخديوي بان حرس سراي القبة التي هي مقر نساء الخديوي قد انضموا الى عسكر العباسية وتركوا مراكرهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على ما لم تصل اليها معرفته الى الآن وفي نحو الساعة السادسة نهرا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فمقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا في الامر وبينهم كولفن المراقب الانجليزي فتقدم كولفن الى الخديوي في ابلاغ الميسوسنكوفيش فوصل جنرال الفرنسي بخبر هذا الحادث اذ كان في هذا اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فاعلمه الخديوي بان جنود الحرس وجند الايلى الثانى على قدم الاستعداد لارغام جنود أحمد عرابي وارجاعهم الى الطاعة وانه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين الى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم واخلاصهم فساروا جميعا الى المعسكر وبرز لهم الخديوي ووقف في وسط الضباط وسألهم الطاعة فصاحوا جميعا بكلمة الاخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه الى قلعة الجبل ودعا اليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم اليه بأن يسير الى أحمد عرابي بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولا يأتى الى ميدان عابدين بشئ من المدافع وفي هذه الاثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت فوصل جنرال الانجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها الى عاصمة الانجليز على جناح السبق ولما صار الخديوي ومن معه في جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والاخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعهم من منصب الرئاسة عاجلا فقال الخديوي

ما السبب في نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون في طاعته فالتفت إلى إبراهيم بك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال إبراهيم بك لم يكن من سبب لنبذ الأوامر سوى اغراء فوده حسن هذا البيكباشي وأشار إليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه إليه وقال له أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع في اجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرابهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخدوي ومن معه احاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلقوا ضابطنا أطلقه نفلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤس الحراب فالتفت الخديوي إلى الجند وقال أأست خديويكم وولى أمركم قالوا بلى قال هل تأخر لاحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ما أنتم فاعلوهم قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولا نريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوي وانحدر وانحدر من كان معه على عجل * قيل وبينما هم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوي بأن ينحدر إلى عابدين قبل أن يصل إلى ميدانها أجد عرابي ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب إلى العباسية على غير الطريق المسلول حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه وقد غطي الغبار وجهه ولحيته وأبتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية في أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم يرفها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا إلى عابدين * وأما أجد عرابي بك فانه لما صارت الساعة الثامنة عرابي نهارا نادى فنفخوا في البوق واصطف الجند وحلوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يحركون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والاجناد من العباسية في نفس الساعة التي دخل فيها الخديوي قلعة الجبل فقد أرسل إليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوي اليهم وكذلك أرسلوا إلى عبد العال بك مقدم الجند السوداني بعسكره بطرا فتحرك في الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد علي ثم صعدوا إلى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم في سجن القلعة وفي رواية ليقبضوا على الخديوي وعندى أن الاول أصبح فقد أكد بعض العارفين أن الخديوي كان على اتفاق مع زعماء العصابة إلى هذا الحين فلم يكن من موجب اذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدا بالقلعة كروا راجعين إلى رحبة عابدين فالتقوا هنالك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك إلى حيث أجد عرابي وبقيسة الضباط وتعانقوا ثم تصالحوا وتसारوا لحظة ثم وقف كل في مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم من العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل جند عبد العال بيك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صباح

العامه وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وترأخوا وترأى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق انما يدعوا الجند الى اطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق يننادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا في الحال يحملون البنادق والحراش ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدخول منها وهم فى غاية الهدوء والسكينة * أما الخديوى فإنه لما وصل الى رأس الطريق الموصل الى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيال والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرج الى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الانجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فتمزل وسار نحو الباب الغربى الموصل الى الميدان حيث الجند والخيال فتقدم اليه فى الحال رضا باشا وأعلمه بان جند قلعة الجبل قد انضموا أيضا الى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن الى الخديوى عندهم وقال اذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه الى غمده ويتبعك فإذا فعل تقدم أنت الى رأس كل فريق من الجند ومعه بالانصراف فتقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجيلة والوقار فقال لهم ما لكم قد نبذتم طاعتى وعصيتكم أمرى فقالوا حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال انصرفوا وسأبذل جهدي الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى انى واخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يا مولاي وكلنا لانبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى رد سيفك الى غمده فأجاب سماعا وطاعة وتناول الخديوى ورقة وقال هذه يا مولاي ملحقه بمقترحات الوطن وبنية فأخذها الخديوى وقفل راجعا الى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطره فى السجن كما أشار بذلك المراقب الانجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاء من يقول ان جند الحرس انضموا أيضا الى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد الى مقره فلما استوى به المقام أمر فعدوا هيئة مجلس الوزراء وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت - أولا عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف - ثانيا جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للأمر الصادر فى شأن ذلك - ثالثا تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظا وقال كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لاسيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الانجليز والفرنسيين فلا يصح التعرض لهم بشئ البتة الا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى وأنا أرى أيضا ان الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرئاسة على هيئة ~~تكون~~ كالآلة الصماء فى أبدي

الجنـد أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجنـد بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامـل ثمانية عشر ألفا مما يشغل حله على عاتق الخزينة وليس فى الامر الآن ما يستلزم هذه الزيادة * فكثير عند ذلك الاخذ والرد بين الوزراء والـخـديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الاغراض وتفرقت الالهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم انه لا يخلع نفسه وفيه بقيمة من الحياة فعنفه بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له انك أنت محدث هذه الثورة وموقد نارها ته الفتنة وكذلك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فاغلظ عليهم فى الرد وشد فى الامتناع فراجع الخديوى فامتنع أيضا فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الانجليز ليسأل أحمد عرابى بيك عن رغائبه وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتيبة من الجنـد تحرسه على شكل قاعة فدنا منه المستر كوكسن وقال * قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجنـد وتفض هاته الجوع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا * الوزير محمد شريف باشا * فقال كوكسن ويحكم انى أرى أن الاجل صرف الجنـد الساعة والا كنتم سبب ضياع وطنكم وعمالكم فان الخليفة أمير المؤمنين ودواتى الانجليز والفرنسيـس لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فراجع كوكسن الى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد وقال ان الخديوى رسم باحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى ياتيه الاذن من أمير المؤمنين فاصرفوا الجنـد وفضوا هذا التظاهر فقال أحمد عرابى بيك أما احالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الاسلامية فلا بأس به وأما صرف الجنـد فلا سبيل اليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه واقامة الوزير محمد شريف باشا بدله فقال كوكسن ان كنت تخشى شيئا من انصراف الجنـد فانا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعمالكم وأموالكم وجميع مالكم من الرتب والاقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال بورك فيك كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعمالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الاجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الانجليز ولا أنظنك تجهل أن دولتى الانجليز والفرنسيـس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير اسمعيل صديق باشا لم يدفعا عنه حرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكـت كوكسن وعاد الى المجلس ولم يعد ثالثة الا ومعه كولـشن المراقب وخيرى باشا الممهدار وبيد خيرى باشا مرسوم الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرئاسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء * فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه الى أحمد عرابى وقال ها هو ما تطلبه فأعطه بيده الى الوزير محمد شريف باشا ومر الجنـد بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى

مطلب

خلع الرئيس مصطفى
رياض باشا وما كان
عند ولاية الوزير محمد
شريف باشا

للشول بين يدي الخديوي فدخل أجد عرابي الى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق
فنفض فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفند من جوق بشأ) ثلاثا فظن الناس عند
ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق الا طلاق المدافع فترا محوا وارتفعت أصواتهم
بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكأؤهم فنفض البوق ثانية وثالثة فسار أولا جند
عبد العال بيك الى ناحية طرا ثم جند قصر النيل ثم جند العباسية وكان في مقدمة جند
العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفي وسطها أجد عرابي بك
وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم
نساء العامة والسوقة وهن يزغرتن ويغنين الاغاني الريفية ويصنن في كل لحظة ويقلن
الله ينصرلك يا عرابي يا سند الولايا الله ينصرلك

وسير الخديوي في الحال بعد انقضاء الجمع خبر هذا الحادث الى دار السلطنة فأتاه الجواب
من صدر الدولة يستحبه على استدراك الخطب قبل استفعاله وأرسل في نحو الساعة الخامسة
ليلا الى الاسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة
الحضرة في قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة في فجر
السبت سادس عشرى شوال ودخل على الخديوي ولبت بحضرته طويلا ولم يحدث في تلك
الليلة شيء مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزعائن الفرنجة فقد كان أصحاب الشرطة
ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف في الأزقة والحارات وأصحاب الدركات ينادون بعضهم
على بعض تباعا ورتب أجد عرابي بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع
في الطرق والقهاوى على عاداتهم وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكأنوا يعمرون
بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس في فرح ماعليه من مزيد
وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد
شريف باشا الى مقر الخديوي بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض
قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم في هذا اليوم في الاسكندرية وبعضهم في طنطا وحضر
في هذا المجلس أيضا مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمد شريف باشا في طلبات زعماء الجند
وتباحثوا كثيرا فعلق الوزير قبوله منصب الرئاسة على خلع أمراء الالابات الثلاثة من مناصبهم
وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم
أصحاب جند العباسية وطرا الى رأس الوادي ودمياط فلم يرض مقدمو العسكر بذلك
وقالوا انما نحن نطلب أن يتولى رئاسة ديوان الجند رجل من أهل البلاد لا شركي
ولا من العائلة الخديوية وأن لابد من ابلاغ عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا
وأن يشكل مجلس شورى البلاد كما كان على أيام الخديوي اسمعيل باشا فطالب بينهم
الاخذ والرد وكثرت الضوضاء ثم انفض مجلسهم على غير طائل وشاع الخبر بما كان
فتظير الناس وخافوا وكثرت الاراجيف وتنوعت الاشاعات فمن قائل ان مراكب حرب

الانجليز والفرنسيين آتية للاسكندرية لاختضاع زعماء الجند وارجاعهم الى الطاعة ومن قائل لابل ان عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهي آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوي الى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط في ذلك أيضا قناصل الدول فامتنع وقال لاسييل الى ذلك حتى تسحب جميع العساكر الى رأس الوادي ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن مناصبهم فانقسم الناس في أمره يومئذ الى فريقين فريق كان يصوب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيراً بذلك الى عزة نفسه ونزاهتها عن الاغراض الذاتية التي تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شيء فكان عليه أن يابي الداعي ويأخذ بأطراف الحزم مع أجل المصالح فيفضل المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلياء التي وقعت فيها وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى أن القول الثاني أفضل وقد ظن بعض الناس أن تروده في قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته في اقامة الوقت والمطاوله حتى تصل الى الاسكندرية مراكب الحرب السلطانية وظن آخرون أنه لايقبل هذا المنصب حتى تحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الانجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور * قلت ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الافراط والتفريط فانه معروف بين جميع أهل البلاد بالنزاهة عن الاغراض الذاتية مشهور ببلن العريكة وسلامة النية فلا تميزه الاغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيئاً ولا يسير الا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع احدى الدول الطامعة في البلاد كغيره ممن تولوا الرياسة ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الامنة وأخا الاصلاح ومحبي روح المساواة بين صنوف الرعية * ولما طال امتناعه أو عز الخديوي الى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه الى قبول المنصب ففعلوا وزادوا في استعطافه ورفع اليه العلماء وعمد البلاد ووجهاءها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلاً بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكرروا فيه أنهم كفولون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم الى تكدير صفو الراحة وامثالهم لاشارة الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والنعطف فلم يسعه بعد ذلك الا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديوي بقره بالاسماعيلية ولبث بحضورته لحظة ثم كر راجعاً الى داره فلقبه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه اليه فقبله ولا طفهم وأظهر لهم غاية البشر والايثار وقرأهم واذا هم يقولون فيه

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتراف التام فى حسن صداقة وغيره دولكم وخلوص

طوبتكم وسلامة نيتكم في خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعي في رفاهية أهله ولهذا واكوننا جميعا بحب تقدم وطننا العزيز فلتتمس من دولتكم قبول مسند رئاسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب تظار الدواوين ممن يكفون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز واعلانا لصدافتنا وانقيادنا لاوامر الحكومة التي تصدر في صالحنا العمومي قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول اه * فبا فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمي باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية واسماعيل أيوب باشا للاشغال ومحمود باشا البارودي للجهادية والبحرية وقدرى بك للعفانية وأضاف الى مسند الرئاسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهاني على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحذب وأحسن مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرئاسة لاسيما وقد كثر اللغط وعت الاشاعة بأن زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعنف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد الى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب لخاف وتقدم الى الخديوي في أن يسرحه بالخروج الى الديار الاجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديوي اسمعيل فسرحه بشفاعة قونصل الانجليز والمستر كولثن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال الى الاسكندرية ثم سار عنها في ثاني يوم الى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفرنسيين فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام واحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالاسكندرية وطير الخديوي الخبر بجميع ما جرى الى دار السلطنة بخفاء الجواب في ثالث عشر شوال بهنئه بما حصل وبسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف في الامور بعزمه وحرمة المعلومات وينظر الى مصالح الخلق من أبوابها الحقة * وجاء الى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الاهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الالف والتسماية من عمد البلاد وكبارها احدهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها ان جميع من وقعوا عليها كافلون بانه لا يقع في المستقبل من الجيوش المصرية شئ تأباه الهيئة الحاكمة وانهم فرحون فرحا ما عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرئاسة لانهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى في اطمئنان الخواطر وسكون النفوس وثانيتهما برسم الخديوي ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث انه هو الواسطة الكبرى للاصلاح الذي توجهت اليه آمال جميع الاهلين وكان بين هذه الجموع التي حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا * اني أعرض على مسامع دولتكم

مطلب
قبول الوزير شريف
باشا تشكيل الوزارة
بعد امتناع

أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد تقبلوا بين أيدي مراجعكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرياسة الجليلة فانهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقي لاجراء الاصلاح الذى كثيرا ما أملوه ولم يرضوا أنهم متكفلون بالجيش المصرى الذين هم فى الحقيقة أبناءهم واخوانهم وليلتمسوا من مكارمكم ما يعلمونه فى سمو أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين اصناف الرعية وحيث ان دولتكم على هذه الافكار السامية فهذا الجمع يلتمس من كرمكم بالاصالة عن نفسه وبالنزاهة عن اخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تقدموا اليهم ساعد المساعدة القوي وتسعفوهم بما علموه فى هممكم من الاقدام وقوة العزيمة وان مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق الا بان تكون دولتكم الواسطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب الى الجانب الخديوى المعظم أعزه الله وليست هذه باول مارآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فان أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الاوطان اه فاجابه الوزير بما شاف من اخلاصه فى مساعدتهم وانه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تقدم به البلاد لاسيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطبروا الخبر بذلك الى الافاق فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الاجانب والاهلين وأرسل اليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجه مصطفى رياض باشا تاريخنا على جناح البرق يؤرخ به عوده الى منصب الرياسة وهو

فهذه النعمة تاريخها * نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات ترى ووقف بعض الشعراء على بابه * وسمعت شطريث لاحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسته المشار اليه وكأنه كان يعرض باعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الاول وهو

* الدهرح والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينتظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وقانون القواعد الاساسية الذى يليه قانون الترقى وقانون الضمائم والامتيازات والاعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها الى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوال ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لاشئ فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة الجند . سلم الى هذا الحين ما الذى عمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعيينها والامتناع من العمل بها بعدد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولولم يقع منه فى

أيام رياسته شئ من الحفاء والسدة مع مقدمي الجند سوى اصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكفى فان أعمال زعماء العصاة كانت لغاية اليوم الذى تقرر فيه هذه القوانين غاية فى الخطر والخلل بل هى كإعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالاغراض التى لا بد وأن تفضى بصاحبها يوما الى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كشل رجل سلم لآخر سيفاً بآثر على حين لا يملك عصا واستخلفه أن لا يتقلده الامتى بانغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعيد أيام أن ضيق عليه وبالع في انزاله وسامه الخسف فلم يشعر الا وذاك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه أوأنت فاعل قال كيف لا وقد استخلفتني وهذا السيف سيفك الذى سلمتني فندم ولكن لم ينفع الندم

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثير توارد القصص والظلمات على ديوانه من أهل الحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لاقى ذنب وأصغر شبهة فكان اذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك الحبوس وأطفالهم بأنوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتسافطت الظلمات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الانجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيين واستعظموا البلوى ونادوا بالعدالة يا للإنسانية فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد اليها تفتيش جميع الحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون وسيرت دولة الانجليز أحد مقدمي جنودها الى القاهرة ليشرك اللجنة فى أعمالها وكام القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحث اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح والدواوين كالطرد والحرمان من الخدمات والتبديد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضا جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضائق على اتساعها وأبعد الكثير منهم الى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الاربعة آلاف من سائر المديرىات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا الى أوطانهم على نفقة الخزينة * وبينما الناس فى شغل بحوادث أصحاب الظلمات ومن أهلكتهم الحبوس انجاء الخبر من دار السلطنة فى ثامن ذى القعدة الى ديوان الخديوى الخاص بقيام احدى سفن حرب الدولة الى الاسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم على نظامى باشا المعتمد الاول الموكل اليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكل اليه النظر فى الامور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى وراتب باشا وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة

مطلب
رفع ظلمات أهل
الحبوس الى الوزير

مطلب
حضور وفد السلطان
الى القاهرة وما كان
من وراء ذلك

أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضا التهنئة للخديوي على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة في حل تطاهر الجند وتسكين قلوب الرعية ويقول اني أرسلت اليك في مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياورانا الخاص سيكفون لك عوناً على حل هذا الاشكال وفض الخلاص بالتي هي أحسن ومنع حدوث مثل هذه الفسائل مرة ثانية فلما سارع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم في الحال بالجنرال عبد العال بيك بعسكره السود الى مدينة دمياط فالتحقدر في نفس اليوم الذي جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديدين ضباط الجند والوجهاء والاعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابي بيك والبارودي فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطباً للجمع أيها الاخوان * انا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبس المواصلات بيننا ممدوداً وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يقترونه علينا كما أننا لانسمع من واش كلاماً واعلموا أننا في تيار أفكار ان لم نحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد والاهلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوي وطهارة رجاله الفخام فمن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضي العسر في طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شيء قدير

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتي الطائف والانسكيت والنبكيت وقال مخاطباً للجنود حياء البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والتوازل عرف مقدار ما وصلت اليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق ولا يلحقكم في ادراكها لاحق ألا وهي حياء البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهم فانكم الذكور الجيمل والمجدد المخلد يباهي بكم الحاضر من أهائنا ويفخر بآثركم الآتي من أبنائنا فقد حي الوطن حياء طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي فان الامة جسده والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح بنا ديبكم وينا جيبكم ويقول

اليكم يرذ الامر وهو عظيم	فاني بكم طول الزمان رحيم
اذا لم تكونوا للخطوب والورى	فمن أين يأتي للديار نعيم
وان الفتي ان لم يتازل زمانه	تأخر عنه صاحب وحيم
فقدوة من السبل نحو متهم	تقلبه بين البيوت نعيم
رائدوا له الاخرى من كل جهة	فشدود أطراف الجهاد نعيم
اذالم تكن سيرة تكون طاعة	فليس لمعالي المسلمين حريم
وان لم تكن للعائدين نجاة	فانتم وخمسكم البيمان قسم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان في أهل مكة من مبايعة أهل النخبة على اخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون

بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الاوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأيد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخذل الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ثم التفت الى عبد العال بيك وقال هذا أخوكم الحر يودعكم ويسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا جبل الاتحاد الذى جاهدتم الانفس فى إحكامه فقد

زالت موانعنا التى * كانت تجرنا الى الفساد والانس دار رحيقه * بين الجيوش أولى الرشاد لا تتمر الدنيا اذا * لم تترك الخلق العناد فالارض تنبت زرعها * لحياتنا بالاتحاد ومن محاسنكم التى تفخرون بها يعرف لكم بها الفضل طاعتكم لاوامر الحكومة وامثالكم لاشارتها وربط قلوبكم بمحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام خصوصاً هذا الرئيس البر الرؤف القائم بخدمة الامة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الاوطان اه فاختتم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت فى حفظ الاوطان ووقاية أميرنا من كل ما عيس سلطته * ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعلموا له الولائم والختومات وتوددوا اليه وتقرّبوا منه جهداً الاستطاعة فلما جاء الخبر الى القاهرة بأن قد استقرّ بعبد العال بيك وجنوده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا الى أحمد عرابى بأن يتقدم بجندته الى رأس الوادى فننادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلوطة وساروا من وسط المدينة الى المقام الحسينى فلما اقتربوا منه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل الى المقام ومعه يرق الاثلاى وطاف حول الضريح مراراً كثيرة وهو يقرأ بعض الاحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جند الحرس الخديوى مصطفوا على جانبي الطريق وبأيدي ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافاً عظيماً وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمان الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الارض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجند وهم على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل ابراهيم بيك حيدر وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقي بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت الى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب واخلاص النية عند كل عمل ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب خفض وحث

وبالغ في التنبكيت والتبكيك حتى أخذ بالعقول وكاد يبكي الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع اليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد ولاعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربى فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأسار الى صاحب الطائف فتكلم وبالغ فى الحث ثم تكلم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الاصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا الى رأس الوادى

واتفق انه وصل فى هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة الى مدينة الاسكندرية ودخلت مركبهم الميناء فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوى قد رسم الى ذى الفقار باشا فأنحدر الى الاسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم فى سراى رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا الى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوى الخاص وكان فى ركبهم فريق من العسكر وجعاعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة ومصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا فى الساعة الثانية ليلا وساروا الى قصر الزهة حيث أعد لهم وكانت عدتهم ستة وهم على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحمد أسعد أفندى متولى القراشية بالحرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والاتباع فانهم كثيرون وكان جميع ضباط الباشخة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهلى وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم ينزلوا الى البر وهم من الحرس السلطانى المكلفين بمراقبة رجال الوفد * ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوى بمقره بالاسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ فى تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل اليها معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية انهم أبلغوا الخديوى تسليمات الذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوى فى حفظ الامنية وأن المقصود من حضورهم انما هو اظهار مآلذات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجناب الخديوى وتأيد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه قالوا فعند ذلك نطق الخديوى بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوتها وبعد ذلك انصرفوا * فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوى فى كيبكته وزار رجال الوفد بقصر الزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعا الى الاسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الامة انشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شئ وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم الى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على انشاء المجلس على قاعده قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك

مطلب

التقاء رجال الوفد
بالخديوى فى مقره
وذهابهم اليهم

ففرح الناس كثيرا وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والاعيان بالقاهرة ومصر
يشرحونهم وتكلم أصحاب صحف الاخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التي تنجم عن انشاء
هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا في الاطراء وقالوا انه لهو من المحسنات بل من المعجزات
التي لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الاتيان بها لاسيما في ايام هذه الظروف المهمة
والخطوب المداهمة

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة
ونظاراتها ثم ساروا الى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لخدمتهم جميع العساكر
وكان محمود باشا البارودي واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل
على نظامي باشا أخذ البارودي بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استمدى اليه طلبه
بيك وجميع القائمات والبيكباشية فالتقوا عليهم خطابا بالتركية فترجسه البارودي
بالعربية فكان هكذا **❦** إن الجناب الخديوي الاكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية
عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأيد مركزه
وبعض نفوذه وسلطته وليس يخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوي هو الوكيل المفوض
عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوي وامتل
أوامره وانتقاد احكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء في محكم
القرآن من قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ومن خالف
الجناب الخديوي فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك *
فتحن معشر العساكر يلزمنا في كل حال أن نطيع ونذعن لولي الأمر وان لا نتردد أو نتهاون
في القيام بما نكلف به من الاوامر وأن لا نبحث عن موجهها ولا نسأل عن أسباب ما
نكلف به من الاوامر وانما علينا أن نمتثل كل ما أمرنا به ونجبري على مقتضاه وقد
أضيت في خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية في
المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالا لأوامر مولانا وسلطاننا واعلاء لكلمة ديننا ودفاعا عن
عوم أوطاننا فأوصيكم أن تمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلتزموا حدودكم المعروفة
فلا يعرف الصغير الا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير الا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف
الاكبره درجة بعد درجة الى الانتهاء * وبعد أن ختم مقالته هذه ودعهم وانصرف مع
من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا
والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلماء بأنه لم يكن في عزمهما التداخل في شئ من أمور
البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد انما هي تقديم مراسم التهنئة
للجناب الخديوي على ما أظهره من الخزم وأصالة الرأي لخادثهما الوزير عن عادات البلاد
وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم الى الهدوء والسكينة وعدم الاندفاع الى ما يكدر صفو
راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديوي فزارهم كثير من الوجهاء والاعيان وشيخ الاسلام وبعض

مطلب
تخوف قونصل
جنرال الانجليز من
حضور الوفد السلطاني

العلماء ومشايخ الطرق وبالغوا في اجلال رجال الوفد وتعظيمهم
وحسب قونصل جنرال الانجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على تظاى باشا ومن معه
وتقرب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الاخبار ويكثر من الذهاب
تارة الى مقر الخديو وأخرى الى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا الى مقر البارودى
وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة
يستشيقون نسمات تلك الاخبار وكأنه آانس منهم بعض الشئ فكتب به الى اللورد جرانفل
كبير السياسة الانجليزية يومئذ فسير هذا اللورد الى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع
رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستجد بكبير سياسة الفرنسيين وهو يومئذ المسيو بارغلى
سنته لار فأنجده وجعل يشتدان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا الى أصحاب صحف
اخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخبطوا وخططوا فى القول وترامت طنونهم
الى المرحى البعيد فن قائل ان الوفد انما دخل أرض الكنانة يتابعه من السرما لا يعلمه
الا المقربون من أبواب السلطان ومن قائل بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط
الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير الى أيام الخديو توفيق لغاية خفية وسر
مكتوم وتناهى ببعضهم الخاط الى القول بان رئيس الوفد قام من دار السلطنة الى مصر
ومعه فرمان مخصوص لا يلىق التكلم عنه حتى ينجلي الصبح لذى عيني ^{قلت} يريدون
فرمانا بعزل الخديو توفيق وتولية الامير عبيد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير
ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الاخبار التركية يفسدون تلك المزاعم ويرمون
أصحاب صحف الانجليز والفرنسيين بسوء النية وخبث الطوية ويقولون انما مصر بلاد
إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع اذا سير الى تابعه
يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتد من أحواله وطال الاخذ والرد على غير جدوى
والسلطان لا يلتفت الى أقوال صاحبي سياسة الانجليز والفرنسيين فعمد عند ذلك صاحب
سياسة الفرنسيين الى التهديد وسير إحدى مراكب حربيهم الى مدينة الاسكندرية وكانت
من أضخم سفنهم واسمها آلمانا فوصلت ليلة ناسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج
البوغاز وأصبحت فدخلت الى المرسى وسلمت على الطوابى باطلاق مدافعها فردت عليها
طوابى رأس النين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة
مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد * وشاع خبر قدومها ووصل الى القاهرة نخاف
الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكان السلطان قد أحس بما وراء ذلك فجاء
الظهير الى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل ولما كان ثالث عشر ذى القعدة
تمثل على تظاى باشا وفؤاد بك ورجال الوفد بين يدي الخديو وأبلغاه أن أمير المؤمنين
قد أحسن عليه بنبشان الامتياز وأن من شأن توجيه هذا النبشان أن الخليفة يضعه بيده
على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بلباس التشریف قيل فأظهر الخديو الخضوع

والطاعة وقال سأتشرف ان شاء الله بالثول لدى سيدى ومولاي أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد ثم تقدم اليه نفرى بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بان قد ورد اليه مرسوم السلطان بالعود الى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفي الساعة الثالثة من صباح ناني يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظاى باشا وفواد بيك الى مقر الخديو بالاسمعية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهبوا قطاره المخصوص فركبوا الى محطة السكة الحديد وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم الى الاسكندرية ونزلوا بسرارى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الاسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظاى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه أنه عند وصوله الى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشراخوانهم العسكر المنصور هناك بأن لهم فى مصر اخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديو ثم نزلوا الى السفينة ورحلوا الى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وجمته فى ذلك عزمه على السفر الى الاقطار الجزائية * فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والاسكندرية لا يعلم أحد من أمره شيئا ثم رحل الى السويس وهرم بمدينة الزقازيق قسبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا الى ان بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودعه ونزل فصار القطار الهوىنا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطاني وضح الجند باصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شبالك العربة وحياهم باشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهوىنا بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسره سرورا عظيما وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التباعد بينهما * وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من ميناء الاسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية انجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطة وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالاسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنساوية * وتشوق الناس يومئذ الى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد الى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صوف الاخبار وأكثر وأمن شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة بجماعات وبينهم الرجل أو الصبي من صبيان المكاتب وهوىقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التمس الانجليزية أو لصاحب الديبا الافرنسية أو لغيرهما من صوف الأخبار الاجنبية وهم فى ضجة وحوقة وعم هذا الحال السوق وأصحاب الحرف الدنية كالصبانين والزياتين والحلافين * وقد رأيت يوما صبيا

مطلب

ابلاغ نفرى بيك
ربان باخرة الوفد
للخديو خبير قيام
الوفد الى دار
السلطنة كأمير
السلطان

مطلب

التقاء كامل باشا
أحمد رجال الوفد
بأحمد عرابى بيك

في حانوت لرجل يبيع البقل ويبيده صحيفة من صحف الاخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوق وهم محدقون بالصبي وهو يقرأ عليهم ما نصه * قد طلب الباب العالي من سفيرى الفرنسيس وان يجيز أن يعلماء مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على ارسال المركبين الحريتين الى مدينة الاسكندرية فأجاباه بان ليس المقصود من ارسالهما ارغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وانما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فاذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضا انتهى * فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن الآخر وصاح أحدهم قائلا وهلا ترى فى هذه الورقة أيضا ان الانجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاؤا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيس على قومهم بالحذر والالتفات الى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبي الصحيفة عينه ويسره وتأمل فيها وقال صدقت يا عماء ومن الذى أعلمك بهذا الخبر فقال سمعت فلانا الحلاق الساعة يقول انه سمعه من أحد موظفى الحكومة * فقلت فى نفسى ان الله بالعاقبة عليم

ووصل رجال الوفد الى دار السلطنة فاندش كبار سياسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازما أو تعلقا بين وجود مبعوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين ارسال دولتى الانجليز والفرنسيس من كيهما الحريتين الى مدينة الاسكندرية فكاد سفير الانجليز فى دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن ادراك جميع هاته المعجمات التى لم تكن تخطر له على بال وقد أشار الى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الانجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان « عبيد الجيد » وما فعله عند ارسال وفده الى مصر مما لم يعرفه أحد الى يوم رجوع رجال الوفد الى القسطنطينية * وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم الى القسطنطينية الى استطلاع ما سيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا الى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد الى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التسدبر وأن لا ينتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفطنة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والاهتداء الى طرقها الحقيقية وتحقق منه العفة والاستقامة قديما وحديثا - قال - فن وجد بهذه الصفات انتخابوه غير مزاعمين الى الشهرة والظهور ومن وجدعوه على ما يناقض هذه الاخلاق فابتعدوا عنه وابتذوه وان كان أثرى المثربين فما طار الخبر بذلك الى الآفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والاعيان والمثربين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يقتنون وتعدرو على المديرين والمحافظين على الانتخاب والوزير يستعصمهم ويحضرهم على الاخذ باطراف الحزم وأن لا يراعوا الا المصلحة العامة ولا ينظروا

مطلب

تشكيل مجلس
نواب البلاد وهو
أحد مطالب
جاعة الضباط

الا الى الاوسع معرفة من قومهم والا أقوى ادراكا والا أنفذ بصيرة والا أكثر اطلاعا والا أعرف
 بأحوال بلاده وحكوماتها في الماضي والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد
 * قال بعض الكتاب فكبر هذا الامر على المسترمالت قونصل جنرال الانجليز واستعظمه
 لا لانه من الأهمية عنده في شئ ولكن لاعتباره اياه أنه هو المحور الذي ستدور عليه رحا
 أعماله فعد الى ملازمة الخديو وأكثر من مجالسته فكان اذا رأى منه تسرعا في تحديد
 أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذي أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ في النصيحة
 وهول في العقابسة وأظهر من جانب القسوة حنقا واشفاقا واذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا
 في العمل وإغضاء ذهب الى البارودي وشكا اليه من تغاضي الخديو وإبطائه وحض
 البارودي على الثبات والحزم وعدم التخلي عن زعماء العصبة حتى يدركوا مفشودهم فلم
 يخرج من عند البارودي وأصحابه الا وهم في ضجة وجلبة وهياج فاذا كثرت جلبتهم وعظم
 ضجيجهم ورموا الخديو بسوء النية وبالغوا في تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض وينضب
 ذهب اليه مالت ولاطفه وهون عليه الامر ومنه بالاماني الطويلة العريضة فاذا
 آنس منه سكون الخاطر والخلود الى المساهلة عرج به الى الوقعة وشذ في القول وعظم
 البلوى وحذر من العاقبة حتى يتخيل للخديو أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم
 الفلاح فيرجع الى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودي وأصحابه
 الى الاستغانة بقونصلي الفرنسيين والانجليز - قال - وهكذا كان حال الخديو وزعماء
 العصبة من اليوم الذي بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على
 سرعة الانتخاب * وكان من وراء ذلك ان تناولت أيدي رجال العصبة العسكرية الى
 العبث بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يحجب البلاد ويستميل الناس الى
 انتخاب المحازيين لرجال العصبة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية
 والقليوبية وغيرهم من أهالي المدن القبلية * فلما كان عاشر ذي الحجة من السنة أي سنة
 ثمان وتسعين قدم أحمد عرابي الى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك
 حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت طنونهم وقالوا انهما قد حضرا
 لاكره الهيمسة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر
 لعظهم فكانوا اذا رأوا جماعة يهرولون في الطريق قالوا انهم ذاهبون بدعوة من أحمد
 عرابي أو شاهدوا زحاما على حانوت قالوا انه بأشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون اليه
 أسمعوا مؤذنا ينادي حي على الفلاح قالوا انما هو يدعو الناس الى التعاون والتعااض أسمعوا
 امرأة تولول على صبي ضل اسمه أحمد قالوا انما هي تستغيث بأحد عرابي بيك لدفع ظلامتها
 وكشف غمها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت اذا وضعت حبل صبيها ستمسه
 عرابي أو أحمد عرابي لاسمها أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد
 على بال وتسلكهم أصحاب صحف الانجليز والفرنسيين في أمر محي أحمد عرابي وعبد العال

مطالب

ما كان من سياسة
 قونصل جنرال
 الانجليز في أمر
 تشكيل مجلس
 شوري النواب

حشيش الى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطوا نخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه في ثمانى عشر ذى الحجة المذكور * ولما تم انتخاب سائر الاعضاء ولم يبق الا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الاغراض وتفرقت الاهواء وعادوا الى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم في شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصابة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة الى دمياط ورأس الوادى ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك الى مقر عسكريهما حتى عاد الارجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالاسكندرية والعمال السيف في رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة * وتحرير الخبر أنهم وجدوا في سادس عشر المحرم افتتاح تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا في الطريق وكان أول من رأى جثته رجلا ايطاليا فذهب الرجل الى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطى ظنوا أن الايطالى هو القاتل فهاجوا وماجوا وحلوا بنادقهم وتأثروا الايطالى فاخترأ في مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم في ضجج هائل وذهب جماعة منهم الى موضع القتل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الايطالى للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتراحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فتزل اليهم المحافظ وجعل يلاطقهم وأمر بالقتل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا في وجهه وقالوا لا يحمل لك ذلك يا مسلم أحضر لنا النصرانى الساعة انبطش به والا ذهبنا بالجملة الى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الاجانب وأغلق أصحاب الجوانيت حوانيتهم وارسل المحافظ الى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الامر جسدا وسير الى المحافظ يستحثه الى مداركة الامر وكتب الى صاحب الشرطة يقول لازمو السكينة وسيقدم عليكم وقد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجوع وحلوا الجثثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم في خوف ما عليه من مزيد فلما كان اليوم الثانى قدم الى الاسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للايطالى ذنبا ولا جناية فاخذوا سبيله وقد ثبت ان القاتل للشرطى نفر من أهله لسريتهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق

مطلب
الاختلاف فيمن
يتولى رئاسة مجلس
نواب البلاد

مطلب
مقتل أحد
أصحاب الشرطة
بمدينة الاسكندرية
وخروج العسكر
عن الطاعة

مطلب
ورود الخبر
بإستفعال أمر مدعى
المهدوية بالسودان

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة الى هذا الحين من تسيير المدد الى السودان لقتال مدعى المهدوية وقد وردت الاخبار من والى السودان وهو رؤف باشا في ثالث صفر من السنة تنبئ بإستفعال أمر مدعى المهدوية واعلاه كلمته وأنه عاد لخرج على من وجده من العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثمانمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته

بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير ممن لم ينضموا اليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والانعام والريش وسق النمل واستلبوا ما في خزائن مراكر الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا ووصل الخبر بذلك الى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها الى أسوان بالصعيد الأعلى فيكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكرار وقدم الى القاهرة طوائف التجار من الاقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وايداء مدعى المهدي وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت اليه لموم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب وأحراق المدن والقرى وذبح الاطفال على صدور الأمهات واهلاك الحرث والتسل وكثير المنحدر السفن ومراكب النقل الى أسبوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع ارسال البضائع الى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الاصقاع فلم يبق عند الناس شك في صحة خبر المهدي وقد كانوا الى هذا الحين يظنون ان القول بظهوره انما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته لئتمكن بذلك من تمزيق شمل عصاة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام في أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شوري النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم في ذلك أصحاب صحف الاخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم * فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهودا أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات الى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والاجانب وامتلأت دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الاعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف في الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا الا قليلا حتى أقبل الخديو في عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل في نحو الساعة السادسة الى قاعة المجلس ووقف في صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ مانصه

مطلب

افتتاح مجلس شوري

النواب

أبدى لحضرات النواب ممنونيتي من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالى في الامور العائدة عليهم بالنفع وفي علم الجميع أنى من وقت ما استلتم زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فاما الآن فنحمد الله تعالى على مايسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابه ومن تخفيف أحوال الاهالى بقدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا

منشوف

متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون
 علماً أن جيل مقاصدي ومساعى حكومتى هو راحة الاهالى ورفاهيتهم وانتظام أمورهم
 بتعيم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا متعجى واضح مستقيم
 وعليه سبى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس أن يكون
 مساعدا للحكومة في هذه الامور كلها خالصا مخلصا في خدمة الوطن منحصرة أفكاره ومذاكرته
 في المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول
 سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شئ في هذا الوقت الذى هو عصر الترقى
 والتقدم فالواجب علينا الاعتدال والتأني وحسن التبصر وأن نكون بذا واحدة في انعام
 الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتسكين بقوة ارتباطنا
 بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله بحسن النجاح انه
 ولى التوفيق

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلاً أدام الله توفيقنا العظيم
 فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخطيب بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته
 فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف فلم يبق الاهيئة
 المجلس فأمر رئيسهم ف عقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى * ونصلى ونسلم على نبيه
 المأمور بالشورى * والامر بها وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة
 من حسن القصد وسمو الارادة مما لم يزدكم الا يقينا بما عهدتم باجتناب المعظم من صفاء النية
 * وكريم العنصر وسلامة الطوية * والارتياح الى المصلحة الوطنية * وقد اجتمعتم فى
 هذا المقام الرفيع بعناية الجنب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية للنظر فى أمور
 أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة اعيانه ونباهة فواجبانكم من هذا القمىل
 تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الوطن العزيز محتاج الى
 الاصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لاسباب المنافع الكلية فما عليكم الا السعى
 والاجتهاد لنوال المراد ولكم لا تجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وذمما لازمة
 الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذم فن ثلث شدة الارتباط وصلة التبعية
 للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا
 الاخلاص فلا بد من ثباتنا على هذا الحال بالنظر اليها ولاشك أن تقدمنا واستقامة أمورنا
 وتأيد أمور الشورى فينا بسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التى تكون
 جراً من قوتها الكلية * وان الذم والمواثيق هى علاقاتنا المالية والتجارية مع الدول
 العظمى فهذه الذم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة التى
 بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها الى كل ما

يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفي المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شيء من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدركنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلوا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخواني همتهكم في السعي بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فمن جد وجد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديو بالاسمعية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذي افتتح به الخديو المجلس فثابروا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب * بعد جد الله على توفيقه وإرشاده * والصلوة والسلام على من اصطفى من عباده * نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها في تقديم واجب الشكر لهذا الجنب الخديوي الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذي انتخبه بمنطقة الشريف اظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة الى عالم الفعل واجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزال العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلال همته الخديوي التي زات لها صعب المسائل * وخضعت لها رقاب المشا كل * حتى صفا الوقت واطمأنت الحال * ودنا المني وانقادت الآمال * ولقد شنف أسماعنا * وأنعش أرواحنا * ذلك النطق الكريم * وملاك افشيدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الافصاح عما عرفناه لولي النعمة وألقناه من نزاهة ونباله القصد حتى لقد نطق السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالأسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحبب اليها تحبب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق الا أن نبذل غاية ما في السعة ونأتي جهد الاستطاعة في نفع هذه الأمة التي انتدبنا للنظر في منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين في ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تحسن بهناية الله مغبته وتحمد بمن التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والسداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد ما لنا من روابط التبعية للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التي منحنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكمملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الادارية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين الى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه في أن يحرس لنا هذا الجنب الخديوي الفخيم ويدم لاطواننا به النفع العيم أدام الله توفيقها على أحسن ما يرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين

والتأمو بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكّلوا لجنة لتتظر في أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه وقد كان ذلك القانون هو الذي أنشأه الخديو اسمعيل وقرر كل قسم نواباً عنه في تلك اللجنة فاختدوا باطراف العمل وساروا فيه سيراً حثيثاً فلما كان ثاني عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا الى مقر النواب ورفع لهم القانون الاساسي لاعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الافكار في مواده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب - إني لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سروري من الحضور بينكم في هذا اليوم الذي أعدّه مبدأ لعصر جديد ان شاء الله يعود على هذا القطر بالنفع والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراءى لي أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التي كانت محيطة بها هي توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة في نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذي كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية وعالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق اتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإني لأجد نفسي سعيدا حيث ان أفكاري في هذا الخصوص ما كانت الا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الافكار قد طابق عليها عموم الأهالي ولهذا حصل انتخاب حضراتكم واجتمعتم فلنهي القطر على ذلك ولنهي أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائهما مصدرا لكل خير ولما كانت لأئحة النواب التي اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم أفكارنا جميعا قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذي رفعته أخيرا للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائي بتحضير لأئحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التي تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأموري الحكومة من أي وجه وأي صنف كانوا وصرح لكم بتطر الموازين العمومية وابداء آرائكم فيها وتطر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أي ضريبة ولا نشر أي قانون أو لأئحة مالم يكن بتصديق وقرار منكم وكذلك تعهدت بأن تجعل النظر لمسؤولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقكم والغاية فانه لم يحجر عليكم في شيء ما ولم يخرج أمر مهم عن حدد نظركم ومراقبتكم انما لا يخفاكم الحالة المالية التي كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهداتها بالتزامات ليست

خافية عليكم بعضها يعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لتنظرها أو لتنظر النواب حاشا لانه يجب عليها قبل كل شئ القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشئ متاحى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية ومتى رأيت من تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن اخلاص بدون مساءلة فتخلص شيا فشيا مما نحن فيه وانى لوائق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة ومواصلنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا حقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعا بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التي منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث ان الثمرة المتصورة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها الا بعد التصديق على لائحة اجراءاته فالمأمول من حضراتكم المبادرة بنظرها حتى انما نشرع فى الاعمال النافعة المهمة وليكون من تمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للادارة وتخصير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل امر يجروونه خارج عن حدودهم أو يخالف للقوانين واللوائح فى انشاء تأديبة وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وهاهو مقدم للمجلس المأمول أيضا الاسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وان شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولاً وفعلًا لما يكون فيه الاصلاح آمين آمين بجاه خاتم النبيين * فأتمن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف

مطلب

مفاد ما فى قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذى رفعه اليهم فى ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيةه يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون الموحي وان مدة النيابة لأقل من خمس سنين وان النواب يكونون أحرارا فى الاعمال واذا ارتكب أحدهم جرعة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه الا باذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضا أن النائب ينوب عن الجهة التى استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التثامه الا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل فى ادارة أشغاله الا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم فى الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الادارة أو أحد كبار الموظفين فى دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم الا فيما هو من خصوصياته واذا اختلف مجلس الامة ومجلس الوزراء فى امر من الامور جاز للخديوى حل عقد مجلس الامة وبأمر بانتخاب سواء لمدة أربعة أشهر فاذا صدق مجلس الامة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الاعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الامة ثانية فى كل مدته وللمجلس الامة أن يتداول فى اللوائح والقوانين والضرائب وفى كل امر تعرضه عليه

الهيئة

الهيئة الحاكمة وله أن يرى في ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر في القوانين المالية عوقب جامعها بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثاني من التشامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح السكافي وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك الى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التدخل في أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة في المجلس الا اذا حضر ثلثا الاعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الاغلبية تامة أما قرار مسؤولية النظار فيكون باغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين * هذا هو ملخص ما في ذلك القانون أثبت به تيمما للفائدة المقصودة

مطالب

تولية أحمد عرابي
وكالة ديوان الجند
وورود لأئحة
الدولتين للخديوي

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأثاروا في تلك الليلة منارات المساجد بالأنوار الكثيرة وأقيمت الادعية على المنابر وهذا الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابي بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لاسيما أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع الى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والاعيان والعيان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطربون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والارز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعدها وترأجوا على بابه يرجون لقائه ويتمنون طلعه وتلبث الحال هكذا يومين وخرج في تاسع عشره يريد مقر الخديوي ليقبل الاعتاب على العادة المألوفة في مثل ذلك فقابله الخديوي بالبشاشة والترحاب وأحسن لقائه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيين ورفع الى الخديوي ورقمان هما في عرف أهل السياسة (لائحة) وقال انهما متحدتان في المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان بعد ان الخديوي فيهما بالمساعدة والاعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحذيرهم به ودخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا في الامر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أن البارودي يكلم هيئة مجلس النظار في ذلك فاجتمع البارودي بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوي وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا في معنى ما جاء في تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها الى الباب العالي ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة الى دار السلطنة وكان القونصلين قد أحسبنا وراء ذلك فتقدموا الى الخديوي والوزير محمد شريف باشا في طلب الجواب وألحوا في الطلب فرسم الخديوي الى الوزير باعطاء الجواب فطارق فشد الخديوي في ذلك فكبر الامر على الوزير وطال بينهما الاخذ والرد فاحتجب الوزير في بيته أياما فذهب اليه قونصل الفرنسي في صبح حادي عشر صفر وطلب الجواب وألح في الطلب فقال الوزير

لأجواب عندي على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدّر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهي صاحبة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد فقال القونصل لاسبيل الى غير ما تطلبه دولتا الفرنسيين والانجليز فقال الوزير لم أعرف الى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللاتحة ولذلك فاني أستوضح منك مشكلاتها قبل اعطاء الجواب فقام القونصل وتركه * وكلم فونصل جنرال الانجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فلك أسرار ومشكلات تلك اللاتحة فرسم له بسؤال الوزير عما يريد ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب * وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمئن القلوب الراجفة ويعمل على منع الاراجيف وازالة القلاقل اذ كتب صاحب صحيفة التيمس الانجليزية عبارة طويلة سماها باسم لاتحة الحزب الوطني وضممتها فصولا وأبوابا لا يسعنا ايرادها هنا وعزا تحريرها وتنميتها الى أحمد عرابي بيك وبالحق في مدحها واستحسانها فكبر هذا الامر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه واذهاب ما علق منه بالاذهان * وقد كان لما تظاهر أحمد عرابي بيك بزعامة العصاة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسة أهدقت به عيون أهل السياسة من الانجليز وكثر تواردهم عليه وترافهم اليه رغبة منهم في معرفة قدر ادراكه ومبالغ علمه بعوائد الامم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون في ظهوره وخروجه مفتاحا لمغلق آمالهم فسيروا له من دهاتهم وجملة أسرارهم جماعة فجعلوا يسايرونه ويبالغون في الاطراء عليه ويخطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له انك لمن أعظم الرجال وأطاب أهل السياسة وانك لرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من همة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت المنجى والملاذ وغير ذلك من صنوف التضييل والتغريب حتى استهووه وتطوحوابه وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهة هؤلاء القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجوري وثانيهما اسمه بلانت فاستهواياه وغررا به تغريرا وزينا له كل عمل وحترضاه على فعل كل خارجة لاسيما منهم بلانت فانه تمكن من أحمد عرابي وأخذ بجماع قلبه وكشفه على ما خفي من سر بهنته الى ديار مصر التي انما هي سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد مملكة عربية اسلامية يدخل تحت لواؤها سائر بلاد العرب من عراق وبن وجزاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الارض التي تحتلها العرب وبالحق في المدح والاطراء * قال أحد المقربين الى أحمد عرابي * وما زال ذلك الطاغية باحد حتى تآقت نفسه الى طلب المعالي رخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجوري على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الاراجيف المزججة وجعلوا يرسلانها الى صحفهم السبارة على لسان عرابي وشيعته حتى كادا ينكران متبوعة مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الانجليز ترددها مشفوعة بالمدح والاطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان اه قال جماعة وزين بلانت ورفيقه الى أحمد عرابي مخبرة شريف مكة وغيره

مطلب

ملازمة جريجوري
وبلانت الانجليز
لاحد عرابي

من كبار العرب في هذا الامر وفي استنهاضهم الى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير الى السنوسي بطرابلس الغرب يستقدمه الى القاهرة ليكون له عوناً على بلوغ الارب وبعث الى كبار مسلمي الهند يشاورهم في الامر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدأت اشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغريب بأجد عرابي مبلغاً عظيماً فكانا اذا سمعا أجد عرابي يقول في حديثه مع آخران نفرا من الجند أصابتهما اليوم تخمة تستلزم نقلهم الى المستشفى كتبوا الى أصحاب صحف الانجليز يقولان أشار أجد عرابي بيك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم الى المحلة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة * واذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولي الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعاه الى دعاة صالحا وبشرني بانى من أهل الجنة * كتبوا يقولان علمنا من يوثق بحديثه أن قد طاف أجد عرابي بيك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد واعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة الى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الاقاويل فكانت هذه الترهات والاضاليل داعية الى كثرة القول والقيام وحامله الى طيرة الناس وتخوفهم وتساؤلهم * قلت * وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والاربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواماً يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية ويتظاهر بعجته الى العرب وميله الى عاداتهم وطباعهم وحريةهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق وولوعه بلغتهم وغير ذلك فاعتز الكثير منهم بظاهر أمره وأدبهم من مجالسهم بخلس وتصدر واستفرغ ما في صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيهم يكاتب رؤساء قبائل عرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد في سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سواح الانجليز الذين دأبهم البحث عن الآثار القديمة ومعرفة طبقات الارض وقد اتخذ عين شمس له مقراً وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أجد عرابي ومن معه بطالبون بطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجرد الى العمل وتقرب من أجد عرابي وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضرهم على الاخذ باطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سئلت عليك في محله ان شاء الله تعالى وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين الى الباب العالي كما تقدم القول أرسل السلطان الى كبيرى السياسة الانجليزية والا فرنسية يستعلم عن السبب الحامل على ارسال تلك اللائحة ويحتج عليهما في ذلك فكتبوا اليه يقولان انهما لا ينازعان في تبعية ديار مصر الى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمنا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزانة كما هي بدون مساس فأحس السلطان بما وراء ذلك من اشتداد الازمة واستفعال الخطب اذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل

مطلب

استعلام السلطان

من الدولتين عن

داعي ارسال اللائحة

أحمد عرابي سرا على يدى أحد القراء وكأنه رسم له يحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابي الى طلب زيادة عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا وألح في الطلب وشدد على البارودى في ذلك فسادوا في البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك الى المديرين والمحافظين فالتحدرت العساكر أفواجا الى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أوكدت وانبثوا في الاسواق نخاف طوائف الاجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ما وراء هذا الزحام الاحصول الطعن وامتشاق الحسام فتزح الكثير منهم الى الاسكندرية وطارت الاخبار الى الاتفاق بمجيء العسكر الى القاهرة فهؤل أصحاب الصحف الانجليزية وبالغوا في الامر ونهوا قومهم عن الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم

وبينما كان الجند يأتون الى القاهرة تباعا والناس في شاغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفي نقيض في أمر تخويلهم حق النظر في ميزانية الخزينة ومصرفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم الى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحويل والتعديل لاسيما ما كان متعلقا بأمر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا الا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الاول أعاد مجلس النظار الى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول ان وكيلي الدولة الانجليزية والفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب في تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخاضرة في هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية الى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائي في أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخاضرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة الى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الامر واستعظموه واجتمعوا في بيت محمد سلطان باشا الرئيس وطلخوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون في العمل الى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب الى اللجنة التي كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشتراطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعديل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه * وفي صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب الى مقر الخديوى بالاسماعيلية ليطالبوا تنفيذ ما قرروه فروا في طريقهم بيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا الى مقر الخديوى وتقدموا اليه في قبول لائحته والعمل بما قرروه فيها والا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتحقق الوزير ما في عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم نفشى العاقبة وعمد الى المواربة وعين للوساطة بينهم

مطلب

الخلاف بين الحكومة
ونواب البلاد على
تخويلهم حق نظر
ميزانية الخزينة

بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالامر وسلك مسالك
الجد والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان اذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة
النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم الى الغرض وسوس لهم خناس العصابة فيرجعون
نا كصين وهم أشد عذادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أوكدت
عند الى مجامع العصابة فدخلها وما زال يكبارها ونحباب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل
بعض مواد القانون التي لاعلاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على
ما هي عليه * وعظم الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الانجليز
والفرنسيين اليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يبح اشتراك نواب البلاد في تقرير
ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرآن أن امر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين
حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لتبعت
به الى أصحاب الحل والعقد في بلادنا ليروا فيه رأيهم * فجمع الوزير في اليوم الثاني مجلس
الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا في طلب القونصلين فتكلموا في ذلك كثيرا وطال
الاخذ والرد حتى علت الاصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب الا ما أرادوا
من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير
طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع اليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعي
باشا رئيس التحويل وشواربي بيك وأمين بيك الشمسي ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك
وأجد أفندي محمود وإبراهيم أفندي الوكيل وأجد أفندي عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال
في امر الميزانية وفي نص الفقرة المختصة بها في القانون (قلت) وكان نصها * متى
تعادلت الآراء استشير مجلس الامة فاذا صدق على قرار لجنة التحويل وأصرت الحكومة
على رفض ذلك ولم تستعف الوزارة فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية
لسير الادارة وتوقفت الميزانية الى أن يلتمس مجلس النواب الجديد فاذا صدقت لجنته على
قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا اه فلم يتم لهم في ذلك اليوم امر
ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا في نحو الساعة الثالثة عراقي ليلا الى بيت الوزير
ولبثوا يتنازعون الى ما بعد نصف الليل ولم يكنهم لم يمتدوا الى امر ما فعند ذلك نهض
الوزير وقال بعد كلام * وحيث اننا لم نصل مع نواب الاجتماع الى حل عقدة هذا
الاشكال صار المتعين على الخبارة في ذلك مع قونصلي الانجليز والفرنسيين اذ هي
من المسائل الخاصة بهما وباتوا اليتم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستمرالت قونصل
الانجليز وتحدثا في الامر فدخل عليهما قونصل الفرنسي فتكلموا في ذلك طويلا وتكلموا
أيضا فيما لم تصل اليها معرفته الى هذا الحين وسير الخديوي الى سلطان باشا يستحثه على
استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول انه لم يقو على استمالتهم لانهم جميعا في
طاعة عصابة الجند وفي قبضة أجد عراقي وأن لا سبيل الى عدولهم الا باستمالة زعماء

مطلب

تتمكن بطرس بيك

غالى من تعديل بعض

طلبات نواب البلاد

العصاة واسترضا هم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضا فرسم الخديوي باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا في سراي عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون في أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجسدال وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوثام وانفض مجلسهم على غير طائل

واتفق أن دخلت في هذا اليوم الى ميناء الاسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة بجاء الخبر بدخولها وتحدث الناس به كثيرا وحزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسم أفندي أحد قرناء السلطان مخاطبة الى أحمد عرابي وقال البعض ان الربان المذکور جاء خفية من الاسكندرية الى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقاندة أورينتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستبر برداء من أكسية جند البحر وسار الى بيت أحمد عرابي بباب اللوق ولبت معه ساعة ثم رجع من فوره الى الاسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس الى الآفاق وبالغوا في نقله على عاداتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب الى المديرين والمحافظين وسائر مأموري الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الاشاعات وعدم الاخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال ان هذه السفينة وان كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن الا في خدمة والى الشام وانها لما قامت من مرسها قاصدة إحدى الموانئ العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها الى سواحل مصر فنجأت الى ميناء الاسكندرية فرارا من الانواء ونظرا لكون بعض آلانها تعطلت بأسباب ملاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها في هاويس الاسكندرية ثم ترجع * فلم تبطل هذه الاقوال الاشاعة ولم تنكشف الناس عن القال والقيل ولا سيما الاحزاب وضباط الجند * قلت * وكان لجمي تلك السفينة في هذا الحين أي بعد رفع الدولتين لأختنهما التي تقدم الكلام عليها مرتخي وقصد منوى عليه وكان السلطان وجيع قرنائيه وأرباب شوره وأصحاب الكلمة في بابه وامامه الشيخ أحمد أفندي أسعد يعتقدون أن في ظهور أحمد عرابي وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالاقليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية الى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالي التصرف فيها كتصرفه في بقية الايلات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابي والبارودي من ارسال كتب التلطف ورسائل التآدب الى الباب العالي عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبي الانجليز والفرنسيين فكثير لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابي بواسطة بسم أفندي من قرناء السلطان وجاءته الرسائل ترى بما لم تصل اليها معرفته الى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت اليهم * وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالي معلقة بالمحال وهم في تغرير وضلال قد كان سعاة الانجليز لا ينسكفون عن التقرب من أحمد عرابي وأصحابه

مطلب

دخول إحدى
سفن الحرب
العثمانية الى مدينة
الاسكندرية وما
كان من وراء ذلك

وكبار سياستهم يعملون ليس على سلاح مصر عن تابعة الخلافة العثمانية فقط بل وعلى إزالة ملك آل عثمان من قارتي آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هي سياسة غلادستون شيخ الاحرار من الاحزاب الانجليزية منذ حدثته فكافوا كلما تقربوا من أحمد عرابي مال عطفا اليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسي ونحجب الى شريف مكة ودعاهم الى نصرته وجماعة الانجليز يظنون أن قد تم الامر اشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابي * وكان الخديوى اسمعيل باشا يرى أيضا أن في ظهور أحمد عرابي واتساع كلمته واستمهال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو الى كرسى الخديوية لجعل يرأس أحمد عرابي ويمنيه بالاماني الكثيرة ثم عمد الى الاستعانة ببعض كبار الانجليز فهداهم بالهرايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابي يظهر له الطاعة ويتلطف معه في الجواب ويهون عليه الامر حتى ظن اسمعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال * وكما كان اسمعيل باشا يبنى النفس بقرب عودته الى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابي بك وأشياعه كان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا يتقرب أيضا من أحمد عرابي ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستغفره الى نصرته برز تاج الوراثة اليه * قال بعض الكتاب وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أماله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المايين الهمايوني اليه فكان أحمد عرابي يساره ويتلطف في الرد عليه ويمنيه بالاماني الكثيرة حتى اختلط الامر على أحمد عرابي وطاش منه الرجاء وحاروقد كان في خلد له أن لا يعمل الا لنفسه ولا يجاهد الا في اعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بماله من المكنة عند أهل البلاد والمحبة في قلوب العساكر والاجناد والهيبة عند كبار الناس وعظماهم كما فعل محمد على باشا الكبير * قال جماعة وقد كانت هذه الآمال أيضا لاتفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك في موضعه فكان مثلهم في ذلك كمثل صبي في يده امرأة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الارض ومعه فتية يتزاجون ويترامون على ذلك الضوء فمكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئا وهم لا يتقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبي للمرأة

مطلب
عودة النواب الى
تنفيذ لائحتهم
وما كان من وراء
ذلك

وعاد نواب البلاد الى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم الى مقر ديوان الداخلية ورفعوا الى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا ان تأخير تنفيذها جالب للفشل فاننا عقدنا النية على أن لانترك هذا اليوم بمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهون عليهم ثم قال لهم تعملون أى منذ أخذتم في تنظيم لائحتكم هذه لم أتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على أنى مازلت لا أنتحول عن هذا الرأي فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه في أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا ان هذا من خصائصك ولادخل للدول

فيه بل لا موجب لتوقفهم فانهما مسئلة لانس ماله من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة فقال الوزير
 لاسبيل الى ذلك البتة فقال جماعة منهم لانا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك
 يعنون بذلك كراهه على التخلي عن منصبه ثم انصرفوا وساروا الى مقر الخديوي بعابدين
 وتخلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا انا جازمون بحجة مولانا للوطن ومبله الى اصلاحه
 وهذه الغاية قد منح مولانا الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة
 ونفعنا بها وطلدنا الى الوزير محمد شريف باننا أن يوقع عليها فلم يقل حالة كوننا لم نتعرض
 لنسئ مما في العقود الدولية فقال الخديوي اذا كانت هيئة الوزارة قد أثبت التصديق على
 اللائحة فمادا تطلبون حينئذ قالوا نطلب أن تعزل وتشكل وزارة أخرى لاتأبى التصديق
 والعمل معنا فوعدهم باعطاء الجواب في غدا فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد
 يفكر في الامر ويضرب أخماسا في أسداس ثم قام ودخل على الخديوي وجعل يحتاج
 معه فيما لم أصل البتة معرفته وحضر قونصل الانجليز والفرنسيين الى مقر الخديوي ودار
 بينهم الحديث فاشتد الجدال وطال القيل والقال فوقف الوزير وقال قد خلعت نفسي
 واعتزت منصب الرئاسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوي الى ذلك بحضرة القونصلين
 وانصرفوا جميعا وفي نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الاول من
 السنة استقدم الخديوي خمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة
 مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باننا عن الرئاسة فاختاروا من
 يتولاها فقالوا لا وحاشا أن تنعدي على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره فقال لابد من
 ذلك فامتنعوا وبقي الحال على ذلك الى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم
 الخديوي وسألهم أن يختاروا من يصلح للرئاسة فقالوا نختار اليوم محمود باننا البارودي رئيس
 ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا الى بيت البارودي وانتظم
 مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتباحوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب
 فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكانهم أرسلوا الى الخديو يعلمونه بذلك فلما كان
 بعد ظهر اليوم بعث الخديوي مع أحد رجال ديوانه الخاص الى محمود باننا البارودي
 مرسوما يقول فيه حيث دعت الاحوال لانفصال محمد شريف باننا بناء على استعفائه واقضى
 الحال لانتخاب بديل عنه يكون متاهلا ولائقا لمقام الرئاسة ومن المسلم عندي أنك أهل
 لذلك لما اتممت به من كمال الدراية وحليمة الصدق والاستقامة فقد انتخبك لهذا المقام
 الطاهر ولقد تلك الرئاسة التظرف فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظر اللازم وجودها معك وحيث
 ان غاية قصدي ونهاية أمني انما هو السعي وصرف الجهد لما فيه عسارة وسعادة الوطن
 واصلاح أحواله فأمل فيك القيام بهذه المساعي الحسنة وفقنا الله جميعا لما به الاصلاح
 والنجاح انتهى

فلما وصل الكتاب الى البارودي فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع في

مطلب
 استعفاء الوزير
 شريف باننا وتولية
 محمود باننا البارودي
 بيله

الحال الى الخديوى عرضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحفانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية واسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للاشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شربعى باشا للاوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الانجليز والفرنسيس وكامهما فى هذا الامر طويلا ثم صدق على هذا الانتخاب وأضاف الى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضا وجاء الوزراء وتمثلوا بمحضرة الخديوى بسراى عابدين فحادثهم طويلا فيما لم تصل اليها معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع اسماعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرئاسة لم يكن الا بسبب بند الميزانية فأجاب الخديوى الى ذلك وقام بقية النظر وساروا الى بيت البارودى ف عقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباثوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوقف عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلا فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة ثم ساروا بعد ذلك جميعا الى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طالبة عصمت بيك أمير جند قصر النيل فألقى طالبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفسراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا الى ديوان الداخلية حيث البارودى والى مقر والده الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكية زائدة * وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسئولية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساؤل وعدم فصح عرى لوافق بينهم وبين هيئة الحكومة والاطاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية وكان الآخرون يرون أن فى اكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد ووقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شوائد الديون وذل الاستمدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وثقيلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم وثانيتهما تعديل موارد الإيراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الامن ويرتفع الظلم والاعتساف وتتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويحس قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظنر بها نسر ولا يغتالها أسد (اشارة الى دولتى الفرنسيس والانجليز) وكان هذا رأى لفريق من زعماء العصابة أيضا فاستمالوا اليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بذهبياته فاشتد الخلاف يومئذ واستفعل فادرك زعماء العصابة ما وراء ذلك وتجردوا لمقاومة أصحاب رأى الاول وحذروهم وهددوهم فكان اذا تخلف أحدهم

في بيته ليلة لا يشعر الا وقد دخل عليه نفر من الجنود فيوسعونه شتما وسببا ويتوعدونه بالتبعية الى اقصى الدار فور وربما توعدوه بالقتل ان هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا الى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر ترلا الى أصحاب الزعامة فقيوت عزيمته أوائل الزعماء فخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالي باستسلام زمام حكم البلاد والتصرف في أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ولا يراعوا أن البلاد في حاجة الى مثل الوزير محمد شريف باشا اذ أعماهم الغرض وتلك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون في صدور النواب ويزينون لهم كل عاقل حتى تجرد النواب يومئذ الى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذم فانزل نفسه كما تقدم وكان ما كان من تقليد البارودي منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن في طلب نواب البلاد تقليد البارودي هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولولم يكن في الامر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل اليهم لكفى

ولما استقر بالبارودي منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بابه فخرج منهم من أول ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثر من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب في مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة البحيرة حيث دعا اليها البارودي وأحمد عرابي وسائر الوزراء وجلس نواب البلاد وكبار الجنود ولغيف العلماء وبعض الوجوه وكثيرا من موظفي الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فذكر كلام طويلا وذكر في كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس الى تلك الليلة وعرض بذكر وساطة بطرس بيك غالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه في حينه وكان معهم في تلك الليلة فقال الخطيب ولا اخالكم تجهلون أيها السادة أننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطاً من اخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بحبة الوطن فقام بالامر وأدى عاقبه الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعزرننا وآخرها يباكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعددنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وأنا جميعا على قلب رجل واحد في خدمة الوطن وبنيه

ولما كان ناسع عشر ربيع الاول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم محضرة الخديوي وتكلموا في قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى في بند الميزانية ثم تلى بينهم أيضا الجواب على الاشارة التي كان رفعها قونصلا الانجليز والفرنسيين

مطلب

ما كان من وراء
تقليد البارودي
منصب الرياسة

الى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر ارساله الى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفي ثمانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى الى مقر نواب البلاد وسلم الى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النواب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا * وقد قرأت في ذلك اليوم في احدى صحف الاخبار الانجليزية صورة مكتوبة بعث بها أحد كبار الانجليز بعاصمتهم على جناح البرق الى أحمد عرابى بيك يقول فيها * تقدموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الامة الانجليزية فانها لا تروم الا تأييد مذهبكم القائل يجب الرأفة بفلاح بلادكم * أى نعم فلتسقط أقوال الباكسين للامال المالية باختلاق الاكاذيب ولتعش الامة المصرية لتحيا الامة المصرية * وشاع خبر هذا الانجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونفثوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها الى الاحزاب والمنقربين وهؤلاء كانوا يتلونونها على الناس محشوة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول * اى والله قد جاء اليوم الى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الانجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه انها فرحة القلب بقريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلال وانها لم تكن لتعلم الى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهمى ساخطة على من كان السبب فى ابعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها * فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوج بتاج الملكة * فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرت منقوشا بما الذهب وأحسن الألوان التى لم ترعنى لها مثيلا * فيقول الرابع انكم جميعا لى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع مافيه بأذنيه أنه على شكل كراسية مغطاة من الخارج بالديباج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم * فاذا قيل لهم قد نقلت أصحاب الصحف الاخبار هذا النبأ وليس هو فى شئ مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياما * وبينما كانت الافراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الانجليزى والفرنساوى ورفعوا الى الخديوى محررا سياسيا احتجاجيه على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخواتم المراقبة على جميع ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه مائتة ريبه * ولما انتشرت الاوامر الخديوية بتنظيم سلطنة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالاصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على ابداء النصيحة واعطاء المشورة فكان المتعين اذا التمسك بنصيحتهم واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال وأصبحت خزينة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى ترزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت الى

مطلب
احتجاج المراقبين
على ما أباحت
الحكومة لنواب
البلاد

مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأمر هذا الفريق جميع النواب فهم لا يعملون عملاً إلا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذي طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيراً مهماً حيث كان ديبية تدريجياً مبتدئاً من شهر فبراير سنة احدى وعشرين وثمانمائة وألف ميلادية الذي هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة في القهقري والانحطاط يوماً عن يوم الى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد اسمعيل باشا مقيدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أجال الديون الثقيلة أن قاموا في هذا الحين بطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد واهيئتها الاجتماعية وقادى بهم الحال الى اكراه الخديوى على خلع الوزارة التي كان معتمده عليها والزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رئاسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملاً مهملاً وكان لم يبق لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الاحوال حدّها فصار لايهمنا كثيراً معرفة ما اذا كان المراد التعرض أيضاً لسلطة المراقبين واختصاصهما أولاً لاسميا وانها قد أصبحت اليوم منحلة العري بأسباب عدم امكانهما الاشتغال مع الخديوى ولا مع وزرائه الذين أقيموا في هذا المنصب جزافاً ولا مع نواب البلاد والجند العاملين معهم فان الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسؤولين أمام الرأي العام والدول الأجنبية عن الطرق والاسباب التي عارض فيها المراقبان ودوناهما في مراسيم سينشرانها عاجلاً الى أن قالوا ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الادبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلا بد وأن تصبح هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤس الجند فان الوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون اذاعتهم الرؤس الجند ونواب البلاد اذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الامر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقاً في نظر الميزانية ولم تكثر بمعارضة المراقبين معارضة رسمية في هذا الامر ولا ننسى أن السبب الذي أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراسلاتها عدم معارضة حكومتى الانجليز والفرنسيين فيما طلبه مجلس النواب من أن يتحول له حق النظر في الميزانية فصار اذا قبول الوزارة الحالية لهذه الامور واخراجها الى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دوائى الفرنسيين والانجليز ونجم عن ذلك ازالة نفوذ المراقبين الذين لاسلطة لهما الا بسلطة حكومتهم وهذا ولا يليق التعامى عن الاسباب التي لا بد وأن تدلّ أس الاصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها في داخلية البلاد منذ السنتين فان التعامى بمجلسه التغير وقصارى الامر أنه ليس يبعد وقوع الخلل في الاحوال المالية التي قامت بترتيبها واصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية اه

فلما وقف الخديوى على ما في هذا الخطاب تملل وسيربه الى البارودى فلم يكثر به ولا أعاره جانب الائتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس في نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم للنظر في

مطلب

وكان الوزراء اذا عقدوا مجلسهم لا يحضره المراقبان

أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما ان الوزراء انما هم يتظرون في الاحوال لادارية والامور الداخلية التي لاعلاقة لهما بالاشغال المالية فاصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملا بل سقطا مرذلا وشاع الخبر بذلك وتناقله اصحاب الصحف المحلية والاجنبية فكثرت اسال كبار حكومتى الفرنسيس والانجليز وشتد بينهم الاخذ والرد وقام خطباءهم وقولهم يفلجون لنواب البلاد ظهر المجن وكثر اللغط بعد ذلك وعمت الاشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية الى ميناء الاسكندرية فبالغ العامة في التحدث بهذا الخبر وأجتمعت اصحاب صحف الاخبار عن تكذيبه نخاف عقلاء الناس وقطبوا منه فلما كان اليوم الاول من ربيع الثانى وصلت الاخبار الى القاهرة بقدم سفن حربية افرنسية وانجليزية الى مدينة بورسعيد فزاد تخوف الناس واختلفوا في اسباب حضور تلك السفن وكثرت حديثهم في أمرها فبالغوا في وصفها واختلفوا في عددها فمن قائل انها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى في ذلك الى قونصل جنرال الفرنسيس فأجابه بأن ليس في الامر ما يدعو الى الاضطراب وانما هي سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهي معدة لنقل الجنود الذين قضوا مدة الخدمة العسكرية في تلك الاقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتسكف الناس عن التحدث في أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضا بحركة الملك يوحنا نجاشى الحبشة ونزوله على حدود مصر الشرقية وضييقه على أهلها واحراقه الكثير من قراها ومزارعها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الارحاف أياما حتى وردت الانباء الصحيحة بأنه اعصيان أهالى قرية من قرى أرض البورى التي تبعد عن مصوع مسافة يومين عن دفع اضرائب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجبوا الضرائب الا بواسطة الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف من البقر وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الخمر وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلا وأسروا أحد عشر فأذاع هذا الخبر اصحاب صحف الاخبار وتوسعوا في الكلام على عادات الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب تلك القلاقل وتبطل الاراجيف

مطلب

العدول عن تسير
العسكر لقتال مدعى
المهدوية وما كان
من وراء ذلك

وأشار البارورى بإبطال تسير الجند الذين كانوا على أهبة السفر الى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التي هي في بلاد السودان كافية لحصر المتهدى في جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطبخوا الخبر بذلك الى الآفاق فصصدق الناس الاشاعة أو كادوا فلم تكن الا أيام حتى وردت الانباء الصحيحة باستفعال أمر المهدى وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى اليه وقيام الحركة بين أهالى الدرنور وكردفان وغيرها قالوا وبلغت لمومه الى هذا الحين مبالغاً عظيماً فكان اذا نزل على بلد ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف في أهلها حتى باتى

على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث
الدعاة في الاطراف حتى في مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم
صاغرين وكبر الخوف بالسواد الاعظم من أهل كوردفان وسنار والخرطوم فأنجلوا عنها
فرارا من بطشه فتعطلت أسبواب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الأمن من تلك
الاصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم الى مدينة أسبوط ومنع تجار القاهرة من
ارسال شئ من البضائع على ظهور السفن الى مدينة أسبوط كعادتهم ووصل الى القاهرة
ومصر بعض النازحين عن السودان وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلا واتفق أن حضر
في هذا الحين الى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا مابين راكب
وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودي فلما رأهم العامة على هذه الحال
ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم في ضجة وجلبة حتى دخلوا الى ديوان الداخلية
وصعد جماعة منهم الى مقر البارودي فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد
أن لا نضيع علينا حقوقنا التي ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بقتضى فرمانات محمد
على باشا الكبير متبائلة خفارتنا للحدود ومنع العدو من الوصول اليها فقال وماذا تبتغون
الآن وهذه قضية رأها من كانوا في خطى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قايما بالمصلحة
العامة فقالوا لا نرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامي ولا أن نخرج قسومنا
للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل الى التخلي عنها مادامت البادية بادية
ونحن حارسوها فهاهم البارودي الامر ولا نفهم فانسرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس
تلك الهواجس والاعوام وحضر في هذه الاثناء أيضا عبد العال بيك أبو حشيش أمير
الجند السوداني من مدينة دمياط الى القاهرة ولزم أحمد عرابي بيك أبا ما فاشتد الخوف
بالناس وكثر تطيرهم وقالوا ان حضوره في ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان انما هو
مترتب على أن تكون مراكز العدو قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق
الا الرمي بالقنابل وكان حضور عبد العال بيك في ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابي
ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من القاب الشرف ونباشين الاعتبار فقد
كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رئاسة ديوان الجند الامن حازرتبة الفريق ليمكن
من سياسة الأمور وحفظ نظام سائر الضباط وكبار الجند وقد تولاهما أحمد عرابي بيك وهو
لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة
العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ما هم عليه من الرتب الصغيرة
خاف أحمد عرابي من أنه اذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه
ثم أبغضوه وعملوا على تكايته واذلاله فسير في طلب عبد العال فقدم الى القاهرة ولبث بها
أياما حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أما كن إقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شأوا
إبعادهم من صغار الضباط وادخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود الى طاعتهم والقيام

مطلب
امتناع الخديو من
اعطاء بعض كبار
العسكر شيئا من
رتب الشرف ونياشين
الاعتبار وما كان
من وراء ذلك

بشارتهم * ثم رفعوا الى الخديو ورقة باسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفوهم وتقدم اليه أحمد عرابي في طلب اعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعجب الخديو ذلك اذ رأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعهم أحمد عرابي بيك دهون عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياما * وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم اذا رأوا من الخديو مطاولة في أمر يتغونه أشاعوا أنه انما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصوصهم فيكتفون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويثبون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فان عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم والاعادوا حتى يتاح لهم الطفر فلما تحققتوا بإصراره على الامتناع من اجابة طلب أحمد عرابي بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السوداني وأشاع أنه قد دس اليه السم في اللبن * قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ذات ليلة عند أحد اخوانه اذ عاد الى بيته فقالت له الجارية التي كانت تعدله الشاي واللبن في كل يوم صباحا انها تركت المحن لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذي فيه اللبن مكشوفاً ولون اللبن متغيراً قال فبحث في الوعاء فوجد في راسه مادة وأبقاها الى الصباح واستحضر طبيباً عارفاً فحل تلك المادة فاذا بها زرنج كاف لقتل نفس فأكثر وانهم في هذا العمل غلاما يبلغ السابعة عشرة وهو بهم بتربيته في بيته فقبض عليه وأتى به الى مقر جند الحرس الخديوي برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل بأجراء محمد بيك ابن اسمعيل بيك ابن أبي بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاماً شركياً من عماليك الخديو رفيقاً له في المكتب أعطاه ذلك الزرنج وأوصاه بوضعه في وعاء اللبن ففعل رجاء خلاصه من وصاية عبد العال بيك وحيارته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام الى صاحب شرطة المدينة وأودع في السجن حتى تظهر الحقيقة * ولم ينتشر خبر هذا الحادث العجيب حتى جعل ضباط الجند يفسدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات لهنؤه بالسلامة وهرع اليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفي الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه في استكشاف سر هذا الحادث واستجلاء الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسي ووضعه بالسجن واستنطاقه أيضاً دفعا للشك والظنون وسير الى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص ليلبغه شدة كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنته بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الطائف الكلام في هذا الحادث وبالغ في مدح تلك السوداء التي كانت سبباً في نجاة عبد العال كما كانوا يزعمون فهادما جميع ضباط الجند بالخلي والملابس وكان اسمها تشريفاً فجعلوا يصيحون تشريف تشريف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة ويعرضون بذكر الخديو وعداوته للجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم الى ما يطلبون وأعطى كبارهم من الرتب ونياشين الافتخار ما كانوا يسألون فقال أحمد عرابي بيك وعلى بيك الديب أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السوداني لقب ميرلواء وهي رتبة

الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع الى دار أحمد عرابي العلماء والكبراء والوجهاء وتراحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت اليه رسائل انتهى من عدد البلاد ومشايخها وتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب في ذلك اليوم وزين داره وأتت اليه طوائف أرباب الأشير وأصحاب العكاكيز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون نحيباً استنحسب ويهتفون هتاف التبريك وزاره في غروب ذلك اليوم سائر جال الحكومة المليكين والعسكريين والرؤساء الرومانيين ومحرري صحف الاخبار المحلية والاجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة ايطاليا وغيره ممن كانوا يكثررون التردد عليه لأمور لم تصل الى معرفتها وما زالت داره محطاً للمهتئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع علي باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لاسيما منها الانجليزية ونادوا وارباه ان لم تتدارك دولتنا الانجليز والفرنسيين الخلل الذي كـهبط بمصر الى حفيف الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الاخذ باطراف العمل وجوب تغيير منهج السياسة الذي اتخذته الدولتان منذ ظهور ثورة الجند الى هذا الحين فأكثر قونصل الانجليز من الغدق والرواح الى مقر الخديو للكلمة في الأمر

واتفق في ثالث عشر ربيع الثاني أن تقدم السيودي بليشار المراقب الفرنسي الى الخديو في قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو الى ذلك بغير معاودة فأنحدر من فوره الى الاسكندرية ومعه عياله يريد عاصمة الفرنسيين فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبانغوا في الأسباب وعزوها لانفسهم وقالوا انما هي مجهزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يظن في مديح أحمد عرابي باشا ويثني على همة رجال العصاة أول العزم ويقول * قد آن وانه الوقت الذي لا بد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعث الجائعة الذين لا يهمهم الا اشباع بطونهم واختلاف الناس في أسباب عودة الرجل الى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعي الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون الى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس في هذا الامر فمن قائل ان لاستعفاة غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيين بالتخاذه فلا يلبث أن يرجع اليها وفي وعائه شيء من السم والدم ومن قائل بل كان استعفاؤه ارضاء لأصحاب سياسة الانجليز اذ هم يعتبرون ابقاءه في منصبه باعث على فقم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذي عقدته الدولتان لال الرجل شهم حازم جرى حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الانجليزي على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأي * قال أصحاب هذا المذهب فلما كان دي بليشار هذا لا يعمل الاصلحة ببلاده خاصة

مطلب

تنزيل السيودي
بليشار المراقب
الفرنسي لنفسه
من منصب المراقبة
وما كان به ذلك

مبالا الى التفرد بالعمل وكان المراقب الانجليزى لا يقوى ولا يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشذر باط الوفاق وعزمت على استبداله باخر اقل غيرة وأكثر صبرا * ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شئ من هذا كله وانما هى فلتة من فلتات السياسة الافرنسية التى ما وراءها الانخبيبة والعدم حيث لا ينفع الندم * وعندى أن لاستعفاء دى بليمار هذا سببا آخر اعلمه الصحيح أو ما يقرب منه وذلك انه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطبها المفلق وقامت بعدها وزارة فريسينه وكانت سياسة دى بليمار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينه مشوبة بالضعف وعدم الثبات مخفوفة بضوضاء المكارة من الأحزاب لاسيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع الى رغائب الانجليز منهم الى مصلحة وطنهم أدرك دى بليمار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لاسيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عزيزين عدااء لفرنسيس الذين بعصر وتقييحهم لاعماله جزاء ما بدا منه لفونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة اليه فعمد الى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم الى كبير سياسة الفرنسيس والحدوي فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنمة بالاياب * ولم تكذبهم أبدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على حدود مصر وعقده النية على اضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخطبوا وخطبوا كما دعتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان * وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرفى السودان أرسل الى ديوان الحدوي يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرو خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع الى كبيرهم كتابا من النجاشى يقول فيه * باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله الخ

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها الى حضرة المحب المكرم علاء الدين باشا

نخبركم اننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزون كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودية وأنه مرسل لكم يا محبتنا الباشا هدية وهى حساب من جباد الخيل اشارة الى التودد والمحبة والسلام اه * وكان مع ذلك الوفد أيضا هدايا أخرى بعضها الى بطرك القبط بديار مصر وبعضها الى الحدوي وهى عبارة عن عشرة كمام من الفضة الممونة بالذهب ونشانين من الذهب الخالص وثمان درقات وكبة من الزاد وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب الى الحدوي وكانت

مطلب
حضور جماعة
من الحبشان بهدية
من النجاشى الى
الحدوي

مطاب

ظهور الخبر
بارفضاض مجلس
نواب البلاد وما
كان وراء ذلك

وجهة جميع رجال الوفد البيت المقدس لمبشوا فيه ما شاء الله * فلما تحقق الخبر بقدم
أولئك الحشاش ومثولهم بين يدي الخديو ثم نزولهم بدار البطريركية القبطية بالقبيلة بطلت
الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب
البلاد اذ ظهرت الاشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب الى بلادهم وقد تناقلها أصحاب
صحف الاخبار فما لبثت ان بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صفهم مشحونة بالتقبيح
والتعيب ولاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الاجانب
الذين في خدمة الحكومة يسخرون أيضا بالنواب ويمزقون بأعمالهم فكانوا اذا قابل أحدهم
رفيقه في طريقه أو في مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلا * اننا نودع
نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية
والاستهزاء فحرق هذا كله ساكنا في قلوب ضباط الجند بفعلوا يطوفون بالشوارع والطرق
ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الاجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع في
المتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية
يهتفون الامر على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الاطراء على النواب
فكتب أحدهم في وداع النواب يقول * وداع يزيد النفوس وجدا * وبعد يفيد القلوب
قربا * وانفصال لا يؤثر في المشارب الا اتصالا * واقتراق لا يوجب في المبادئ الا اتحادا
* وداع انواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما في قلوب الامة من الشاء والدعاء
مشكورين مأجورين مرجوا عودهم بالمهابة والاجلال والتوفيق والاقبال ان شاء الله اه
فلما كان ثامن جمادى الاولى من السنة أى سنة تسع وتسعين في نحو الساعة
الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودى الى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو
بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسر ووقف بينهم موقف الخطيب وقال إن المدة القصيرة
التي أقتموها والاعمال الكثيرة التي نشرتموها تدل على شدة ميادكم الى الاصلاح ورغبةكم
في تقدم الوطن العزيز * وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لارفضاض المجلس بمقتضى
لائحته الأساسية فقد أثبت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن اخوانى لأشكر مساعيكم
المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات
التي ستوضع في العام التالي موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة * قال وهذا
هو الامر الكريم الناق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول
في توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول * انا نشكر للجناب الخديو المعظم عنايته
باستجابة عطوفتكم في ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا في العام القابل لتتميم
المقاصد الحسنة والمنافع العامة التي منع قصر الوقت في هذا الاجتماع من اخراجها الى
عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الانحما. ويزيد تألف القلوب لتكون يدا واحدة وقلبا واحدا

على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج اليه من الاصلاح آمين * فأتمن النواب جميعا على هذا القول ثم ودعهم البارودي وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا الى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا * ان اجتهادكم في خدمة الوطن واهتمامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة في خدمة الامة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية في مدة انفضاض المجلس الى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر في العام القابل لتأتموا ان شاء الله على ما في نيتي من الاصلاح لوطننا العزيز وإلى أستودعكم الله ضارعا اليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأنه كما أحسن الحال يحسن المال آمين * فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول * نسأل الله تأييد الجنب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للامة والوطن موثلا آمينا فتحصل في ظله الاماني وتكفل المنافع العمومية وتديم قوة الاتحاد بين أركان البلاد ولا غرو في ذلك فانه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همهم اليه من أوجه الاصلاح ومهد لهم جانب العناية في البداية والنهاية * ثم بعد ذلك قدم الكتائب الخاص الى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم الى كل منهم المرسوم الموجه اليه بيده فكان ما فيه

قدوة الوجوه المعتمدين والاعيان المنتخبين حضرة فلان زيد لإقباله ودام كماله لأن من الامور التي أثبتتها التجارب من سوائف الأزمان حتى صارت جلية عند ذوى البصائر والاذهان ووصلت الى درجة الاستغناء عن اقامة دليل وبرهان أن السبب الاقوى في تقدم الامة والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الاتم هو التشاور في الامور وتبادل الأفكار والمبادلة في الآراء والانتظار ولا شك أن هذه هي أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحريضا طريق الصواب واخترا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الاهالى أعضائه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الاعضاء المبعوثين في مذاكرة ما يلزم من الامور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالاھلية وعرض ذلك علينا فقبول بالقبول والاستحسان لدينا فاصدرنا اليك هذا الرقيم اعلانا بأنك ممن حاز شرف العضوية مدة خمس سنين في ذلك المجلس الكريم فترجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقديم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام بلادنا وأمصارنا وان يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الاصلاح لانه ولي التوفيق اه فانصرفوا من عنده شاكرين وأوم لهم البارودي وامة فاخرة فخذوا حذوه بعض اعيان القاهرة ثم سافروا من سافر منهم وبقي من بقي فكتب صاحب جريدة مصر هذه الابيات مودعا لهم بها قال

ودعهم وبنفسى من ما نرهم * آثار جد أقامت بعد مراحلا

أكارم إن همو عن ناظرى انفصلوا * قد كرمهم أبداً بالفكر متصل
لهم منازل حب فى القلوب فهم * بهامقون إن ساوا وإن نزلوا
فبذاهم من قسوم أمائل فى * أمشاهم بالمعالى يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد * وحبذا الفعل فى الاصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهى التى بذلوا * فى حبها النفس نعم الجود والجل

وكان الناس يظنون أنه برفضه هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك
القلائق المتتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتتكف أصحاب
الزعامة عن اختلاق المشاكل والأراجيف * فبينما هم على هذا الجانب من الظنون إذ
قامت قيامة أصحاب الزعامة وودعوا إلى الخديوي في خامس عشرى جمادى الأولى شكوى
تضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدعى المهديّة
بالسودان قامت لاسلك باجده عرابى باشا وأهم أعدوا له كميناً فى مهابق بعض الطرق لأخذه
غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الأمر على الخديوي ورسم بكشف الحقيقة وبث أحد
عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم
وألقوهم فى سجن قشلاق جنده الحرس برجة عابدين وهىوا لتحقيق هذا الحادث مجلساً
عسكرياً مؤلفاً من عشرين عضواً بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش
وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما لعل النهار والثانى لعل الليل وقبضوا على كثير من
الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاشى بيك وآخرين معه
فكانت عدتهم نيفاً وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الزك والشراكسة
وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تابع عشرى الشهر انعقد مجلسهم
العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين قالوا فتحقق أن الذى هباً هذه العصابة هو
راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد اسمعيل باشا فى بيت أجد افندى راشد أحد
الضباط الشراكسة بحارة الرزناجحة القديمة وكان ذلك على علم من محمد افندى طلعت
ويوسف نجاشى بيك ومحمد نيازى افندى وأمين شكرى افندى وسالم شوق افندى وعمر
افندى رضى معاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق افندى ومحمد افندى فؤاد الملازم بالمخالفات
وأحمد فهم افندى وخليل حسنى افندى ورشوان افندى ونجيب افندى المقيم مع شفيق افندى
وأحمد افندى وصنى الملازم بالمخالفات قالوا وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب
وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتفوق عزائمهم وتطمئن
قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الايام محمود افندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا
مجلساً وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بأن أول شيء يعمل به رجال العصابة
هو أنهم يرفعون إلى الخديوي عريضة يطلبون فيها رد حقوقهم اليهم ورفع يد الاستعباد
عنهم ولم يطلعوا أحداً من أولئك الاصاغر يومئذ على سر المقصد الاعدامى الذى تحالف عليه

مطلب

اكتشاف مؤامرة
جماعة الضباط
الشراكسة على
قتل كبار عصابة
الجند

كبارهم فانضم اليهم كثير من الاصاغر ومالوا الى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة والخمسين فكتبت اسمائهم في ورقة وأعطيت الى أحمد أفندي راشد صاحب الدار واتفق أن قدم من الاسكندرية خليل أفندي حلي أحد كبار العصابة فاجتمع بجماعة منهم فأبلغهم أنه قد انضم الى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد الاستطاعة اذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكانهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم في بيت أحمد أفندي راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندي الكردي فانضم اليهم عندئذ حسن أفندي للكردي ورجب أفندي ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع في ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندي ناشد وحسن أفندي حلي وعبد الله أفندي الكردي رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم نجسين رجلا ويأخذ عليهم العهد بأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا واذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى يموتوا جميعا فاذا اتسع نطاق العصابة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العالية مثل محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقي وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوضت لرياسة الى الاكبر من جماعة لشرا كسة أو الترك واتفقوا جميعا على أن يجتمعوا في مقام السيدة زينب ليتحالموا ويجتهدوا بعين القسامة هناك ويظهروا ما أسروه من الاسرار عن بعضهم من قتل أحمد عرابي وكل من يناوئهم الشر أو يقف في سبيلهم هذا فلما عرضت الرياسة على عبد الله الكردي أبأها وقال اني أحس يا قوم بانقباض في صدري واضطراب في قبي ورجفة في جسمي من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العقوبة فاعفوني حتى تتمكن العصابة من انقاذ مقاصدها وبعض شأنها فاذا تم لها الامر وقامت على قدم الدفاعة أثبت لها بخمسمائة من الباشبوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه الى ذلك وكلفوه بأن يبلغ مبادئ عصابتهم الى بعض كبار لشرا كسة ليكونوا لهم عوناً عند الحاجة فاجتمع بكثير منهم وعاد فأخبر رجال العصابة بأنه لم ير من أولئك الكبار الاغاية الجبن والانكماش ثم انفصل عبد الله الكردي عن رجال العصابة لاسباب فكادت تنفشل وتنفرق كلمتهم لولا أن رجب أفندي ناشد وحسن أفندي حلي أدركا بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصابة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك في بيت أحمد أفندي فهيم السكائن بالقوطية واتفقوا على أن يأخذوا كل من انتظم في سلك العصابة الى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود ويهاتفوا على اخراجه الى حيز الفعل حتى لا تنفصم عقدتهم قبل ادراك مأربهم فلما انكشف السر وعلم به بعض صغار الضباط الشرا كسة ذهب أحدهم المدعو علي رمزي وأخبر بعض أصحاب أحمد عرابي وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابي الامر ورسم فقبضوا على أكثرهم في الحال وتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الجبوس * حدثني صاحب لي قال * ما ظهر خبر عصابة الشرا كسة وتماقله الناس حتى كثرت طواف الجنيد بالشوارع والحارات وجعلوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشرا كسة

حاصرى الرؤس حافى لاقدام فيزجونهم في الحبوس بقشلاق حوس الحديوي رحيبة عابدين والناس خلفهم يستراحون وهم في دهشة وحيرة فكنت لا تسمع في تلك البيوت الاعويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكادوا به من يذيقه من العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فاذا أغض الجفن لكمه أو وخره فينتبه وعينه تدرق الدمع فاذا خر عن الارض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيستريح وليس من يرحم * قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج اليه المسجون كجيرة للماء مثلا أو صحفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضيجهم لا ينقطع وعبراتهم مترسلة فأثر هذا الحال في الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسكري الا وجند الحرس على أهبة التحلى عنهم فتداركوا الامر وجعلوا بالعقاب بخاروا وظلموا وأغضوا جفن الطمان على رسادة الانتقام فلا حول ولا قوة الا بالله * قلت وطار خبر هذا الحادث الى الاتفاق فأرسل السلطان في خامس جادى الآخرة الى الخديوي يسأل عن ذلك وكتب أحمد الشراكسة الى احدى صحف الاخبار الاجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هي مسقط رؤسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من عائلومتها وفنونها أشكالا فقنا بواجب شكرها وأخلصنا في خدمتها أعواما طويلا وبذلنا النفس والنفيس في تلبية داعي تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية نقدمناها خدمة الابن البار بابويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد في صدور أهل البغي والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التي حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم في قيود الظلم وألقوا بهم في حبوس الهوان وأدأقوهم مضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد وأسرقوا منهم الاكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطأ ارتكبهوه فالله حسبنا ونعم الوكيل الى أن قال وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضغعة في أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل الى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام اه فأعجب الناس بهذه المقالة وحنا الى جماعة الشراكسة وعابوا على زعمه عصابة الجند فعالهم * فلما كان حادى عشر جادى الآخرة حكم المجلس العسكري على هؤلاء الضباط بالنفى والتبعد المؤبد الى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونباشيتهم وأن يكونوا متفرقين في أنحاء السودان بعيدين عن مرا كز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عد زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبة العسكرية وامتيازاته ونباشيته

هكذا العدل من لهم الظلم
أيزعزعه الشون ليرصدوا الورع

مطلب
ورود مر سوم
السلطان بالاستعلام
عن كيفية
مؤامرة الشراكسة

مطلب
الحكم على جماعة
الشراكسة وما كان
من وراء ذلك

وحرماته من العود الى ديار مصر بحيث اذا عاد اليه انقضى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس
العسكري في حكمه ان الخديوى اسمعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباحث عليها
مستعينا في شها بالمرتبات التى تصرف اليه في كل سنة من خزينة البلاد فقرر أن يكون
للخديوى توفيق ولهيئة الحكومة حتى النظر فى قطع هذه المرتبات والغائها ورفعوا هذا الحكم للخديوى
ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى وقيل على باشا الروبى والاوّل أصح فلما
وقف الخديوى على ما فيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلم فى ذلك
أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالغ فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من
استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد الى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل
حكم التبعية الى أفاصى السودان بالتبعية عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ
رتبهم ونياشينهم ولم يتعرض الى مرتبات أبيه فلما برز الامر من ديوانه على هذه الصورة كبر
ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديوى فأبى الا مارسم به فألح
عليه البارودى فامتنع وشدّد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتراجعت
أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبتت العيون حول مقر الخديوى قبل وهدد
البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى الى ذلك ولم يحتفل به * حدثنى أحد المقربين
من البارودى * قال وثاقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء الى ارتقاء منصة الخديوية
المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع اليه جماعة من أهل التاريخ
وكشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسجه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة
الفروع ينتهى أصلها الى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل الى السلطان الملك
قائصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله اه * قلت ومع بحثى عن حقيقة
هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالادلة القاطعة وفريق ينكره ويقول
انه فرية على البارودى لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب الى
الصدق وأبعد عن الشماتة والخط من مقام البارودى * قالوا وتجرد البارودى الى العداوة فلم
يطق الخديوى الصبر على ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره
وأعلمه بخبره فورد اليه الجواب باستعمال الخزامة والتأبى والاتبان على سائر الامور من أبوابها
فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم الى جماعة الشرا كسة بالخروج الى حيث شاؤوا فخرجوا
جميعا الى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد

مطلب

واستقدم البارودى
نواب البلاد بغير
اجازة من الخديوى

وسير البارودى الى نواب البلاد يستحثهم على الحضور الى القاهرة فحضروا جميعا وانعقد
مجلسهم بغير اجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى
وبالغ فى الشكوى واستمسك عليه بأمر منها مؤامرة جماعة الشرا كسة على قتل أحمد
عرابى وتبعية الحرمه عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر
من سراى عابدين وقيام ابراهيم آغا التنجى الى الشام بأمرية سرية وارسل ثابت باشا

الى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف اذهاب حقوق البلاد
وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التي ما أنزل الله بها
من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا في الامر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال
على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودى
الشاغلة عن حوادث السودان وخروج المهدي واتساع كنفه بين قبائل تلك الاصقاع وعجز
رؤف باشا عامل السودان عن إيقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد وتدائه المتواصل ولم تكن
للتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من
تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومنافعهم وأخبروا بجميع حوادث صاحب المهدي وقصوا
على الناس القصص والانباء وحدثوا عن عجز رؤف باشا وأصحابه وقالوا ان نار الفتنة لم تضطرم
الا بيد سلاطين بيك أحد مديري ولايات الدار فورما أعطاه الى العربان من بنادق الحكومة
وذخائر الحرب فكثرت تحدث الناس في ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون
ما وراءها والله من وراء كل حساب * حدثني صاحب لي قال حدثني من لاشك عندي في
صدق حديثه قال ما تعاقد كبير السياسة الانجليزية مع الخديوى اسمعيل عام ثلاث وتسعين
ومائتين وألف هجرية على ابطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه
بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس اليه الرقباء من قومه فساروا الى أرض السودان
وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها الى أقصاها ويبحثون في عادات أهلها وطباعهم وأميالهم
والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والاداء الناجمة في استمالة أعصى القبائل
وأشدها بأسا ثم عدوا الى تخطيط الاراضي ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات
والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها ورتبة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها
عددا ولم يتركوا شيئا تدعو اليه الحاجة الا وأحصوه وكان ممن سير به من الانجليز كبير من
مقدمي جندهم اسمه غوردون فقدم الى القاهرة ولبث أياما لم يفارق فيها باب الخديوى اسمعيل
ثم رحل الى السودان باسم مراقب منع الاتجار في الرقبى فلم يلبث أن صار حاكم شرقي
السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الاحمر ثم حكم دار جميع أرض السودان وخط
الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف ف عظمت
هيئته وعلت كلمته ونزع الى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم
والسكوس ورفع ما تأخر من الاموال الاميرية عن مشايخ القبائل ولبث في خرطوم
السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا راد ولا مناع فتزح في أيامه الى
أرض السودان كثير من الاجانب وأهل التجارة فرأجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت
أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل الى تلك الاصقاع أيضا رجل اسمه سلاطين قيل
انه نساوى الجنس وقيل ابطالى والاول أصح وقيل ان الخديوى اسمعيل هو الذي سير به الى
السودان في خدمة واليها اسمعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب في المناصب الديوانية وبترفع

مطلب

كيف أنشأ الانجليز
أظفـارهم في
السودان وكيف
خرج المهدي

الى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدار فور
فنشط عند ذلك من عقال وهب من نخول وأخذت كلمته من هذا الحين في الظهور فلما
تولى السودان غوردون الانجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص في خدمته وأجهد النفس
في طاعته قال وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع الى
بلاده وهو أعلم من وطئ هذه الأرض بعادات أهلها وطباعهم وأمبالهم وعدة ما فيها من
قبائل العربان وقد بدأت في أيامه تدب روح الحرية في صدور كبار أشد القبائل بأسا
وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الابيض احدى بلاد
الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بظواهر النساك وتزيا بزى الصالحين واتخذ
له خلوة ورباطا وجع اليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو وأياهم
من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر
ذكره ومال اليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الادرة والدخن والبقر والضأن وتفرقوا
منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الابرار ويحدثهم باخبار الصالحين
ويحذرهم من قرب الساعة ودنو الاجل ويقول اذا عم دين الاسلام واتحدت كلمة سائر
المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان وما زال على هذه الحال
حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدار فور فبلغ عدد من لازم خدمته
ولاذالى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤف باشا معالم الخروج
وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج
فرفع أصحاب الجباية الامر الى رؤف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت الى ذلك ولم
يحفل به فتوزك من هذا الحين محمد أحمد في تحت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة
الى بلاد الدار فور يدعون الخلق الى طاعته ويستميلونهم الى طريقته ويستنهضونهم الى
نجدته واستخلاص البلاد من أيدي الكفرة المارقين فقال اليه ناس كثيرون جدا من أهل
تلك الاصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الانجليز من قبل وواصلوا رباطه بالهدايا
والتحف وصاروا يحجون اليه في أيام معلومة من كل شهر ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة
فأوعز أصحاب الحل والعقد الى رؤف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن يواصل هيئة
الحكومة بأصح الاخبار فأرسل رؤف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار
الضباط الى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما صاروا على
مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وقتلواهم
حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الادبار وركنوا الى الفرار فأخبروا بما حل
بأصحابهم * قال المحدث * فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤف ساكنا ولم يستنهض له
همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم في
الاتبان بمحمد أحمد حيا وكان المهدي بعد أن نظف أصحابه بجند رؤف وسلبوا ما كان

معهم من ذخرة وممناع قد ترفع بهم الى الجبال وسير في طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لخدمته كثير من السود الابطال وخرجوا للقضاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزرية وأبادوهم بحمد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدي فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا في الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فاحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا في طاعته فوقع الوالى في الجبال وبليلة البلبال وكتب الى حكام الدارفور يستفرضهم الى ايقاف تياراته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيل حيث جمع نفرا من العربان وقادهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسيرهم الى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به القلائ وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوت بقوم سلاطين ومعدات حرمهم عزيمته صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحسين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المثات والامناء على بيت مال المسلمين وبالغ في التظاهر بمظاهر الاولياء والصالحين بل الانبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأترون بأمره ويقومون عند اشارته * قال محدثي كل هذا ورؤف باشا كان كن ضرب على سمعه وبصره * ثم تنهد وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال ولسوف يأتي يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس محتلطة بالرؤس يوم تنطبق فيه السنايك على السنايك وتلتقي البنادق بالبنادق والالوف تفتك بالالوف والسيوف تحايط السيوف فآله الله ولا حول ولا قوة الا بالله * قلت وكأن رؤف باشا خشى عاقبة اخفاء الحقائق فجاء منه الخبر الى أولى الامر مفصلا بما هنا لك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا اليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا اليه يقبحون فعالة ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون ارسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على اطفاء نار هذه الفتنة خلعه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبدا القادر باشا أحمد كبار الجند على أيام الخديو اسمعيل فسار الى الخرطوم في نفر من الاتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا

وبينما الناس في شغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعله أصحاب المهدي في كل يوم من القتل والنهب وسبي النساء والاطفال رفع قونصلا الانجليز والفرنسيين في حادي عشر جادى الاخرة الى الخديوى لائحة تتضمن وجوب ايقاف زعماء العصاة ونواب البلاد عند حد عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والاقلاع عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر ووقوع الفلاقل والاضطرابات والاوجب التدخل القوى وايقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودى وأعطاه تلك اللائحة

مطلب

ورفع قونصلا
الانجليز والفرنسيين
لائحة الى الخديوى

فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشناراً وجعلوا يوالون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالي ويسألونه سرعة التدخل في الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوي ويحذره من التكلم في أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الأذن من أمير المؤمنين* واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد للأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودي وأجد عرابي في ذلك فهورنا عليهم الأمر وتكفلاً بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يسكن لهم جاش ونزع الكثير منهم إلى أوطانهم وغير أوطانهم فراراً مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مراكب حرب الدولتين إلى ثغر الاسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى وقد بلغت الوحشة بين الخديوي والبارودي حدّها وتفاقم الشر بين الفريقين * فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوي أحد رجال ديوانه إلى البارودي يقول له تخل عن مسند الرئاسة واعتزلها والا أنزلناك عنها قهراً وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم في بيت البارودي وتماجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون اننا لانزل عن مناصبنا ولو أكرهنا على ذلك واننا نعتبر كل أمر يصدر في هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فإذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الأذى بالأجانب النازلين بيننا كان الخديوي مسؤولاً عن جميع ما يحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوي حتى كاد يتيز غيظاً فلما كان اليوم الثاني الذي هو خامس عشر جمادى الآخرة انقطع البارودي وبقية النظار عن الذهاب إلى تطاراتهم واجتمع نواب البلاد في بيت مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون في أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودي ولبثوا فيه طويلاً وجاءهم أيضاً بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا في ذلك وأكثر قونصلا الانجليز والفرنسيين الغدق والرواح بين مقر البارودي وسلطان باشا ثم جمع إليه البارودي سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامات من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الأبواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين إليهم وتكلموا في خلع الخديوي وتنزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يقبحه ويحذره عاقبته فيرجعون عنه إلى غيره وما زالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها والقاء تبعه جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والقتل بالأجانب والنزلاء في قلب البلاد على شخص الخديوي وأرسل البارودي في الحال في طلب محمد سلطان باشا فحضر معه بعض النواب فاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مقر الخديوي ويعلمه بالخبر وكان ذلك في نحو الساعة العاشرة عشرين فمرا فراجع محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة

الرابعة عربي ليلا فقام محمد سلطان باشا وسار الى مقر الخديوي ولبت عنده الى الساعة السادسة ثم عاد الى بيت البارودي واختلى معه الى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل اليه معرفة الى هذا الحين ثم انصرفوا جميعا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودي سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والاعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالامس فعلت أصواتهم وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلماتهم فارسل البارودي يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه جماعة من نواب البلاد فلم يستقروا في المقام حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيين وطلبوا من البارودي وأحمد عرابي أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند ميسس الحاجة فاجاباهما الى ذلك ثم طفق البارودي يقص على القونصلين ما فعله الخديوي مما يعكس مشروعات الامة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكري وتعضيده لجماعة الضباط الشراكية وارساله ثابت باشا الى دار السلطنة لدس الدسائس وازهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودي وأحمد عرابي ومحمد سلطان باشا طويلا وأخذوا على عهدهما ازالة ما في الصدور وازهاب ما علق في الخواطر وارجاع الحالة الى ما كانت عليه من المودة والصفاء * وقاما من ساعتها ودخلا على الخديوي وكلماه قيل فشكى اليهما ما يلاقيه من البارودي وأصحابه فما زال به حتى هؤنا عليه وخففا عنه وزال بعض ما به من الغضب

مطلب

اشتداد الازمة بين
الخديوي والوزراء
وما كان من وراء
ذلك

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولقيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودي وأصحابه في بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا في أمر الصلح وفي رجوع البارودي الى معاطاة أشغال منصبه رجة بالناس ودفعاً لشبهة الاعداء وطلبوا على هذا الحال الى أن صارت الساعة الثانية عربي ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا الى الخديوي في طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل وقال لابد من خلع الباء ودى من مسند الرئاسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا الى بيت البارودي وأخبروا بما جرى فقال البارودي نقضى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعه ما يحصل من الاخطار على عائق الخديوي وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب الى مقر الخديوي وتقدموا اليه في قبول تنزيل البارودي فقط بشرط أن يتولى الرئاسة مصطفى باشا فهمى فاجابهم الخديوي الى ذلك فساروا الى مصطفى فهمى باشا وكلوه في الامر فامتنع وشدد في الامتناع وقال لا أتولاها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الامور الى ما كانت عليه بل زادت خبالا واشكالا وتعطلت الاشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وبجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط في السوارع والحارات وانبت الجند في أطراف القاهرة وأكثرت صاحب شرطة المدينة

من التطواف والمراقبة وبقي الحال هكذا الى سابع عشرى جادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفيف العلماء والوجهاء وجاعة من الكبراء والاعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم الى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه الى العفو عما فات وهو لا يلتفت الى قوالهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى ما فات وأجابهم الى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمررون وينهون وطبخوا الخبر الى الاتفاق بزوال الخلاف وعود الامور الى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الاسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الانجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثابته اثنتان انجليزيتان وثلاث افرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للخصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كثيرة فاستند الخوف بالاجانب ونزع الكثير منهم من الاسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الاشغال بالاسكندرية * فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان الى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الانجليز والفرنسيين بطلبان فيه أولا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر الى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبته ومرتباته وحفظها عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى الى الاقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هي عليه فان لم يتم ذلك باتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فساله القونصلان فقال لاشأن للدول الأوروبية معنا فى مثل هذه الاحوال وانما نحن تابعون لسلطان فاذا شئ فليخبرن سلطاننا وما ذلك عليهم ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتبه سفن حرب الدولتين فيمفعل ما بدا له فكثير اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا الى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينبج له عمل واشتدت الازمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خاله لنفسه من منصب الرئاسة غاية التبعة ونهاية المسؤولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا وأحجج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا ورسم اليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعته فأصر على الامتناع ولازم بيته فسال اليه قونصل الانجليز وكله فى الامر فلم يقبل فأراه خبرا واردا اليه من صاحب السياسة الانجليزية وترجته بوذنا لويقبل شريف باشا رئاسة الوزراء فتوكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهده

الاستطاعة فقال لالكم ولا للكرامة والله ما توليتها وهي على شفا جرف تتجاذبها الاهواء
واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب
جماعة من ضباط الجند مع طلبه بيك عصمت الى مقر الخديو بسراى عابدين وكانهم
يريدون به السوء فرسم الخديو بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل
حضر فيه نواب البلاد والعلماء والاعيان والوجهاء فكام الخديو الوزير في قبوله منصب
الرئاسة وألح عليه في ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والاعيان والوجهاء فقال أتولاهما
بشرط تنفيذ ما في لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابي من البلاد فعند ذلك قام طلبه عصمت
وقال إنا في طاعة أولى الامر ولكننا لانقبل ما في تلك اللائحة ولا حق للدولتين في طلب
ذلك منا اذ هي أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان
معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل

وظهرت بعد خروج طلبه من مجلس الخديو حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد
الخبر من الاسكندرية بان الجنود المراطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير
أحمد عرابي وانه ان مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكونون مسؤولين عما
يحصل بالاسكندرية فازداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم
قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابي في هذا اليوم على مرا كز الجند بمعاقل العباسية وطره
وقصر النيل وقلعة الجبل وفي غروب اليوم أرسل الى محمد سلطان باشا في طلب سائر نواب
البلاد فاجتمعوا في بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابي في نفر من الضباط والجند وأحاطوا
بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابي فوقف في وسطهم وعلى يساره محمد
عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوي وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد
والتعاون على خلع الخديو ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقيج ما وقع من الخديو
ويعدد مساويه ومعايبه ومعائب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم
وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج
فصاح أحمد عرابي ما بالكم لاتسمعون وكانكم خشب مسندة ان كنتم لاتنادون بخلاعه فخنن
قد خلعهنا قد خلعهنا فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعهنا ثلاثا
وكان من حضر في مجلسهم تلك الليلة الشيخ الجراوى مفتى الحفانية فقام ورد على أحمد
عرابي وكاد أن يوقفه فتقدم اليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجه فزقها فصاح الشيخ
في وجهه وصاح جميع الحاضرين سواستل محمد عبيد سيفه وأقسم انه يقطع عنق سلطان
باشا ومن لم يناد بخلع الخديو من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم
نفسه من الشبايك وعلا الصراخ في بيت نساء سلطان باشا فلما منهن بانه مات ذبحا وتراخ
الاتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند ندفعهم عن الابواب وما زالوا على هذه الحال من الجلبة
والصياح الى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابي ومن معه وهم يرددون ويريدون

مطلب

ما جرى لنواب

البلاد من أحمد

عرابي في بيت

محمد سلطان باشا

كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديو بما جرى في بيت محمد سلطان باشا في تلك الليلة فارسل الى الباب العالي وديوان المهابين الهمايوني يقول ان الجنود المصرية لم ترض عن تخلي الوزراء عن مناصبهم وان مقدمي الجنود والوزراء أقاموا الجثة على لائحة الدولتين فأتى اليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بإرسال وفد ليرى في الامر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديو بدا من استبقاء الوزراء في مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتي وفد السلطان فعاد أحمد عرابي الى تعاطي الاشغال وكتب الى سائر قناصل الدول يطعنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالي البلاد والأجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضا ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد الا أمورا ثلاثة * الاول منها إعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب * وثانيها وضع قانون أساسي تبيين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء * وثالثها قطع المخبرات والعلاقات مع دولتي الانجليز والفرنسيين خصوصا وسائر الدول عموما الا بواسطة دار السلطنة العثمانية * وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دولة الانجليز الى قونصلها بمصر تقول انها لا تألوا جهدا في الذب عن مقام الخديو والدفاع عن نفوذه ما استطاعت

مطلب
قدوم المشير
درويش باشا

فلما كان عشرون من رجب دخل ميناء الاسكندرية مراكب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل في سراي راس التين برهة لطيفة ثم ركب منها الى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر الى القاهرة فكان في انتظاره على محطتها فريق من الجنود ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الاصطل الخديوي فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الشرطة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وباب البحر والاطراف وتراحموا أمام الجنود وهم يضجون ويصيحون ببذاء القول وخش الكلام وأحاط بجماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون بأصوات مزعجة نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار أناكم الموت يا كفار أناكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السباب واللعن وإشارات السخرية والاستهزاء * قبل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك فقالوا له هذه عادة العامة اذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار بصرفهم فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والتسداء بعضهم على بعض وايداء المارة من الاجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير الى المكان الذي أعد له فوقفوا أمام بابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك وهم في شغل مما عساه ان يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ في المسكلة مع أحمد عرابي وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلا وكانوا اذا أغلظوا في القول

مع أحمد عرابي وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودي قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وما هي الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع في جوف البلاد ولله الحمد ما يكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أبانما على غير جدوى

وكان منذ قدمت سفن حرب الدولتين الى مدينة الاسكندرية قد أخذ الاجانب يفدون عليها أفواجا أمواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم واذلالا وظنوا ان الاجانب انما يريدون باهل البلاد الشرفاظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا في مخاطبة الاجانب فكان اذا كلم الواحد منهم أجنيا هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الاجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العقابة فأخذوا في التأعب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماءهم بعض الاقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان * قيل وشاوروا في ذلك أميري مراكب حرب الانجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وارسلوا رجلا منهم الى القناصل بالقاهرة ليسألهم في ذلك أيضا فلم يوافقوا عليه واشتد تحذير الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الاجانب في الليل وامتنع جلوسهم في محلات اللهو واغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية * فلما كان يوم الاحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيوس سنة احدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الاجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الاسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع ابراهيم وبايديهم العصي والهرأوى والمساوق وحطب الوقود وهم في ضجة وجلبة عظيمة ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكانهم كلوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالاجانب ضربا وقتلا فترامح الناس الى الحوانيت والبيوت وتسابق الاجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا اذا رأوا أجنيا تراحوا خلفه ونزلوا بالعصى والهرأوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون مامعه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أخشوا في القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب ما فيها فكثرت الصباح من أقصى المدينة الى أقصاها واشتد البكاء والعويل وضاعت الارض في وجه الاجانب ولجأ بعضهم الى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جنود المستحفظة بسنابل البنادق فقتلوه عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطاقات الغوغاء جميع حارات الاجانب فكان اذا رأى الاجنبى نفرا من هؤلاء الاخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه في الحال وتخللات قدماء فاذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماء فيعبدو وعدو الغراب خطوات ثم ينسكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصي والنباييت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات في ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الاجانب ووجهائهم * وكان مقدم جند الاسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل

مطلب

حصول المقتلة التي
عرفت بمقتلة حادى
عشر جونيوس وما
كان من وراء ذلك

اليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة في طلب المدد من الجند ليستعين بهم على ايقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض في ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فارسل سليمان بيك يقول لادخل لى فى شئ من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الاخبار الى القاهرة عما وقع فورد الامر مر أحمد عرابى بقبام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع واخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت الى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وعزقت اللوم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر بجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرق وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلاثمائة قتيل وقيل غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس الى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الالبناء على آبائهم متتابع فكانت حادثة يالها من حادثة لم يسبق لها مثيل الا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة ١٧٩٨ ولما علم من مصر والقاهرة بما وقع بالاسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالاسكندرية الى موارد الاخبار يسألون وعم الخوف والاضطراب وباتوا وهم فى كمد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلوه فى الامر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه باضرار نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى اذ لولا حضورك فى هذه الظروف ما أريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الاجانب الذين فى داخل البلاد قيل فاضطرب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للعداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديو ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثماني والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ ورد على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الاجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر اليه متعلقا بالامن فاجابهم أحمد عرابى الى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ما طلبوه وبملاحظة طاعة الخديو والسيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل الى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب الى سليمان بيك داود مقدم جنود الاسكندرية يستحثه الى الالتفات ومنع وقوع شئ من الحوادث والقلاقل وبذل العناية فى ملازمة جنود الاسكندرية لحدود الطاعة والامتثال

ورسم الخديو بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا المين رحيل الاجانب عن الاسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات الى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن واقرى وزح أيضا العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام

الخديو الى الاسكندرية في سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بمقره برأس التين استدعى اليه قناصل الدول وحادثهم في أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلهم كذلك درويش باشا وهون عليهم ونفى قونصلا الانجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا مع الخديو الى الاسكندرية الا باجازه من حكومتهم بما بعد أيام فلما قدما الى الاسكندرية أوعزا لى سائر قناصل الدول بالتشديد على رعاياهم بالخلاء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالباس وتزل من بقى من الاجانب اى السفن الراسية أمام الاسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها فجاءتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا عما عساه أن يقع

حدثني صاحب لى كان لا يفارق باب الخديو فى هذه الايام قال دخل المراقب الانجليزى يوما على الخديو وقال له هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند مسيس الحاجة قال فتأفف الخديو وقال أنى يكون لنا ذلك ولم نرمهم الى الآن الا العسف على أنى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف الا باستجداد أمير المؤمنين فيرسل اليها فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند مسيس الحاجة ولم أرى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيها وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيأ مذكورا * وشاعت هذه الاقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا الى الخديو فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تغلغ فى تدارك الخطر قبل استفعاله فاجابهم الى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه * ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة اسمعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطبروا الخبر بذلك الى الاتفاق فاستغرب الناس هذا الامر وكثر تحدثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم الى الخديو فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الاخيرة الا من كان لهم يد فى مذبحه الاسكندرية وقال للخديو انما نريد بذلك تطيب القلوب المتنافرة فيعود الامن وتزول المخاوف وترجع الاحوال الى سابق مجراها فاجابه الخديو الى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدد فى تحقيق حادثة الاسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى انحاء البلاد ليجأوا بالكثير من السوق والغوغاء والجارين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة قام بهم فالوهم فى حبوس الاسكندرية حتى غصت بهم وضائق وجعل الخديو يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها نظمينا للقلوب وتسكينا للتخاطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء لاجانب عن لبلاد متتابعاً

وتقدمت الدول الاروبية على يد سفرائها الى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار

مطلب
تشكيل وزارة
اسمعيل راغب باشا
وما جرى بعد ذلك

السلطنة للبحث في أنجع الادواء الحاسمة لاسباب الفتنة بديار مصر وايتاف أصحابها عند
 حدهم وشددوا على الباب العالي في طلب ذلك فامتنع وقال ليس في الامر شيء مما تخافون
 والانبياء متواصلة من درويش باشا باستتباب الامن ورجوع سائر الامور الى سابق مجراها
 فأبى كبار سياسة الانجليز الا عقد ذلك المؤتمر والباب العالي يطاول ويحاول ثم استعان بدول
 لروسيا والمانيا ويطالبوا فاعانوه وقاموا لصرفته خوفا من مطامع الانجليز في مصر فأنست
 دولة الانجليز منهم ذلك وكتبت تقول انها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر مع سائر الدول أن
 لا تعمل قط على قصم عرى الصداقة التي بينها وبين الباب العالي ولا تعمل على ضم شيء من
 أراضيها الى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط
 في الحصول على شيء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها في ذلك بقية الدول
 فأنحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالي فأصر على الامتناع فلم تلتفت اليه
 الدول وعقدت المؤتمر في قسطنطينية في سابع شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين فلم
 يحضره أحد من جانب الباب العالي فتقررت القاعدة بينهم على ان الحكومات التي وقع
 وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البر وتوكل (يعنى المحضر السياسي) تتعهد أنها لا تقصد
 قط اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات مالا
 يكون لغيرها من رعايا الدول الاخرى في مصر وذلك في جميع المسائل التي حصل التوافق
 عليها بسعيها واشتراكها في الخبرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة * وجعل
 الانجليز من هذا اليوم يعذون المعدات ويجهزون الجنود ويجعلون سمن حريمهم على قدم
 الاستعداد ثم دعوا بقية الدول الى الاشتراك معهم في عمل يكون من ورائه إرهاب أصحاب
 الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو انهم يسرون معا الى الاسكندرية فريقا من الجنود
 والعساكر لارجاع الأمن والراحة الى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك ولكنها تعافلت
 لاسباب لم تصل اليها معرفتنا لغاية الآن * فلما رأت منهن هذا الاجسام أو عزت الى
 قونصلها بمصر وهو المسترمالت فتمارض ونزل الى احدى سفن الحرب الانجليزية الراسية
 أمام الاسكندرية ولبث بها أباما والناس يتساءلون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر بقيامه الى
 برنديزى احدى موانى البحر الابيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة وقالوا ان قيامه
 في هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق المدافع على
 حصون الاسكندرية * وبينما كان مالت قونصل جنرال الانجليز بعيدا عن مقر وتظيفته
 منزويا في برنديزى كأن لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير الانجليز في دار
 السلطنة يغرب بالباب العالي ويزين لرجال المايين استرضاء أحمد عرابي بأهدائه شيئا من
 نباشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلم سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابي بالنيشان
 المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك الى القاهرة ففرح أحمد عرابي وأصحابه وظنوا أن ذلك من دلائل
 رضا السلطان وارتياحه الى ما هم عليه من مخالفة الخديو والدولتين ولم يعلموا ما في ذلك من

الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الانعام وفصلوا فيه وقاسوا وحاطوا
 فنقله أصحاب الصحف الانجليزية ونادوا بالويل والشبور وقالوا انه لبرهان جديد على عدا
 السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمر كبار سياستهم على احباط اعمال المؤتمر
 الدولي وتقدموا الى بقية الدول في رفع لائحة الى الباب اعلى لي يطلبون فيها لما أن يسير
 جنوده الى مصر لانجاد نار الفتنة وارجاع الامور الى سابق مجراها وإنما أن يترك الدول ترى
 رأيها في ذلك فامتنع الباب العالي وقال لاداعي لارسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب
 الانجليز امتناعه ووافق ما في نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان الى مصر
 ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا في الحال الى أمير سفن حريمهم الراسية أمام
 الاسكندرية أن يتجمل أقل العزل والاسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون
 الاسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابي قد قدم من القاهرة الى الاسكندرية في حاشيته
 وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقرين اليه فاستقروا بالترسخانة وكان في حصون
 الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن الى أحمد عرابي يقول ان
 الجنود المصرية آخذة في تحصين سائر القلاع والقاء الاجار الكبيرة في مدخل المينا
 ليسدوه ويمنعوا المدد فينحصر الاسطول وان في تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات
 مع وقوف سفن دولة الانجليز أمامها عارا وتحقيرا فان لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت
 عليها مدافعي وأصابها نارا حامية * وكان طابع عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر
 ذلك فكتب الى أمير السفن يقول ليس في الأمر شيء مما تقول وان حصوننا وقلاعنا هي
 في حالة لاستدعى عملا ما فعاود سيمور الكلام وأغلظ في القول وقال لا بد من جلاء
 العساكر المصرية عن طابقي الانفوشي والبرج واحتلال الجنود الانجليزية لهما فلم يجبه
 طلبه الى ذلك أيضا فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلًا بانوار الكهروم التي كانت
 تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف الابصار وتهزلها القلوب وشاع خبر ذلك
 بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الاسكندرية الى القرى والارياف البعيدة
 وكثر تطواف أحمد عرابي في الشوارع والطرق وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق
 وأرسل سيمور الى الخديو على بنى كوافن مراقب الانجليز يقول له اترك المدينة وانزل
 الى احدى السفن كي لا يصيبك شيء مما عسى أن يحصل باسباب ضرب القلاع والحصون
 فلم يقبل وقال عار على أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياي المخلصين فألح عليه
 كوافن فامتنع وقال لا يحل لي أن أتركهم في وقت الشدة ولا يحل أن أترك بلادى في
 ساعة الضيق * وتداخل قناصل الدول في الامر وسعوا في الصلح بين سيمور البحر وعرابي
 البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأثمهم في كل يوم بطلب جديد فإذا امتنع أحمد عرابي من
 تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابي محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء
 والقبور وقال عن سيمور انه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وأنه أهان المصريين

واحتقرهم ولم يراع للهيشة الحاكمة حرمة ولا اعتبارا ولذلك وجبت مقاومته جهده
الاستطاعة وانه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد الى أحمد عرابي ومن معه من كبار الجند
المصري ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت
الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قبل ودخلوا بها على الخديو أيضا فلم يردا من التوقيع
عليها ثم أرسلوا هذه الورقة الى سيمور البحروسيير في الحال أحمد عرابي الى سائر المديرين
والمحافظين يعلمهم بان يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لارسال المدد من المال والرجال
عند الطلب واكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخيرة ومعدات الحرب
فلما كان يوم الاحد ثاني عشر شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديو
بمقره برأس التين وقال ان الامير على عزيم اطلاق المدافع على الحصون في صبح الثلاثاء
رابع عشر الشهر وقد جئت أسألكم أن تتقبلوا من سراي راس التين الى سراي الرمل
تحرزا مما عساه أن يحصل من رعي القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وتأوله
خطابا يقول فيه * انك أنت المطالب بحياة الخديو وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فاحذر
العاقبة والسلام * وفي صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل الى راغب باشا رئيس
الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكتابة يقول فيها * حيث قد انسحب قونسلتنا من الديار
المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التي كانت بين
حكومة جلالة ملكة الانجليز والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان * فلما
شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد حلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل
الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الارتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام
الاسكندرية واشتد الهرج والمرج في الشوارع والطرقات وأغلق في ذلك اليوم ما بقى من
حوانيت الاجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة الى بابي رشيد وسدره فارتين
الى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيين في مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى
مركبين تحت طلب قنصل جنرال الفرنسيين فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تسأل
الناس عن سبب ذلك فاختلقت الأقوال فمن قائل إن خروجها كان لخلاف وقع بين أميري
الاسطولين ومن قائل بل بين الدولتين ومن قائل لكره الفرنسيين لقتال المصريين وغير ذلك
من الحسد والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيين هذا الأمر وعذره فلتة من
فلتان سياستهم المخوفة بالطيش والخفة وقالوا سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيين على
ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذروهم وامتناعهم من الخروج من
دورهم في الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية

مطلب
اطلاق سفن سيمور
مدافعها على قلاع
وحصون الاسكندرية

ولما كانت الساعة الاولى من يوم الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين
وألف هجرية أي صباح الحادي عشر من يوليوسنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية
صوب سيمور أفواء مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل اطلاقا متتابعيا

فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمي من الفريقين ووصلت قنابل السفن الى القلاع والحصون والسيوت وضواحي المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكاً فلما اشتد الرمي وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت في الاطراف واختلطت بالجنود وهم في جلبة وصياح وتزاحوا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان اذا هم الجند يتصويب مدفعه نحو سفن الانجليز هالوا وصاحوا ونادوا بأهل بيت رسول الله * يا شيخنا يا أباصيري * يا سيدي يا قوت يا عرشي * وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الاشايير باليارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر ناحية السيلة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم بيا لطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوقون اليبارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شياً من القنابل الصغيرة تساعا فزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم الا من كان بعيدا واشتد الرمي من السفن وتراسل فاقصت نيران احدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والنصف لحومهم وما بقي من مشاهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتتفتت من هوله الا كباد وما زال الرمي متراسلا من السفن والحصون وأجد عرابي لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشئ مما هو جار في غيرها من بقية القلاع قيل وكان لاهم له في ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الاوراد وتحريك أصبعيه على مسجدة كانت بيده * وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد نخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمي القنابل وقطعها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالابل الآبقة فلما كان وقت الظهر بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقي من القلاع رايات بيضاء اشارة الى الكف وطلب الامان فانكفت السفن عن الرمي وخرج حينئذ أجد عرابي من مخبئه وسار الى مقر الخديو بسرأي الرمل فسأله الخديو عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة الا بالله فلم يبق في قـررتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن * فلما سمع الخديو هذا الكلام كبر عليه الامر واستعظمه وكان معه بالسراي يومئذ عثمان باشا واسماعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استون باشا ورئيس أركان حرب الجيش على عهد اسمعيل باشا وفريدكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم اليه وعقد في الحال مجلسا منهم وكلهم في الامر كثيرا فانفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا الى سمور أمير السفن ليجابره في الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديو بان سمور يطلب ان تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة والا فانه

يعاود الرمي بالتقابل بعيد الظهر قال فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فأمر الخديو عند ذلك بالجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لا يصح قط للخديوية المصرية الترخيص في نزول جنود أجنبية في قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالي وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه الى سيمور السفن

مطلب
جلاء الجند والناس
عن الاسكندرية
وما حل بالنساء
والاطفال من جراء
ذلك

وأخذ من بقي من جند القلاع والحصون في الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الاموات والتخنة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد الى ناحية الملاحة وجسر النواتية وتتابعوا في الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية ورسم الى بعض الفرسان النداء في الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به ما يكره فكثر النداء في الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكان على رؤسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرؤس * فكانت الاطفال تبكي وتصيح والامهات يولون والرجال تتسابق وتترامح وهم في دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوت لا يحملن من متاعهن سوى الماء زروما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثون الى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس الا وقد غضت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والاطفال وهم في أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا اليه وانتشر العربان حول تلك الاطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم فعلا عند ذلك الصياح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهم بالرجوع الى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكن اذ بانث طلائع زمر الاخلاط والخوافيش يحملون المنهوبات من الحوائث بالمنشبة وشارع شريف باشا والمسدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات والفخر المنبوسات وأثمن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأنات البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجلب عن الحصر وهم في ضجة وجلبة عظيمة وأكثرهم ملطخ بالدم * وكان لما أخذ الناس في الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تناولت أيدي العامة الى سرقة بعض الشيء من ذلك ولم تكدر تصل اليه أيدي البعض الاخر حتى رز سليمان بيك داود في ميدان محمد على قبل ونادى في الجند والعامة بكسر حوائث التجار ونهب ما فيها واضرام النار في المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوائث بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرار والمقصبات وأصناف الاقشة الغالية والمجوهرات والمصوغات وكل ما وصلت اليه أيديهم وكان الرجل منهم اذا حل شيئا من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله

ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شئ لا يستحق بعض قروش والنحدر
العربان من السيوف والرمل والمنذرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا في المدينة انبثاث
الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالابكار والامهات قسرا وعاثوا فبين خرج من الناس الى
الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء باطلاق البنادق
والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان
يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية فلما كان بعد الظهر بساعة
أضرموا النار في الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفي
تلك الوكائل العظيمة والمباني الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر الى عنان السماء وأظلم
الجو وامتلاء بالدخان واسود وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند بطوفون ويريدون النار
اضراما باراقة زيت البترول على ما لم يشهد منها لهيبه والعامه يسكرون بين النار وهم
يحملون المنهوبات والناس في بكاء ونحيب والاطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصبحون الماء
الماء * ودخل الليل فكان المنظر أشد هولاً وازعاجاً فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة
وبقي الجند والنهابة على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالابكار والنساء كرها الى
صباح اليوم الثاني فاحذوا في الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شئ يخاف
عليه وتبعهم من كانوا بالبواب الجديد فرارا من العربان الضاربين حولهم كالوحوش الخائفة
وأمر أجد عرابي فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس الى سائر البنادر والقرى
لحد القاهرة وأرسل في يوم الخربق أصحاب الزعامة الى مقر الخديو بسراى الرمل جماعة من
الفرسان يبلغ عددهم زهاء الاربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل
جانب وعلم الخديو بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم انما جئنا
لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها * قال بعض الكتاب ولم يكن الامر كذلك فقد
كان حضورهم لاضرام النار في السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين الى
قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين ونجسين فسير
عند ذلك الخديو الى منيب افندى مقدمهم يدعوه الى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فاذعن
وتمثل بين يدي الخديو وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضا
وحلفوا بين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديو وقاموا بخفارتهم

ودخل في ذلك اليوم على الخديو بحفاظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من اضرام النار
بالمدينة ونهب حوانيت التجار والنحدر العربان من الاطراف وما فعلوه من القتل والنهب
والعبث بالابكار وما الناس عليه من الشدة بسبب اكرامهم على الخروج من المدينة فبكي
الخديو وطرق كفا لكف ورسوم الى اسمعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحدر ومنع العامة
من النهب ورد العربان الى منازلهم فأنحدروا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يفلحوا * وأرسل سمور
البحري في سادس عشر شعبان يعلم الخديو بأنه على عزم أن ينزل بعض عسكره الى سراى رأس

مطلب
ارسال سمور الى
الخديو في طلب تركه
مقره والاقامة
بأحدى سفن
الحرب

التي لحراستها ويطلب اليه أن يأتي إلى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديو وقال أني أفضل البقاء في مقرى برأس التين بين رعاياي الأمناء على البقاء في سفينة الاميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل في عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاء يشبه ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمباني التي دمرتها النيران فلما رآه العامة ظنوا أنه أحد عربى عائذ لقتال الانجليز فصاحوا الله ينصرك يا عربى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الاميرال سيمور في نفر من الجنود الانجليزية يبلغون المئمة مقاتل وأصعدوه إلى السراى بخافس وجلس معه سيمور يتحدثان فيما لم تصل اليها معرفته لغاية الآن * فلما كان غروب اليوم نزل أيضا من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا إلى مقر الخديو وهنؤه بالسلامة وبأنوا ليلتهم تلك وهم في تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره إلى البحر ورسم لهم بالتطواف في المدينة فجعلوا يطوفون في الشوارع والحدارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا إذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلقط ما بقى من النهاية رموه بالبنادق وشدوا في ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان إلى ثاني يوم الحريق لم يبق في المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر الا انسحب إلى حجر النواتية وامتدوا منه إلى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون إلى الله من هول ذلك اليوم العصيب

وقد نظمت قرائع بعض الادباء في حريق هذه المدينة الآهلة القصائد الرنانة فيها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها

اسكندرية هذه أحلام	أوقد قضت فيما نرى الأيام
ما هذه الأحوال يا نغر الغنى	حارت بها الافكار والأوهام
أن تكون قاعا بلقعا منشبة	ان العمارة بعدها لحرام
أوتنظر العينان أبهج بلدة	أضحت رمادا والسماء قمام
أحرق أعرايى نغر بلادنا	والله قد حاطت بك الآفام
ياليت شعري ما اقترفت فانه	ماسام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا	اسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

(وقال أحد الادباء أيضا في هذا المعنى)

تفطر القلب من حزن ولاعجبا	والدمع فاض على الخدين منسكبا
اسكندرية ما هذا الخراب وكم	من نكبة بك قد حلت فوا حبا
قتل وموت وتدمير مهاجرة	سلب ونهب وكف للنساء سبا

قد كنت راقصة مثل العروس وما
 وكنت بالامس مثل الشمس مشرقة
 ماهذه الحال في يوم ولينته
 يبكبك دان وقاص والدموع دم
 (وقال طيب الذكر أديب
 عجب بي على تلك الطلول ونادى
 هل صادهم شرك الردى فأبادهم
 أم غاروا الاوطان في أوطانهم
 وسل الرسوم وان خلت عنهم وما
 خلقتهم في جهنم ميتا فهل
 أم جالوه اديف صبرى والمنى
 أم غادروه رقيق وجدى والضنى
 ياوارد الاسكندرية طامعا
 أقصورها خفيت عن الانظار أم
 أم تدمر قد دمرت وعمورة
 هذى عروس الشرق ماتت فاكسى
 بالامس كانت والبياض دنارها
 كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
 كانت موارد للظماء وقد غدت
 كانت مراتع نعمة فغدت وما
 كانت وكان الدهر يسعد أهلها
 كانت وكننا لا ينم حسودنا
 كانت وما تخشى بواذر ضدها
 قامت على أفصى العماد تزين ما
 فأبادها جهل خفى ما بدا
 جهل الذى رام الامانى وهى فى
 وعدا ومالقي الثعالب عـره
 وسعى الى الشورى ولكن خالها
 وعلى المساواة ابنتى هدم الهنا
 وقد ادعى فى عسفه حرية
 والى الاخاء دعا فنال بفعله

أصبحت شكلى فلا حظا ولا طربا
 فناء كل ضياء عنك واحتجبا
 يحل فيك مصاب قط ما كتبنا
 وقد كوت نارك الالهين والغربا
 أفندى اسحق فى ذلك أيضا
 أنى تحمل أهل هذا النادى
 صرف أناخ على ثمود وعاد
 مذ حاذروا غدر الزمان العادى
 فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادى
 أحياه أم حياه أهل ودادى
 ونجلى وتعالى ورقادى
 وتلهى وتذلى وسهادى
 بنافع الاصـدار والايراد
 آثار قصرى فى التفار بوادى
 ماعـسرت أم دار ذى الاوتاد
 حزننا عليها الغرب ثوب حداد
 واليوم صارت أرسما بسواد
 والخوف منه مبعـد القصاد
 ما ان بهـما من مورد للصادى
 فيها سوى البأساء للمرتاد
 فأصابها بالاھـل والاسعاد
 صارت وصرنا راحة الحساد
 فغدت ترجى رجسة الاضداد
 تحت التى رفعت بغير عماد
 مثل له من حاضر أو بادى
 قم الجبال وكان دون الوادى
 يبنى اقضم عـرائن الاساد
 لما تهتك برقع اسـتبداد
 لما نساوى حربه بفساد
 يامن رأى حرية اسـتعباد
 من قومه مالم يناله العادى

شقيقت برئت من الجوع وطالما
 وتلاه في سبيل الغواية معشر
 غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا
 وسعوا فسادا في البلاد كأنهم
 خلعوا الشعار المستعار من الحيا
 وتخيّلوا أن الطريق خلت لهم
 فأناهم رعد المدافع مبرقا
 وسطوا على المستأمنين خيانة
 ورموا بنارهم الديار وبددوا
 نكر عرفنا منه أن لبعضهم
 ونقيصة يسعى بها أبناءهم
 أسفا على تلك القصور فانها
 أسفا على من قاده استسماؤه
 أسفا على قوم أناهم بقاء
 فتسارعوا طلب النجاة من الردى
 ياهولها من ساعة مرت بما
 كم حامل خرجت بها محمولة
 ومصونة نفسا تقول لصحبها
 لطخت بأثار الولاد وما درت
 دمياء ما يدميه لمس حريره
 ومعر لم يبق في الدنيا له
 ومريض قوم غاب عنه طبيبه
 خرجوا وهم لا يهتمون سبلهم
 ودموعهم والنار في أحشائهم
 فكأنهم لم يبل بسدو نالها
 تعلو وتهبط جانحات لا ترى
 أو أنهم قصدوا الصبح فجاءهم
 شهد الوبال ولم يجد من منجد
 فتفرقوا والهول ملء قلوبهم
 أو أنهم أهل القبور تيقظوا
 نشروا عراة واجفين فيومهم

أشقت جموعا زلة الافراد
 زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
 مما جنوه غير شول قتاد
 والحادثات أتوا على ميعاد
 فتقمصوا عارا الى الأباد
 فسعوا فكان العدل بالمرصاد
 فنبوا عن الأبراق والارعاد
 لم تشف منهم غاية الاحقاد
 ما استجمعت من طارف وتلاد
 بز اللصوص وبزة الاجناد
 لمقابر الآباء والاجساد
 كانت منى الزاد والرواد
 للفاتكين ولم يجد من قاد
 صوت المنادي بالبلاء ينادي
 بنفوسهم والاهل والاولاد
 زهقت به الارواح م الاجساد
 فوق الكواهل أو على الاعواد
 باليتقى قدمت قبل ولادي
 جسدا تاطخ قبله بجساد
 طفل قريب العهد بالميلاد
 غير السكينسة من منى ومراد
 وجفاه أنس الاهل والعواد
 والنائبات روائح وغوادي
 حلت محل مرادهم والزاد
 ألم السعوب وحاد عنها الحادي
 من بلغسة في أنجد وهاد
 في بقاء منهم طريد طراد
 فأغمد في الاتهام والانجاد
 يقتادهم زمرا بغير قياد
 سحرا بنفخ الصور بعد زفاد
 يوم المعاد أتى بلا ميعاد

والنار موقدة سرت من خلفهم والجند شردهم قتال عدوهم ونضوا على أهل السبيل بواترنا
قد حذيت شفراتها لكنها ولرب عاد منهم في رعدة سكنت فرائسه على نهب الحى
ومرأس حيث الجواد وخلفه عدم الرباط فشده بنجاده فهم اللصوص وانهم قدأوهما
وبلادهم قد نالها من عارهم عيت فلولا السابقون ومجدهم ومسؤيد ملك أمير عادل
وعصابة كانت قلائد فضلهم لم تلف في مصر ومصر عزيرة الا وقد ولي الشريف أمورها
مولى له في النفع رغبة طامع وهو الذى ينجبا ليوم كريهة واذا بدا من ليل خطب رأيه
يا حازر المجد الرفيع وجامع الفضل الصديق وواحد الآحاد يا جالب النعم العظام ورافع النقم الجسام وموئل القصاد
الى أن قال

بيضت بالنمسه أباى وما جالت فأصبغ عرقها بسواد وبلوتنى فرأيت منى صادقاً
وجيتنى والنائبات مله ونصرت ضعفى والزمان معادى
وظهرت فيك بكل مدح صادق صرف وما جرى كمين رما
وقد اعتذرت وماورا متصلى فى القلب غير أمانة ووداد
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدى واذا رضيت فذاك كل مرادى
يا صبح كل مؤتمل يا نجيح كل توسل يا مورد الامداد
لولاك ما أحييت ليلى ضاربا فى الشعر بالاسباب والاوناد
وصفا لما يجرى الدموع أقله ويقل فيه تفتت الاكباد
فلقد هجرت الشعر لما أن رى ضعف السليقة سوقه بكساد

واستامه من ليس يفرق بين ما يفنى ويبقى على الانشاد
 اسكن رأيتك بانصيري جامعا نقد البصير ودقة النقاد
 فنظمته نظم الفرائد مثل ما انظمت لديك قلائد الارفاد
 الى أن قال

زعموا بان سريري قد كدرت فلان يصافي بالجبل يصادي
 فبعثت صافي الشعر يثبت صفوفها ولو استطعت جعلت فيه فؤادي

انتهى

مطلب
 تأهب أحمد عرابي
 وأصحابه للقتال
 الانجليز في البر

مطلب
 خداع بلانت
 الانجليزى لاحد
 عرابي واغرائه على
 قتال الانجليز

وأخذ أحمد عرابي وأصحابه في التأهب والاستعداد للقتال فأرسل في طلب الجند ومعدات
 الحرب من مؤن وذخيرة وسير في طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون والجواسيس
 الى أطراف الاسكندرية ليأتونه بالاخبار وأرسل الى القاهرة مكاتبة يقول فيها * اننا سنقاتل
 الانجليز دفاعا عن الدين والوطن فجهلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المطهر فعلم الخديوي
 بذلك فأرسل اليه يأمره بالامساك عن جمع الجند واعداد المعدات ويقول له لاختصومة قط
 بين بلادنا والدولة الانجليزية وان أمير سفن الحرب يقول انه على أهبة تسليم المدينة متى تم
 ترتيب القوة الحافظة لهما واستتب الامن فيها وسأل أحمد عرابي أن يسرع بالحضور الى
 رأس التين ليكلمه في الامر * وكان لما خرج أحمد عرابي من الاسكندرية بعد تلك الخطوب
 والنقطوب المداهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الاجانب وبينهم المستر
 بلانت الانجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابي اذ ورد خطاب
 الخديوي بما ذكر فأراه الى بلانت وشاوره في الامر * قال بعض الكتاب فقبح له بلانت العمل
 بمشورة الخديوي وحجب اليه مقاتلة الانجليز حتى يذعنوا وقال ان الانجليز ليس لهم عسكر برى
 منتظم يقدر على مقاومة العساكر المصرية وان الدول كافة لا تترك الانجليز وشأنهم في هذه البلاد
 فهن للانجليز بالمرصاد فإياك وأن تخدعك طواهر الخديوي وأمير السفن وثابر على القتال
 حتى يعملوا أن في هذه البلاد رجالا * قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت وتغيرا
 فاعتبر أحمد عرابي وهان عليه كل خطب وكتب الى الخديوي يقول اني لم أقاتل السفن
 الانجليزية بجند القلاع الا بعد أن صدر لي بذلك قرار مجلس الوزراء فاذا كان أمير السفن
 قد رغب الآن في الصلح بعد انتشار القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب لا ينبغي كون
 الحرب قائمة بيننا وبينه واني لأرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد
 والحكومة فاذا أراد الامير تسليم المدينة فليسلمها وليعجل بسحب مرآكبه عن الاسكندرية
 أما الاستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولا بد منها حفظا لشرف البلاد مادامت السفن
 الانجليزية على سواحلها قال ولا يمكننى الرجوع الى الاسكندرية وألقى بيدي الى التهلكة
 مادام الانجليز بالاسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء الى مقره بكفر الدوار لينشاوروا
 فكبر الامر على الخديوي ومنع من ارسال أحد الى كفر الدوار وراجع أحمد عرابي وشدد

في ذلك فلم يلتفت أحد عرابي الى قوله وتجرد الى العداوة والبغضاء وأرسل في الحال الى يعقوب سامي باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخدوي ومن معه ويرميهم بالتهمة الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول انه هو الذي جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وانه يطلب لذلك عقد مجلس من علماء الازهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والاعيان ابروا رأيهم في خلع الخديوي وقولية من يصلح لتدبير شؤون البلاد فجمع يعقوب سامي باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والاعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم في غرة رمضان برئاسة حسين درامي باشا الذي كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أجد عرابي وكان المكان غاصا بجمهير الناس حتى السوق والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارئ كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يهتفون مافعله الخديو ويرمونه بالمروق وكان بينهم الشيخ عابش المغربي الازهرى شيخ المالكية فوقف في وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه يا قوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثر عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحورق وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا الى الاسكندرية وفدا ليرى أولا ما يدعيه الخديوي على زعماء العصاة عموما وأجد عرابي خصوصا وثانيا ليحقق ما اذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الاخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورؤف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشمانى والشيخ على نابل والشيخ حمد كبوه فساروا الى كفر الدوار واجتمعوا بأجد عرابي وحدثوه بما جرى فسرهم الى الاسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها الا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدي الخديوي وقصوا عليه جميع ما وقع فساءه الامر ورسم بخلع أجد عرابي من منصب الوزارة وطهر الخبر بذلك الى الاقاق وكتب الى دار السلطنة يخبر بعصيان أجد عرابي وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان في هذه الاثناء قد ورد مرسوم السلطان الى درويش باشا ومن معه بالعود الى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الانجليز من المايين مأربا فعادوا وكأثمهم عاقابهم انه لم يحضروا الا لتضرب الانجليز حصون الاسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكان أجد عرابي يعلم سر بعثتهم فلم يطع للخديوي كلمة وقد أخذ في اعداد معدات الحرب والذخيرة والتع في جمع العساكر والاجناد وانشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحه الاسكندرية وعالج سدة ترعة الاسكندرية لمنع الماء عنها فلم يفلح وسير الى القاهرة بشدد في طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين وقد وصل الى القاهرة مرسوم الخديوي بخلع أجد عرابي من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رجلي أعماله وتنصرم حزمة آماله فأدرك يعقوب سامي ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا في المجلس المنعقد في غرة رمضان وتلا عليهم مرسوم به الخديوي من خلع أجد عرابي وتنزله فاختلفت عند

مطلب

وصول مرسوم
الخديوي الى القاهرة
بخلع أجد عرابي
وما كان من وراء ذلك

ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعات بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الأعظم منهم ميال إلى خلع أحمد عرابي كما رسم الخديوي قاموا وصاحوا في وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسبب الخديوي وتقيح فعالة ونادوا القتال القتال مادام الانجليز في قلب البلاد ثم أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الانجليز فانكش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم إن مالوا إلى خلع أحمد عرابي والعمل بمرسوم الخديوي أخذتهم سيوف الضباط وحرب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم على استمعاء أحمد عرابي في منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد ما دامت مراكب حرب الانجليز أمام الاسكندرية وعدم الالتفات إلى مارسهم به الخديوي فطير يعقوب ساجي الخبر بذلك إلى الآفاق وعلم به الخديوي فاحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد عرابي وعصيانه وسير الكتب بذلك إلى القاهرة وسائر المدن والبنادر فنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوي ويسمونهم بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون في الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصاة والاخذ بناصر مقدمهم أحمد عرابي وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الأشعار الحماسية والقصائد المبهجة من ذلك قصيدة لاحد علماء الأزهر يقول في مطلعها

لعمرك ليس ذا وقت التصابي ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي ولا وقت التغافل والتغابي
ولا وقت التشبيب في سليبي ولا وقت التشاغل بالرياب
إلى أن قال

ولكن ذا زمان الجند وافي وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يلحق الآل إقامة بالفساد والطواي
ووقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الأوامر من عرابي
إلى أن قال

وفي مصر لقد طمعوا ومصر بكم والله أمتع من عقاب
وقال فيها

وقوموا بالثبات على الأعادي وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سألوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب
إلى أن قال

وقولوا يا عرابي مر بأمر تراه فأنت ذو الأمر المحباب
ودم لوزارة لسؤال تأتي وان وصلت إليك بلا طلاب
وقولوا يا عرابي دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناح

وتنظم آخر قصيدة في هذا المعنى قال في مطلعها ﴿

نوال المعالي من طعان الكنايب ونيل الأمان من ثمار المتاعب
وقهر الاعادي بالتسدير أولا وبعد بأشهار السيوف القواضب
الى أن قال

ولسنا نقوم عن طريق الهدى عمو الى اليوم من اضلالهم في غياهب
ومنها قوله

ومن كعربي في البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب
وغير ذلك من الشعر والنثر شئ كثير لا يسعنا ايراده هنا وسير أجد عربي جماعة من الفرسان
وأخرى من المشاة الى ناحية المندرة ووكاهم باستطلاع أخبار الانجليز فلم يبلغوها حتى
خرج عليهم جماعة من عسكر الانجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهمز
الانجليز وولوا الادبار فأعمل المصريون في أقتيتهم السيف ثم عادوا في ثاني يوم وقاتلوا حتى
أجلوا المصريين عن مواقعهم فسير أحمد عربي في طلب المدد من المال والرجال ومد
الحصون والقلاع من الرمل الى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته
خندقا فاصلا ما بين الخط والقضاء وقد جعل في هذا القضاء عدة كثيرة من القلاع وكان خط
الدفاع الاول مما يلي المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل الى البيضاء
وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فبلغت عدة
هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك في المسافة الواقعة ما بين كفر
الدوار وأبي حصص وكان بين أبي حصص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فخصنوه وجعلوه
معتقلا يقيمهم عند الحاجة اذا تفهقروا الى الورا وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة
وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها جماعة من الجند ووكاهم بتسيير
المؤن وتوصيل المدد الى كفر الدوار ورأى سيمور من استعداد أحمد عربي وتأهبه للقتال
وقطعه لجميع المواصلات مع الاسكندرية مالم يكن يتوقعه فأرسل الى عاصمة الانجليز
في طلب النجدة ورسم فعدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الاسكندرية الى بورسعيد
وجاء المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل
طارق ومالطه والهند وكانهم كانوا جميعا على قيد فرسخ من مدينة الاسكندرية وجعلت
حكومة الانجليز تبالغ في التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا رغبة
في مشاورتهن ولا ميالة الى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتي ألف
ألف وتسلاعمائة ألف من الذهب وكان ماجاء الى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من
الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وتسلاعة آلاف
وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة
مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جانت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما

مطلب
طلب سيمور النجدة
من عاصمة الانجليز

آخرون من الامراء والقواد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الاسكندرية أخذوا في ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الحديد وما تدعى الى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة الدكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا في تحصين المدينة لمنع الواصل اليها وسارت طائفة منهم الى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل الى الاسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة

ووقع بين الباب العالي ودولة الانجليز وبقية الدول مناقشة وجدال في امر ارسال عساكر عثمانية أو عساكر مختاطة من الانجليز والفرنسيين والابطالين الى مصر ما استغرق الايام الكثيرة ولكنها كلها كانت مما حكمة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والانجليز والفرنسيين يظهر للاخر خلاف ما يبطن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الانجليز وشددت على سعيد باشا مندوب الباب العالي في تلك المفاوضة وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن أقدم الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها ارجاع الحالة الى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوي بكل ما تصل اليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الانجليز في ذلك * فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقة سفير الانجليز وانكف عن مناقشته في الامر بفعل السفير يفكر في ذلك فما هو الا أن جاءه الخبر في ثلثي يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثماني وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جنح الليل وفيهما أيضا كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضا في نفس تلك الليلة مركبان آخران احدهما الى ازمير وثانيتهما الى الدردانيل وفي ثلث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجنود وآلات الحرب وقامت أخرى في خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب الى صوراباي بمياه جزيرة كريد وكانت في نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام الى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت امره درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين الى سلانيك ثم يسروا منها ليلتقوا بالجنود اما بمياه رودس أو بمياه صوراباي فخشي سفير الانجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير الى كبير سياستهم بعلمه بالامر فلم يكن بأسرع من أن جاء الامر الى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الاسكندرية يقول * اذا جاءكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالاسكندرية وبور سعيد وأي جهة من الموانئ المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمي العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا الى جزيرة كريد أو الى أي جهة يشاؤونها واياكم والتغافل * فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم في سلك الدفاع وأبلغ سفير الانجليز خبر ذلك الى سعيد باشا مندوب الباب العالي فراجع سعيد باشا وقال ان

مطلب
مناقشة الباب
العالي والدول في
خصوص ارسال
عساكر سلطانية
الى مصر

السلطان رسم بتسليم عسكره وهو يكفل بارجاع الامور الى سابق مجراها من الامن وصفاء الحال وسيرسم أيضا بعضيان أحمد عرابي واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب اذا للتعرض لمراكب الدولة اذا وصلت الى الموانئ المصرية التي هي جزء من بلاد السلطنة فقال السفير قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة الى شيء من ذلك البتة وقد سارت الجنود الانجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالامس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعته سعيد باشا فلم يقبل فقال له قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن ارسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التي حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى الدول لزوم اجرائه أيضا لارجاع الامور الى ما كانت عليه فقال السفير لاسبيل الى ذلك وقد نفذ المقصور فكبر الامر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالي وكثر توارد الجنود الانجليزية على مدينة الاسكندرية وقدم اليها في خامس عشر رمضان الدوق أوف كانت ثلاث أولاد ملكة الانجليز وهو أحد مقدمي العساكر وأخذوا في تحصين بعض القلاع والحصون وتعمية المون والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وجحر النواقيس وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشروا على مقدم العساكر الانجليزية منشورا يقول فيه * لم تأت الجنود الانجليزية الى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لدفع العصاة وايقاف تبار الفتنة الى حد ارجاع الهدوء والسكينة الى سابق مجراها وتأييد سلطة الخديوي جهد الاستطاعة * ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور في مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئا كثيرا

ولما كان خامس شوال انتشب القتال ما بين طليعة العرابيين وبعض الجنود الانجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلي عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وبالا وأصبحوا فاقمتلوا قتالا عنيفا فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الانجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الاسكندرية واشتد الرمي من الجانبين بالفتابل والرصاص شدة بالغة ثم افرقوا وقد تحرز كل فريق في موقفه وكان مقدم العرابيين في هذه المواقع طلبه عصمت وأصبحوا ولم يتقدم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتي الى الاسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبه عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الالتفات ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الاسكندرية من الاجانب على اختلاف أجناسهم الى المدينة ودارت رعى الاعمال في دواوين الحكومة وباشرا بآباز الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكل ونفذ ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراي رأس النين وهم يصبون

مطلب
ابتداء القتال ما بين
الانجليز والمصريين

ويجئون فهال الخديوي أمرهم ورسم باطعامهم وشدد في ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالارز واللحم مرتين في كل يوم وكان الخديوي يلاحظ اطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الانجليز في المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف في النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس الا من كان معه كلمة سر الليل وهي كلمة كان يتفق عليها في غروب كل ليلة ليعبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونها سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر الليل وأخفشوا في رمي الناس بالرصاص لاقبل سبب وكان اذا رأى أحد المرابطين أحدا في الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هات) ومعناها قف فان لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعني صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا واذا رآوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه بلمنقط مابقي من المنهوبات فيقتلونه في الحال برمي البنادق نخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة * وتقدم اسمعيل راغب باشا الى الخديوي في قبول خلعه نفسه من منصب رئاسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم الى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مستند الرئاسة فأذعن وأطاع * وكان لما طير البرق الخبر الى الديار الاوروباوية بخروج عرابي وأصحابه عن طاعة الخديوي واشهاره الحرب على الانجليز وبقاء الخديوي مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الاسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ باحدى مدن الفرنسيين قارا من وجه زعماء العصاة على ما تقدم بيانه في محله عاد من فوره الى الاسكندرية وتمثل بين يدي الخديوي مسترجعا فعفا الخديوي عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا في ارسال المدد الى كفر الدوار وهم يشيعون في كل يوم أخبار هزيمة الانجليز ووقوع الموات فيهم وسير أحمد عرابي الى المديرين والمحافظين في طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم الى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ماخص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقليوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة واسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ في الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الاخبار بذلك الى أحمد عرابي وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الامر واستعظمه وعادوا الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد في المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الارجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل

مطلب

استقالة اسمعيل

راغب باشا من منصب

الوزارة وتولتها للوزير

محمد شريف باشا

اسمه الشيخ على الملبى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزههم الى التطوع في سبيل طاعة أحمد عرابي وخطب فيهم يوما يقول

الحمد لله الذي جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الامم * وعودها العناية والنصر اذا العدو بها ألم * لا اله الا هو لا عز لنا الا به الى يوم الدين * فهو المختص باعانة من هاجر في سبيله وكاف عزمه وسمعه * اقوله تعالى ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراحما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم * وننوب اليه من جميع الآثام اذا انجز بها القلم * ونسأله اللطف والاعانة على الكافرين * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * المنعالي عن المشاركة والمشاركة * وعن أن يحتاج لمشارك له في إعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين * وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله * وذروة سنام المجد وتاجه واكمله * رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين * اللهم صل وسلم على هذا النبي العظيم * والرسول السيد السند الكريم * سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبان أثر الذل على الخائضين * وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فيا عباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا في الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم * وما ذلك الا لعدم الحماية الاسلامية في حكمه الذين كانوا كالليل المظلم * اذ كانوا منهمكين في ميدان حظهم الدنيوي وعن الدين غافلين * والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم * اذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاخذ في أسباب قوة الدين ورد ماضع من شوكتهم * وصاروا بأذنين الهمة في التوصل لما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين * اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه في مدا فعة من كانوا في تشويش الأمة أول سبب * وباع نفسه هو وجيشه للجهاد في سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب * كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين * فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظرسوى النصر من رب العالمين * واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا في كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره * فنعم السيد الأمر ونعم من امتثل أمره * وتأمل في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار واجتهدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه * واشترى آخرته وباع دنياه في سبيل الله * وتبائس بقوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين * فأقبلوا عباد الله واخضعوا عنكم ثياب الجمل والكسل * وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله قبل اقتراب الاجل * وزودوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتعاضدين * فن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة في الانفاق على من تبرع بنفسه

لدفع الاعادى * وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع أعضائه تتأدى * وجعل
قوته قوله تعالى « ثم نجى رسلكم والذين آمنوا كذلك حقاً علينا فنجى المؤمنين » فمن لم
يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق * ومن دين الحق مارق * وغافل عن قوله
تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم « ان الله تعالى قال من انتدب خارجاً في سبيلى غازياً ابتغاء وجهى وتصديق وعدى
وإيماناً برسلى فهو ضامن على الله عز وجل إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله
الجنة وإما أن يسبح فى ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله الى أهله مع ماله من
أجر أو غنمة وعلى الله قصد السبيل » * وجاراه فى ذلك أيضاً آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم
من أهالى أسبوط نخطب يقول - جئنا لمن جعل أعلام الملة المحمدية * على كواكب
أعلام الامة العربية * وحرسها بشهب ثاقبات * لرحم شياطين أهل البغي والغايات
* وصلاة وسلاماً على من كان اذا أراد غزوا ورى به * ليتأهب ذو الهمة فيتوجه
بصادق آرائه * وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسواراً طرمة الدين * ومن تبهم فى
الحمامة من كل حر لعرضه بصون * أما بعد * فان الانجليز قد طاشت عقولهم *
وعيت بصائرهم * فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا أنفسهم *
وساقوا الينا من زيف المعارضات خبيثاتها * وقابلوا عيشنا بخداع * وقفسوا أكثافنا
لغدر أضمره ليوم النزاع * ونحن لما جئنا عليه من محاسن الايمان * وفيما لهم بعقد
الذمة والامان * فعاملناهم بالحسنى * وجبرنا ما كان منهم ضعفاً ووهنا * فلما صحت
أبدانهم * وعمرت أوطانهم * لم يقنعوا بذلك * بل طلبوا التصرف فيما تصرف المالك
* فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب * فخرّبوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا
اضطراب * وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء * والله يؤيد بنصره من يشاء * حيث
أقام ناظرنا بعين الشرع ناظر * لم يخش فى الله لومة لائم أوزجر زاجر * فقابل كتائب
الضلال * وأذاقهم كأس النكال * وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق * اذ كان من
أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق * فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد * فى قطع
جيش الضلالة والعناد * فأقبلوا اليه من كل فج عميق أفواجا * بالمال والنفس فرادى
وأزواجا * فعند ذلك دهم الانجليز مادهاها * حيث لم يكن فى حسابها ما عراها *
فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة
سنة) فان البشائر دلت عليه * حتى يمزق الباغون كل ممزق * ويحيا المندوب والمفروض
بهذا الموقف * وتغوث البدع التى اسودت القطر بظلماتها * ويخفى شارق الظلم بارجائها *
لخافنا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافر * جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا
وجنده الظافرين باعدائنا فى الميدا والآخر آمين
وجاء الآخر الى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدم القول

مطلب

ارتحال سيمور
بسن الحرب عن
الاسكندرية الى
بور سعيد وما كان
بعد ذلك

فرحل سيمور بسفنه عن الاسكندرية الى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الاسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه الى بوغاز بورسعيد رأى هنالك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بان فيها من الديناميت والمواد الاتهابية ما يكفي لسد البوغاز في أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس الى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وبأوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم في جانية وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور الى الربان يقول ما هذه الحركة وما داعي تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتونا فقال الربان هي حركة لا بد منها أمام السفن الاجنبية فأرسل اليه ثانية يقول كف والا ألقنك والمركب الى قاع البحر وارع حزمة سفن الحرب الانجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فأنكمش الربان وخاف * وقدمت الى بورسعيد بعض الطرادات الافرنسية والامانية والايطالية تخفر السواحل بمنة ويسرة وحضرت مدرعة كبيرة انجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فناع أصحاب البوغاز من الفرنسيين في دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست في بركة التماسح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والاجناد عدد كثير * قبل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل الى دار السلطنة ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الاسماعيليه * وكانت الحرب الى هذا الحين قائمة ما بين العربيين والانجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الامامية بلا انقطاع حتى أتت الاخبار الى أحمد عرابي بوصول مراكب الحرب الى مدينة بورسعيد ونزول جيوش ولسي بمدينة الاسماعيليه فسار من كفر الدوار الى التل الكبير ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره الى مدينة الزقازيق خف للقاءه العمدة والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق والاشايير وموظفو الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعانف الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعدل الضحيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر في الطواهي * الله ينصرك يا عرابي * يا مولانا باعزيز * أهلك عسكر الانجليز * يا سيمور ياوش القملة * من قال لك تعمل دي العملة * وغير ذلك من بذى القول وخش الكلام ولبت على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادي أنا لها أنا لها والناس في ضحج زائد والغواء يصفقون بأيديهم ويضربون الارض بأرجلهم فسار به القطار الى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون اسال المؤن وآلات الحرب الى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الاسماعيليه والسويس وهاجر من بالسويس من رجال الدولة وبعض الاهالي وأجهد الجند الطاقة في انشاء الحصون والمعقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد

لهذا العمل ورتبوا المقدمات وبالغوا في تعبئتها وعالجوا قطع الماء الخلو عن الاسمعية
والسويس وتبع العسكر كثير من السوقة وأصحاب الصنائع الدنيئة مثل الاسكافية
والقهوجية والسمكية والخياطين وباعة الافيون والمكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا
التيات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فأصبح ذلك الصعيد أهلا باصناف الناس
وكانت لما رست تلك السفينة الانجليزية أمام مدينة الاسمعية تصدت الى سائر ما وجدته
هناك من بقية السفن على اختلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشددت على أصحابها
وضيقت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلاها الجوع فلم يمض الا النصف الاول من تلك الليلة
حتى قامت في المدينة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبة ثم اشتد بعيد ذلك اطلاق
البنادق وجرا المدافع وزحف الجند فهب الناس من مضاجعهم مذعورين وكانت على
رؤسهم الطير وتظروا واذا العساكر الانجليزية قد ملأت الفضاء وهم في حركة زائدة كانت
العدو يهاجمهم ثم لم يمض على ذلك الا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من
تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتد الرمي وتراسلت
القتال على مواقع العربيين بناحية نفيسة وما زال الحال هكذا طول الليل فلما
أشرقت الشمس سكنت المدافع وخرج جماعة من الانجليز قاصدين قرية العرب فلما رأهم
أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فاخذتهم نيران البنادق من كل جانب لاسيما
منهم النساء والاطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والاسمعية
والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الاسمعية من الاجانب والاهلين ونزع الكثير منهم الى بور
سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل الى الاسمعية سيمور أمير سفن الحرب وولسى مقدم
العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيول والبغال
على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجرا المدافع وتحميل الانقال
قبل فأخذت أجد عرابي وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع دى لسبس
فاتح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الانجليز من العبور والوصول الى مدينة الاسمعية
فكتب أجد عرابي الى المايين الهمايوني كتابا يقول فيه * كنت قد بسطت لعطوفتكم
قبل الان أمر اعتماد الانجليز وتسلطهم في جهتي السويس والاسمعية على التربة
ومخالفتهم للعهد بما جاء بمخلا بنظام التربة وبسطت أيضا ما كان من الهمة التي بذلناها في
جعل التربة على الحيادة لانها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الامم وممر تجارة العالم أجمع
وحيث قد قرب الان توجه الحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهة الحجاز كتب الى
المسيودي لسبس الموجود الآن في الاسمعية بالاستفهام عما اذا كانت انجلترا تمنع في
مرور عساكر المحافظة المعتمدة على التوجه مع الحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية
بالتلغراف قائلا انه بالنظر الى الاحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال الحمل
الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الانجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور

مطلب
ما كتبه أجد
عرابي الى المايين
السلطاني بعد
نزول العساكر
الانجليزية الى
مدينة الاسمعية

بالبقتال وقطعوا الاسلاك البرقية السكائنة بين السويس والاسمعية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو اذا تقدم الى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الاسمعية ويوزباشى المستنقطة هناك قد أفادوا أب من عزم الانجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية السكائنة فى مداخل البلاد فى هذا الصباح علم من الاخبار الواردة أن الانجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى اطلاق القنابل من جهة الاسمعية على نفيسة أما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود التبعة بان تكون على الحياد والى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستنقطة وموالاته التحريض الشديد على عدم مس حقوق التبعة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعه كانت . ولما بدا من الانجليز هذا الاعتداء على ضفاف التبعة أقام المسيودى لسبس الحجة على الاميرال الانجليزى وارسل صورة الحجة بالتلغراف الى الحكومة الفرنسية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار اليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الانجليز فسيرا منهم على حكم المثل السائر « البادى أظلم » لم يلتفتوا الى إقامة الحجة بل أصروا على الاخلال بنظام التبعة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف الى المسيودى لسبس بما يأتى « بما ان الانجليز خرقوا نظام حيادية التبعة فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعاً لاعتداءاتهم فاذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدافعة » - قال - فى التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الانجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع انها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا أنها مقاومة لجميع المصريين الامة الخاضعة للدولة العثمانية وأنها داست بارجل المطامع منافع جميع الدول ولم تحش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال لإقليميا عظيما فبما أن أعمال الانجليز وصلت الى هذه الدرجة لم يعد فى الامكان أن نتراخى فى اتخاذ الوسائل الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الاحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فالكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم ظل الله بادرنا الى كتابتها وتقدميها لنادى عطوفته كم اه * وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الانجليز الى جوف البلاد سيكون من هذه الارجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وبكار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجهيز قوة نالته يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جعوه من خفراء البلاد بالجهات النبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البقعة البيضاء ولبد الصوف

عوض الطربوش وسلموهم بالبنادق والقرايبنات على غير دربة ولا خبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبي أحد زعماء العصاة وساقوهم الى الصالحية فمسكروا بها وعملوا بعض الخطوط والتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودي متطوعا يريد الغزو والجهاد في الانجليز * وكان أحمد عرابي قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد علي الكبير وهي من عجائب الخيام التي قل أن يكون لها مثيل وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه في عرس أو وليمة فجاءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والاعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والارز والعسل والدقيق وعجول البقر وخول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجنود المحاربين معه وأكثروا من إرسال الخلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتي اليهم على قطارات السكة الحديد * وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والاشائر والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب الى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد في لوم كثيرة وطبول وزمور وكسات وبيارق فانزلوهم في ناحية أعدت لهم فكان لاهم لهؤلاء القوم البسة سوى طلب المأكول والمشروب في الاوقات الثلاثة فاذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وبخضت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيمذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البسة ويصيحون وينادون مدد مدد فاذا اشتبك القتال بين الجنود والانجليز واشتد رمي المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وتراحموا ونادوا ياسيد يا بدوي ياأبا عبد العال يا آل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الابصار فاذا بطلت الحرب عادوا الى حافات الذكر وتسكروا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا ونبحنا بحمد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم ان شاء الله حتى نأتي على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبي عند النداء في العسكر بالخروج الى القتال

وبينما كانت الحال على ما وصفنا في مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمهور والمحلة الكبرى يفعلون ما لا يوصف من النهب والقتل والعريضة ويكثرون من التطواف ليلا ونهارا جماعات وبايديهم العصي والمساق وهم في ضجة وجلبة وصباح بيامولانا ياعزيز أهلك عسكر الانجليز وغير ذلك من العبارات التي لفقوها * حدثني من شاهد فعال العامة بمدينة طنطا ورأها رأى العين بعد كلام قال * ولم أتجاوز البيت يعني بيته حتى رأيت البلد يفضج بالغوغاء وصراخ النساء والاطفال وتجمع الناس في الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لي ان الحرب على أبواب البلاد وقد ثار المسلمون على النصارى يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت في نفسي فتنة ورب البيت وأسرعت الى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة

مطلب
فما كان عليه
المنطوقون من
أصحاب الطرق
والاشاير

مطلب
المدائح في داخلية
البلاد

والمشاهد الموحجة ماتت فطر منه إلا كباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالمهايم المأخوذة إلى السليج بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصي والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقتضى عليه وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون فنهزم من يجره من رجاليه ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزأؤه اهـ

وحدثني أيضا من شاهد ما وقع في نفس ذلك اليوم بالحلة الكبرى بعد كلام قال * وقد كنت في سوق السلطان وكان الوقت بالغا إذ ذاك من النهار حذ الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمار والسوقة وكاهن من السفلة والرعا وفي أيديهم العصي والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم في ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون يا تجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال وكان معنا في هذا الحين حسين أفندي ساجي مأمور تاربع المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال حتى أرى ما أصاب المسيو كجروس مفتش تاربع المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين ساجي وفرق جوعهم ودخل على المفتش وهدأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالي رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب بقليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسي التاربع الأجانب وقد كانوا مقيمين في ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولا آخر ثلاث بنات أبكار وغلाम وجماعة التجوا كاهن إلى بيت محمود أفندي منجد مأمور مركز سمنود فأوأمهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البرول وألقوا البعض الآخر في البحر ومنهم من دفن في تل الواقعة اهـ

وقالت * وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضا بالغة حد الجفاء والسدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة ابراهيم فوزي بك وتطوافه في الشوارع والأزقة والحارات ليلا ونهارا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب في غاية الحول والكسل كأنه أطمع شيئا من المهدرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظما والتعب وهم يصيحون حوله بياسمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوي برجة عابدين فلما

صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعيا الله قطع الله رأس سمور قطع الله رأس سمور يريدون سمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب في كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الابصار ولجأت الى مواقع الحمامات وخرائب المدينة وكان اذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سمور اندعروا وتراجعوا واختفى عن الابصار فرارا من الموت وكان الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول والشئ بالشئ يذكر حدثني صاحبلى قال حدثني أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب في تلك الايام فتبسم وقال ليس في الامر ما يدعوني الى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى الى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الانجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول في شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمباني والمساجد والمعامل وكانت يؤخذ كثيرة الى أن سار يوما الى ناحية الحسينية والدامرداش ومعه زوجته وكان زى ملابس الامراء في ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الامام ولفافة حول العنق وكان كساء النساء فسطانا تحته آخر باسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الاقطة والاربطة فلما وصلا الى ناحية الحسينية عرج بهما ترجبا منها الى ناحية المذبح ليروا كيفية الذبح في هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الاشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الامير وزوجته قومة واحدة فدعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك النخلة وخلصوهما فعادا الى المدينة ولبثا ما شاؤا ثم عزموا على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاتفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما في البلاد - قال وكان محمد على باشا شديد الرغبة في تقدم البلاد وإيرادها موارد العز والرفاهية ميالا الى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهد الاستطاعة فقال الامير قد رأينا في بلادك أيها الامير كل ما يسر الخاطر ويقر الناظر ويبشر ان شاء الله بخير المستقبل غير أنا قد رأينا أيضا شيا لم نره في بلاد الأمم المتدنة قال وما هو قال رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا عرمرما من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فدعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك النخلة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتدنة أن لا يترك في شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جدا ما أصابكم ولكن اذا عدتما اليها في السنة القابلة ان شاء الله فلا تريان الا ما يسركم فشكراه وودعاه وانصرفا فأرسل الباشا في الحال في طلب كتخداه لأظنه أوغلى فدخل عليه فقال عليك من الساعة ان تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها الى الدار البيضاء وطوره والجيزة

وابالك أن تبقى منها واحدا قال فنزل الكتخداسار الى ديوانه ودعا اليه مشايخ الحارات وقال
تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره فنزل
مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون في الازقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل
ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة
فكانوا يسرون بها عشرات ومئات الى الدار البيضاء وطرا والخيزة فادركت الكلاب ما هنالك
واختفت عن الابصار فشدوا في طلبها أياما حتى ظنوا أنهم يبق منها واحد فانكفوا
فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان محتفيا وهى في أسوأ حال من الجوع وجعلت
تسعى في طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوق وأصحاب الحوانيت اذا جلسوا في حوانيتهم
صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالبول المدمس والبصل والخبز ويجلس
الرجل منهم وظهره الى الطريق فكان اذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة
التفت اليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ - جر - عصا - امش - فلا يتحرك فاذا قال
لغلامه ناد يا ولد على شيخ الحارة - هرول الكلب مسرعا واختفى عن الابصار لادراكه ما وراء
حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقي الحال هكذا في منع الكلاب وطردها
عن الحوانيت أياما كثيرة

وكبرت في هذا الحين شرور مهاجرى الاسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالفوا
في ايداء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم في الاقاليم القبلية
والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة في دور الحكومة وبيوت الامراء الذين لجؤا الى
الخدوي بالاسكندرية وأرسلوا جماعة منهم في بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على
ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكايه وانتقاما ورتبوا لهم خبزا في كل يوم وأقاموا عليهم من
يقوم بتدبير أمورهم واحضار طعامهم في أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا
ولا ينفكون عن المهارة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان
الرجل منهم اذا أعوزه الافيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد الى الحوانيت المقفلة ففتحها
وأخذ ما فيها بلا خوف ولا اكتراف فكان ابراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينقل
عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصي فاذا رأوا جماعة من هؤلاء
الحرافيش في احدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كي لا يمتكنوا من فعل شئ
بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم في القرى والبلدان غاية في الشناعة
والايداء أيضا فكانوا ضربة على البلاد وأهلها

ولما تكامل حضور العساكر الانجليزية الى مدينة الاسماعلية جعل مقدمهم
يستكشف مواقع العرايين ومعاقلهم وحصونهم التي كانوا يشتغلون بعملها بين الاسماعلية
والمسخوطة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الاسماعلية وبور سعيد والسويس فرأى مقدم
الانجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقتلهم قتالا شديدا حتى

أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العربيون فأخرجوا الانجليز من مراكرهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال * وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيسة فوصلوا اليها فلم يجدوا فيها أحدا من العربيين فانهم لما علموا بقرب الانجليز منهم تركوا نفيسة وساروا الى المحسمة فعلم الانجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخيرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الاشغال العمومية وأحد زعماء العصابة مع العربيين يومئذ في ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الامامية للتسل الكبير ففكره العربيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الانجليز عند محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو الانواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لانه كان لابسا لباس المملوكين وبيده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندي المجروح وكان الجندي جالسا قام وأدى له اشارات التعظيم ففطن الانجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك في حجرية صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به الى الاسماعيلية فلما تمثل بين يديهم قدم الجيوش الانجليزية قال له أنت ممن تركوا العسكر ولولا الادبار أو ممن أسروا قهرا قال اني أسير ولست منهنما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه الى الاسكندرية وسجنوه في دار محافظة المدينة وتقدم الانجليز في ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العربيين فخرج عليهم جماعة من العربيين ورموا عليهم بالبنادق ربما متتابعين وكذلك رعى الانجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العربيين بالانجليز فعلا رديئا وكان القنيط لا يطاق في ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضا بهم من الموت ما لم تفعله نيران العربيين وظهرت مدافع المصريين أيضا وتابعت الرمي بالقنابل على مواقع الانجليز واشتدت في الرمي حتى اتصلت بمؤخر الانجليز وفعلت بهم فعلا أليما وكان العربيون قد حصنوا التل الذي هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا اذ كان يشغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الانجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا الى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الانجليز في عاشر شوال وقتلوه قتلانا عنيفا وكان مقدم المصريين في هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى المعروف بابي شنب فضة فقاتل في ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العربيين بالانجليز فعلا رديئا وكانت قنابلهم تاتي الى مواقع الانجليز تباعا بحكمة الرمي والاصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الانجليز لاصحاب المدافع وامتدحوا كفائتهم وما زالوا على هذه الحال والرمي متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الاشارات لاصحاب المدافع وهو بين ملتي النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الانجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقعهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخيرة واشتد التعب بالانجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع

لا يا كاون سوى البقسماط اليابس ويشربون الماء الآسن الممزوج بدماء القتلى من
الانسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئا ووقع فيهم الموات واشتدت بهم
العلل والامراض وحاول العرباؤون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم
فخرجوا عليهم بقوتين احدهما قدمت من مواقع التل الكبير والثانية من مواقع الصالحية
وكان مقدم هاتين القوتين في ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الانجليز
للقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الانجليز على العربايين وجرح على الديب جرحا خفيفا
وتقهقر المصريون وانفسلوا وتبعهم الانجليز وقد مات في هذه الواقعة من كبار الانجليز
وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرباؤون بعد ذلك في حصون ومعقل التل
الكبير فتبعهم الانجليز وريدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعيا غاية في
الاحكام فتربص الانجليز حتى تكاملوا * حدثني صاحب لي قال ودبر العرباؤون الامر
ورتبوا كيفية هجومهم على الانجليز والايقاع بهم بان تسير من مواقع الصالحية قوة مؤلفة
من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة علي الروبي والبارودي
فتأق على مينة وخلف الانجليز قبل مطلع الفجر الاول وتسير قوة أخرى من مواقع التل
الكبير وتأق على ميسرة وخلف الانجليز أيضا بعد وصول القوة الاولى بقليل ثم تلتحق
القوتان بطرفيهما فيصير الانجليز في القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة الى المحسمة ويعملان
فيهم القتل والتشريد قال وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية في الاتقان
بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الانجليز لم يتم للعربايين شئ من ذلك اذ تأخر حضور
عسكر الصالحية في الميعاد المحدد لالتقاءهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة في سبب تأخرهم
الى قسمين قسم قال ان الخبراء من العربان الذين تولوا الاسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية
الى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا الاونور الفجر قد لاح وهم على قيد فرائخ من
المواقع تخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الامر فسمعوا أصوات المدافع متردفة
فرجعوا على أعقابهم الفهقرى وقسم قال ان الذى أوجب تأخرهم انما هو ضخامة الجيش
وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المتموجة فلما وصلت طليعة جند
التل الكبير الى مقربة من مواقع الانجليز وكان الانجليز قد أحسوا بما دبره العرباؤون
قابلهم فرسان الانجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا الى
الوراء بدون قتال ولجؤا الى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا في هذه الخطة التى كان
عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده

مطلب

قيام العساكر من
الصالحية وانفسالهم

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الاخبار ببعض المدن وفي القاهرة بعزم السلطان
على ائتمار عصيان أحد عرابي ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت
هذه الاقوال ببعض أخصاء أحد عرابي والمقربين اليه من أهل البلاد فبالقوا في كتمانها
وكانهم قد أسفقوا عليه فكثرت رؤباهم وأحلامهم أوهم أكثرها منها وجعلوا يذيعونها بين العامة

وصغار الناس عليها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابي
والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة * حدثني صاحب لي ممن كان في ركاب أحمد عرابي
بالتل الكبير قال وكثر وقوع الاحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعجبين من أهالي القاهرة
ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها الى أحمد عرابي بالتل الكبير
وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض مافي تلك الاقوال فرأيت أنها من
الافك والبهتان بكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد
أرسل أحدهم الى أحمد عرابي يوما يقول رأيت في نومي الليلة البارحة كاني دخلت بستانا
كثير الاشجار يانع الثمار تجري فيه الانهار فأدهشني حسن ما فيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح
الطرف في ذلك البهاء الطاهر والجنّة التي لا يعرف لها أول من آخر فبينما أنا على هذا الحال
اذ أمسك بكنتفي صبي مارأت عيني أجمل طلعة من طلعتة وقال الى أين يا هذا أصلحك الله
فقلت لا أدري ورب البيت قال انظر الى يمينك ولا تجزع فتظرت فادا بي أرى كرسيًا من
الزمرّد الاخضر وبجانبه آخر من العقيق الاصفر ثم سمعت دويًا كصوت النحل ومناديا ينادي
انزل يا مصطفى انزل يا أحمد انزل يا محمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوي وارتج المكان رجّة
مزعجة حتى كدت أسقط مغشياً على من شدة الخوف فلم ألتفت الا وقد جالس على ذلك
الكرسي الاخضر انسان لم تر عيني أحسن شكلاً منه وبيده مسجحة حباتها من العنبر فنظر
الى المكان نظرة المشفق ثم دق كفًا لكف فخر لديه في الحال جعاعة من الغلمان كأنهم
البدور اذا بدت وقبلوا الارض بين يديه وقالوا لبيك يا حبيب الله قال أين المجاهد أين الغازي
أين نسل ولدي الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الامير الجليل
متشجعًا بحلة من السندس الاخضر وعلى وجهك هيبة وجلالة الله أكبر فقال النبي عليه
الصلاة والسلام تقدم يا أحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فدّ النبي صلى الله عليه وسلم
لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلاً لا وقت انظر يا رسول الله ما فعل الكفار بنا وفحن في جوار
عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاتوا
وأفسدوا وأراقوا الدماء هذرا ثم اغرورقت عيناك أيها الامير بالدموع فنظر اليك رسول
الله صلى الله عليه وسلم وهو باسم وقال خفف عنك يا أحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم
الله عليهم نصراً مبيناً ثم ناولك سيفاً قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر وقال
اضرب بهم ذراقتهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا باذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا
الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافي والله في نقطة لافي منام صحت فرحاً وقات
الله أكبر الله أكبر على من طغي ونجّهر فانتبهت من نومي وكانت رؤياي منقوشة على صدرى
فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته * قال الراوى
لهذه العبارة * وكانت هذه الاكاذيب تتلى بين المحاربين في مواقع التل الكبير من ضباط
وجند وعربان وفي مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون

الجيش في مواقع القتال وهؤلاء يشتمونها بمحشوة بالافك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لا يشكون قط في صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة في جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على امداد الحماريين في مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس ويؤهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الاحلام والمنايات محشوة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنه واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتناولون على مقام الخديوي بالسباب وخش القول ويرمونهم بالمرورق ويتهمونونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبدالله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مقترياتهم محلا عظيما * وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنه تتأجج في جوف البلاد كان سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذي كان مشدودا بينهم وبين أحمد عرابي ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد أمام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح ما بين الباب العالي ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلج بطاب صدر فرمان السلطان بعصيان عرابي * وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما صرف وجه أحمد عرابي وأشيعائه عن السلطان ورجال المابين فيفتنونه وتنقص عروة اتحادهم والثاني تنزيل أحمد عرابي من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمرورق واعتبار أن حربه للانجليز حرب غير جائزة ولا هي من الجهاد في شيء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابي وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى صاحب جريدة الجوائب العربية التي تطبع في دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها الى الهند ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية فوصل منها الى مدينة الاسماعيليه شيء كثير فأمر به مقدم الجيوش الانجليزية فنشروه على أيدي الجواسيس من العربان والفلاحين في معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وقترت همم الضباط وكادوا ينفصلون وعم خبر ذلك بين الافراد فتحدثوا به كثيرا

وكان ممن جاء مع عسكر الانجليز الى الاسماعيليه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديوي قد سير بهم الخديوي في ركاب مقدم العسكر الانجليزية ليكونوا له عوناً على قضاء حاجاته ويعهد أمام جيوشه ما يحدنه أهالي القرى من الموانع والعقبات فجمع اليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العرابيين واستمد لهم وأجزل عطاهم وقرب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا الى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابي

ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الامر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أوكدوا وانصل خبر ذلك بأجد عرابي وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانهم واخفائه الى حين ولكنهم لم يفلحوا اذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر * قيل وجاء في هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الانجليزية فاجتمع بأجد عرابي في سرادقه وتجادنا ساعة فيما لم يصل أحد الى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا الى معسكر الانجليز فظهرت بعيده ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أجد عرابي دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخول فلم يكن له هم في هذا الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة الاوراد والاحزاب وتقليب مسجته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس الا القليل من مقدمي العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الامامية اسمه على يوسف المعروف بعلي خنفس فراسله محمد سلطان باشا أيضا واستماله الى طاعة الخديوي فأطاع واستوثق لنفسه * فلما كان ثامن عشرى شوال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الانجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا في حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة ايها ما بانهم من بصون في مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سرروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا في خدمة الخديوي بالاسكندرية وجماعة من عربان الهنادى يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العربيين فأخلى لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر في هذا الحين نياما على الحصون والتماريس والضباط في فراشهم بأقصة النوم كأنهم في أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الانجليز حتى صاروا في وسط المعادل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العربيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وجعلوا على الانجليز فلم يشبوا الا لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم وولوا الادبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمي بالقنابل فركب الانجليز عند ذلك أقفيتهم وأعلوا فيهم السيف وأخشوا في قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابي أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبليس وقد ترك عرابي ما كان في سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الانجليز وتراحموا خلفهم فلم يدركوهم أولم يشأوا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا انشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة انشاص قطار من قطارات المهمات قاصدا القاهرة فترامح أجد عرابي ومن معه حتى أدركوه وركبوا في آخر عربة فيه فصار

بم إلى القاهرة فدخلوها في الساعة الثامنة عربي نهارا من تاسع عشر شوال والناس
 في شغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضيحج في الشوارع والحدارات فقد كان العامة
 وأرباب الطرق والأسيار وسائر صبيان المسكاتب يطوفون زمرا في ذلك اليوم ويصيحون
 بالطيف * يجابرون أهل الكفار وكان المؤذنون يمجون على المنائر ويبتهلون إلى الله
 بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو فلما دخل عرابي القاهرة طاف صاحب الشرطة
 ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع في الشوارع ويشدد على العامة بملزمة
 السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة إلى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف
 والضيحج والمهيج حتى شاع الخبر بوصول عرابي ومعه رأس سمور أمير سفن الحرب الانجليزية
 ورؤس كثيرين من كبار الانجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحذب
 وتبعهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبة من وتراجت الغوغاء في الشوارع والطرق وكثر
 صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف
 أصحاب البيوت وأطبروا من شدة ذلك اليوم العصب وسار عرابي بعد وصوله إلى قصر النيل
 وجعل إليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخيرهم بحجر هزيمة ودخول الانجليز في جوف
 الحصون والمعاقل قيل وشكى وبكى فتكلموا في الأمر طويلا فألح عليهم بالتجمل في إنشاء
 الحصون والمعاقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من
 العسكر وابتغوا بالانجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب
 الطائف في ذلك وجعل يستحثهم ويستنهضهم فاختلقت كلمتهم وكان ممن حضر
 معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروي فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفي
 ففقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء
 الروحانيين والوجهاء والاعيان فقص عليهم عرابي ماجرى وبكى وبانغ في الشكوى وعظم
 البلوى ثم قال واني ما زلت على قدم الدفاع ورد العدو عن البلاد مادام في رمق من الحياة
 وجعل ينتهب فرقة عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال * أو ما كفاك يا هذا أن
 دمرت الاسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضا
 بسوء فعالك فان كنت لم تبق فيها على شيء فان لنا فيها عمالا وأطفالا وأملا كالانس لم
 بضياءها ضخمة لا غراضك فكنتي كفتي ماجرى * فعند ذلك أطرق عرابي رأسه نجيلا ولم
 ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الاخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم
 التعرض لعسكر الانجليز بشيء ما وأن يتقدم أحمد عرابي وأصحابه إلى مقام الخديوي في طلب
 العفو عنهم بعريضة يرفعونها إليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملاءها
 بالظعن والتسديد بفعال الانجليز وشحنها بالافك والتغريز والتضليل وقص فيها ما وقع من
 البداية إلى النهاية ولم يصرح فيها بكسر شيء من ذنوب أحمد عرابي وذنوب أصحابه ثم جعل
 يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر في ذلك المجلس أيضا بطرس باشا غالي وكيل

الحقانية فكلم عبد الله في ذلك وقال ان المقام الآن لا يحتمل شيئاً من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعه الى مقام صاحب الامر فأملى عليه شيئاً من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابي وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رؤف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبي مرافقتهم وقاموا من ساعتهم في قطار مخصوص فسار بهم الى الاسكندرية فلم يصلوا الى كفر الدوار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبد الله برسالة من عرابي وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما في العريضة الاولى وقال يقول لكم عرابي باشا لا ترفعوا الى الخديوي العريضة الاولى وارفعوا اليه هذه * وكان لما قام رؤف باشا ومن معه الى الاسكندرية ففكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب اذا حوسب كل بعمله فزين لعرابي العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب الى الخديوي قصة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الاعداء فأجابه عرابي الى ذلك وعبد الله انما يريد بهذه الحيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل الى كفر الدوار اختفى ولم يوقفه على أثر الى أن كان من أمره ما سيذكر في محله ان شاء الله

ووصل رؤف باشا ورفاقه الى الاسكندرية في غرة ذي القعدة بعد العناية الشديد وتمثل هو وبطرس باشا بين يدي الخديوي ورفعا اليه عريضة عرابي وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلي الروبي فقبضوا عليه وأودعوه في السجن منفردا عن أتى بهم الانجليز من مواقع الحرب من العرايين وفرح أهل الاسكندرية يومئذ فرحاً لا يوصف وأتت رسائل التهاني الى ديوان الخديوي من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالاسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المسترمات فوصل جنرال الانجليز الى الاسكندرية ودخل على الخديوي وهنأه من قبل ملكة الانجليز ومنه بالاماني الكثيرة * أما المقاتلون من الانجليز فواقع التل الكبير فانهم لما دخلوا في وسط معقل العرايين وحصونهم نسفوا بعضها ومنقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الالفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الاولى بجانب السكة الحديد الموصلة الى مدينة الزقازيق وبها وبليس والثانية على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كي يصلوا اليها بأسرع ما يمكن خوفاً من أن يصيبها ما أصاب مدينة الاسكندرية وكان سير فرسانهم الى الزقازيق غاية في البطء والفتور بسبب تعب الخيل وضعف الجند عن الحركة فلما صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فقال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها في هذا الحين خمسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائقي هذه القطارات لما رأوا اقتراب الانجليز منهم قاموا وأسرعوا في مسيرهم فنجوا بن معهم من

الوقوع في أيدي الانجليز أما الخامس فانه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الانجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العربيون ما حل بسائق القطار وهجوم الانجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الانجليز لقلّة عددهم فنجح العربيون جميعا وفي نحو الساعة الثالثة عربي نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثاني الذي سار الى القاهرة على ضفة الاسماعيلية فانه عبر الترعة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثا جدا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى مدينة بليس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا في ثاني يوم الذي هو غرة ذي القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه وما زالوا يجتدون السير حتى بان لهم سواد القاهرة في نحو الساعة العاشرة ونصف عربي نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم في أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية في تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضا زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها في نحو الساعة الثالثة عربي ليلا وأخرجوا من كان بها من العساكر المصرية وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم في حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والاعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنائيات قيل ولم يكن مقدم العساكر الانجليزية الذين صعدوا الى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاهم على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهما فأطاعا وسارا مع الانجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية في تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملي العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم الى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الانجليز سائر المواقع والابواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلي كبير مقدمي الجيوش الانجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع لاقائهم بعض موظفي الحكومة ممن كانوا في حبوس العربيين بالقاهرة وبرايم فوزي بيك صاحب شرطة المدينة * وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره الى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسمه بالقبض على أحمد عرابي وكافة أصحابه والاثنيان بهم الى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب الى حيث أحمد عرابي فوجد معه طلبة عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطالبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابي ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام معه طلبة عصمت وساروا جميعا الى العباسية وأرسلوا في طلب علي يوسف أيضا وعلي يوسف هذا هو الذي سلم للانجليز قلعتي الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق في مقدمات التل الكبير

مطاب
دخول الجنرال
ولسلي قائد جيوش
الانجليزية الى القاهرة
ومعه محمد سلطان
باشا

كما تقدم بيان ذلك في محله * فلما دخل عرابي ومن معه في وسط معسكر الانجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالبنادق والخراب ثم أخذوهم الى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسي ورجلاه ممدودتان على كرسي آخر وحوله جماعة من عسكره وترجانه فلما تمثلوا بين يديه لم يلتفت اليهم برهة طويلة ثم نظر الى أجد عرابي نظرة الظافر وقال أنت عرابي باشا قال نعم قال أنت الذي عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولاك وحاربتك بغير سبب حتى سقطت في أيدي جند ملكة انجلترا فتجلبج عرابي ولم يرد الجواب فالتفت اليهم الجنرال وقال اخلعوا عنكم سيوفكم نخلعوها وتقدموا بها اليه وقالوا اليك نسلم سيوفنا والى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نوابها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كسراء الشرف القوها الى الارض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار الى بعض صغار الجند الذين حوله فأخذوها وقبضوا على عرابي وطلبه عصمت وعلى يوسف وألقوهم في سجن العباسية في تلك الليلة * هذه رواية * وفي رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدي الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا اننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بانفسنا الى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وستنصح لها أنا ما علمنا الا بواجبنا ولم نسع الا خلف حقوقنا وإن عندنا من العسكر المنظمة براكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم في مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء فيهم ولكننا لم نقدم على فعل شيء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بانفسنا فداء للوطن ~~وقلت~~ وعندى ان لاحقيقه لهذه الرواية فقد كان موقفهم في تلك الساعة محفوف بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصحح اللبيب اللهم الا اذا كانوا على يقين من السلامة وبينه من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان في انسحاب أجد عرابي من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الانجليزية بين حصون ومعاقل المصريين على ما مر بيانه سر سبيلى عليك في محله ان شاء الله

وابشوا في سجن العباسية الى يوم الاربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم الى قشلاق جند الحرس برجة عابدين وقد احتمله طائفة من الجنود الانجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما في ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكرامى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الاثمان أو بنى من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الاوراق والدفاتر الديوانية والادوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسرارى عابدين وأخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسرارى الحرم الحيدوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسرارى المدرسة التى برجة عابدين وانبثت العساكر الانجليزية في شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود

منهم يكثر من التطواف بالخطوة المعروفة بخطوة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يا مسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلصكم من أيدي العصاة المارقين * واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكر الانجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة في ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات في أوقاتها * وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتاني الطالب من محمد سلطان باشا على يد صديق لي اسمه عبد القادر بيك فهمي من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت اليه فرسم لنا بأن نهني ديوانا يناط به لوازم العسكر الانجليز وكتب بذلك الى صاحب شرطة المدينة والى ديوان الخريزة فأشأنا ديوانا بالمكان الذي كان به ديوان المحافظ وقتنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والأرز والسكر والفلفل والعسل والشاي وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والخشيش اليابس في كل يوم صباحا بمما قيمته ألف جنيه مصرية وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات

مطلب

ورود كتب الخديو
من الاسكندرية
بالقبض على سائر
من كان له يد في
احرام نار الفتنة

وعادت الاشغال الدنيوية بعد أيام الى سابق مجراها ووردت كتب الخديو بالقبض على سائر من كان له يد في احرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعهم في سجون بيد الشرطة وطبروا الخبر بذلك الى الآفاق فافش المديرون والمحافظون في معاقبة الناس وبالغوا في ايدائهم وعلى الخصوص منهم مديري الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذوا بالشبهات وملا السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وائتقاما وتراحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه في ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فأنكش الناس وعم الخوف وبات كل لا يأمن على نفسه وولده * وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامي وكيل ديوان الجهادية فرسم له باحصاء ما في تلك المواقع من جنود وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة ونجسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك الى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموقى من الانسان والحيوان وبصرف جميع العساكر الى أوطانهم فأنصرفوا ما عدا الضباط فانه أمر فسيروهم الى سراي الرمل تخفروهم بجاعة من فرسان الانجليز * قال بعض الانجليز * وكانت مواقع كفر الدوار غاية في المنعة وحسن الوضع الهندسي والطبيعي قل أن يمكن التغلب عليها الا بعدد معاناة الأهوال وموت الآلاف من الأبطال اذ كانت تنقسم الى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الأوحال والمراكب ويتفرع من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة الى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة الحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المربعة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو التطربها وكان أمام

مطلب

فيما كانت عليه
معاقل كفر الدوار

كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الاول والثاني والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الاول منها قلعة تسمى قلعة الاسلام اعزازا للدين وهي من أجل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكامها وضعا اه وكان العربايون قد سدوا خط السكة الحديد بستة من البناء والتراب فرسم الجنرال وود بـ كسر هذا السد فكسروه بشئ من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشئ كثير من الحرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الاسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه * ولما أنجز يعقوب ساهى ما رسم به الجنرال وود نخل بين يديه وخاع سيفه وسله اليه وقال لم يكن فيما فعلته الى الآن مع أصحاب الثورة الا طاعة مولاي الحديدوكمال الاخلاص في خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابي فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال الى كلامه بل قال له وما الذي جرى للقائمقام الايطالى ماسيو بولشي الذي نزل من بضعة أسابيع من مراكب الحرب الايطالية ولحق بعرابي في كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال الى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو في زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذي أطلبه قال ذلك وسلمه الى نفر من الانجليز فساروا به الى الاسكندرية ليجازى عما فعل * واستسلم أيضا من كانوا في رشيد وحصون أبي قير والبرلس وطابية أشتموم الجبل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى في عسكره بالخروج لخروجهم بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والتاريس وجدوا في تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجبل وبقية الحصون ففترت همهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يفلح عبد العال في ردّهم وجاء الخبر بذلك الى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد الى دمياط فلما وصلوا السفانية ارسل كبيرهم الى عبد العال يقول لانا لم نحضر الى هنا الا لنأخذك كرها اذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول اني مريض فعبر كبير الانجليز النيل الى دمياط في قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الانجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل الى السفانية ووضعوه ليلته تلك في إحدى عربات البضاعة والجند يخفرون وأصبحوا فسيروا به الى القاهرة وأنزلوه في سجن أحمد عرابي ومن معه وهي دار أعدوها لهم بجوار جامع أربك عند رأس الارزبكية

مطلب
امتناع عبد العال
بيك أبو حشيش من
التسليم لعساكر
الانجليز وما جرى له

مطلب
ما فعله الانجليز
بعد دفع القلاع
والحصون

وفعل الانجليز بدافع الحصون والقلاع جميعها مالا خير فيه وألقوا جميع ما وجدوه في المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد في النيل وقد كان شيا كثيرا جدا

وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالانجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم * فلما تم للانجليز ما أرادوه من نفس مواقع كفر الدوار وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الاسكندرية الى أبي قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجبل وما بين هذا كله من المعقل والابراج أنزلوا عسكرهم في جميع المخافر ومراكز الأربطة بالاسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون في الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم في الطرق والشوارع العمومية وأما كن اللهو والقصف بخطة الازبكية والعبدة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحسكون فيهم ويمارحونهم أو يشوشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم الى المعسكرات فكان مقدمهم يرسل الاوامر تباعا الى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع في الخانات والتشديد على باعة الخمر والمسكرات بالامتناع عن بيع الرديء منها اليهم والا بولغ في عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة اذ تغشت الحيات الخبيثة بين العسكر كافة في قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفي سائر المخافر حتى في مساكن الضباط فأنشؤا الشفابخانات (وهي بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلاّت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقلات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الانجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعرف بالحنان الحزن والحنان فاذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوادهم سيروا جواده خلف العجلة التي تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاءه في ركاب السرج بشكل يخيل للرأى أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة اذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحوهم من الامام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئا من الضجر فاذا وصلوا بالميت الى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه وربما رثوه بشئ من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم في الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفًا كما أتوا وكانت المنية يشتد فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندي فأهلكت منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدم الجيوش ورسم بارجاعهم الى أوطانهم وجاءه الامر بذلك فأخذوا يرحلون طائفة بعد أخرى الى مدينة السويس ومنها الى الاقطار الهندية على ظهور النقلات والسوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبولىجون بالعباسية وهم في ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب الى عاصمة الانجليز فيتمثلون بين يدي امبراطورهم فتنهثهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن في قتال العراقيين * هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التي دخلت فيها الجيوش الانجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان

الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الاعراس والافراح والولائم وهم فى شغل عن كل ماسوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابارته القاهرة بجيوش الفرنسيين سواء بسواء فكان مدارك القوم هداهم الله لم تتصل الى شئ من الترقى من ذلك الحين الى الآن وفى ذلك مافيه من العجب العجيب

ونفض أصحاب صحف الاخبار من الانجليز يفصلون ويقبسون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والاطراء ثم جعلوا يعرضون بذكر حروب بونابارته مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ملاقته جنود بونابارته من التعب والموت بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الانجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدوا أفعال مقدم عسكريهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعيب وقالوا ان الصورة التى هجم بها قائد الانجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلط بالغة حد الطيش الذى ما بعده الا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محسنا يحسره على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط العدو من احدى الدول الأوروبية فان اسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وان خروج مقدم عسكري الانجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى املا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجنود واسراعه وإيادهم الى منتصف الليل ثم تربصه ثم اسراعه لمن أكبر الأغلاط وأنعس المناورات وقد عابوا أيضا طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا انها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الامر وشئ متفق عليه بين قائد العساكر الانجليزية وبين أحمد عرابى ومن معه من زعماء العصابة ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الانجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فن ونظام عسكري * وكتب رجل اسمه جون نينى كتابا فى هذا الصدد يقول فيه * ما لى أرى اخواننا الانجليز ولا سيما أصحاب صحف الاخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبون كرامة لمقدم عسكريهم مع أن الامر ليس فى شئ من ذلك البتة لانه لما اشتدت الازمة واستحكمت على جيوش الانجليز حلقات الضيق قدم الى أحمد عرابى فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بان الانجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيمشرون بعد ذلك الى بليس ليفتحوا الطريق منها الى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابى فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بليس جهدا الاستطاعة كي لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابارته عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك وأرسل الى طلبه عصمت مقدم جنده كفر الدوار يستمده ويقول له أرسل الى المدد بحيث

يكون وصوله الى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت
جبهوش الانجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها الى بليس
ليفتحو الطريق الى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الاجل المضروب ودخل مدينة
الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جنسدا شاردا كالابل الابقة وأشلاء قد
غطت وجهه القضاء وقد تم الامر للانجليز وفر أحمد عرابى هاربا الى القاهرة فعاد المدد مع
من لحق به من الفارين الى القاهرة - قال - ومن العجب العجيب أن فى الليلة التى
دخل فيها الانجليز معاقل العربيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا
صوت أول طاق خرج من بنادق الانجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبةهم وجعلوا يدوسون
بارجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن
عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر
الانجليز وهم لايزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعل الانجليز فيهم السيف كأنهم
يفاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرمي على الانجليز فأصلوهم نارا
حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الانجليز قد قبضوا على كثير
من صغار الضباط المصريين وكبارهم عند ما هموا بالفرار عما أخذوه من الرشاوى والبراطيل
فأذاقوهم كأس المنون بحيث لم يربى جثثهم جثة واحدة أو شياً من مشامش أحد العربان
الذين كانوا كما قائما على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم
يكن ثمة ما يدرأ عنهم فى تلك الساعة نيران الانجليز غير أنهم كانوا على عهد مع محمد سلطان
باشا وبينه من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجيب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان
سبق الى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم
مدججون بالسلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوما موقف المسئول فليقل لنا السادة الانجليز هل
بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم ينكرون على جماعة العربان
ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لانسمعهم يرددون آيات الشكر
والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الزمان حتى أزال به ما كان يتخلل
طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يترصد لهم من المراكب والهملكات - قال -
والحق أقول ولا أخشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين
ألف مقاتل كاملى الآلات والعدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى
ثلاثة آلاف من المصريين وبينهم قليل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهشة من النوم
فانه لما كثر صياح العربان عند دنو الانجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبةهم
خرج سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى هذا
النزر القليل وعليه فأنى لم أر فى نصره مقدم الانجليز على مواقع التل الكبير شياً يستوجب
الاستغراب أو التفاخر والاعجاب اه بنصه

مطلب
ما كانت عليه
المنافسة بين الباب
العالي والورد
دوفرين بشأن
ارسال العساكر
السلطانية الى مصر

وقد كانت رحي المناقشة الى يوم دخول الانجليز مواقع التل الكبير دائرة ما بين الباب العالي والورد دوفرين سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحمد عرابي وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية في المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخفي وإخفاء الظاهر المشاهد لانه بعد أن كانت انقطعت المخابرة بينهما بشأن ارسال العساكر السلطانية الى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بهما من سلطان ووصل الى المابين الهـ ما يوفى الخبر بقيام الجنرال ولسلي مقدم حملة الانجليز بعسكره من الاسكندرية الى مدينة بورسعيد وأنه قد احتل القنطرة ثم الاسماعيليه وأنه أخذ يقاتل العربيين تباعا وأن مساعي محمد سلطان باشا في استمالة العربان الى طاعة الخديو قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة الى فتح باب المخابرة مع السفير بشأن ارسال فريق من العسكر السلطاني الى مصر وألحوا في الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد الى المواربة في القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فأنظروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذي عوجبه يرسل السلطان عسكره قبيل فأنقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياما أخرى * وكان الانجليز قد سيروا بجاعة منهم في هذا الحين الى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيول والجمال لملتهم على مصر فأرسل الباب العالي الى عماله بالولايات يحذروهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الانجليز من أهل البلاد في خدمة هذه الدواب وألقوهم في الحبوس فجاء الخبير بذلك الى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الأعظم في ذلك وبالغ في الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالي والمابين وما زال يغدو ويروح حتى رسم السلطان في ثامن شوال باطلاق أمر البيع والشراء في تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا في الحبوس بسببها وأرسل السلطان بعيد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص الى السفير يسأله أن لا يكون نزول العساكر السلطانية المزمع ارسالها الا في مدينة الاسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلهم في الامر فلكموه طويلا وبعد أخذ ورد قال السفير انه سيبليغ هذا كله الى كبير السياسة الانجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضا على جميع الاوجه التي كانت سببا في الاختلاف ورفع السفير الامر الى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان في اصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابي وشقه لعصا طاعة الخلافة قيل فتملئ السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو في الامتناع ورسم الى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهتفون على السفير الامر والسفير لا يزداد الا تشديدا في الطلب وسير الى الصدر الأعظم يوما من يقول له ان دولة الانجليز لا تعتبر ارسال العسكر السلطاني الى الاسكندرية أمرا مقضيا وأنه لا يصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابي ومن معه وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الانجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الاسكندرية فكبير الامر

على السلطان ورسم الى الصدر الاعظم بعبادة السفير وفتح باب المخابرة معه وأنه متى تم ارسال العساكر السلطانية الى الاسكندرية رسم السلطان بعصيان أحد عرابي وطير الخبر بذلك الى الاتفاق فعاد الصدر الى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف ونابر على الكلام مع المجاملة لعله ينال أربابا فلم يفلح قيل فإرسل الى الولاة ثانية بمنع من خروج دواب الحمل للحملة الانجليزية على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياما فإرسله الصدر الاعظم في ذلك فامتنع وقال لا سبيل الى ما تطلبون فسير اليه من يعله بأن أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبي قير عوضا عن الاسكندرية فاذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحد عرابي ومن معه فاطهر السفير رضاه بهذا الشرط ولكنه طلب قبل كل شيء أن يتفقد الامر لساير الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم - فاجابه الصدر الى ما طلب وشاع الخبر بذلك في دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للواربة والتكلف لاسيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بمقدم العساكر الانجليزية وتغلغلهم في جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان اليهم * فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة الى دار سفير الانجليز وأعلمه بان أمير المؤمنين مبال كل الميل الى التجميل بتسمير عساكره الى أبي قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير في ذلك اليوم وجهها باشا ولا صدرا رجيا فانصرف عنه وعاد اليه في ثاني يوم ومعه كاتم أسرار السلطان وقال الخليفة يقرئك السلام ويقول انه لم يكن ليأف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الانجليزية كما هي اذا تساهل في نزول عساكره السلطانية بمدينة الاسكندرية كما أنه لا يحجم أيضا عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله الى الفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الانجليزي قائدا ثانيا ولا يمنع من أن يأخذ معه من الضباط الانجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية في ديار مصر في هذه الحملة تحت المراقبة الانجليزية كما كانت أيام حرب الروسية * قبل فرفع السفير محصل هذا الكلام الى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه الى الصدر الاعظم وجعل يطاول ويحاول الى ان وردت اليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الانجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط ارسال العساكر الشاهانية الى مدينة الاسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعي والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول ارسال ألفين منهم وتنزيلهم في أحد مواقع ترعة السويس * قبل فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جدا لاسيما وقد جاء الخبر في هذا الحين الى المايين والباب العالي بتغلغل ولسلي وعسكره في جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم الى جهة الانجليز فأرسل السلطان الصدر الاعظم الى دار السفير يقول ان أمير المؤمنين يقبل

تزييل عسكره في مدينة بورسعيد وأنه في مقابلة ذلك يتعهد باصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابي وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا فلما كان رابع عشر شوال سار السفير الى الباب العالي صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد ابرامه بشأن ارسال العسكر السلطاني ودخل الى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور فرمان الشاهاني القاضي بعصيان أحمد عرابي فسر بهذا الخبر سرورا عظيما ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال انه لم يتضمن شيئا البتة من الاسباب والقواعد التي وقع الاتفاق عليها فراجعه الصدر الأعظم فلم يلتفت اليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضي بارسال العساكر الشاهانية الى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهون عليه وقال لا بد من ارجاع كل شيء الى ما وقع الاتفاق عليه وسأله ان يطلع على ما في ورقة العهد فأطلعها فاذا هي لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبجح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس الا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك وقال للسفير وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شيء من الموارد فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذي أبرم بيننا انما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب اذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب في تلك الورقة مانصه **﴿﴾** ان حكومة جلالة الملكة تبجح للعساكر السلطانية الرحيل الى مدينة بورسعيد ومنها الى الموقع أو المواقع التي يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمي الجيشين اه **﴿﴾** قلت **﴿﴾** وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها الا حيث يأمرهم مقدم عسكر الانجليز **﴿﴾** فأبى السلطان عليهم ذلك وقال لا بل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعد السفير بتبليغ هذا الكلام الى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصد لهم من الخيبة لاسيما وقد جاءتهم الاخبار يومئذ بقرب تغلب الانجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طبروا الخبر بعصيان أحمد عرابي وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كما تقدم القول وفي سادس عشر شوال سار الصدر الأعظم الى مقر سفير الانجليز متأبطا بعض الاوراق وصورة من العهد المتعلق بارسال عساكرهم الى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكله في الامر وقال قد رسم أمير المؤمنين بان لا يمكن التغاضي عن عدم ذكر هذه العبارة في بنود الاتفاق وهي « ينزلون بمدينة بورسعيد » فأبى السفير عليه ذلك وقال لا بأس من أن تأتي على تفسيرها في سطور المذكرة بهذه العبارة « تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكي تتمكن من الدخول من خليج السويس » وكانت تلوح على وجه السفير في هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان في كل لحظة يدخل عليه أحد بطانته فيكلمه مما فكان تارة يحمر

مطلب
صدور الفرمان
السلطاني بعصيان
أحمد عرابي ومن
معه

وجهه فرحا وأخرى يصغرو جلا ورجال الدولة في شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل الا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياما أخرى * فلما كان تاسع عشر شوال وردت الاخبار الى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العربيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره الى الاتفاق فجاءه في ذلك الحين الصدر الاعظم وناظر الخارجية وكلامه في أمر ارسال العساكر السلطانية الى بورسعيد وفي تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيئا مما حل بالعربيين فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لارسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا باهل الثورة ظفرا مبينا قيل فأظهر الصدر الاعظم استغرابه من هذا الخبر وقال وكيف ذلك فقال السفير نعم وقد أتاني الأمر بأن أسترجع صورة الاتفاق التي قد كنت بعثت بها الى المايين واقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تؤد أن لا تعمل الا ما فيه ارضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنهم لم تغير قط شيئا من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية إى نعم وان حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة وعليه فأتى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الاجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لاقته العساكر الانجليزية من التعب أمام حصون النبل الكبير وجعل يببالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا في ارجاع الهدوء والطمأنينة الى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها الى أن قال * ولقد زادت هذه الضحايا في نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه مسؤولية عظيمة لا يمكن التخلي عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديو البلاد في حاجة الى تدبير حكومته وارجاع سابق سلطته فلا يحتمل بدولة بريطانيا في هذا الوقت اجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم ان لا تبقى منهم أحدا في جوف البلاد متى سمعت الظروف بذلك الى أن قال * ولا أرى نفسى مقصرا في القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالاته على ذلك ولكن إغراض جلالاته عن الأمر في حين وجوب الاقبال والتزامه جانب التطويل في الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع ومع كل ذلك فان رباط المودة بين الدولتين لا ينقص أبدا فقام الصدر الاعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع في الاستانة خبر دخول جيوش الانجليز الى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الاعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمن بخس وقامت الفتنة في السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المايين ورمى كل رفيق بالغش والخيانة وانكشف من اسرارهم المضحك والمبكي وتكلم أصحاب صحف أخبارهم في

هذا الأمر وتوسعوا في القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فتعدهم
وهيدوهم فانكفوا وفي القلوب ما فيها وقد صدق من قال * وقد يغلب المقدر على التقدير
حتى تكون الآفة في التدبير فآله حسبنا وكفى

مطاب
ورسم الخديو
سائر المحافظين
والمديرين والمأمورين
الذين تولوا على
عهد أصحاب الثورة

ورسم الخديو بجمع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام
الوظائف على عهد أصحاب الثورة نخلعوا ورسم أيضا بصرف سائر العساكر المصرية
ورجوعهم الى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة الا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا
في خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتي رابع عشر
رجب ورابع عشر شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الاسكندرية وفي طنطا وأخرى
بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذي
ولى نظارة الداخلية الى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل
كل بلد ممن كان لهم يد في إضرام نار الفتنة فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات
وهم في آنس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق في أديهم بالمتهمين من كل فج عميق
نخاف الناس وأوجس كل شئ من عدوه وصديقه اذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى
رياض باشا وتراجوا على ديوانه وتسابق الغريم الى النكابة بغريمه والجار الى الانرار بجاره
لأقل سبب وأنشئت محكمة عرفية في القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى
رئيسها اسمعيل أيوب باشا فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم في جميع الدعاوى التي
ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها في ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا
لجنة عسكرية أخرى بالاسكندرية لتحكم أيضا في القضايا التي ترفع اليها من محكمتي
الاسكندرية وطنطا الخصوصيتين حكما قطعيلا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس
وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارين من المتهمين فكانت شدة عظيمة للغاية كل
هذا والخديو بالاسكندرية يتابع اصدار المراسيم باعادة النظام وترويج الاعمال كسابق
مجراها * فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديو من الاسكندرية الى القاهرة
فدخلها في الساعة السابعة عربى نهارا وكانت طوائف الجند من الانجليز والهنود مشاة
وربكا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد الى سراى عابدين فلما
نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كانت ثالت أولاد ملكة الانجليز * وكان هذا
الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الانجليزية * أطلقت المدافع من قلعة
الجل وفسحة المحطة تباعا وصعدت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند بأصوات
التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار اليه
وجلس أمام الخديو ولسلى مقدم الجيوش الانجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل
جنرال الانجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وبكار
الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء

مطلب
مجيء الخديو من
الاسكندرية الى
القاهرة وما كان
من وراء ذلك

العامّة المتواصل وزغاريت النساء من أعالي البيوت حتى تزل بمقرّه بعاشرين وأمر فعملت
الولائم والمآدب لكبار عسكر الانجليز أياما كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة
وصنف وأحدث نيشانا جديدا من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة
المصرية وأهداه لجميع الجنود الانجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير
ثم أتت جميع الجنود الانجليزية الى القاهرة فلم يبق منها الا نفر بالاسكندرية وبورسعيد
والاسمعية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا
قد أعدوا لذلك كشكا لطيفا في وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه
البيارق والرايات الراية الانجليزية فجلس الخديو بالكشك ومعه الجنود من أمامه تباعا على
أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الانجليزية وعلى
يمينه الدوق أوف كلوث فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت نظوئهم في ذلك اليوم الى
المرجى البعيد وجعلوا يتسألون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والاشارات
الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الانجليزي

وانقضت ليالى الافراح والولائم على أحسن ما يكون من الابهة والزينة وعادت الاعمال
الدوانية الى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الامور على أحسن ما يكون
من التدبير وقد رأى أن في بقاء جميع العساكر الانجليزية في جوف البلاد خطرا دائما
وكذا ملازما فكلم قونصل جنرال الانجليز في ذلك وكشف له عما في سياسة بقاء جيوشهم
بالقاهرة من الخطل وضعف الرأي وطال الاخذ والرد بينهما أياما حتى تقرير الاتفاق على
بقاء اثني عشر ألفا منهم بين القاهرة والاسكندرية وطالبت حكومة الانجليز الخريضة
المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبيا في كل شهر ما دامت
هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد قالت حتى يستتب الامن وتتوطد الراحة وتقوى
الحكومة الخديوية على القيام بشؤونها المالية والادارية منفردة * ثم رحل عن القاهرة
سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى الى عاصمة بلاده وقد
أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية
من المصريين الى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية) * ولم يكذب مستقر بالجنرال
المقام في عاصمة بلاده حتى قدم الى القاهرة اللورد دوفرين سفير الانجليز في دار الخلافة
ليستظر في تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الانجليزية فقبول بغاية الاحتفال
وأزله مع حاشيته وبطانته بقصر النهضة بشبرا من ضواحي القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل
الى دار قضاوى بيك يخططه الاسمعية فلأزمه بعض الاجانب النازلين بمصر من يدعون
العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو اصلاح شرفقصوا عليه ما وصلت
اليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتمه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد وجعل يوالى
الاجتماع تارة بالخديو وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف في شوارع

مطلب

مقدم اللورد
دوفرين الى ديار
مصر وما كان من
وراء ذلك

القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على هذه الحال أياما ثم حرر تقريراً في غاية التطويل والاسهاب وقسمه الى أبواب وفصول دقن فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والادارية والقضائية وما ينفعها من التنظيمات الداخلية وبالغ في اظهار حاجتها الى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أولاً ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة في حالة أقوى وأكمل مما هي عليه الآن ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى ادارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين * قال وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم * وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الاجانب والاهلين وانشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شئ من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هي مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الأوروبية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس * هذا أهم ما جاء في تقرير دوفرين هذا فلم تتناوله الايدي حتى قابله أصحاب صحف الاخبار المحلية بالسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات والاسميا ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه التكبر ورموه بالخلط والخطب وقالوا انما هي سفسطة نقلها عن رساله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف التزلاء فيها الذين لا خبره لهم ولا دراية بالامور فما هو الا كلام في كلام في كلام . فلم يلتفت دوفرين الى هذا كله ولم يعبأ به وعاد الى الاهتمام بامر من كانوا في الحبوس بتهمة الاشتراك في الفتنة وقد غصت بهم وضائق اذ بلغت عدتهم يومئذ ألفا ومائتي مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمي وأحمد عرابي وطلبة عصمت ومحمود البارودي ويعقوب ساعي وعبد العال حشيش وعلى فهمي وعلى الروبي وغيرهم من كبار العصاة ومقدمي الثورة فكلم مصطفى رياض باشا في ذلك وسأله التعميل في أمر أولئك المتهمين وفك قيود البريء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لانه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أو كلمة سابقة لكلامه فلم يلتفت الى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مفر دوفرين من أصحاب الحبوس يعددون فيها ما يقاسونه من ألم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسايتهم وذرائعهم الى مقره ليكون ويتوجهون اليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرأفة بأهلهم فهال دوفرين أمرهم وأحزنه وقيده جماعة من كبار ضباط الانجليز بتفتيش جميع السجون التي بالاقليم القبلي والبحري وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لاسميا حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم الى الخديو في العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فاجابه الى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط الا من كان منهم في مظاهرتي غرة ربيع الأول ورابع عشر

مطلب
احصاء اللورد دوفرين
لن في الحبوس

شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحه حادى عشر يوليو سنة اثنتين
وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية
الى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وما عدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم
بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحه حادى عشر يوليو المذکور فسكنت عند ذلك خواطر
الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف * قال بعض الكتاب * فلم يرق هذا فى عيني
مصطفى رياض باشا وأغضبه فتزع الى التفرد بالأمر وعمد الى معاكسة اللورد دوفرين
فشدد فى تعقب أعمال أحد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء
ذلك وأدرك ان العاقبة انما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه وفى ذلك نكت لعهدهم معه
فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك الى
محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العيث بالنظام الذى جاءت
الجيش الانجليزية لتثبت أركانه * قال المستر شارلس رويل أحد كبار الانجليز فى كتاب
ألفه فى حوادث مصر الأخيرة * فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى الا معاقبتهم بغير
تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على اجراء التحقيق والتزام جانب
العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ الى حد لم
يطبق معه السكوت فسار الى مقر اللورد دوفرين وكله طويلا واحدد وأغلظ فى القول
فلم يرم من اللورد دوفرين أدنا واعية ولا وجها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف
باشا وكله أيضا فى ذلك فقال الوزير لا بد من التحقيق ورفع الأمر الى محكمة فكاد مصطفى
رياض باشا يتمزغ غيظا وسأل الوزير أن يقبله من منصبه فأجابه الى ما طلب بغير معاودة
وقد قيل فى أمر تغريبه من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين
أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته الى محكمة لتحكم عليهم بما تراه
أمرا مقضيا لا راد له

مطلب

حصول الخلاف

بين رياض باشا

واللورد دوفرين

وتتزيل مصطفى

رياض باشا من

منصبه

وكان لما أخذ الانجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك
فى حينه وأتوا به الى الاسكندرية أوصل المستر مالت قونصل جنرال الانجليز الى اللورد
جرانفيل زعيم أوصاحب سياستهم يقول ان الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى
ان من مواجهه تسليم جميع الاسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال الى سلطة وتصرف
الخدو فأجابه اللورد جرانفيل الى ذلك بشروط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على
ذلك حكومة الملكة فاعلم القونصل الخديو بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى
حقهم قبل أن تعترف به دولة الانجليز * فلما كان سلخ ذى القعدة قدم الى القاهرة رجل اسمه
مارك نايبير من كبار علماء الشريعة الانجليزية ومعه أخرا اسمه ريشارد آيت وتقدما الى الحمامة
والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فنافع فى ذلك الوزير محمد شريف
باشا وقال ان الشريعة الممولى بها فى بلاد مصر لا تنبج للجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا

مطلب

مقدم مارك نايبير

من أصحاب شريعة

الانجليز للدفاع عن

أحمد عرابى

اجراء

اجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب في هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام الى المسترمالت فرفعه الى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار اليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابي ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ ورد طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامي عن أحمد عرابي مصرياً لا انجليزياً فلم يقبل اللورد جرانفيل وأعاد القول بتلك الدفاع عن أحمد عرابي الى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الاكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الاخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رضى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الانجليزية رغماً عن كل مكابرة وعناد * وانقسمت الآراء وتباينت الأقوال في أمر دفاع الانجليز عن أصحاب الثورة ومحاماه كبار شريعتهم عن أحمد عرابي فكان الناس في ذلك على طرفي نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشرعية البلاد ومنع دفاع الانجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من محيب ونزع في عاصمة الانجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بألسنة أقلامهم واغدا التاه والإنسانيتاه وامرجتاه وكان في مقدمة هؤلاء القوم السفير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه ونجاء بلانت هذا برجتل من أصحاب الشريعة الانجليزية اسمه برودلى وقبده بالدفاع عن أحمد عرابي وكان هذا الرجل من موظفي حكومة الهند ثم انفصل عنها وخلق بيلى تونس مولاي حسن باي فقدم القاهرة في رابع عشر ذي القعدة وطالب الاجتماع بأحمد عرابي فلم يسمحوا له بذلك فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الانجليز فاعانهم وزرع الى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابي وبقية أهل الثورة علنياً فطال بين الفريقين الجدل وكثر القيل والقال وأبى القونصل الا ما أراد وما زال حتى تقررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابي وأصحابه وعن يشاء من بقية المجرمين الى برودلى هذا وتقييد بورلى بئك أحد محامى الحكومة بأقامة الدعوة العمومية ثم تقيدت أوجه التهم وأشباهاها فكانت - أولاً - تهمة أحمد عرابي وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رضى كاتم سراً أحمد عرابي بكل ما حدث من الاضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طواحي الاسكندرية في يوم الاربعاء خامس عشر شعبان ثم اخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة واضرام النيران فيها بينما كانت تلك الزاية تحقق على حصونها - ثانياً - تهمة أحمد عرابي وطلبه عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رضى وعلى فهمى بتخريض الناس وحضهم على حل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وما ترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء البرياء من النساء والاطفال ثم تهمة أحمد عرابي

ومحمود فهمي وطلبه عصمت ومحمود سامي باستمرار القتال ومحاربة الانجليز بعد علمهم باتمام الصلح وتقرير قاعدته * وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمة طنطا والاسكندرية واشتد أصحاب الشرطة في البحث على الفارين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة

فلما كان سابع ذي الحجة انتظم مجلس التحقيق فأقوا باحمد عرابي ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لا يرى على وجه أحمد عرابي شيء من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ القلب وكان اذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقيح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم الى هيئة المحكمة كثيرا من الرسائل التي كانت تأتيه من كبير المايين الهمايوني ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد امام السراي السلطانية وكلها استنهاض وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان واعلاء كلمة السلطان في داخل البلاد * قال احد الكتاب العارفين بحقائق هذه الامور بعد كلام طويل * وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الانجليزية وفازت في دار السلطنة عاى احمد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فانه ما تظاهر أحمد عرابي بمظاهرة الحربية بميدان عابدين التي لم يكن القصد منها الا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الانجليز الباب العالي على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية في بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالاماني البعيدة التي منها محو امتيازات عائلة محمد علي باشا الكبير واعادة مصر الى ولاية عثمانية خاضعة تماما للباب العالي ان هو عمد الى تعضيد أحمد عرابي وأصحاب الحزب الوطني - قال - ولم يقف أرباب السياسة الانجليزية عند هذا الحد من التفرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضا الى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الخطوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالي في ارسال جيوشه المظفرة لانقاذ نار همدى الثورة التي لا يقوى على انجادها الا العساكر العثمانية فاغتر الباب العالي بذلك أيضا واندفع دفعة أخرى في غير طريق الهدى وسير الى القاهرة جماعة من المايين والسراي السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندي ليؤكدوا الى أحمد عرابي ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فقتلوا عند ذلك أحمد عرابي وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فالت اليه قلوب أهل البلاد واسمأل اليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد اه وقدم أيضا أحمد عرابي الى هيئة المحكمة عدة محاضر موقعا عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضا بمعنى ما ذكر الى رئيس المايين الهمايوني فأعجبت هذه

الاوراق جماعة الانجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالحمامة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الانجليزية وجماعة من أصحاب الكرامة فى دولتهم اذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشدون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخدعة والمكر فتبدلت عند ذلك الاحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور الى طور وما زالت الامور بين أخذ ورد واقبال وادبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق الى برودلى يقول قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق حالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى * وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم الى المرحى البعيد وكلهم تجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الانجليز

مطلب
محاكمة أحمد عرابى
ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع دسمبر ختام سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الانجليز وكبار ضباطهم وكأب صحف أخبارهم وجميع قناصل الدول وكانت أمارات الهيئة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن الاشاعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدثت بهم العيون من كل جانب وتمللت الوجوه فرحا بوقوفهم فى موقف الجراء فأشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال * يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى فهل تعترف بانك مذنب أم لا فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناولوه ورقة فآخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا * أعترف بارادى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن * فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس * انفضت الجلسة مؤقتا وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر * ولم يحضر فى ذلك اليوم بورلى بيل المدعى العمومى لى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من القضايع وما ارتكبوه من الجرائم ولا قام من يتكلم بدلا عنه فاندھش عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم الى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الانجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس

الى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن الا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين فلما صاروا في وسط الجمع أشار الرئيس الى أحد عراقي وقال اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ مانصه * حيث قد ثبت ارتكاب أحد عراقي باشا جنابة العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجنابة منصوص رمعاقيب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكري العثماني والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايوني * وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجنابة لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث في شيء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة الا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها في المادتين المذكورتين وهي عقوبة القتل * فبناء على هذه الاسباب * قد حكم باتحاد الآراء على أحد عراقي بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجنب الخديوي طبقا لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكري العثماني والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء آت الهمايوني ورفع هذا الحكم للجنب العالي للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضا على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحد عراقي المذكور * فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهلت وجوههم فرحا ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوي ونصه * قد اقتضت ارادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحد عراقي وطلبه عصمت وعبد العال حلي ومحمود سامي وعلى فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفي الى الأبد من جميع الاقطار المصرية ولحققاتها وان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية أو لحقاتها وأن يجردوا جميعا من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفراء وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينتظر الى بعض وكأن على رؤسهم الطير وجلس عراقي وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرو الصدور فتقدمت عند ذلك إحدى النساء الانجليزيات هي زوجة نابيير شريك برودي الذي تقيده بالحمامة عن أولئك المجرمين وهي بملابس الزينة والاعراس تناولت عراقي باقة من الورد الابيض اشارة الى الظفر والغلبة ثم صاحته ضاحكة فصاحها باسمها فاشتد تعجب الناس واستغرابهم وكبرعائهم بهذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصارييف الأيام * وأخذ العهد على أولئك المجرمين بالبقاء في الجهة التي تعينها لهم الحكومة بعبيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعا * فلما كان ثالث صفر رسم الخديوي بمصادرة أحد عراقي وسائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيئا يذكر ولم يتعرضوا الى شيء من متاعهم وكان كثيرا خصوصا متاع أحد عراقي وقد قيل انه كان يحتوى على شيء كثير مما نهبه النهاون من الاسكندرية مما خف حمله وغلائيه ولم يمسه بشيء كما أشار بذلك

مطلب
ورسم الخديوي
بمصادرة أصحاب
الثورة

وزير سياسة الانجليز ثم تأهب المجرمون للرحيل الى سيلان احدى ممالك الهند الانجليزية وقد كانوا يعلمون بانها ستكون دار اقامتهم قبل أن يصدر الحكم عليهم بالاعدام بأيام كثيرة كما هو ظاهر مما كتبه برودلى المحامى عنهم فى كتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عربى) أو (كيف كان دفاعنا عن أحمد عربى) فحملوا اليهم سائر متاعهم وذخائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صفر المذكور وكذلك حضر اليهم من شاء الذهاب معهم من نسائهم وجواريتهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا انفا وستين ما بين اثنا وذكور وساروا جميعا فى قطار مخصوص فى تلك الليلة الى مدينة السويس ثم أنزلوهم فى احدى بواخر الشركات الانجليزية وصحبهم بعض رجال الانجليز مودعين ومطمئين لخواطرتهم فأفعلت بهم السفينة بسم الله مجراها

وكلم اللورد دوفرين الوزير محمد شريف باشا فى أمر من بقى من أصحاب الفتنة فرسم الوزير بالتعجيل ففعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحكم على سليمان داود مقدم جند الاسكندرية بالاعدام شنفا لارتكابه جريمة احراق المدينة فضلا عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتباعد الى سواكن ومصروع وعلى البعض الآخر بالتباعد الى الشام وغيرها وكانوا كثيرين وعفى عن البعض وانفضت حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلي أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم اذ قام تجار الاسكندرية يطالبون الخزينة بثمن ما أخذته النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه ونزع قناصل الدول كافة الى الشدة فى الطلب لجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخابرة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على الزام الخزينة برد ثمن جميع مانهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة الى هذا الحين قد أمثلتها الحوادث وزادها انحلال نفقة الجنود الانجليزية القائمة بين الكفالة والاسكندرية فضلا عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الانجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوار فلم ير رجال الدولة بدا من الاستئذانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب وتقدم اللورد دوفرين الى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت رويشيلد انغلى الشهير بعاصمة الانجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماما عظيما كي لا يفشل فى سياسته بعد نصرته التل الكبير وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة باحصاء مانهبه النهابون وحرافيش الاسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشؤا لذلك ديوانا بدار محافظة الاسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطبروا خبره الى الآفاق فتراجعت على بابه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيا لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرتهم فردوا لهم قيمته ذهباً من ذلك القرض وما زالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون

مطلب
قيام تجار الاسكندرية
لمطالبة الخزينة
بثمن مانهبه النهابون

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل الى البناء واعادة ما تهدم فتوسعوا في العمل وبالغوا في الاتقان فلم تمض الا أشهر حتى عادت المدينة الى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلاأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد اليها من نزع منها من الاجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الانجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغربية فأتسع نطاق الاخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الامور الى سابق تجراها واتصلت العلائق التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والاسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة الا حديثها والحديث ذو شجون ونظم بعض الادباء في سير هذه الحوادث المهمة وما آل هذه الخطوب المداهمة كثيرا من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت اليه يومئذ الاحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الاعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحي التي عنوانها « صدق المقال في مثالب البغاة الجهال » وهي

تبين عقبى غيبه كل معتدى	وأسمى العرابي وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة	ويقرع بالاذلال سنن المسهد
فهلا رعى نساء كانت ظلاله	عليه وهلا قدوعى نصيح مرشد
وهل ندم الباغى اذا حم أمره	الى الحين يجدى بالرجاء المرد
بنى الجهل والطغيان كيف كفرته	بأنهم توفيق العزيز محمد
مايل توافيه الملوك انصره	بأنفسها غير الخيس المجرد
وهل غير احسان الخديوى عليكمو	سوابغ كانت من طريف ومثلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلله	وجاهرتو بالبغي في كل مشهد
ومن كان لا يدري حقيقة أمركم	أبئسه الانباء عنكم ليهتدى
ولست مريدا بالقوا في مصانعا	ولا راها من غائل أو مندد
فقد ألجئ الاحوال للمجزز حازما	كما تلبس الاحرار أثواب أعبد
ويدخل في عد النواصب خيفة الـ	ردى علوى حين لم يلق مفتدى
وما أنا الا ذاكر ما جنيتمو	كما يذكر الرائي فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتو	دفاتها ليللا بسر داب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جليلة	وحان جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبه عامدا	وبالرفت أسمى في عقال التلدد
ورب يتيم قد أكلتم ترائه	وأبعدتموه عن مجبر ومساعد
وقلم جنى ذنب اليعنى وتظفروا	باعدامه والمال يبق لذى اليد
وأرملة أتلتمو وجل مالها	وصيرتموها عرضة للنفد

وأظهرتم التوكيل عنها تسترا
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم
وفي مصر ساورتكم سراي أميركم
وجئتم تجزون المدافع حولها
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع
ولما تيقنتم بأن جزاءكم
وأجمعتمو كيد ابن ملجم اذ غدا
وألغتمو حزب الضلال يحوطكم
وقاتم عن الاوطان والدين انكم
وما كان للاوطان والدين آفة
وزدتم على ماهية الجند وافرا
وأنشأتمو قانون يربي معاشكم
يخالف أساليب القوانين وضعه
فأمست به بعض الارامل منكم
وغيرتم الضباط عرا بفاسد
ولقبتهم منكم عبيدا بخالد
وألقاب شتى من همام وقائد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو
يجزون أعقاب السيوف على الثرى
وصحتم الاضغاث بالوهم بينكم
وأبرتمو عهد التحالف بينكم
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه
ولما أتى الاسطول مصر مسالما
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم
وأوهم زورا أن فيكم بسالة
وهيأتهمو بعض الطوايى تمرا
فسبيتهمو احراقها وخوابها
وأنلفتمو الخرطوش من غير عائد
ولم تر منكم في سفين اصابة

على نهب محصولاتها والسترد
تضررتمو كالارقش المتوقد
وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
مرارا وأوريتهم زناد التمسرد
حصارا وأبرقتهم بأصوات مرعد
والفأس والشادوف وسمات باليد
هو القتل أعلمتم دسائس المجد
يحاول قتل الابرياء ولا يدي
بسترفيش بهتان وزورهمهد
تحامون في الجلى محاماة صندد
سواكم عليها اذ أتيتهم بمؤيد
ومن يستزد بالبعى ما شاء يزد
بتلفيتهم أحكام وقول معقد
ويرزى بيت المال ازراء محصد
لواء وأخرى كالفریق المجد
وسعدا بمشؤم وحرًا بأوغد
تريدون سيف الله بعدا لمعدى
وحامى حتى الهيجا وفارس معهد
كما شتمو في مسند بعد مسند
فنعرکه فعل السفیه الیلندد
وبالرغم سدتهم لا بفضل ومحتد
على الحرب ان فى اليوم تنشب أوغد
فاليتهمو إلا وفاء التعهد
وترى به الاهواء فى شر مسورد
أثرتم بريح البغى نار التعند
وأدمج غشا فى حماس مقلد
خاوتهمو بالجهل خطة أصيد
وهددتمو سيمور كل التهدد
وكانت حصانا بالبناء المشيد
مع الريح يدوى لالى الفلك يهتدى
تعلى نفس الحر عنده التهدد

وغادرتو قتلا كودون ملحد
 وصلتم على المستأمنين لتأخذوا
 وأخرجتم السكان من دور نعرهم
 وكم من برىء قد قتلتم بغيكم
 وكم ذات خدر قد ففختم وحامل
 وأحرقتمو منسية الثغر بعد ما
 وكان سليمان الغبي معينا
 فالكهول أحسن الله حالكم
 وخلفتمو في الثغر عارا ورختو
 وعادوكم بعض الغرور فاتموا
 وحاصرتو قصر الخديوي بعسكر
 وفي كفرة الدوار خلت مقامكم
 وحالفتمو ابليس فيها وقد خلا
 فصفرتو تها ونقر بعضكم
 وفي العزل والتنصيب والحكم جرتو
 سلبتم من الانحاء محصول زرعها
 وأطمأتم الاسكندرية حينما
 وكم محضر أمضيتوه بقهركم
 وأحربتم البلدان ثم صعدتمو
 اليكم اليكم انما قد تركتمو
 فهذه جيوش للنضال توأصت
 لنصر الخديوي أو لنقهر عداته
 وأضحت رحي طغيانكم في عديدكم
 بطالع توفيق المفدى وبغيكم
 وفي وقعة التل الكبير انهم زامكم
 أغارت عليكم فيه أول فرقة
 وما رابها الروبي هناك بخيله
 فأين الذي واعدتمو واذعيتمو
 فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم
 اذا كانت العورات يخفي ظهورها
 ولكن فضحت بالفرار كدأ بكم

وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
 بنار الطواحي من ضعيف ومقعد
 سراعاً بتهديد وضرب مبتد
 وكم من عزيز قد أهنتم وسيد
 جبهتم فأنفقت جلها دون مولد
 نهبتم وسرتم كالنعام المشرذ
 الى الحرق وقافا لذي كل مرصد
 هربتم هروب الارعش المتبلد
 بخزى لكم يبقى بدم مخذ
 الى الرمل ميل الغادر انتقصد
 وخيل توالت من يمت وأجد
 منيعاً فأظهرتم كين التحقد
 لكم جوقها في فدود بعد فدود
 ولاح لكم بيض به النصر يفتدى
 وكنتم لجمع المال أشره مجتدى
 وما لالهالي من لجين وعسجد
 منعتم وصول الماء من كل مورد
 وممنع أرهبتمو بالتوعد
 الى التل في جيش كثيف معدد
 الى أجل دون القصاص محدد
 بكل سفين مثل صرح ممرد
 لهم وثبات بين راغ ومزبد
 تدور عليكم بالكروب المهدد
 خذلتهم غداة الحرب في كل مطرد
 يعيركم في كل عصر مجد
 فطسرت شعاعاً كالهباء المتد
 ولا زار الذئب الكمين بمزقد
 به من ثبات في الوغى وتجلد
 وهلا قتلتم وهو خير لمزدي
 لدى البحث في ناد دقيق التفقد
 وكان العرابي بالهزيمة مبتدى

كدأب بنى كلب غداة تمكنت
 كدأب جهول باع ثورا لبومة
 لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم
 ورقا كمو بالمكرمات فخدمو
 مطايا العلى في الخطب تنجوا بصادق
 بين الخديوى مصر كانت لاهلها
 سقاها نعيم النيل صفوا فأزهرت
 تدبرها للسلام نظار مجدها
 فعهد رياض كان يزهر نضارة
 وقد حذراكم ما استطاعا فخنتمو
 تضالونه جهلا ومكرا يضللكم
 وما زال في أمر^(١) البريئين أخذا
 الى أن هوى بعد العتو ولا لعا
 جعلتم^(٢) لذى الداءين فيها رئاسة
 وهل ميت الاحياء يربحى لمعظم
 بمنشوره البرقى هيج فتنة
 كأن له في الامر حق تصرف
 لقد زاد في الظنهور أنكبر نعمة
 ولولاه ما حاز العصاة من القرى
 فقل للعربى ان رؤياك صادفت
 وتأويلها بالحبس تلقى اهانة
 فيا كل مشؤم ويا كل غافل
 أراك درست البغى بالجهل كاملا
 وسلمت سيف الدل في مصر صاغرا
 فلو كنت تجزى بالذى تستحقه
 تقدم عربى وأرق أعواد واعظ
 ومثلك في ذا الحكم كل مجاهر
 ولكن عفا عنكم أمير تعودت
 له الفضل أما أنتمو بفضولكم
 ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم
 وان تبعدوا لا قرب الله داركم
 بنو أسد منها بضرب المهند
 وقبده في غصنها المتأود
 من الحلم ما يوهى صلابة أقود
 وكل لثيم ان رقى يتمرد
 وتكبوا بعتل السريرة أحقد
 عروسا تجلت في كساء زمردى
 وراقت بنى الدنيا بوجه موزد
 وأحكامها تبدو بعدل موطد
 وكان شريف للعلى خير منجد
 وأخفى بكم ساعى أشتر مقلد
 وكل با آراء المضلين مقتدى
 بقول العربى مظهره للنشدد
 لعثرة باغ في الحماقة أوحدد
 فعرضتموها للسدواهى بأجود
 من الامر في يوم من الخطب أسود
 وأسند عهد الحكم في غير مسند
 وصيره فيكم بقصد التودد
 بها أرق المحزون صوت المغرد
 مغانم شئ غير رفد ومرفد
 ولكنها وافت على غير مقصد
 ويعقبها شر يسوءك في غد
 لك الويل من عاد عن الرشد مبد
 وفي الحزم لم تبدأ بأول أبجد
 فياشؤم سيف فى الوغى لم يجرد
 لناداك داعى الحكم غير مرزد
 بصمت وقبل الارتقاء تشهد
 بينى على عدل العزيز المؤيد
 خلائقه الاحسان كل التعود
 تعيشون أمواتا بزلة أنكسد
 وغص بنوكم بالقراح المبرد
 ولا دار من والاكو فى التحييد

(١) البريئين

يريد بهم جماعة
الشراكة

(٢) لذى الداءين

يريد به راغب باشا

فبغيتكمو أبقى عراقيل جسة
فسيروا الى أرض الجزيرة حينما
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا
فقل في جواب السائلين مؤرخا
سنة ١٣٠٠

٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢

يعيش أبو العباس ذخرا لمصره
يعيش الخديوي مصلا لرسومها
وتسمو به الأنجال مثل جدودهم
ولا زالت النظائر تحمى ذمارها
وان تعرض الآراء من أى وجهة
أصالة بالرأى فى مصر أرخت

٩٢ ٥٩٦ ٨١ ٧ ٥٢٤

سنة ١٣٠٠

(وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثى فى ذلك أيضا)

كل حال لضقه يتحول
يا فؤادى استرح فما الشأن الا
رب ساع لحتفه وهو ممن
قدر غالب وسر الخفايا
غاية العقل حيرة وعقال
كيف تنسى وحادثات الالام
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا
كان اقلينا رياض صفاء
من رآه يقول توفيق مصر
قد أمتنا الزمان فيه ونمنا
تهادى فى ظل أسنى مليك
فسرت أعين الحوادث فينا
ورأى غيرنا من الحلم أمرا
واذا المرء كان بالوهم يبنى
ويج قوم سعوا لاندراك أمر
ما أصروا عليه الا أضروا

فالزم الصبر اذ عليه المعول
ما به مظهر القضا يتنزل
ظن بالسعى للعلی يتوصل
فوق عقل الأريب مهمما يكمل
واللبيب الذكى من قد تأمل
فاجأتنا بكارث ليس يحمل
وذوى مريع الخطوط وأحمل
فيه للواردين أعذب منهل
أبصر الناس بالأمور وأعدل
آمنين الخطوب لا تمل
من سحباياه كل خير يؤمل
فاطر حنا الوفاء والامر أعضل
غره فابتغى الذى لا يحصل
نخيل الظنون ما قد تمثل
دون ادراكه الجبال ترززل
بأناس من نابه أو مغفل

ذاك يسعى على التقية خوفاً وسواه يسعى لكما يحمل
 لو أصابوا الرشاد عند ابتداء كانت الغاية الجيلة أمثل
 وكفينا معرة أوبقتنا فاستوى شائك السلاح وأعزل
 آه من رقدة الحلووم ودهر أيقظتنا صروفه اذ تبدل
 كانت الناس في ظلال نعيم تجتني من ثمار غصن نهـدل
 مالنا لم نغم بجحد وندعو من عدا المهتدي وننصح من ضل
 مالنا كلنا سوى القل منا قد سلكنا سبيل غاو مضل
 قد تساوى الغبي والمتعابي وعليم من جاهل صار أجهل
 قد جبننا وصاحب الجبن جان وهو بالطبع في الانام مرذل
 لورزقنا السداد لانسد باب وحققنا دماء قوم تحلل
 كان ياقوته المذاب مصونا فسقينا به الثرى اذ تمهل
 كم غرسنا جاجا وجسوما وجنينا الاسى بزلة من زل
 ياترى من يقوم عنا بعذر اذ أطعنا الغواة في كل محفل
 حيث حدنا عن المليك وخفنا سطوة من عداه والقطر مقفل
 حيث لا يرفع البريد شكاة وسلوك السلوك صار معطل
 حيرة أدهشت أولى اللب حتى ما اهتدى للصواب منهم محمل
 ذاك سر القضا وليس عيبا أن يحار الاديـب فيه فيذهل
 غير أنا لما أفقنا أرقنا من شؤون العيون دمعاً تسلسل
 وبسطنا اللسان في ذم قوم ان ذكرناهمو نعص ونخجل
 ومددنا أكف ذل لمولى شأنه البر كم عفا وتطول
 آل مصر بغيره لا تلوذوا اذ هو الملبأ الملاذ لمن زل
 يا عظيم الجناح يا خير ملك سعهه قد أباد من قد تقول
 من بغى والوغى أثار فيكم في طلاء الحسام فالسيف فيصل
 واجعل العدل عادل الرمح فيهم نافذا قدر ما يعمل وينهل
 واسقهم كالذى سقينا إنا قد شربنا من بعد بعدك حنظل
 واغتفر زلة لمن جرغما لبلاد ولا منيع يؤمل
 كم مليك عفا وأنت المفتدى فوقهم همة فلا تتعجل
 وامنح الناس من سجاياك عطفا واجعل العفو موضع الشكر واعمل
 بخدير بجحد ذات الحديوى كل فضل وليس للعذر محمل
 فابق واستبق من رعاياك قوما أملوا العفو من حباك المسهل
 ان تدقق تدق أعناق ألف بل مثين من الالوف تقتل

والرعايا تضيع بين عدو وولى له الفخار المؤثر
 حاش توفيقنا يقصر عما ينشر الصفوفى البلاد وينقل
 سيدى لاعدمت شكرا سناه عيلا الخافقين ليس يعلى
 لا تكلف جيل طبعك أمرا غير ما فيه فهو لا يتحول
 كان ما قد أساء حلما فلما أصبح الصبح بالسرور تأول
 هذه مصر زينت واستعدت لسعيد الركاب لما تفضل
 وازدهت بالجمال حين تبدى موكب بدره بنور تهلـل
 موكب حف بالكواكب زاه من رجال أعزة قد تجل
 كلهم صادق شريف الطوايا نصتهم والخطوب تهل يبدل
 ما رأت مصر يوم بشر كهذا أى يوم بدا أغر محجل
 دمت للدين والدنا خير راع ولعباسك النجيب المؤتمل
 ما جرى بالفخار عندك حديث صار بين الملوك بالمدح أكل
 أو أشار الزمان للسعد أرخ الخديوى لمصر يأسعد أقبل
 سنة ١٢٩٩ ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصل

﴿ فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لارض الكمانه ﴾

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والانباء واحتلال الجيوش الانجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالاسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والاسمعية أن وقع أمران خطيران في نوعهما وعالمهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية في مستقبل الايام .

الاول - قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وابطال الكثير من مراممها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والاحداثات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها الى ذروة العمران والمدنية .

والثانى - سلخ الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرصعا للفوضى وعميت العائشين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والملتفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الاصقاع شرقا وغربا ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن انجاء ناراها بسبب الثورة العربية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يرض على مقدم اللورد دوفرين رسول الانجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الاحداثات وسن النظمات الجديدة آتيا الامور من أبوابها فرسم بانشاء المحاكم الاهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير

محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لان انشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى اسمعيل وأتوا لهذه المحاكم بمجموعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعاً لتطاول أيدي رجال الدول الكبرى الى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تهديدا للوصول الى حل عقدة المحاكم المختلطة وإذهاب سلطانها لانها عقبه كؤود فى سبيل بسط الحماية الانجليزية على البلاد وإخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت عنده المحاكم سيرا حثيثا واشتدت عزيمته رجالها جميعا بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحا عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل * وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب صاحب السياسة الانجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل الى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها الى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصدع دوفرين بالامر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقهم وقال لا يكون هذا الامر وفى عروقي قطرة من الدم فراجعهم دوفرين فلم يقبل فكبر الامر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز الى مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الاخذ والرد وبدأت علامات الوحشة وجعل مالت يكيد المكاييد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يترخذه عن عزمه شئ من ذلك ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استقره وأضاع صبره وتقدم الى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى الى ذلك بحضرة الوزراء وقال له أقبلت قبيل فالتفت الوزير الى دوفرين وقال انى برىء مما سيرا من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاؤون والله من وراء ما تفعلون * قال بعض الكتاب وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصدع نوبار باشا بالامر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر

(مطلب)
اعتزال الوزير
محمد شريف باشا
وتولية الوزير نوبار
باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعافيه واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الاخبار يلهجون بحمده فجاءت اليه رسائل التهاني تترى من كل فج عميق وزاره أصحاب السياسة من الانجليز والفرنسيين ليعرفوا منه ما خفى من الاسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامرات هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الانجليز فكتب يومئذ الى احدى صحف أخبارهم يقول * زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتقاله للرئاسة فإذنتنى طويلا فى جميع الضحايا التى ضحى بها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديار مضر املهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبه ثم قال لى وهو يتنفس الضعاء * قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه

مصلحة البلاد اذا قبلت الرئاسة ومع ذلك قلنا كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الانجليز فيما يتعلق بالاصلاحات فقط لا فيما عس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الاصمراع السودانية الشرقية والقبلية والا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الامة التى تعتبر ذلك أمرا ضروريا لحياة مصر وراحتها * وليس بخاف أنى كثيرا ما ضحيت بحبة الامة لى وتعلقها بى ارضاء لمطالب الانجليز ومع ذلك فالى اعتبر نفسى غير أهل لمنصبى اذا افتخرت بهذا العمل * أما زعيم السياسة الانجليزية فإنه لم يعمل عملا طيبا لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدي المهدي أكبر برهان على ما أقول لانه من المعلوم أن ترك السودان للمهدي مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزا قوى الجانب فاذا بلغ متمناه هذا فما ذا تكون يا ترى الواسطة فى ايقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند اسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا الى عشرين ألفا من الجنود ليقرب رباطا هناك فن ياترى يقوم بنفقة هذا الجيش نعم ان الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريبا على الابواب ولا أنكر عليك سيدي أن السودان كانت تكلفنا الشئ الكثير من المال غير أنه لاخسارة علينا اذا حافظنا على حدودنا بانفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الاصلية تستلزم ضم أراضى النيل الابيض اليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الاطراف وجعلها تابعة لديار مصر فعم مافعل وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأنينتها مدى الايام على أن النفقات التى تنفق على اقامة خط دفاعى على النيل الابيض لا تبلغ جزءا من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو اسوان وان خمسة عشر ألفا من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقله وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى رأى بل من قلة التبصر تضعية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسئولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم * قال الراوى ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال وماذا تفعلون ياترى أيها الانجليز بدعاة المهدي الذين أقسموا الايمان الغلائط أن يموتوا بحذ السيف أو يفتحوا مصر السفلى أما أنا فلم أفهم ما الحامل للانجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدي واحتلال السودان وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولما ذا لا يسمحون لنا بابقاء النيل الابيض فى حوزتنا كما كان ولما ذا لا يطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مرارا عند حاجته الى ذلك وانى أقول لك الحق انا لو أجلبنا المهدي عن الخرطوم لالتحذت المسألة دورا آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن الى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدي بأقوامه وها هو الزبير باشا قد أبى الذهاب الى دارفور والآن حيث انى

خلعت نفسي من الرئاسة وما دام أمر الجلاء عن السودان شياً مقروراً ولا يمكن التخلي عنه فلا بد أن حسين باشا ومن معه من العربان لا يتقدمون الى الامام وتفتقر عزيتهم تماماً - قال - واني لأخفي عنك أني ناظر الى المسألة من وجهها الحقيقي فلذلك أراي مشاهداً من بعيد جميع المصاعب التي تترصدنا فان نجاح المهدي أحدث تأثيراً قوياً في عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا انفاذ مانوييه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا في ذلك - قال وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون الا عند مباينة رأى الرئيس لا راء الاعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسبباً عن اتفاقنا في الرأى بشأن عدم ترك السودان نعم اني مع وفاق سلنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهي ايسر من أملاكنا الخالصة وما نحن الا قائلون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأني بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان في يدنا ضرب من الجور والظلم فاذا كان الامر كذلك فلماذا يا ترى جازفنا بانفاق الاموال الطائلة في ابطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الانسانية وان كنا قد أنفقنا الاموال الكثيرة في ذلك فانا والله المنة لم يعاوننا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة نعم اني صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكنني لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستكبد به البلاد من النفقة الثقيلة لاني سوى المحافظة على التجوم فقط ٥ قال الراوى ثم حلق الى الوزير بعينيه وقال اني أقول لك الحق اني حزنت جدا من جراء حادثة السودان ولكنني لم أصبر ونأرت على العمل وأجهدت النفس ما استطعت فلما أيقنت أني مشرف على هوة عظيمة جرعت ووقفت ثم خلعت نفسي من منصب الرئاسة وكان يوتى لويلعلم الناس كافة اخلاصى في الخدمة حتى النهاية ولكن بأبي الله الا ما يريد اه ٥ قلت فكان لمقالة الوزير غاية الوقع في نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وعدوها غاية في الاصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الانجليز والفرنسيين لاستكباب حقائق أفكاره فكان يحدثهم غير متعصب من عظيم أو كبير

وبينما كانت الظنون تتراعى الى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها الى أقصاها كان زعيم السياسة الانجليزية يتخبط في الامر ويعمل على سلخ السودان شرقاً وجنوباً لأقل الاسباب وأوهى العال ٥ ثم قدم في هذه الاثناء الى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الانجليزية اسمه الاميرال هيوت مبعوثاً الى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التجوم بين الاملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث في القاهرة أياماً ثم سار الى السويس ومنها

(مطلب)

بعثة الاميرال
هيوت الى نجاشى
الحبشة

الى مصوع فوصلها في آخريات جمادى الثانية من السنة اى سنة احدى وثلاثمائة وألف هجرية ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولاً قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدمه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه فعادوا وأخبروا بان اللقاء يكون في بلدة عدوة فسار اليها بن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب الى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبى عليها الاتفاق بين الدولة الانجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبت ينتظر الجواب أياما حتى جاء الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فاذا شاء المسير اليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الاميرال الذهاب الى مكله وسار بن معه الى عدوة فلما بلغوها لبشوا بها أياما فجاءهم أمير الجيوش يحمل الامر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاؤا بصده فوارب الاميرال ولم يتمتع بتاتا وأكثر من الاخذ والرد فيما لاطائل تحته وجاء الخبر بذلك الى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك الى عدوة وبارح مكله وعرج في طريقه الى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع الى مكله ثانية كل هذا والأمرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الانجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا * فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضا الى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو في زيه الملوكى فخادثوه طويلا في أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود ثم ودعوه ورحلوا الى مصوع وعادوا الى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الاميرال وماصون بيك محافظ مصوع قالوا انها هى تلك المعاهدة وانها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة للمملكة الحبشية في نقل جميع البضائع والاسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الانجليزية ثم اعادة بلاد بوغوس الى المملكة الحبشية مع كسلا وأما ديب وسنيت بما في جميعها من المباني والاسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لاولئك العساكر سبل الجلاء * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها في حين ان تلك البلاد آمنة مطمئنة لاخوف عليها من اغارات العدو فقال قوم انها غلطة من غلطات زعيم السياسة الانجليزية وقال آخرون بل هى آية من آياته يريد بها اضرار نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما او يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الانجليز لقمة سائغة وتضمه الى مآلاته من قبل على أنه لم يكذب ينشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزي والعار حتى ظهرت الاشاعة بتعاقد زعيم السياسة الانجليزية مع زعيم السياسة الايطالية على تنازل السلطنة الانجليزية للايطاليين عن مدينة مصوع بعد سلبها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الاحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود

الاطالبية التي تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف في وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل ان هم ظلموا على هذا الاغضاء والتعاضى * وكان ممن أكثر من هذا الصياح والخابية صاحب جريدة افرنسية اسمها اليوسفور فانه بالغ في الوقعة بزعم سياسة الانجليز وزاد في الطعن والسباب والخط من كرامته حتى استشاط جماعة الانجليز ولم يطبقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا انقبض على الرجل وابعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بالغاء صحيفته واغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسي في ذلك ووردت اليه الاخبار من وزير السياسة الافرنسية بالمشاورة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة ان هي أصرت على ما تبغيه من اغلاق مكان صاحب اليوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لايدري أى الطرفين أدنى الى السلامة لغضب جماعة الانجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيين ثم انه كائنا رأى الثانى أهون الشرين فأوعز باغلاق المحل فرحل القنصل في الحال عن القاهرة الى الاسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبت ينتظر ما يأتيه من زعيم سياستهم وقد اشتغلت الخواطر بهذا الامر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين مستضعف لدولة الفرنسيين وشامت بها فكان بعضهم يقول لو أن فرنسا أظهرت هذا الخزم والعزم يوم كانت محاربا حربيها أمام طواى الاسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والنيانقين في بوقها ما حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون هذا جزاء ما فلتسه بنا من التعجير حتى أصبحنا واباها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الانجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسب جماعة الانجليز أوتناسوا أنهم النافخون في ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصيحون ذات الين كائنا لم يكن اهر يد فيها وطالت المخاربة في ذلك أياما والانباء تأتي في كل يوم الى القاهرة أشكالا وألوانا * واتفق أن جاء في هذه الاثناء الى ميناء الاسكندرية بعض سفن الحرب الافرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيين وبالغوا في الاحتفاء عن جاء فيها من كبار الجنيد ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم مما كانوا فيه من نجوم وأخذوا يفصلون خبر محيى تلك السفن ويظهرونه في مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال اذ انجلت المخاربة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيين والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة اليوسفور الى الظهور وأن يذهب الوزير نوبار باشا الى دار قنصل الفرنسيين بكسوة التشرىف معذرا عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الاسكندرية الى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشرىف فقابلوه هم كذلك فابتدروهم بعبارات الاعتذار

والمصلحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سابق مجراها وبطل حينئذ القيسل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك إلى سبب رحيل قنس جرالد أحد رجال الانجليز الذي تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزينتها حينما قلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذي تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوى اسمعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كاه أحاجي ومعميات قد ضربنا صفحا عن ذكره هنا * رحل قنس جرالد هذا في تاسع عشر رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلاثمائة وألف هجرية فلم تكن الا أيام حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعا قالوا لانه رأى في أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الانجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الانجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى اذا ما همّ بارجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه في ذلك جماعة الانجليز فلم يسعه الا التخلي عن منصبه مفضلا الرجوع إلى وظيفته في ديار الهند على البقاء مقيدا بعمل لا ترضاه نفسه فحمدته الناس على ذلك فجاء بدلا منه آخر يدعى بلر فسار على خطة قنس جرالد وزاد فيها توسعا وبالغ في الاكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن قنس جرالد من ابطاله إلى يوم رحيله عن البلاد وما زالت طريقة قنس جرالد هذه مرعية إلى هذا اليوم

ومن الحوادث الجوية الغريبة التي وقعت في ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الاولى في السماء ضوء حتى ملأ الجو ثم ظهرت بعده في السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاما كأنها سهام ترمى في أعقاب الشمس حتى خسل للناس أن الحرب في السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وان لم يسمع لها دوى نخاف العامة كثيرا وتراحموا وهم يولولون ويصيحون بالاطيف ياخفى الا لطف وصعدوا إلى أسطح البيوت وصاروا يعجبون ويتهللون إلى الله تعالى وكانت النساء يبكين والاطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم في ذلك مقبول اذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر في تلك الليلة غاية في الغرابة فلم يبق طرف الا مد إليه ولا نظر الا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة في تلك الليلة أشبه بالنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تميز عن سائر صغار النجوم ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متتارة ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدوث الخطوب المذلّمة

(مطلب)
اهتمام دولة الانجليز
باعطاء الخزينة
قرضا فلم تقبل

وكانت الى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغلة فهمت دولة الانجليز باقراض الخزينة قرضا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها في ذلك وزير سياسة الفرنسيين وقال ان الحكومة المصرية مرتبطة بعهود ومخالفات دواية لا يصح معها انفراد الانجليز بهذا العمل فضلا عن أن البلاد ما زالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين الا باذنه ^١ قال بعض الكتاب وقد كان وزير الفرنسيين يريد بذلك غل يد الانجليز في مصر واطهار عجزهم عن سد حاجاتها حتى لا يعتبر احتلالهم اياها لازما لا بد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ مالبت الانجليز ان سعوا لدى السلطان ورجال المايين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التي حدثت فتم للانجليز عمل ذلك القرض فراجت الاعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ الى مخبرة زعيم السياسة الانجليزية في صعوبة جعل وادي حلغا حدا فاصلا بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد وقد كان زعيم السياسة المشار اليه رسم بذلك لاصحابه وأشار بالتجميل فقال الوزير نوبار باشا ان طمأنينة البلاد لا تتم الا اذا صارت مديرية دنقلة غاية تحومها لا وادي حلغا لتمكن من السيادة على النيل - قال - ولما كان ذلك يستلزم ارسال حملة اليها بعد جلاء العساكر الانجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة الى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكريا كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصري خبير بأحوال السودان وان هذه الوساطة أقرب من سواها الى الوصول الى أحسن النتائج فضلا عن أن النفقة التي تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التي يقتضيها تجريد حملة انجليزية وانه ينبغي أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم واذا تحقق خبر موت المهدي كان الأمر أيسر وكانت العقوبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الانجليز بمقالة الوزير أرسل اليه يقول اترك كل شيء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولا درومند ولف . وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التجلي عن السودان وتركها لدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرع صاحب السياسة الانجليزية بأشد ما يكون من التقريع عمد الى شيء من المواربة نسكينا للفتنة وأرسل كتبه الى السلطان يعله بما عزم عليه السلطنة الانجليزية من ارسال رسول ينوب عنها في التعاقد مع الباب العالي على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان في مستقبل الايام * فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى سار الى الاستانة عظيم من الانجليز اسمه السير درومند ولف يحمل الامر بانابته عن السلطنة الانجليزية في عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالي تارة والمايين الهماوي أخرى أياما لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق وكان الكلام بين الفريقين غاية في المواربة والتعقيد * وبيناهما على هذه الحال اذ قامت الفتنة في اماره

(مطلب)
بعثة السير درومند
ولف الى دار السلطنة
العثمانية

البلغار وظهور أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعة الدولة العثمانية ١٠ قال بعض الكتاب ويقال ان دولة الانجليز هي التي أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم الى التطاهر في تلك الايام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتنازل منها ما تنناه فتعطلت المخاربة بين ولف والباب العالي ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاوت أيدي رجالها الى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فحش أمرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل الى الدول الكبرى يستفرضها الى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى وعظموا السلوى فن الدول من مناهم بالاماني البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الايام على مبعوث الانجليز وهو ينتظر في دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورأها مغنم لهم فلم يقع شئ من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الامور الى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالي وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثا من قبله الى ديار مصر مع ولف مبعوث الانجليز فيكون مندوب السلطان هو الاول ومندوب الانجليز هو الثاني ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث ان هذه الرسالة لا تتناول الا البحث في أحوال خزينة البلاد وأمورها الادارية والعسكرية مع اصلاح ما يمكن اصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريرا عما يريانه مشتملا على تفصيلات المسائل بابا فبابا ووصل ولف الاسكندرية فقبول بغاية التجللة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الانجليز والمصريين الى محطة السكة الحديد فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى في الاحتفاء به فقد كان في انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشریفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والامراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطاني وهو يجتمع في كل يوم بعظماء أهل البلاد ولا سيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها ١١ وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان اذ جاء الخبر الى ديوان الخديوى بالاحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالي وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بك فوصلوا الى الاسكندرية وقدموا منها الى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد في موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر الزهراء من ضواحي القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا الى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا الى قصر الزهراء ١٢ فلما كان اليوم الثانى عمل التشریف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفي عصر اليوم سار الخديوى الى قصر الزهراء حيث الوفد العثماني فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد الى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياما ثم بارحا الديار الى الاستانة

(مطلب)
قاعدة الاتفاق
الذي رامت الدولة
الانجليزية عقده
مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة في ثاني عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذي تم ما بين دولة الانجليز والباب العالي بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الانجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والامور التي سيجريها في مصر بالاشتراك مع الغازي مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتي بنصه

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على ارسال معتمدين فوق العادة الى مصر لاجل تنظيم الشؤون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مخلصين وهما المحترم السير هنري درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان ميشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الانجليزي ومعتمد الدولة الانجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالاكثير بشؤون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند ودولتو محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية الحامل النيشان الاول المرصع والنيشان المجيدى الاول من قبل جلالة السلطان * وبعد أن تبادل الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداهما صحيحة توافقا على المواد الآتية المبينة على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية

المادة الاولى - يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا ساميا الى مصر

المادة الثانية - يبحث المعتمد السامي العثماني بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذي يعينه سموه في أصح الوسائل الممكن الوصول اليها لاجاد ثورة السودان بطريق سلمية ويوقف المعتمد السامي العثماني وسمو الخديوى المعتمد الانجليزي السامي على سائر المخابرات . ولما كانت الاحتياطات التي ستقرر متعلقة بتسوية شؤن مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الانجليزي السامي

المادة الثالثة - ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى

المادة الرابعة - يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الادارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقا للفرمانات الشاهانية

المادة الخامسة - تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهود الدولية التي أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية

المادة السادسة - عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الامن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريرا الى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان في عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الانجليزية عن مصر في أجل مناسب

المادة السابعة - يصدق على هذا الوفاق ويصير تبادل التسخين المصدق عليهما في الاستانة في خلال خمسة عشر يوما أو أقل اذا أمكن

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما اه
 وبينما كان المبعوث الانجليزي ورجال الحبل والعقد في مصر يراقبون حضور مبعوث
 السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة اذ جاء الخبر من عامل الخديوي
 على مصوع بأن الجيوش الايطالية التي كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأما كن
 ودواوين الحكومة وطابت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بن معه من المرافطين وتسليم
 القلاع والحصون الى قائد الايطاليان فمانع المحافظ في ذلك وقال انه لا يفعل حتى يأتيه الامر
 من الخديوي فشدد قائد الايطاليان في الطلب وأغلظ في القول وهدد المحافظ باطلاق
 القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها ان هو أصصر على الامتناع فلم يسع
 المحافظ الا الانسحاب بن معه من الجند وبارح البلد وانحدر الى سوا كن فلما شاع خبر
 هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاق نساء وذراري الضباط وأصحاب الوظائف الذين
 بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم في ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوي
 وتكلموا في الامر طويلا ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة ايطاليا هذا
 ويرفعوا الامر الى الباب العالي ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وطمخوا
 أن الغازي مختار باشا لا يفسد الى مصر الا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن
 المتتابعة * فلما كان ثاني عشر ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف
 هجرية وصلت السفينة عز الدين احدى البواخر السلطانية تقل الغازي مختار باشا بمبعوث
 السلطان فقابلته الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات في أبهة
 وجلالة وأطلقت المدافع لقدمه من قلاع وحصون الاسكندرية وكان في انتظاره العدد
 العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعا بات ليلته تلك بالسفينة
 وأصبح فسار بن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمته وأتباعه الى محطة السكة الحديد
 فحملهم القطار الى القاهرة وكان في انتظاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين
 صفوف الجند وأصوات المدافع الى سراى الاسمعية التي أعيدوها لنزوله ولم يستقر به
 المقام حتى زاره المبعوث الانجليزي ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء والوجهاء
 وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم ثم زار الخديوي في ثاني يوم ولبث معه برهة وعاد
 الى مقره فرد له الخديوي الزيارة وهو في موكب التشریف ثم بعد أيام قلائل جعل الغازي
 يوالى الاجتماع بمبعوث الانجليز ويتكلمان في أمر الاصلاح وفي أوجهه وأسبابه وظلا على
 هذه الحال أياما * وجلسا يوما يتكلمان فقال الغازي لواف لا أخفي عليك ان حالة
 البلاد الآن داعية الى تجهيش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من
 المسلمين ايتولى ارجاع الامور في الديار السودانية الى سابق مجراها والزحف على بلادها كلها

(مطلب)

تعدى العساكر
 الايطالية على
 مصوع واحتلالها
 عنوة وما جرى

سخت الفرص فقال ولف ان الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلية
لاعلى تجنيد الجنود وتسليح العساكر وإرسالها لقتال العدو فقال الغازي نعم انى لم أعود أن
أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاى الخليفة يظن ذلك فعلى أن أرفع الى سدة
الملوكانية ما أراه الآن من استحالة ارجاع الامور الى ما كانت عليه بالوسائل السلية مالم
تعضدها قوة عسكرية فقال ولف ومن أين المال للنفقة فقال الغازي ان شئت دولة الانجليز
مساعدتنا فالامر هين والنفقة متيسرة وما عليها الا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد
نفقة على جيشها المحتل الآن مصر * قال محدثى فسكت عند ذلك السيرولف وأطرق
لحظة ثم رفع رأسه وقال سأكتب بهذا القول الى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فاذا
جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الامر

واتفق فى هذه الاثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار
المهدى الى مواقع العساكر المصرية والانجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد
فقامت عليهم العساكر وضربتهم وهرقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع
وكثيرا من القرى والبلدان الصغيرة وما زالت تطاردهم وتعمل فى أقميتهم السيف حتى صارت
على أبواب دنقلة ووردت الانباء بذلك الى القاهرة من عاصمة الانجليز لامن الحدود ففرح
الناس فرحا عظيما وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وارجاعها الى
حوزة الحكومة وجعلها مقرا للحركات العسكرية ووردت رسائل التهانى على الخديوى من كل
فج عميق فلم تكن الايام حتى جاء الامر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الانجليزية الى
الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بالحدود أن ردوا المقاتلين كافة عن دنقلة
وأرجعهم الى الحدود قيل فراجع الجنرال استيفنسون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى
ارجاعهم فالتحدروا الى مواقعهم الاصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعقل والمراكز
فعاد اليها العربان وتقووا فيها وترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لاعادة الكرة على الحدود
وانحدر الجنرال استيفنسون الى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة
الانجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه
السياسة وعلى بقاء العساكر الانجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وان الحال
يحتاج الى غير ذلك * ولم يشغلهم عن هذه الجلبة الا ما وقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم
السياسى بمصر وذلك انه قد جاء فى هذه الاثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت روفى لتولى
منصب الوكالة السياسية بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام
الاوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الاجل المضروب
لذلك وتمثل القنصل بين يدي الخديوى بلباس الزينة والتشريف وسلمه تلك الاوراق وألقى
عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع
لذلك من قلعة الجبل كالمبتع فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة

(مطلب)

ما وقع الى الكونت

روفى وكيل

الفرنسيس السياسى

بمصر واعتذار

الوزير اليه وهو

بكسوة التشريف

ونزل القنصل الى داره وفي قلبه ما فيه لاسيما وان المتولين أمر قلعة الجبل واطلاق مدافعها في هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الانجليز فاستقر بالقنصل المقام في داره حتى كتب الى الوزير نوبار باشا يقيم اللجنة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أي انزعاج ورسم الخديوي باطلاق المدافع في اليوم الثاني استرضاء للقنصل وتطميناً لحاظه فلم يقبل وقال لابد من الترضية بأن يأتي الى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية وبأن يأتي كذلك الوزير نوبار باشا بلباس التشريف وتطلق المدافع ففعلاً وأطلقت المدافع ثانية وثالثة * واندفع أصحاب صحف الفرنسيس ينادون بالويل والتمبور على جماعة الانجليز عصر وشاركهم في ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السيرولف مبعوث الانجليز بالامر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار الى دارقنصل جنرال الفرنسيس ومعه قائد الجيوش الانجليزية قيل واعتذرا وتلطفا في المقال فطلب القنصل عندئذ نشر بيان جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل في ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الامور الى سابق مجراها * وعاد ولف الى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكاملة في شؤون البلاد وحاجاتها وفي قواعد الاصلاح الواجب ادخالها في سائر دواوين الحكومة وفي تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه اعادة الكرة على دنقله ثم استرجاع البلاد السودانية الى الطاعة وتدوينها وارسال رسول من قبل الخديوي الى وادى حلفا للتخاطبة مع زعماء القبائل رجاء الوصول الى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياما وجاء الطلب من عاصمة الانجليز الى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بمخالفة من منصبه وأنه لايعود اليه الا اذا عاد ولف الى بلاده ظافرا بما يرجونه من بعثته فتحدث الناس في ذلك كثيرا وقالوا ان استدعاءه في هذه الظروف الحرجة وافراغه من كل عمل يدلان على وقوع شئ من النفور بينه وبين السيرولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار اليه قد أقلق صاحب السياسة الانجليزية ومال به الى استدعاء القنصل وقالوا غير ذلك أيضا فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حينئذ ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ماأراده في منصبه من النجاح والفلاح

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الانجليزية على ارسال غردون الذى هو غردون باشا الى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض الا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار اليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان واعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب الى الخديوي والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومائعا في ذلك كثيرا فلم يقبل

السير بارنج وصدع بالامر ثم لم تكن الا أيام أخر حتى وصل غردون الى القاهرة في آخريات ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر اليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم في أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ الى معرفة ما الذى تنويه الهيئته الحاكمة ولا ما اذا كانت شاركت السير بارنج في آرائه أولا * ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعة الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعديد من مقدمى العساكر الانجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جنودا ولا كراعا ولا حشما ولا أتباعا سوى وعاء للملابسه ورحل الى الخرطوم كانما هو ذاهب الى داره للقاء أم أولاده فتأمل

قال صاحب كتاب السودان فلما وصل كروسكو كتب كتابا الى المهدي وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم الى مشايخ الاعراب كالبنش وغيره وخفى الكتاب اننى أعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور * قلت وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدا - قال - واننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خافنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند واليا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية واننى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمعوا باعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلقت فى غضون تلك الخطوب ولهذا أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطىكم كل ما تطلبونه من تلك الادوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لنفتح هذا الطريق والقاء السلاح وتشيد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اهـ

ووصلت الاخبار الى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهاني من كل صوب فأرسل الى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والاموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبتركه جميع السودان الغربى الى مدعى المهدوية واعتباره منفصلا عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الانجليز هى التى منحت المهدي هذا السلطان الواسع * وسير كذلك الى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغرا وأقام بدله رجلا من الانجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف - قال - وكان هذا الرجل قد حضر الى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الانجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسوم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم انه رحل عن كروسكو الى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الدوائية فخصهم على الولاء والاخلاص وقال قد تركت لكم سائر المتأخر من الأموال الاميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سنوات مستقبلة وقد أبحثت لكم الاتجار في الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك ثم أهداهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصدا الخرطوم فكان يرى من الاهالي في طريقه عين المقت والقليل اذ كانوا يسبونهم ويكثرون من شتمه ويقولون في وجهه قد زالت دولتكم يا كفار ﴿ قال الراوى فاندش غردون من ذلك وأكبره جدا وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته في هذه البعثة الا أنه تحلد واستعان بالصبر الى أن وصل الخرطوم فجمع الاعيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليهم فرمان الولاية * ثم جعل يقول للناس يا أهل السودان جميعا ان الخديوى يسلم عليكم صغيرا وكبيرا أحرارا وعبيدا انا فا وذكورا وكذلك جلالة الملكة فيكتورية ملكة دولة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند * وانكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الاسلام ومن زيارة قبر النبي عليه السلام وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لا كون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلا تاما وتوض الى الحكم المطلق عليه وقد خارت حضرة السيد محمد احمد المهدي بكنهه مأموريته واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يمد يده لغيره * وقد أبطلت جميع الاوامر المانعة من الاتجار فى الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضا عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمانين وأمرت بأحراق دفاتر المتأخرات وباطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جنائياتهم وقد عزمت منذ الآن أن لا أجعل أعضاء حكومتى الا من الوطنيين حيث اننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أباسن مديرا للخرطوم وأحسننت عليه برتبة الباشوية ولى الامل بأن العلائق ستصح بينى وبين سلطان الغرب « يعنى المهدي » وثيمة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكي تتفرغوا الى عمارة بلادكم وحرث أراضيتكم وانماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اه

قال صاحب كتاب السودان وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهم تذرف الدمع حزنا واشفاقا لانهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهديوية سوف ينحدر عليهم بحيلة ورجله فلا عهد ينفع ولا خنان غردون يدفع * فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا لانا نموت موتا ان أنت أتلفت شيئا من الحصون والقلاع فان المهدي لا يلتفت الى شئ مما دعوته اليه ولا يرده عنا الا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا متحفزون لاوثبة علينا والابقاع بنا فلم يلتفت غردون الى قولهم ولم يحفل به

فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر الى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها * وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة الى شرق السودان لتمهد الطريق الى غردون في مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وانحان رجال المهدي فيها اشتد الخوف بين هم في الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون اذا امتنع المهدي عليه وهاجت جوعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقللاع ويتعهد المعاقل التي كان أشار في مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحذب فكانوا يتخبطون في القول ولا يصدقون في الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الاحوال

واعلم أن ذهاب غردون الى الخرطوم في هذه الظروف المحفوفة بأكبر الاخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الانجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهئات الهيئات ولا هو من المجازفة أو عى البصيرة في شئ وانما هي أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتزعوها حتى أيام الخديوى اسمعيل الذى بش لهم وفتح لهم الابواب مرحبا فولوجوها آمين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا في مناصب الرئاسة وتصرفوا في موارد ايراد البلاد وما زالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطورا بالوعد والوعيد الى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العربية فأصبحت حكومة البلاد وهي أشغل من ذات النخمين فنهضوا حينئذ الى اظهار ما تكنه الصدور وسيروا غردون هذا الى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة في الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطنتهم غاية الآمال * ولاجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض الشئ من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر في فصل آت شأ مما جرى من أقبال هؤلاء القوم في السودان على عهد الخديوى اسمعيل والله سبحانه من وراء كل عمل

فصل

(فيما كان من ديار رجال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوخ مدنها وبلدانها شرقا وغربا وملاها بعسكره وجنوده جنوبا وأنشأ عاصمتها الجديدة التي هي مدينة الخرطوم وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدني الواقعة على شاطئ النيل الازرق جعل يولى عليها الولاية والعمال بعد ولاية الدفتدار العامة فكان جاهلهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بمجاذبات

البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف فلما مات محمد علي باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عملهم أغرارا كثيры الجور والظلم مبالغين الى أخذ ما بأيدي الناس مع غلظة وتجبر وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامه بيلك

قال صاحب كتاب السودان كان نعم الرجل عادلا شفوفا على الرعية * وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقي الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى اسمعيل فجعل يبدل ويغير فى الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه الى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلا عادلا شفوفا بارا بالرعية عارفا بحاجة البلاد وأهلها فأقام ما شاء الخديوى ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الانجليز اسمعيل أيوب باشا وفى أيامه بلغت سلطة الخديوى فى تلك الانحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقا وغربا وجنوبا اذ تتابعت غزوات عسكره وأوغلت فى أقاصى البلاد طلبا للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الانجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون الى فعالة بعين السخط ويحسبون لها حسابا كبيرا وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الايام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الارض فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا الى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى اسمعيل من أقرب المسالك وأحبها اليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الاصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفضة وما زالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدتهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورط فى الدين لأصحاب الاموال من الانجليز والفرنسيين ثم انهم سيروا اليه رجلا من أقبالهم العارفين بمناحى سياستهم ومراعى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياما وكان قد أتى معه من ديار الانجليز بشئى من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحجر والأساور والاقراط والخواتم والقلائد من الصفر والاحذية وشقق السكان والخناجر والسكاكين والشئ الكثير من الألعاب الاطفال كالاكر والمزامير والصفافير والعصى والسيماط فاستعجب كل ذلك وبارح القاهرة على عمل وما برح سائرا حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراود الطرقت واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشئ الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يملون اليه وما ينفرون منه قبل وعاهد بعضهم على الولاء والاخلاص للسلطنة الانجليزية وعاهدتهم على ما لم تصل اليها معرفته وبعد أن لبث بتلك الاصقاع ماشاء هو أو ماشاء صاحب سياسة الانجليز فضل راجعا الى قومه بسلام فلم تكن الا فترة بعد ذلك

حتى أخذ قنصل جنرال الانجليز بالقاهرة يصحح الخديوى وعيسيه في طلب معاهدة دولة الانجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى بماطل ويجاؤل والقنصل لا ينفك عن الطلب ولا ينتفى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لامراء سفن الحرب الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الاخبار الانجليزية نشوة الفرح قهلاوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل الايام * ثم رسم الخديوى الى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شياً من أحكامها فصدعوا بالأمر وذاع خبرها فى البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً فلم تكن الا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت اشارات الخروج أوكادت ووقفوا فى وجهه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ ونقل تيرهم على الاهلين لان القوم رأوا أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لان هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلاً عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الارض بأيديهم ولا خدمة ماشيتهم بل ان نساءهم قلم يؤدين شيئاً من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الارض وتربية الماشية والخدمة البيتية انما هو على أولئك الاماء والعبيد

ولما تم للانجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أو عزوا الى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم الى مجاهل خط الاستواء مرة ثانية ليحيى ما اندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الانحاء السير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثرت من ملازمة باب الخديوى اسمعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى فأثوا له برجل من كبار عسكرهم اسمه الكولونيل غردون « وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه » فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الاحمر التى هى شرقى للسودان المصرى فتولاها حيناً وكان له لم يظلم له المقام هناك أو كأن لم يحسن فى عيني زعيم السياسة الانجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت خيئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الاستواء وما يليه * وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخرينة وأثقلت فأصبحت وهى بين أيدي أصحاب الديون من جماعة الانجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح فكان الخديوى يبذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يغنيه من خوز الدائنين فلم يرتدأ

يومئذ من اجابة طلب صاحب سياسة الانجليز ورسم الى غردون بالولاية على خط الاستواء
في انحرثات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى ستة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية
فسار غردون الى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقيه اسمعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ
وبالغ في اكرامه وأطلق المدافع اجلالا لقدمه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر
المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياما ثم سار عن أخذه من العساكر والجنود الى فشوده
ومنها الى منزلة سبت التي هي أول بلاد خط الاستواء شمالا فأمر ببناء القلاع والحصون فيها
وحفر خندقا عظيما وجعلها مقرا لحكومته الجديدة ثم رحل عنها بعد أيام الى جبل الرحاف
وكند كور التي كانت مقرا لاستاذة السير صمويل بيكر من قبله وما زال ينتقل من مكان الى
مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقسم الولاة والحكام
من صغار ضباط الجند ومن كانوا في خدمة صمويل بيكر حتى قامت في وجهه قبائل العبيد
وقالت عسكره قتالا عنيفا وما زالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم
بغير عهد ولا ذمة وظل غردون يحجب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى نزل على
بلاد الملك أمبته صاحب بلاد مرولى فعمد الى ضم بلاده الواسعة الى فتوحاته وهم بذلك
ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الانجليز الذين
قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته .

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انجند غردون الى القاهرة
وجعل يكدو ويروح على مقر الخديوى أياما ثم رح القاهرة الى ديار الانجليز فلم يستقر به
المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الانجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان
المصرى شرقا وغربا وجنوبا قيل فاندش الخديوى ورجال دولته لانهم لم يكونوا يعرفون
عن ذلك شيئا البتة ولم ترض الا أيام حتى عاد غردون الى القاهرة فى هيئة وجلالة ودخل
على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرها فسار غردون الى الخرطوم ودخلها فى
صفة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وظير الخبر بولايته الى الافاق فجاء مشايخ وزعماء القبائل
نخلع عليهم الخلع من الأكسية والفرجيات من الجوخ الاحمر وشقق الحرير وبالغ في
اكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والاعيان وبعض أصحاب
الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء اذ كانوا لم يروا شيئا من ذلك البتة على يد أحد
من كبار الولاة قبل جعفر باشا الصغير * وكانت ولاية غردون على سائر السودان المصرى
ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وضرفه فى سائر الامور * قال بعض الكتاب وهي محنة
أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الانجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها الا
الحكيم العزير فان غردون مالبت أن تربيع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه
تباعا على الخديوى فلم يكن الاشهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد
خط الاستواء الى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الاموال وسلم مقاليد المهمات الى جماعة

(مطلب)

انجند غردون بعد
ذلك الى القاهرة

من الانجليز والالمان والاميريكاني والطاليان ونفر من أهل البلاد كادريس بن أبترو وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون في الاماء والعبيد والريش وسن القبل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا في سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالعوا في منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار في أموالهم وأرزاقهم وضيّقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا في وجههم أبواب الكسب * واستكتب غردون يومئذ رجلا اسمه التهاجي بك وجعله كاتب أسراره فتمكن التهاجي هذا من قلب غردون وأخذ يجامع له فكان لا يأتي أمرا الا بإشارته ولا يعمل عملا الا برأيه قال صاحب كتاب السودان وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكا نفر منه القلوب وحرّك في صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكم لا سيما من الانجليز والاطاليان في منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من عملوا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التي دفعت بأهل السودان الى شق عصا الطاعة كما سيأتي بيان ذلك في محله * اذ كان الناس هناك يحسبون أن تحرير مواليتهم وتزويجهم من حوزتهم على يد أولئك الاجانب اضطهاد ديني من النصرانية للاسلام وكان شيوخهم وعلمائهم يؤيدون لهم ذلك بالادلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لا شك فيها فكانوا يخفون ما يعلو بهم من نار التألم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سائحة حتى ظهر محمد أحمد مدعي المهديوية وأيقظ الفتنة ازاحة فهبوا جميعا لنصرته ولبوا على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضد أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أوكدت عاهدته حتى الذين كانوا ينكرونها عليه وقالوا عاهدناك سواء صدقت في دعوالك أو كذبت ما بقيت على عدا هذه الدولة الجائرة ومخاربتها * وقد بقي هذا السر مكتوما والدعاة يحجبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد الخوم بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعاداة التجاشي والاستخفاف بشأنه استغضابا له وتكبيرا للفتنة فلم يطق الخديوي اسمعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفا من استفحال الخطب واضطرار نار الفتنة بين البلدين لاسيما وقد كانت دولتا الانجليز والفرنسيين في ذلك الحين تشدان عليه التكبير بسبب كثرة الديون وتضييقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب في موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفي الى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهينات * وكان قد آانس من غردون أيضا الميل الى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة في آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلا من منصبه فأقاله الخديوي ورسم الى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فصار رؤوف باشا الى الخرطوم فلم يصلها الا ودعوة المهدي قد استفحل شأنها اذ كان قد بايعه أهيل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكنانة المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة والبأس والصبر في الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته

بالاخبار والتفت حوله. زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أوهم مغضون لا يريدون كشف أسرارهم ولا ذكر شيء من أمرهم حتى وردت الرسائل ترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدي يعيرون فيها الحكومة على ذلك الاغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على ايقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلته كل هذا الظهور فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك الى مدير فشوده وهو يومئذ الطيب بيك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصعد بالامر وسار الى آبا في نفر من الجنود وكبس الخارجى في مقره وأمسكه حيا وزجه في السجن أياما ۞ قال صاحب كتاب السودان حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم ان هم عادوا الى الشكوى ثم انه فضل راجعا الى فشوده ۞ أما الخارجى فآله ماأفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قبحته فأرسل الكتب الى سائر من عاهدتهم يقول في مطلعها بعد البسملة والحمدلة انه قد جاءنى النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدي صلى الله عليه وسلم وأجلسنى على كرسيه وقال لى أنت المهدي المنتظر من شك في مهدويتك فقد كفر وان الترتك كفر وهم أشد الناس كفرا لانهم ساعون في اطفاء نور الله وبأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وأخبرنى صلى الله عليه وسلم بأن النصر سيسير بين يدي أربعين ميلا وأنه صلى الله عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة أمام جيشي ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أيدنى بالاولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام الى زماننا هذا وأن مؤمنى الجن يجاهدون معى ولا يهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه صلى الله عليه وسلم وعامتهم أكبر مقاما فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الحلى ۞ قال صاحب كتاب السودان وهو شيخه الذى نهى عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده - قال وأرسل نسخا عديدة من هذا المنشور الى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرب رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا الى أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحبه بجماعة من الدنقلين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلا اليه يعنى الى الخارجى يدعونه الى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة وبلغونه أمر الوالى بدعوته الى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر ولما وصلوا الى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الارض فامتنع عن مقابلتهم أولا ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما فى منشوره فقال له أبو السعود بيك ان الوالى يدعوك الى الحضور لديه فقال لا أذهب فقال يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فقبض المهدي على سيف كان على نحره الايسر وكشر عن أنيابه وقال أنا ولى الامر الآن على سائر الانس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالايقاع

بهم لولا أنه شدد عليهم في الكف عنهم وقفوا راجعين إلى الخرطوم
 وعلم الملتفون حول الخارجي من المبردين والدرأويش بخبر رسل الوالي وما جرى لهم
 تخافوا شر العقاب وأيقنوا أن الحرب قائمة لاحالة وأن لا قبل للمهدوية على الوقوف
 في وجه العسكر المصري فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة
 وهؤلاء أيضا كانوا يتوقعون القتال في كل يوم ووصل رسل الوالي إلى الخرطوم وأخبروا بما
 جرى لهم فسير الوالي طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجي ومن معه والاتيان
 به حيا فخرجوا في آخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا
 فوصلوها قبيل الغروب وكان الوقت صيفا والأمطار تهطل غزيرة والأحوال عملا الطرقات فلم
 يتم نزولهم من السفن التي كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه
 الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعا في مكانهم تلك الليلة
 بعد أن وضعوا أجالهم وأتموا حولها فعلم الخارجي بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام
 لا يشعرون وما زال يراقبهم عن معه من المقاتلة حتى ما بعد نصف الليل فانقض عليهم حينئذ
 وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجي جميع
 متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فم حينئذ الخوف
 وذاع خبر هزيمة العسكر في أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الأجانب والاهلين
 يرحلون من المدن والقرى ويأتون إلى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتد رؤوف
 باشا وتحير في أمره وكانما كان يعتقد سرا بصحة مهدوية ذلك الخارجي فلم يأت شيئا من
 الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل إلى
 مدير كردفان في طلب النجدة العاجلة وكان المهدي لما ظفر بالعساكر المصرية في تلك
 الواقعة حسب ما وراء ذلك فجمع إليه أصحابه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
 يأمرني أن نعمل العج « قال صاحب كتاب السودان هو نوع يشبه الفلين لحفته وطفوه
 فوق الماء « مراكب لتعبر بها النيل إلى الجانب الغربي وان الله تعالى سيأخذ على ناصية
 الترك الكفار فلا يقدر على ابصال الأذى إلينا حتى نبلغ مأمننا من الجانب الغربي ومن
 هناك نتوجه إلى دار هجرتنا بجيل ماسه وقدير وهي دار هجرة الأنبياء كلهم الانبياء محمد
 صلى الله عليه وسلم ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئا كثيرا من تلك المراكب وعبروا النيل
 فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذين كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكانما
 كان يعمل في ذلك الحين بمشورة جيلر باشا الألماني وكيل الولاية وهو تلميذ غردون في سياسة
 السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجي بالجانب الغربي حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة
 والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله ثم قدموا له الاقوات قال
 صاحب كتاب السودان وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن
 لا نسرق ولا نزني ولا نأثم بهتانا نفترقه ولا نعصيك في أمر معروف ونهى عن منكر بايعناك

على زهد الدنيا وتركها وان لانفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اه
 وكان الذين بايعوه في ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف
 الهندية وبينهم جماعة من الفرسان ثم ساروا معه الى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل
 النوبة الساكنة هناك وقتلوههم اياما كانت الحرب فيها سجالا ثم خلت الهزيمة بأهل الجبال
 فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومرت بجبال تقلى فلم يتمكن من اخضاع أهلها لانهم أصحاب بأس
 وقوة في الحروب وشاع الخبر عما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها في مهدويته
 وناقت نفوسهم الى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا الى قدير
 ليبايعوه ﴿ قال صاحب كتاب السودان وفد عليه زعيم قبيلة الخوازمية الذين هم البقارة
 وزعيم قبيلة القديات وكل منهما في مائتي فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على
 القتال فأحسن لقاءهم فبايعوه على السمع والطاعة ﴾ قيل وقال له زعيم قبيلة الخوازمية
 أبايعك على المهدوية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت
 بهؤلاء القوم عزية الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته في قلوب أهل الجبال المجاورة فكان
 اذا تحرك جماعة منهم الى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة * وفي هذه الاثناء كان قد
 خلع السلطان الخديوى اسمعيل من مسند الخديوية وتولاها ولده محمد توفيق باشا وكان ما
 كان من ظهور الثورة العربية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة الفتنة المهدوية فلما
 كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الامر الى رؤوف باشا بالتخلي عن الولاية
 فاعتزلها وسلم مقاليدها الى جگر باشا وكيلها وسافر من فوره الى القاهرة يريد لقاء عبد القادر
 باشا الذى تولى الولاية العامة بدله بفعل جگر يتصرف فى الامور كما يشاء وأرسل يوسف
 باشا حسن الشلابى فى جيش ضخم لقتال المهدى فظفر به المهدى وقتل بعساكره فتكا
 ذريعا وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للعمل فعظمت بذلك قوة الخارجى
 واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت ببعته سائر الاصقاع السودانية أوكادت فتاقت
 نفسه الى التثبته بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام
 عمر بن الخطاب ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره
 خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسود على جميع المقاتلين معه من
 قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفة الصديق والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقده
 لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الابيض والجبال الواقعة حول
 جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله
 مقدما على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار
 وجعل الزعامة العامة لاختيه محمد عبدالله ولقبه بأمر الجيوش المهدوية وولى رجلا اسمه
 أحمد بن سليمان من قبيلة الخمس أمانة بيت المال فكان أجد هذا من أقرب المقربين
 اليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته - قال وهؤلاء هم

الحبشة الذين كانوا موضع ثقته اهـ وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجي على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من في قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافي وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفي في لوم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عتوة وأخس في القتل والنهب وسبي النساء والذراى وجاء الخبر الى جيل فقام من الخرطوم في نفر من العسكر يريد الخاق بآبن المكاشفي واجلاءه عن سنار فسمع الصائح في طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أجده طه ووقوفه في لوم كثيرة بين الخرطوم وسنار فترى عن معه وأرسل اليه بدعوه الى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير اليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمة وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب بجلب من معه من العساكر الى سنار فأنتقدوها وشتت شمل من كان حولها من لوم المكاشفي وكان ابن المكاشفي قد مات قبل وصول جيل بخراج أصابته عند دخوله سنار

(مطلب)
وصول عبد القادر
باشا الى الخرطوم

وأيضا كان أهل الخرطوم في خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون قتل العدو بهم في كل لحظة من الزمان لخالو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند ميسر الحاجة اذ جاءهم عبد القادر باشا في نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج اليه من أسباب الدفاع فرتب العتس للحراسة في الليل وجع من العبيد عسكرا لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحضن البلد تحصينا متينا وخندق عليه وأوقف الحرس على الابراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الامن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكماشوا ثم أرسل في طلب المرابطين عند حدود بلاد الحبشة فجاؤا فعهد اليهم بحراسة بعض المواقع والابواب وكان اذ ذاك قد التهب جوف السودان المصري جميعه بنار الفتنة وامت دعوة المهدي سائر تلك الاطراف وخرج من كان باقيا على الطاعة وصيحت المذامح في كل صوب وحيد قال صاحب كتاب السودان فكان لا شيء أيسر من أن يهب كل من في قلبه مرض الى الخروج وشق عصا الطاعة فتلف حوله اللوم من أهل حله على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلبا للجهاد وغزو الكفار ففسر بهم خيشد الى الخارجي في جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع عن معه ويقفون في طريق الجند ويقاثلونهم أو يطاردونهم أو يهاجون مرا كزهم مستقبين مستبسلين والدعاة يحولون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يدعون القبائل الى طاعة الخارجي حتى لم تبقى قبيلة الا استجدوا بها ولا بيت الا طرقتوا بابها وجاء الخبر سرا الى عبد القادر باشا بعزم الخارجي على ترك جبل قدير والزحف على الابيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المضرى بها قال صاحب كتاب السودان وكان زحف المهدي الى الابيض بدعوة من تجار كردفان والحاج منهم فعمل عبد القادر باشا بتأهب لقائه بالابيض وينظم الجندات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدي

إذا انحدر الى كردفان سيردعانه حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا
الطاعة فيشتغل بن معه من الجند بارجاعهم ويتعذر عليه حينئذ ارسال النجدة الى
كردفان فتمكن لموم المهدي من الفتك بن فيها من الحامية - قال - وقد صدق ظنه
فانه ما انحدر المهدي من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا
معهم في القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدي الاستيلاء على
الابيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية وال عمران * ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من
بلد الى آخر ويلج في قتال انصار الخارجى ويصلهم نارا حامية ويجتذ في تزريق جموعهم حتى
تمكن من هبائته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شطف العيش وعرى الاجساد
اذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التى كانوا يغنونها من العدو ويعملون
أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير
جماكهم الشهور الكثيرة وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر
عليهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شياً من مرواتهم * فبينما هم على هذه الحال اذ جاء الخبر
من ديوان الخديوى بأن قد قامت الى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل
من الانجليز اسمه هيكس وانها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم في القريب العاجل
* فلما ذاع هذا الخبر اندهش الناس أى اندهاش اذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين
المتحاربين كلهم من المسلمين فان الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهادا فكيف
اذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الانجليز وكيف يكون تأجج نار
الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهدوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك * أما هيكس
هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الانجليز أو فده زعيم سياستهم الى أرض مصر لهذه الغاية
فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج الى الخديوى ارساله على رأس ذلك الجيش الى
السودان لاختضاع أهله والقبض على مدعى المهدوية فأكبر الخديوى الامر وأعظمه وكلم
الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال لا سبيل اليه والفتنة دينية والرأى
عندى أن غد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف والا اختلط الحابل
بالبابل وتعذر اطفاء نار هذه الفتنة فراجع السير بارنج ووردت الكتب من صاحب
سياسة الانجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول * وكان اسمعيل أيوب
باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى اسمعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع
الوزير محمد شريف باشا وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل الى خذلانه وحرمانه
من نخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة فزين الى السير بارنج طلب
استرجاع عبد القادر باشا وارسال هيكس بدله قبله وما زال هو والسير بارنج يملان يدا
واحدة وبقلب واحد حتى تم اخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفا ممن كانوا
فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة

(مطلب)
قيام حملة هيكس
الى الخرطوم

الباشوية فوصل بالجيش الى الخرطوم ومعه الشيء الكثير من الاسلحة والمدافع ودواب
 الحمل والذخيرة وكان الى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من
 الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى في اقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم
 أيضا بمقدم جيش هيكس أو كاد ٥٠٠ قال صاحب كتاب السودان ٥٠ وكان عبد القادر باشا
 قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمدّه بشئ من المال والرجال فيتسرله اذ ذاك
 وضع حامية تقاوم دعاة المهدي في الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من
 طريقها الشمالى الذى يكثرفيه الماء لامن طريقها الجنوبى الذى لاماء فيه ولا رواء تاركا
 في كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها
 على العدو فيمزق شمله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الامر اه
 وقد اشتد العجب بالناس أيضا من قدوم كبير من كبار عسكر الانجليز اسمه انكولونيل
 استيورت الى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى الى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا
 استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره في كل ما يطلبه وكان
 مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه ايطالى الجنس ممن كانوا في خدمة السودان على
 عهد الخديوى اسمعيل فسار استيورت من بربر الى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها
 أياما لا يعلم أحد من عمله شيئا ثم غادر الخرطوم الى سنار فالتقاه فكسله فمضوا فمضوا
 فاختلف الناس في داعى حضوره فمن قائل انه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد
 القادر باشا الى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ماذهب اليه
 بعضهم اسمعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم هم صاحب السياسة الانجليزية
 ورجال حزبه ومن قائل بل حضر ليهند العقبات أمام جيش هيكس ومن قائل غير ذلك
 وعلى كل حال فلم تكن الا أيام بعد عودة استيورت الى القاهرة حتى جاء الامر من الديوان
 الخديوى الى عبد القادر باشا بالتخلي عن الولاية والعودة الى مصر فتخلى عنها في الحال وجعل
 يتأهب للرحيل وبينما هو على هذا اذ جاء علاء الدين باشا واليا بدله فالتحق عبد القادر باشا
 من الخرطوم بريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف في الأمور وعلم الخارجى بخبر جيش
 هيكس فاهتم له كثيرا ٥٠٠ قال صاحب كتاب السودان وظهرت على وجوه أصحابه علامات
 الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد في أعداء الله ورسوله
 ثم نادى في عسكره بالخروج الى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور فلما كان
 شهر ردى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان برا
 وبحرا حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح الى الخارجى بمسير
 الجيش فأرسل في الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لا ذوا به من عسكر
 الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليين والدناقلة ورسم اليهم بأن ينزلوا جميعا بمكان
 يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان - قال - وقال لهم اذا سارت حملة هيكس من

أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمية قوس * وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما الى الخرطوم بإيعاز من مدعي المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك الغير المنتظمين وكان عدد دواب الخيل فيه زهاء الثلاثين ألف رجل ماعدا البغال ومع الجيش الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة وسار هذا الجيش الضخم من الدويم الى شاة ثم منها الى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدو يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الخيل وكان لا يقدر على المبيت الا في داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة في طلب الحشائش لعلف الدواب وقع في أيدي العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعا ولحق بالعسكر مالا مزيد عليه من التعب من قلة النوم لان العدو كان لا يتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته في كل ليلة مما يضطرهم الى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم في الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائما ما بين علاء الدين باشا وهيكنس على أية منهما تكون له الرئاسة اذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين افراده * حدثني صاحب لي قال حدثني رجل ممن وقع في يد العدو بعد هلاك جيش هيكنس قال كانت فعال هيكنس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب وكان علاء الدين فخورا مختالا فكان اذا أبدى رأيا في أمر خالفه هيكنس وعابه واذا أشار هيكنس بشئ مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستحقاق بالاثنتين فنبذوا طاعتهم وقد أضناه العطش وأنهمكهم التعب وتفتت بينهم الامراض العفنة وكثر الموات في دوابهم لقلة العلف والماء وما زالوا والعدو محقق بهم من كل صوب يسرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له غدير شيكان مملوء بماء الامطار فأقاموا عليه أياما قلائل حتى استنزفوا ماءه وسبقهم الخارجي بجيوشه الى غدير كثير الماء ونزل حوله لينعهم من الوصول اليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدر على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظما وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مرارا * فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتح سنة احدى وثلاثمائة وألف قاموا على ما هم عليه من الجهد والضعف يريدون الابيض خلوها من رجال الخارجي والتماسا للماء فيها * قال صاحب كتاب السودان وكانت جواسيس المهدي قد أبلغته ما هم عليه من حالة الضعف والظما وأنهم قد أصبحوا جثا

(مطاب)
الخلاف بين علاء
الدين باشا وهيكنس
باشا

لاحراق بها فنادى في أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم
السيف فلم يقدرُوا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفتتهم سيوف
العدو ولم يبق منهم الا بضعة عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا
يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكل شر
قتلة * قلت هذه رواية * وفي أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ما تقدم ذكره
سار الدليلان أمامه في طريق كثير الغابات شديد المراكب والعقبان قليل الماء والرواء
والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجذون
المسير رجاء أن يدركوا الماء ويرووا بعض ما بهم من الظما فلم يتمكنهم العدو من ذلك وقد قل
علف دوابهم فكثرت فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجر مدافعهم ثم تقشفت في
العسكر الامراض العفنة وأنشب فيهم الموت أطافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين
كانوا في مظاهرات الثورة العربية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب
الشرف وكان انتظامهم في هذا الجيش انما هو بايعاز من صاحب السياسة الانجليزية
ولنكد حظهم كان ما كان من سوء تدير الجيش وتغير الدليلين بعلاء الدين وهيكلس أيقنوا
جميعا بأنهم انما هم مسوقون الى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم
وتعنيفهم وضربهم قبل وهموا بقتلهم مرارا وما زالوا على هذه الحال من الظما والتعب
والعدو من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرُونَ على دفعه حتى
نزلوا على غدير شيكان فشرَبوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى
أيقنوا أنه لم يبق في أحد منهم شئ من القوة يدفع بها قاتله فانتقضوا عليهم وهم كالاموات
وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا نفر قليل ممن اختبأ بين جثث الاموات وقتلوا
هيكس وعلاء الدين وجعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحبل وقفلوا راجعين
الى الابيض فرسم الخارجى بتقسيم الاسلاب والغنائم على المجاهدين والانصار والخلفاء *
وجاء الخبر الى القاهرة بما أصاب جيش هيكلس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر
البكاء والعويل في بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للعزاء أياما وطن أهل الخرطوم
أن الخديوى لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا في عسكر جرار للاخذ بالنار وشاع بينهم أيضا
خبر عزم زعيم سياسة الانجليز على ارسال غردون قائدا على ذلك العسكر فجعلوا يعجون
ويتهلون الى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون
اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون في العمل كمن فقد الرشده ووزير السياسة الانجليزية يضرب
على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكانوا اذا قاموا أقعدهم واذا قعدوا أقامهم واذا
قالوا عاب عليهم قولهم واذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل في اخلاء
الدويم وفشوده والكوه والجلاء عنها وتركها الى الخارجى والأتيان بحاميتها الى الخرطوم
فصدعوا بالامر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الامر أيضا بالجلاء سائر المصريين

عن الخرطوم واعادتهم الى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالامر صاغرين وأخذ
الناس في الجلاء الى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتي ألف وخمسين ألفا
وشاع خبر ذلك في البلاد شرقا وغربا فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى
والإسراع الى متابعتة فكانوا يجتمعون في القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخمدون
أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار المهدوية ويوفدون الوفود الى حيث الخارجى
ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم الى هذا الحين سقوط هيئة الحكومة المصرية وزوال
سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد يذهبون بما لديهم من الاموال الى مقر الخارجى
ترلقا وتقربا منه فكان بينهم بالامانى الكثيرة وكان ممن سلم وترلف وبالع في ذلك جدا
سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى
ولازم باب الخليفة التعايشي رحمته الله قال صاحب كتاب السودان أما مقدمو العسكر فقد فعل
بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الابدان

وصل

(فى ظهور الفتنة بالسودان الشرقى)

قد كانت الفتنة الى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يجرأ أحد من القبائل لها
ساكنة وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه الطاهر المجدوب
وكان محبوبا موقرا معظما عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام
وافر الهبة معززا فأرسل اليه مدعى المهدوية يدعو الى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته
ويسأله الانضمام الى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على
الخروج على عمال الحكومة وأجازه ببايعة الناس وخاطبه باللقاب الامارة على السودان
الشرقى جميعه فبعث اليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن
أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله
وبيعت أملاكه لاسباب سياسية لا محل لسردها هنا وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتابا من
الشيخ الطاهر الى الخارجى يقول فيه ان عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه
وانه من أولى العزم والحزم وانه أجدر بامارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر
وان الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعا لافضل مريديه وانه سيكون هو مستشاره ومدير
أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموارزته وانه لم يكن من مانع من قبول منصب
الامارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير فلما
وقد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالع في الاحتفاء به وسأله عن
الحال فى شرقى السودان قيل فهون عليه وقال يأسدى الناس طرا طائعون لك واهبون

أرواحهم في سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جميعا على أهبة الغزو والجهاد في الكفار قال ثم ماذا قال وأستاذي يقول ان الدولة قد عزمت على قهرك بارسال جيش جرار الى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بارجاعي للوقوف مع المجاهدين في طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم قال الراوى ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وشرحه الى سواكن وكتب له كتابا الى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزعهم الى نصرته ونجدته وانه قد أمر عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان الى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل الى سواكن أمنا مطمئنا واجتمع بالشيخ الظاهر وسله كتب المهدي بجمع الشيخ سائر مردييه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام في وسطهم ومد يده الى عثمان دقنه وبايعه بالامارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره الى مصوع وكسله فدخلت جميع القبائل في طاعته فجاء الامر الى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ في سنكات فسير اليه توفيق بك مأمور طوكر في ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من أمر جوعه ومن التف حوله من القبائل شيئا فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم نارا حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراسا عظيما وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوه بناره

وجاء الخبر الى القاهرة بظهور الفتنة أيضا في شرق السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة فبعد أخذ ورد طوي لين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السيلانية الانجليزية بارسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدي أصحاب الفتنة فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا في الاكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش الى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى اسمعيل فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم في عدة كثيرة من المقاتلة ولكن بهم في منتصف الطريق بين طوكر والترنكبات فبينما هم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحذب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الفارزون الى سواكن فتبعهم العدو اليها وأحرق بها وجعل يتهدها وجاء الخبر الى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جدا وكبر قلقه أيضا على الخرطوم لترادف الاخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقتراب دعاة الخارجى من أبواب البلد وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى ثم لم تكن الا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على ارسال جيش آخر معقود لوائه لكبير من كبار عسكر الانجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا

(مطلب)
ارسال جيش
لاستخلاص سنكات
وطوكر

عجز الدولة وعدم قدرتها على ارجاع الامور في شرقي السودان أيضا الى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الانجليز بارسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الاحمر في قبضة الحكومة المصرية الى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وادخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا في أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل وبالع في استرضائهم والتودد اليهم وأقام على هذه الحال أياما فلم يفلح فعمد الى مخايرة القبائل المضاربة بجهات مصوع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره في فتح الطريق الى كسله ثم الى الخرطوم فلم يفلح أيضا وقد علم أن الطريق مابين مصوع وكسله كلها ادغال وغابات كثيرة المراكب والهلكات وأن الطريق الى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للسير الى طوكر لانقاذها ثم لانقاذ سنكات فلما كان شهر ربيع الثاني من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن الى ترنكات وسلك ذات الطريق التي سار فيها محمود باشا بجيشه فلم تكن الا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بجيله ورجله فاقتتل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من في الساقه الى الفرار وألقوا ما بأيديهم من السلاح فأتخن العدو فيهم قتلا وضربا حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفقز بيكر باشا ومن بقي الى ترنكات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر بما جرى الى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضباط في بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر النعت بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضباط انما كان بايعاز من الخديوى وجماعة الانجليز لغاية في النفس واشتد القلق بالناس جميعا حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضا وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوها ذبحا

وقد كانت عت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضا فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بجيله ورجله ليقبض على ناصيتها حتى اذا ما علم ذلك في شرقي السودان وغربيه وشماله وجنوبه دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل المواليين للحكومة فيخلو له الجوق حيثئذ وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت اليه الدولة من العجز ووهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمسا وغرورا ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدث به الخضر والياس أو ما بشره به صاحب الشريعة الاسلامية وما أعسده الله له ولاصحابه من الاسرة والكراشى في جنات النعيم وغير ذلك من الخرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله حتى افتتن الناس طرا واتسع الخرق وتعمذر الخلاص وقد زاد الامر خبيلا والطين بله بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة الانجليزية من وجوب تولد جميع السودان والتخلي عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع الى الخارجى والاسراع باجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقي من العسكر ومن يريد

الجللاء من الاهلين أيضا فكان ما كان مما مر بك بيانه في محله من تنحي الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الانجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقا وغربا وذهب الى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك في بابيه ان شاء الله تعالى

وصل

(في هزيمة أخرى وكسرة كبرى)

لم يكن غردون ليتوقع الفشل الى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب في الناس بما خطب من ترك البقايا من الاموال ومنع الجباية ثلاث سنوات واطلاق حرية التجارة في الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف ولكن خائنه الاقدار وسقط في يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رجب لاسيما وقد جاءت الانباء في هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزونه * وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب سياسة الانجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله في قبضة عثمان دقنه على ماتقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سواكن وبربر أمر لا يد منه لفائدة سلطنتهم في مستقبل الايام فعمد الى ارسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش الى سواكن في العشرة الاخيرة من ربيع الثانى من السنة أى سنة احدى وثلثمائة وألف ومعهم الشئ الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانجروا من سواكن الى ترنكات وسارومعه بيكر باشا مقدم الجيش الذى أقناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن في التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التى غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع فلما صار جيش جراهام على مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى في عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الادبار فلحقهم قنابل العدو وتساقط عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكا ذريعا جدا فما زال بهم جراهام حتى لم شعبهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم فى الرمي ويصلهم نارا حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه

قابل العدو فهم جراحهم بتغيير شكل صفوفه ليدراً عنهم تلك النيران الاكلة فأحس بذلك عثمان دقته فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقي الحال هكذا بضع ساعات من النهار ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لا تعد وتقهقر عثمان دقته الى طوكر لعل جراحهم يتبعه فيقع في محالب العطب فأدرك جراحهم الحيلة ولم يعرر بعسكره * فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراحهم كاد يذوب حزناً وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم الى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين التلاع وشاع خبر ذلك وملا الاسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فرارا من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادماً لصروح أمانيه مفعماً باللوم والتفريع وقارص القول ورد هدية غردون التي كان أهداها اليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش * قال صاحب كتاب السودان وأرسل يقول له ان أحسنت في دنياك وآخرتك فجعل بترك الكفر واعتنق الاسلام ديناً والبس هذه المرقعة التي هي لباس الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ولا تكن سبياً في اراقة الدماء واعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام فغضب غردون غضباً ماعليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جدا * وكان الناس الى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الانجليز في شأن السودان المصري ولا يدرون ما اذا كان الحديدى مطلق اليد في التصرف في بلادهم ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لا راد له ولا ممانع فيه فدلهم يومئذ تخبط غردون وخطه وعدم حضور عسكر من الانجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الانجليز لم يبعث غردون الا ليعمل على ترك السودان للخارجى حيناً حتى اذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجلهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها الى أملاكهم في هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطنتهم الواسعة وهي غاية في نفسها طامعوا حتى مهد لهم رجالهم الاسباب وفتحوا لهم بحسن لباسهم مغلق تلك الابواب بأن أوقدوا نار الثورة العرابية في جوف القطر المصري ونفخوا في ضرام نار الفتنة المهدوية في جوف السودان وأدنوا لهم في القريب العاجل من الايام ما لم تكن لتناله سلطنتهم في البعيد من السنين والاعوام وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى في أرباض الخرطوم الى غردون مفعمة بالاسباب واللعن والخط من قدره وتهديده بالويل والنبور وعظائم الامور ان لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياماً كاد يهلك فيها غردون كذا * قال صاحب كتاب السودان فاجتاز غردون النيل الازرق الى قصر راسخ بيك وأرسل احدى عشرة رسالة برقية الى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت اليه حالته ويقول ان العدو على وشك الزحف للاحاطة بالبلد وان اسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخبرته ثانية وأرسل

كذلك الى الخديوى والوزير نو بار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - انى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الاحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكير الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم الى ارسال النجدة وحفظ الاتصال ما بين دنقله وبربر - قال - واعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون انك لا تجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث انك لا تجهل انها لا تتحول عما عقدت التية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخبرته بعد التفكير أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخاربة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا اه ٥ قلت وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عند ما كان يقاتل الخارجى وانتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استندامه على غرة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون الى استعطاف السير بارنج اذ كتب اليه يقول ليس فى الامكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين عن معهم من العيال الا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه ردا كله مما حكة وفيه شئ من الامانى وفى كل عبارة يحضه على التروى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره اليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك ٦ حدثنى صاحب لى خير قال كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجائب فانه بينما كان غنى غردون بالمدد ويعدده بقرب وصول النجدة اليه كانت رسائله ترسل تباعا الى عاصمة الانجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة كما أن ارسال جماعة من عسكرهم الى اسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لامعنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شئ فكانت كل هذه الاحاجى والمعيات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والاطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقق من دخول سائر سكان الضواحي فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد الى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام اليه فأكبر الامر جدا وكان العدو قد جعل مركز حركاته فى الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرده العدو من حلفايا واجلائه عن الضواحي المتاخمة ٧ قال صاحب كتاب السودان خرج من الجند لذلك يعنى لطرده العدو ثلاثة آلاف من الباشيوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش الى السعيد حين الجميعاتى وحسن ابراهيم الشلالى

ابن عم يوسف باشا الشلالى وكلاهما من جماعة النخاسين - قال - والسعيد حسين هذا من أسافل القوم وزعانف الجماعات وقد كان غردون عند وصوله الى الخرطوم قد ولاء الامارة على جماعة الباشيوزق وأعطاء رتبة الباشوية كما أعلى مقام غيره من زعانف السود وزعر النخاسين رجاء استمالة القلوب اليه والعمل على مرضاته فسارت الجنود الى حلفايا فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى فشلوا وولوا الادبار فركب العدو أقفيتهم وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم أو كاد وقد غرر بهم السعيد حسين وحسن ابراهيم الشلالى * فلما دخل من بقى المدينة خزن غردون حزنا شديدا قيل وبكى بكاء مرا وأمر في الحال بمقاضاة السعيد حسين فكان ذلك وحكم عليه بالقتل فلم يكذب يخرجونه من محبسه حتى هجم عليه جماعة من العسكر وقتلوه بطعن الحراب ووخز السنك وقيل بالمعاول * وخرج محمد الخير الفقيه المدرس وهو من كانت تجلبهم الحكومة وتعطيهم المرتبات والجاكى في كل شهر وانضم الى أصحاب الخارجى وقد كان جاءه كتاب من الخارجى يقول له فيه إما أن تنضم الينا أو تنضم الى عدونا والله يحكم بيننا * ووفد محمد الخير على الخارجى بالابيض فأكرم الخارجى وفادته وولاه الامارة على بربر ودنقله ورسم له بالجهاد والغزو فقدم الى بربر مثقلا بالهدايا التي أهداه اياها الخارجى فلما صار على مقربة منها أرسل الكتب يدعو الناس اليه في المنة فانسلوا اليه فدعاهم الى بيعة الخارجى فرأى منهم تباطؤا فوقف بينهم وقال يا قوم أشهد الله وملائكته أن صاحبنا هو المهدي المنتظر فإذا لم يكن المهدي نفذوا بلميتى هذه بين يدي الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل ﴿ قال الراوى فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدي وقتال الدولة والغزو في الكفار فسار بهم لقتال المرابطين في شندى وكان بها جماعة من الباشيوزق زهاء الثلثمائة فعلوا بعزمه وهما بالخروج من معاقلهم والاتحاق بنهم في بربر فلم يكتمهم محمد الخير من ذلك وكبسهم بخياله ورجله وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم جميعا وغنم ما في البلد من مال ومتاع ومنع أصحابه من سبي الذراري ونساء المصريين كما كان الخارجى يفعل وقال حرام أن يمسن بسوء ثم سار بلومه يريد قتال من في بربر من المرابطين فحاصرها أياما ثم فتحها عنوة وأعمل فيهم السيف وغنم سائر ما فيها وكان مما غنمه شئ من متاع غردون كان قد ورد اليه من القاهرة وطير الخبر بما جرى الى الخارجى ففرح بهم هذا الفتح فرحا عظيما وأرسل الى محمد الخير يقول عجل بفتح دنقلة واقطع الطريق على من يقدم عليك من مصر وجاءت الاخبار الى غردون بسقوط المنة وبربر فأيقن أن كل سعى في الخلاص باطل لاسيما وقد جاءه الخبر بعيد ذلك بأيام بقيام الخارجى من الابيض الى الرهد في لمومه الكثيرة وأن أبا قرجة وابن البصير على عزم الزحف على الخرطوم وفتحها

فلما خلت العشرة الاولى من رجب سنة احدى وثلثمائة وألف سار أبو قرجة في لموم كثيرة حتى نزل على قرية الجريف القريبة من الخرطوم فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دقت

طبولهم ودنوا من حصون الخرطوم وجعلوا يرسلون الرمي عليها بالقبائل واشتدوا في ذلك
 شدة بالغة فلم تجاوبهم الحصون فما زالوا يقتربون منها حتى صاروا على أدنى من رمية قوس
 وكانت عساكر الحصون قد ألغمت الأرض بالبارود والمقذوفات النارية فلما توسط أصحاب أبي
 قرجة مكان اللغام أوقد العسكر فيها النار فالتهمت وتفرقت وفطكت بالعدو فتكا تشيب
 من هوله النواصي وتغطت الأرض بالاشلاء والمشامش فكان المنظر مرعبا مزعجا وعاد أبو
 قرجة بمن بقي معه إلى الجريف ۞ قال صاحب كتاب السودان وكثرت يومئذ الأحزاب
 حول الخرطوم وتوارد الدعاة على أرباضها فرأى غردون أن يدفعهم عنها ويناشطهم القتال
 كل قليل حتى لا يتكامل عددهم وعددهم ويستفحل أمرهم فرسم إلى محمد علي بيك أحد
 كبار الجند بالخروج لقتالهم فخرج في عدة من الباشيبوزق والعساكر المنظمة مع بعض
 المدافع وسفن النقل وسار إلى الجريف وقاتل من بها فظفر بهم ومزق شملهم وملاك حصونهم
 ومتاريسهم وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم ما في معسكرهم من المؤن والذخائر واحتل معسكره
 شيئا كثيرا من الاقوات ثم سار إلى الحلفايا فأصلى من كان بها نارا حامية وكانوا جماعة من
 الدعاة وزعماء القبائل فخرجوا على وجوههم هائمين وقتل كثير من رجالهم وهدمت
 عساكره حلفايا ودكها دكا وحلوا أخشاب دورها إلى الخرطوم وجاء الخبر بما جرى إلى
 مدعي المهدي فارتعج وحزن حزنا ما عليه من مزيد وأرسل رسلة تستصرخ القبائل
 وتستفزهم* ثم إن محمد علي بيك سار إلى أبي حراز فخرج أهلها على وجوههم فأباحها للعسكر
 ثم سار إلى العلفون على النيل الأزرق وكان بها الفارزون من نيران عساكره وقد أمروا
 عليهم شيئا اسمه مضوى فلما أحس الشيخ بمجيء محمد علي بيك استصرخ القبائل المجاورة
 ومن لم يخرج إلى ذلك الحين من أهل الجبال فالتف حوله زهاء عشرة آلاف فقاتلوا عسكر
 محمد علي بيك قتالا عنيفا فاشتد عليهم محمد علي بعسكره حتى هزمهم شر هزيمة وفر من
 بقي إلى الجبال وفر مضوى في مائتين من الفرسان ولحق بأمر ضبان وهناك جع من تفرق
 من أصحابه ولبث ينتظر ما سيكون ولما تم إلى محمد علي بيك النصر وفاز بالغلبة والظفر أرسل
 جواسيسه إلى أم ضبان ليأتوه بخبر من بها من العدو فقاتلوا أياما ثم عادوا يقولون انه ليس
 في البلد من القوم الا العدد القليل مع شيخ اسمه العبيد وإن التعب قد أضناههم وكاد
 يفقدون الحركة * وكان الجواسيس قد التقوا بالشيخ العبيد فاستمالهم بالرشا والبراطيل
 حتى مالوا إليه فأمر اليهم أن يخذعوا محمد علي بيك ليجذبوه بعساكره إلى الاحراش والغابات
 كي يتمكن هو ومن معه من البطش بهم فلما أعلموا محمد علي بيك بخبر قلة العدو وما هو
 عليه من الجهد زحف بعسكره ومتطوعته وكان قد لحق به كثير من المتطوعة من أهل
 الخرطوم طمعا في إحراز الغنائم من الاقوات لانهم كانوا في حاجة إليها فلم يبلغوا منتصف
 الطريق حتى خرج عليهم كمينان من وسط الغابات أحدهما من خلفهم والثاني من أمامهم
 وداهماهم على غرة فقتلوا وتمزق عقد نظامهم وأنخن فيهم العدو فقتل محمد علي بيك وسائر

من معه من مقدمى العسكر ولم ينج الا بضع عشرات عادت بهم السفن الى الخرطوم وما انتشر نعي القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وخن غردون حزنا عظيما وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءت اخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير امامه بابا يلج في طلب النجدة الا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنفر من العساكر الانجليزية سوى ارسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم الى دنقله ومنها الى القاهرة مزودا بالرسائل والكتب بطلب النجدة فالتحدر استيورت هذا من الخرطوم على احدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة والتحدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقله فينتاهم فى طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجتدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الامواج والعدو من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق الى أن قطعت الشلال الاول واستيورت بحث ربانها على الاسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر عظيم ولم تكن الا اللحظة حتى دخلها الماء وملاً جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لتسكد طالعه الا الى القاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخيرة فى الماء وأنزل متاعه فى زورق وساربه مع من كان معه من الخدم والاتباع الى جزيرة فى وسط النيل وزل بها فأشار عليه بعض من كان معه أن يسير بالزورق الى حدود دنقله ثم يرسل من يحمل الخدم والاتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور وبيناهم فى تردد وحيرة اذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامة نادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بنفر منكم لتسكلم معهم فصدق استيورت كلامهم وأرسل اليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما اذا كانوا باقين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخبر وبأنوا ليلتهم تلك بالجزيرة فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان لاستيورت ان شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخرتكم فجهز لكم ما يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فان شئتم فاعبروا وامشطوها وسيروا على بركة الله - قال ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة فقالوا لهم ان الفرق آتية الساعة فلبثوا فى انتظارها حتى قارب الزوال وبيناهم كذلك اذ جاء رجل من أهل القرية يقول لاستيورت ان الشيخ أعد لكم طعاما فهبوا كلوا واشربوا هنيئا مريثا فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كانه ذاهب الى وليمة أحد الاصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئا من الحطة أو الخذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه

نحسون رجلا في زى السيارة فرحبوا بهم وهنؤهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا في رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية الى شاطئ النيل وأعملوا السيف فبن كانوا هناك حتى أفنؤهم جميعا وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق وكتب غردون التي كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك الى الخارجى - قال ففرح الخارجى بها فرحا عظيما وأمر فدقوا البشار وطير الخبر بذلك الى غردون وعرض له بذكر ما فى كتبه التي كان استيورت يحملها ودعاه الى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فخرن غردون حزنا شديدا وأيقن أنه لم يبق فى طاقته دفع هذا المقدور وتحقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة الا بالله

(مطلب)
اشتداد الحال
على بربر ومن بها

والى هذا الحين كانت قد اشتدت الحال على بربر وضافت ذرعا بأمرها ووصل اليها دعاة الخارجى وضيّقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الاطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل الباد يصيحون المدد وكتبهم تأتى الى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الاكباد فما جاء فيها قولهم هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم بأصحاب الامر أين العاطفة الانسانية والشهامة والحجة أين منا جرائم لوندرة وجعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها للهلاك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الارقاء فانهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال فأين الدولة البريطانية العظمى التي وعدت وصرحت برغبتها فى انقاذنا وانتشالنا مما ألم بنا ما بالها لا تتقدم الى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الاجل وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حثفنا فتقينا من القبور أو كيف وما القصد والداعى الى تقاعدنا وتهمامها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن واعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا أما نحن فلا نسئد الفرج من انجلتنا وحدها بل نلتمس اسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فان القصد الوحيد انقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الامر المدد اه * فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لاتقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكاملة صاحب سياسة الانجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب اخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا * وأخذت الخديوى آخذة من الغم فجمع اليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ وردّ ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جليتهم وطال بينهم الجدل فأخذت أحدهم عند ذلك « ولعله الوزير محمد شريف باشا »

هزة الغضب فقال ما بالكُم تقولون غير ما تفعَلون وتطلبون ما أنتم عن ادراكه عاجزون
وكأنكم تجهلون أو تجهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح ازاء وزير السياسة
الانجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعمالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد
وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيئة الى ما هنالك فعلا م هذا الاجتماع والام تغافل
وتغامى عن الحقائق ﴿ قال الراوى وبينما هم على هذه الحال اذ جاءهم الخبر بأن داعية
الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتابا الى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعو الى التسليم
هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره
وجوعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر
الوزراء الامر جدا وأرسلوا فى الحال الى صاحب السياسة الانجليزية يسألونه عما يفعلونه
بجاءهم الجواب بأن لانجدة الا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فانفض مجلسهم يومئذ
على ذلك * وكتب الوزير نوبار باشا الى حسين باشا خليفة يقول ان قدرت على الدفع
فادفع عن نفسك والا فالتحذرين معك والسلام فلم تكن الا أيام قلائل حتى شاع الخبر
بقيام سائر القبائل المناجحة لبربر الى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام
بعض المرابطين اليهم أيضاً وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والامر لله من قبل
ومن بعد

وصل

(فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك)

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحذب تقوّت عزيمته
واشدّ ظهره فرسم الى عبد الرحمن ولد التجوى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام
عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين الى
أمير وهذا الأمير خاضع الى ولد التجوى وانضم الى جيش ولد التجوى أيضاً عبد الله بن
النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين ﴿ قال صاحب
كتاب السودان ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلق على بركة
الله بجيش ولد التجوى فخرج الناس أفواجا أفواجا من الاحرار والعييد فبلغت بهم عدة
الجيش زهاء ستمين ألفاً وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف
فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم الى بلدة الجريف فى أخريات ذى
القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف ووزل بها ولد التجوى أياماً حتى تكامل
عسكره فقسّمهم الى ثلاثة معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ
المتاريس وسلم الى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق وأرسل الى غردون يدعو

الى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع - قال - وتراجع أيضا المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا في الخلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المناريس فكانت مقدوفاتهم تصل الى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيرا منهم في كل يوم ولبث الحال على هذا المنوال الى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنتين وثلثمائة حيث زحف الخارجى في جيش عظيم قيل انه يبلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون ككتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشيوع البلد من تلك الكتب شيئا كثيرا * وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها في أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برى القنابل فتراجعوا عنها خاسرين وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى في قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالا شديدا حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الامامية ثم حاصروها حصارا شديدا الى آخر ربيع الاول فنقد ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شئ يقاتلونه فسلوا الى صاحب المهدوية باشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم في مصاف جيوشه

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والاجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الامر شدة نفاد ما فى المخازن والاشوان من المؤن والغلال وعدم امكان الحصول على شئ منها من الخارج لاختد العدو باطراف الطرق فتفشيت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها - قال - وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطا مع جوار النخل وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم اعراض تشبه اعراض مرض اليرقان ثم تنقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام وتعقبها اعراض الموت - قال - ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من فرقة البنادق وهزيم المدافع حتى ان غردون انتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الاسماك هجرت شواطئ الخرطوم فان أراضي بساتين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزرعتها ولم ينبت فيها شئ من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها - الى أن قال - وكانت أسعار الاقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالاً ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الاقة

البقسماط وخمسة ريبالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحمر
الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اه * واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على
كبارهم وساروا عصابات تعيث في البلد وتسطو على باعة الاقوات وتخطف كل ما هو معرض
للبيع ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجي عند أم درمان هربا من الجوع وكان غردون
مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الانجليزية ربما يكون غير أو بدل من
أسرار سياسته فيعمد الى ارسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع
بواخر مدرعة كانت الى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمئون الى الخرطوم من القرى فسير
بهذه البواخر الى المنة وبربر ولكن على غير طائل * وكان يضرع الى الله تعالى أن يقرب
عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياما ثم يئس وقنط وتولاه الحزن
والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا في الليل ولا في النهار وكان يغدو ويروح بين
الحصون والقلاع يشدد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الامانة والاخلاص وكان كلما
رأهم وهم يتألمون من ونز الجوع يذوب حسرة وتوجعا ويقول كيف يهدأ بالي وهما هي
جنودى تقادى ألم الجوع ومتر العذاب قيل وكان يقضى اليوم واللييلة لا يذوق الا الشئ
اليسير من الطعام وأكل جوار النخل أياما حتى أضناه وكاد يودى بحياته * وكانت كتب
الخارجي ترد عليه كل قليل يدعوه بها الى التسليم وترك العناد ويقول له في بعضها ان
الانجليز ان قدموا للجندتك فلا يصلون اليك ولا يكون حظهم الا كحظ يوسف السلالى
وهيكس * قال صاحب كتاب السودان وكتب المهدي ثلاثة كتب الى غردون

نص الاول منها - بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فن العبد المعتمد بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق
النجاه قبل أن يتلاشى آمين نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه
وقد عذرناك على عدم إذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر
الحقيقة التي نحن عليها وتحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى
من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك
الى سواء السبيل فأجب داعي الله واغتنم سلامتك من الشر الويل فقد رأيت ما حل
ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن
عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب ارساله لك فعلا ما ذا هل
أنت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور أم أنت على تصميمك على اعراضك
ومعادتك لربك فأفدنا على هذا لتعلم طلبك له على أى الوجهين ونرسله لك ان رأينا في
ذلك صلاحا للدين وأقول لك ان عزة الاسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك في الدارين
فتحلى بها ان عقلت والسلام

قال - والكتاب الثانى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة

على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن العبد المفتقر الى الله المعتمد به محمد المهدي ابن عبد الله الى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان أعرضت كان عليك إيمنك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لو كان معي أمامها ستة أنفار تموت أو نجسة تموت أو واحد يموت أو وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلال وهيكس وأسألك المديريات الغربية كلها والبحر الأبيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام أن الله القادر أيدي بالكرامات والنصر فلا يضرني انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذي وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على أن الجردة التي تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الانصار الطرق فان أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أَرَادَهُ اللهُ وستري والسلام اه * تحشية - وان طابت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكن واليقين ان أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة في الامان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اه بنصه

قال - والكاتب الثالث بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشي فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحننا ودخلت في أماننا وضمناتنا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلا كههم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاك من في الخرطوم الا من آمن وسلم ينحيه الله ولذلك أحبت لك أن لا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مرارا أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعادة فما أجبتنا بكلام يؤدى الى خيرك كما نسمع من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تتيسر هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك نرجع الى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تياس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى - ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيمًا والسلام * وقد قلت في جوابك الذي أرسلته الينا ان الانجليز يريدون أن يفسدوا وحده منا بعشرين ألف جنيه ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاما كثيرا ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحننا فيها ونعمت والا فان أردت أن تجتمع بالانجليز فبدون نجسة فضة نرسلك اليهم والسلام اه بنصه

قلت وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى الى غردون يقول فيه
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم
وبعد فمن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى عزيز بريطانيا والهندوية
غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم ارادة اصلاح حال المسلمين
وفتح الطريق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتصال المؤدة فيما بيننا وبينكم واطلاق
المسيحيين من النصارى والمسلمانيين وأن تجمعنا سلطانا على كردفان فأقول والامر لله انى
قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم الى ربهم وأن يفرغوا من الدنيا الفانية الى
دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبت الى حكامدار الخرطوم وأنا بأب
بدعوته الى الحق وبأن مهديونى من الله ورسوله ولست فى ذلك بتحميل ولا مرید ملکا
ولا جاه ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين
ونبؤهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى
صدتهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقي واشتغلوا
بما لا يكون من الغايات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر أهل القرون الذين
لم يغن عنهم ذلك شيئا وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى
لدلائلهم الى الله تعالى وليركوا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز الدائم والنعيم الأبدى
فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له
نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يامعشر الخواريين ابنوا على موج البحر
لكم دارا واياكم والدنيا فلا تتخذوها قارا « قلت ان المسيح لم يقل شيئا ولا شبه شئ من
هذا الكلام فى انجيله البتة » - قال المدعى - فن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل
فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن
فأناب الى الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء
حتى تسعى للملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبي صلى الله عليه وسلم
من يرغب زيادة الكلاب كما ورد فان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير
الله نسي الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شفيقا على المسلمين
فالاولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع
سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيا ما اندرس من ملل الانبياء عليهم
السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن
حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سكتة فظهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ثم
اشفق على أمته بسلك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحققين
رفيق كيف وقد قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم
أولياء بعض ومن يتولهم منهم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين - الى أن قال

انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون وانما امثلنا امر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا وما دام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأثبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امثل امر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية في قوله تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والتبيين وحزت الخير الابدى * وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين يليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فاعلم أن حزب الله واصل اليك مزيل لك عما شاركت به خالفك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الارض لله يورثها عباده الصالحين وان المسلمين والمسيحيين الذين دعوت باطلاقهم اليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلاه من جنتهم الى محتهم فان الله قد أيدنى رحمة لعباده ولأنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم أنى المهدي المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لى بالسلطة ولا بلك كردفان ولا غيرها ولا رغبة لى فى مال الدنيا وزخرفها وانما أنا عبد الله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا أجابنى وتبعنى ومن كان شقيا أعرض عن دلاتى فأزاله الله عن موضعه وأدله وعذابه عند الله الى الابد وقد أيدنى الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الاولياء والصالحين لاجياء دينه وقد بشرنى النبي صلى الله عليه وسلم بأن جميع من يلقانى بعد اوة يخذه الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاء الله الخير وهذا الى الصواب واعلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هى مرسله اليك مع ما نرغبه من الملابس لنفسنا ولاصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وقد قال كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى « قلت والمسح لم يقل هذه الترهات أيضا ولا جاءت فى انجيله » قال - فاعلم بذلك أن من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وانما غرهم الحياة الفانية والامتنعة الآيلة الى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما

محصا فتكون حسرة ورزا عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول لك في ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبليقيس وقومها أتمدون بحال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك إذا أتيتنا مسلما تؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيرا وصلاحا للسلمين ولينالك كما فعلنا ذلك بحمد خالد المشهور بزل مديدارا سابقا فانه لما آتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره في الفاني واطمأن قلبه بالايمان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين « يريد سلاطين باشا » بالتسليم فأكرمناه والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن في خير كثير وكذلك السيد جعجه الذي كان مديرا لغاشر والآن أرسلنا الى محمد خالد المذكور يأتي به اليانا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمري مجاده وصدق اتباعه لنا وانا به الآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلوا جميعا أمرهم اليانا في حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجرا لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا فكل سعيد لا بد أن يتصل بنا من جميع أقطار الارض ومن أي لا بد أن يجذله الله ويعذبه في الآخرة كما أشار الى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم مرارا وليكن معلوما عندك يا حضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدي قد أذرتهم أولا انذارا بليغا وها هو واصل اليك انذار ولد الشلالى بعد مخاطبته لى وانذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأكابري جيشه وقد أرسلنا الى باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع في يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج الى الصديق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقبلى بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفع عنه حتى أخذته منيته فمات ومع ذلك لاجل مبايعته لى ومجالسته معي أباما قد آتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه في الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحسب فقط يوم القيامة وينتق بالعباد سعادتهم في آخرتهم الابدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الاكابر من الدولة والحكام فما علمنا معهم الا الخير والاكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازيد شرف والسلام - وبعد هذا البيان فان اهتديت وسلت لى واتبعتى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجبر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك إثمك وأنام جميع من اتبعوك وان كان لك حسن نور في العقل تعلم أنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تهمنى فيما أسوق به الى الله

والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره - وقد قال صلى الله عليه وسلم من شك في نصرة المهدي فليقرأ قوله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمتم التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لانهدى هداانا الله والعباد الى الصواب آمين اه بنصه

فيل وكتب المدعى على الظرف الذي أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغني محمد سعيد المسلماني الذي يسمى جرجو اسلامبولي أن رجلا يسمى السيد افندي نعيم الاجرجي له معرفة بلغتك وبالنخط العربي وما دام انه يعترف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما في هذا الظرف جميعه حرفا حرفا على يد المذكور أو من هو مثله والسلام

وأرسل الى غردون بعد هذه الرسالة خطابا يذكر له فيه بيان الهدية التي أرسلها اليه في مقابلة الهدية التي كان غردون أرسلها عنده مقدمه الى الخرطوم ونص هذا الخطاب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقيّة وخزام وسجّة فان أنبت الى الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لداثم حظك وهما هو الرسول الذي آتانا منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اه وعندي أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى الى غردون ومع ما فيه من سماجة الاسلوب وركاكة التركيب فاني أستبعد أن يكون من انشائه اذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذي هو أحد الخطابات التي نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من انشائه وعلى كل حال فانها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل في دينه ويقينه الثابت بأنه هو المهدي المنتظر بلا جدال

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلاد ومعاقبتها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه في الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا لا بل نبقى حتى تصل الجنود الانجليزية فأجابهم غردون الى ذلك وقد كانت الاخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الانجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ ورد لا يحمل لا يرادها هنا وان تلك الحملة بلغت النيل عند المته فقاتلها انصار الخارجى قتالا عنيفا فتهرثم وغلبتهم ووردت الاخبار كذلك الى الخارجى بما وقع لاصحابه فاضطرب وجمع اليه خواصه وأهل شوره وكلامهم فيما هم فيه فاختلقوا فتم من أشار عليه بالزحف في جيوشه وأنصاره والوقوف في طريق الانجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار

الخرطوم والجلاء عنها والرجوع الى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك
 § قال الراوى ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى الى أبى قرجة أحد الامراء وعبد القادر
 على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان فقال أبو قرجة ان الفرنجة لا يقصدون
 الا الخرطوم فاذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها في قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها
 ونلج في قتالها حتى نفتحها فاذا وصل خبر سقوطها اليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكر
 عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم وقال عبد القادر مقالة أبى قرجة أيضا فظهرت عند ذلك
 على وجه الخارجى علامات الفرح وقال هذا هو الرأى الصواب فنعمل به ان شاء الله تعالى
 وقد كان الخارجى الى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد
 في أمان من الجوع كما كان يكتب اليه غردون كل قليل من الايام فكان لذلك يخشى
 الزحف على البلد وفتحها عنوة وكان يحسب لذلك حسابا كبيرا فلما قال أبو قرجة وعبد
 القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها
 وكان من عساكر الباشيوزق سنجقان قد مالا الى دعوة الدعاة وكانهما استوثقا لانفسهما
 منهم § قال صاحب كتاب السودان نخرجا في احدى الليالى من البلد سرا ولحقا
 بالمهدى فأكرم منواهما وقرجها منهن وسألتهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل
 شئ وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان في طرف الخندق من
 ناحية النيل الابيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه الى البلد ففرح
 المهدي بذلك فرحا لا يوصف فلما كان صبح الاحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة
 اثنتين وثلاثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملا
 وسار فقبعه الناس حتى جاء الى شاطئ النيل فأحاط به الناس احاطة السوار بالمعصم فوقف
 صامتا لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ
 حفنة من الرمل يمسده ورماها في اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم وما زال
 يصبح هكذا ويلقى بالرمل في اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما في
 المقطف فالتفت الى من هم حوله وقال يا قوم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لى يا محمد
 اجهم على البلد في هذه الليلة فتسقط في يدك لاجالة قال ذلك وعبر النيل الى الجانب
 الشرقى يريد معسكر ولد النجوى وبعد صلاة العصر ركب جلا فاحتشد الناس حوله فأثنى
 على ولد النجوى وقال له ان النبى صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم في هذه
 الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو في القلب
 ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد المينة ومعه جلة البنادق ومحمد نوبارى
 شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقرة
 أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند
 البرج المعروف باسم باب المسلية - قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية

ويكون هجوم المينة على الخندق مما يلي النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلي النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكت عليه الاووال وصار فى الامكان الوصول منه الى المدينة وقدم المهدي عمر ابراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد الى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان « يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء » ودفع اليه شخصا آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدي الى محمد النور أمرا قال فيه ما يأتى - لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتي ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يتعدى عليه حتى توصله الى سالما بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلا لا يتعرض منكم أحد الى حياة غردون بسوء لأننى أريد أن أفدى به أحد عرابي باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة وقال لهم فى ختام خطبته احملوا الحشائش لالقائها فى الخندق حيث تحتازون عليها وقفل راجعا الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان اهـ

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان الى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعا من عصر الاحد ثامن ربيع الثانى الى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الاحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصا وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد الى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات الى كثرة العدو وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع الى الحصون والمعقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضرفعاد الى مقره قيل والدمع ملء عينيه فقابلته قناصل الدول فقال لهم لا قدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولا بد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صاخبهم جميعا قائلا انى أبرأ الى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصاخبهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلا أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن الا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم ۞ قال صاحب كتاب السودان وكان القائد فرج باشا واقفا وقت زحف العدو عند باب المسلية فلما أحس بدخول الميسرة الى الخندق مما يلي البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندي ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته

سراى غردون - قال - وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول الى وياكم أن تبدوا أقل دفاع - قال - ولبس كسوة الشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشا ووضع عليه رداء حريريا «كوفية» وربطه بعقال كزى الاعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجاعة من مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك ياغردون ياكافر قال فتبسم غردون ضاحكا وقال له أين محمد أحمد يقصد المهدي فابتدره الرجل بطعنة فى صدره خر منها صريعا على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة - قال - ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحدا من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لا تقتله بل أبقيه كأمير المهدي فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله ان الخليفة التعايشي أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة قال ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل انه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه الى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها الى الخليفة محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدي فركب البانحة اسميلية وأوصل رأس غردون الى المهدي الذى أنكر قتله وصاح قائلا لما ذا قتلتموه ألم أنهيكم عن قتله فقال له التعايشي ان قتله خير من استحيائه فبدت من المهدي علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اه ووردت الاخبار تنفا الى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الامر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الانجليز لاستخلاص غردون معقودا لوائها الى الجنرال واسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشئ الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطرز والمؤن والخيول ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال واسلى يتفرع بالجنود الى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها وقيل بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتية تباعا تارة بالاقدام وأخرى بالاجسام والمخبرون يأتونه من الانباء بأشكال متضاربة حتى وقع فى القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على واسلى أيضا فى طلب معرفة بعض الشئ من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأربا واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وتردادهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شأ سوى الشائع بين

الناس * وجاءت الاخبار في هذا الحين أيضا بوصول طائفة من العساكر الإيطالية في عدة وذنخة عظيمة الى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع في ضواحي البلد وهم على عزم الزحف الى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلي وانقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب اذ البلد تابعة لمصر وكان الحديوي ورجاله لا يعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيأ الا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الاخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلا يوقظوا الفتنة الراقدة وكان مقدم سياسة الانجليز لما عول على ارسال جيش ولسلي الى الخرطوم عن طريق اسوان استمال السنيور كرسبي وزير ايطاليا يومئذ الى أن يمد جيش ولسلي بمدد من العساكر الإيطالية يسيرون الى فرضة مصوع ومنها الى بربر فيلتقون بالجيش ويتصافرون جميعا على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد والجماعة الإيطالية في مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الاحسان الا الاحسان ففرح كرسبي بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشواني الكبار فأنزلوهم في بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبشوا ينتظرون الاخبار عن جيش ولسلي وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون في تلك الايام من مشايخ القبائل الضاربة في تلك الاطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهونوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وادخل بلادهم في طاعة سلطنتهم قيل فعاقدهم وعاهدوهم على ذلك وكتبوا السر الى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سبتلى عليك في محله ان شاء الله تعالى

وسار جيش ولسلي والخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتية مبتورة مقتضبة لا تشفى عليه لا ولا تروى غليلا وعميون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لا يشعرون وكان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يظنون الى هذا الحين ان غردون حي يرزق وبعضهم يقول انه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فاذا تقدم جيش ولسلي الى ما وراء دنقله تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والاتيان الى دنقله بطريق بربر دون ان يلقي معارضة من أصحاب الفتنة اذ هم يخلدون الى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلي على دنقله وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به وكان الحديوي قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والاعيان في جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عوناً للجيش وفي طاعة الجنرال ولسلي وشدد عليهم في ذلك تشديدا كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والامر يومئذ على غير ذلك وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشواني الكبار صعدا وهبوطا الى اسوان وكبرت الحركة وعمرت اسوان بالبيوت والاشوان والخوانيت لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمي العسكر وغيرهم وقدم بعض السعاة في

هذا الحين يكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم وكلها استجابة واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجى أصبحت أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها انى لاأرى الخلاص الا اذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية والا فالبلد ساقط لا محالة ويقول أيضا انه اذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضا وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى محال ذلك العدو الاسود وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيرا وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الاجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل فى معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها * ووصل ولسلى مع أركان حربه الى دنقله فلاقاه مديرها وأجله اجلالا عظيما فألبسه ولسلى نيشانا انجليزيا وأراه مرسوم الخديوى الى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة الى مقدمه بجمع المدير الى ديوانه سائر المأمورين والجند والاعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - الى حضرات المديرين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه اليكم سلامنا الخصوصى وبعد فان الجنرال ولسلى ذاهب الى السودان بوظيفة قائد عام للجيش الانجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدى الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لاجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فانا نوصيكم جميعا بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لاوامره مجيبين لمطالبه كي تفوزوا برضانا ويتمكن من اتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اه * قال الراوى فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه * ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والسكر وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستراتيجية ورتب جماعة من المرابطين فى مرمى لحفظ المواصلات وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسرون بعد ذلك قاصدين بربر فاذا تمكنوا من فتحها زحفوا الى شندى فاذا قابلهم المهدي بأصحابه جعلوا تلك النقطة حدا فاصلا والا زحفوا الى الخرطوم وأنقذوها واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن الا أيام حتى نفشت بينهم الامراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثورا * قال صاحب جريدة الغازيت الانجليزية يا لله ان المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى الى السودان ظهرت أكثر جددا مما خفها ولسلى وقد تعود المرء أنه اذا صحت له نبوة مرة حاول التكهن أخرى ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن ان جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى

ديسمبر من السنة فها قد مضى الاجل الاول ولم يجتمع من عساكره في دنقلة الا العدد القليل فاذا كانت نيته أن لا يتقدم الى عطومور أبي جد قبل احتشاد جميع عساكره في دنقلة فعسير عليه اذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما اذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض الى الخروج مع فرقة الهجانة المسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور - قال فقل لي بحقك اذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله الى الخرطوم من الاجل الذي ضربه ليا كل فينه مع غردون على خوان واحد ان في ذلك العجب العجيب اه * وشاع الخبر يومئذ بأن واسلى سير رسله الى الخارجى في طلب تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنجد الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الامراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم وقد جاءت كتبه الى القاهرة بتعجيل ارسال المؤن والادواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فمجلوا بارسالها في الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفي بولاق التكرور وبالغوا في التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعا حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك في محله

وصل

(في حركة بعد أخرى)

بينما كانت الخواطر في حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الاخبار عن هم في الخرطوم من الجند والعسكر والاهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى اذ جاء الخبر من زعيم سياسة الانجليز عقدهم عظيم من عظمائهم الى القاهرة اسمه اللورد نور ثبروك ومأموريته هي أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والابدال كأن الذي أتاه دوفرين رسولهم من قبل لم يكن شياً مذكورا فلم تكن الا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفا على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيجادلهم في أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمل الدواوين وغير ذلك ثم سار عن القاهرة فطاف الاقليمين القبلي والبحري واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلهم في الامر كذلك ثم قفل راجعا الى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الانجليز قد أرسل الى الهند في طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها لجناء الى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبي في الرابعة عشرة من العمر قالوا والرجل صديق اللورد نور ثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به في محاكمها الجديدة ويعمل فكره في تنقيحه وفي التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة

الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شئ جديد يناسب روح العصر فأدش الناس حضوره اذ البلاد بلاد علم وعلماء الشمرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سمع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الاهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية بفناء الامر من الوزير نوبار باشا بقاء الرجل فلاقينا على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الانجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال - أتكم تنظرون المقدمات * يريد هل أنتم تنظرون في قضايا الاحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الاهلى فقلت ان للمقدمات التى يعنىها الاستاذ محاكم أخرى وقضاة آخرين فقال وكم من المقدمات عندهم اليوم * فقلت لا شئ منها عندها وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال * أتكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم * فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى يبدل وأشرت الى نسخة القانون قدمدم بالهندية وقال أتكم تجلسون وين تأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر اليها وهو باهت جامد ثم رحل عنا الى القاهرة قيل واجتمع بشيخ الازهر وبعض كبار العلماء وحادثهم فى شئ من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الانجليزية قالوا وبائع كثيرا فى مدح الامة الانجليزية وفى رجال دولتها ثم رحل عن القاهرة الى عاصمة الانجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس نتائج مأموريته * وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الانجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظمات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القديم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الانجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين فكان الرجل من شر الرجال متسرعا مخاطرا نفورا محتالا مستخفا بعظام الامور صلفا عنيدا مكابرا فعات وعبت وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكتب مشايخ البلاد والقرى ويرين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر الى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلبي ويمد يده الى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول مأمور الاصلاح وأخرى يقول مستشار الاصلاح وآونة مدير النظام وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الاسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الاعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجدته على غير ذلك ضرب به الارض وقال لا بارك الله فيك ما أكثر أسمائك وأقل ثمنك * وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التخرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شئ حتى ضج الناس وعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة

الفجر والمثل وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن رده وإيقافه عند حده فأرسل كتبه الى زعيم السياسة الانجليزية يشكروهم من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد في دار السلطنة الانجليزية من شر العقوبة ويلقى كل تبعة على الرجل بخفاء الامر بخلعه فالتخلع وسار الى بلاده متسكرا وقد ترك من آثاره ابطال سائر دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الاخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بأرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق في وجوه المرتقة من أبناء البلاد

وقدم الى القاهرة في هذه الفترة شارب سايد عامل الانجليز على شرق السودان وسواحل البحر الاحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرق السودان وعدم تركه لأصحاب الثورة - قال - حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدي واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الامر بالتخلي عن بعضها لدعاة المهدي وبعضها الى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم يبدأ من الشخص الى مصر ومكالمه الوزير في ذلك اشفاقا فعقد الوزير مجلسه في دار السير بارنج وحضره عبد القادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بديار مصر والمستشار المالي وشارب سايد وتكلموا في الامر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه الى دار السلطنة الانجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وأرسل الوزير في ذلك اليوم أيضا الى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل الا على بعض كلمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا على حين أن الاخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة واعراض ولسلى عن المدير اعراضا تاما - قالوا - وذلك لامتناع المدير من السير بمن عنده من العساكر في طبيعة الحملة الى بربر وتكلم أصحاب صحف الاخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل الى سواكن وكادت تتحقق الاشاعة بعبور بعض سفن النقل والشواني الكبار ترعة السويس الى سواكن وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدي ومن التف حولهم قد تحصنوا بعبور بربر ولم يطلعهم نازلة في جهات مروي أو ما يتقدمها وانه لما علم ولسلى بذلك أخذ الخطة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الالهبة والاستعداد لصد العدو عنهم وأرسل كثر بعض الجواسيس من الدبة الى الخرطوم عساهم يأتون ببعض النش من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك وجاء الامر الى شارب سايد عامل شرق السودان بالشخص الى سواكن واجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دنقيه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة

(مطلب)
وتوالت الطلبات
على الخزينة لكثرة
النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا

الفتى فعمدوا الى ايقاف دفع أقساط استهلاك ديون الخزينة في آجالها فأوقفوها فقام عند ذلك أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وقعدوا لاسيما منهم أصحاب صحف الفرنسيين والألمان وصاحوا يا لثارات أصحاب الديون وكان الوزير نوبار باشا يتمنى لو انه يتمكن من اظهار عجز الخزينة وعدم قدرتها على القيام بنفقة ربا ديونها لعل الدول تساعد على تخفيضها رجة بالبلاد وأهلها فقام يومئذ أعضاء صندوق الدين في وجهه ومانعوا في ذلك بإيعاز من دولي الألمان والفرنسيين وأقاموا الحجة ضد ناظر الخزينة ومديرى الاقاليم المرهونة ايراداتها لوفاء الديون ثم رفعوا دعوة بذلك أمام المحاكم المختلطة فلم يسع الوزير يومئذ الا العدول عما كان يقصده ورسم بدفع الاقساط في آجالها فسكنت الخواطر واطمأنت القلوب وعاد الناس الى حديث السودان وجيش ولسلى ولم يلتفتوا الى ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والحن المتابعة بسبب المصاريف الفادحة المترتبة على تلك الفتنة * وبينما هم على هذه الحال اذ جاء الخبر من ولسلى وهو يومئذ في بلدة القرطى بأن مقدمة جيوشه السائرة في طريق الصحراء التقت بطلائع الدراويش في نقطة فيها آبار تبعد عن المنة زهاء خمسة عشر ميلا قال - فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا واختلطوا معا فكان القتال شديدا والظعن مميتا وظلوا على هذه الحال من الضرب والنزال بضع ساعات حتى انهزم الدراويش ومات منهم خلق كثير وكذلك من الانجليز وجرح كثير من العساكر ومقدمو العساكر وتشتت شمل من بقى من الدراويش وجعل الانجليز بعد هذه الموقعة الشـعواء يتقدمون نحو المنة ثم جاء الخبر مفصلا فدل على أنه بينما كانت مقدمة جيش ولسلى تتقدم نحو آبار أبى كلبة القريبة من المنة راجعة من آبار غدقول تريد اللحاق بالمنة تقدمت طليعة من الفرسان لتستكشف موقع العدو فرأت العدو في عدد وعدد عظيمين عند آبار أبى كلبة فقفلت راجعة على الاعقاب وأخبرت عما كان فلم تتمكن العساكر من مناوشة العدو لدخول الليل وبقاؤهم على قدم الدفاع وبينهم وبين العدو ثلاثة أميال أو نحوها وقد اقتتلوا ما وجدوه في مواقعهم من الاشجار والاحجار وأنشؤا زريبة وضعوا فيها المؤن وآلات الحرب وشيدوا أمامها حصنا ليحتموا فيه وكان في أعلى جبل هناك نفر من العدو يرصدون مسير الحملة وحركاتها فأحسوا بقدم العسكر فأخبروا رفاقهم فجعلوا حينئذ يطلقون على العساكر نيرانهم واستمروا على ذلك طول ليلتهم تلك فأطلق عليهم كذلك جناح الحملة الايمن ثلاثة مدافع وأصبحوا وقد نادى مقدم العسكر بالزحف فتقدموا نحو العدو وناوشوه القتال فلم يتحرك ولا يادر بالهجوم على الانجليز كما كان يؤمل فأندهم فتقدمت العساكر نحو العدو على شكل مربع قوى الاضلاع فتحرك العدو عند ذلك وجعل يرقب مؤلفة المربع ثم اختفى معظمه عن الابصار وقد تركوا راياتهم مركوزة في الحملة التى كانوا نازلين بها وهى خدعة قد احتلوا بها ليستقدموا الانجليز في بعض العقبات كي ينقضوا عليهم ويظفروا بهم ولقد كان كذلك فان الانجليز انخدعوا وتقدموا فلم تكن اللحظة حتى عادت طلائع العدو وأخذوا يقذفون

على مقدمة مربع الانجليز نيرانهم الحامية ويرسلونها عليهم إرسالا فباللهم الانجليز بأشد منها وظلوا على هذه الحال ساعة لم يشعر الانجليز بعدها الا وقد هجم العدو على مؤخرتهم هجمة عنيفة وخرق صفوفهم فالتحم الفريقان ووقع الضرب والطعان وتراسلت على السود النيران قبل فانفجروا وولوا الادبار وقد انصبغ أديم تلك البيداء بالدماء واكتسى بجثث القتلى والاشلاء من الفريقين وسار الانجليز بعد إصلاح حالهم ودفن جثث أبطالهم يريدون آبار أبي كلبه فبلغوها قبيل الغروب فاستقوا منها وقد كادوا يهلكون من الظما وسقوا خيلهم ودواب جملهم وضربوا هنالك بعض المضارب لراحة الجرحى منهم وأقاموا حولهم رباطا وساروا يريدون المنة * وكان المهدي قد علم بأن الانجليز انما هم قاصدون المنة ليقيموا فيها الحصون والمعازل التي يتعذر على أصحابه أن يوقعوا بها فسير جماعة من المقاتلة ورسم لهم بالوقوف في طريق الانجليز ومناوشتهم القتال كي لا يتمكنوا من بلوغ المنة وقد أحس مقدم الانجليز يومئذ من كثرة انتشار المهديين في تلك الانحاء ووقوفهم في طريقه في كل صوب وحذب أن شغى ساقطة في يدهم لا محالة وعلم أن المهدي نازل على أم درمان وان الحصن القريب من مدينة الخرطوم أصبح في قبضته فرأى أن المخاطرة بجنوده والتقدم بهم الى المنة ضرب من الهوس والجنون فأرسل الى الجنرال ولسلي في طلب النجدة واستحثه قبل أن يتمكن العدو من لم شعثه وارجاع الكرة على العساكر مع ما هم عليه من الضعف والتعب * وجاءت كتب المهدي كذلك الى سائر العربان ومشايخهم الضاريين في البيداء يحظر عليهم معاونة الانجليز أو أن يبيعوا لهم شيئا من المؤن أو العلف لدوابهم أو أن يدلوه على الطرق وتوعدهم بالويل والشور وعظائم الأمور ان هم فعلوا شيئا من ذلك فنزع العربان في الحال من تلك الاطراف وابتعد عن الطرق من لم يكن محاربا ووردت الاخبار بجميع ذلك الى جماعة الانجليز بالقاهرة فاشتد قلقهم وكثرت كهانة أصحاب صحفهم ونقله أخبارهم وجاءت كتب الخديوى الى الجنرال ولسلي بالاستعلام عن حالة جيش الكولونيل استيورت الذي سار الى المنة بعد تلك الواقعة الشعواء فأجابه ولسلي بما لا يشفي الغليل ولم يذكر شيئا عن استيورت وجنوده فقال الناس قد هلك استيورت وجنوده وهو قول يكاد يكون له من الصحة نصيب لان بين آبار أبي كلبه والمنة مسيرة أربع ساعات للمجدد المسافرين وثمان ساعات للبطيء الثقيل فان لم يكن قد وصل بجيشه المنة ثلثي يوم الواقعة فيكون قد قضى عليهم جميعا كما قضى على جيش هيكس الا أن يكون قد أدركهم الله برحمة منه * ثم تحقق الخبر بأنه بعد أن جرى ماجرى أقام الجيش على آبار أبي قلعة رباطا قويا وسار يريد المنة فوصلوا الى آبار شبكات فلم يدركوها حتى تبينوا أن في المنة قوة كبيرة من أصحاب المهدي فعزل استيورت بالجيش عن الطريق واتخذ الجهة اليمنى طريقا له فينتاهم يسيرون مجدين إذ بدا للأنظار تجمع لموم كثيرة من أصحاب المهدي على قيد غلوة من النيل فخط الجيش الرجال وأخذ الرجال في إقامة زريبة يجتمعون فيها ثم

يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدو نارا حامية وأرسل الرمي واشتد في ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الانجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب في الزريبة وسار عن بقي من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل كان المقاتلون من أصحاب المهدي مترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهديون حينئذ وتبعهم ولسن بجموده * فلما كان ثاني يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الالفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الأمير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا الى جيش ولسن ولبثوا يومهم في تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لاستكشاف ما في شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الاسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعبدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد للحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره في كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ففرح به جماعة الانجليز فرحا عظيما وقالوا ها قد أصبح الجيش الانجليزي على أبواب الخرطوم وغدا غردون في مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الابطال البواسل الا اقتسام الأسلاب والغنائم وبسط السلطة الانجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها الى أقصاها * كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيي العظام وهي رميم

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا الى الجبال مستصرخين الالهائي للاخذ بالثار * وكان الى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذي سيره ولسن عن طريق أبي جد نخاف أصحاب الحبل والعقد من الانجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم فجاء الخبر بوضوئه الى برقي الواقعة شمال أبي جد وأنه لم يلق في طريقه الا سرازم قليلة من أصحاب المهدي فبدد شملهم وأوقع بهم ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأق له أخذها الا اذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المنة وهذا عسير عليه الانضمام الى جيش آرل الا اذا تم له فتح المنة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة وترفع ولسن بسفنه ومع الجنرال شارلس الذي كان ربان السفينة الحربية ألكسندرا يوم ضرب حصون الاسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلي ونجسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر الا وقد علثها

نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابي الخرطوم وطوابي معسكر المهدي واشتدوا عليها جميعا بالرجم فتأمل آمل ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم جميعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا متحذرين بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدو اثنتين من السفن فأغرقتهما بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا الى احدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت السفينة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلي من النجاة فالتحذرت مسرعة الى حيث مقدمة الجيش وأخبر ورتلي بما جرى فطيروا الخبر بذلك الى ولسلي مقدم الجيوش فأخذ في الحال يخبر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله الى لندن عاصمة السلطنة الانجليزية مباشرة واختلط على ولسلي يومئذ الحال وفسدت تدابيره وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد رأى زعيم سياستهم وسوء تدبيره في ارسال جيش ولسلي وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون وما حل بالضعفاء من أهل البلد من النساء والاولاد حتى قال بعضهم ان حامية الخرطوم كانت صادقة في الخدمة أمينة اذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الايام انه انما قدم اليهم من قبل الخديوي وأمير المؤمنين السلطان عبد الجيد فكانت واثقة من صدق الرواية دائبة على الطاعة وحسن الولاء فلما رأت رأى العين قدوم العساكر الانجليزية بأكسيتهم الحمراء وقبعاتهم المخبذة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو أبواب البلد فوجدها وأعمل فمين بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس ﷺ فأت وحدثني في هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم قال كانت جميع القبائل الضاربة حول الخرطوم الى ما قبل سقوط البلد مخلصه في طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة للخارجي ولا مصدقة لدعواه ولا هي حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه التدبير وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلي الواقع على قيد غلوة من الخرطوم وبقتل خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أي نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من الجند والناس فأكلوا الصمغ والجارأيا حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا اهـ وأرسل ولسلي سفينة لتأتي بالجنرال ولسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأقوا بهم بعد العناء الشديد وقد عثروا في طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأقوا بهم الى ولسلي فأخبروه بمقتل غردون وما جرى عليه وكيف مثل العدو برأسه تمثيلا شنيعا في أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلي الخبر بذلك الى صاحب سياستهم قيل فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفي الذي يشيرون على ولسلي بعمله وقام بينهم الخطباء والقوالون ينادون بالثارات غردون ولبث ولسلي ينتظر الجواب وقد كان الى ذلك اليوم

يظن أن قبيلة الشايقية ما زالت باقية على الولاء والاخلاص للحكومة الحديوية فلما جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدي أيضا ومظاهرتة على الانجليز فرسم الى سائر العساكر بالحفظ وملازمة المعامل والمتاريس حتى يأتيه المدد ولكن العربان لم تتركهم بل هاجوهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمي بالبندق أياما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير اليهم رسلا يقولون ان الانجليز انما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام في ربوعهم وأنه خير لهم أن يخلدوا الى السكينة والطاعة فيكونون في مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون وظل على هذه الحال أياما والاختبار ترد الى انقاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع في خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الانجليزية وزعيم السياسة الإيطالية على حضور جماعة من العساكر الإيطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليجلوا محل العساكر الانجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من القاهرة من الانجليز الى السودان لنجدة اخوانهم وتأكدت الاشاعة أوكدت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم في جر المدافع وانزال الأتقال والاحمال وآلات الحسب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر الى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم في ظاهر البلد أياما

وزاد الامر تخوفا وخبالا تحرك نجاشي الحبشة وتأهب عسكره لتدمره من فعال الانجليز وخرقهم للعهد الذي عاهدوه عليه من ترك مينا مصوع وبوغس حرة له ومفتاحا لاملاكة لا يمتلها أحد غير عساكره ورجال دولته فانه لما علم بتوارد العساكر الإيطالية ونزولها حول مصوع أكبر الامر وأعظمه وراسل المهدي ومناه بالمساعدة على قتال الانجليز وأرسل كذلك الى عثمان دقنه واستقره الى قتال الايطاليان وجاءت صحف أخبار الانجليز وهي ملائى بالخص على ارسال المدد الى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه فلما شاع خبر قدوم المدد من الانجليز الى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بن معه من المقاتلة وخيم في طمانيب فانضم اليه أكثر القبائل الضاربة في شرقي السودان وشايعة أهالي الكبيج وغيرها واجتمعت لديه قوة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر وكانت الى هذا الحين ما برحت جلة آمل السائرة عن طريق أبي جند على قدم المسير والعدو يتخطف ساقها ويحول على يمينها ويسارها وهي تدافع بالامر الخفيف فلما صارت في منتصف الطريق بين مروى وأبي جند بان العدو أمامها في عدد كثير ثم اختفى لخاف آمل شر العقابة وأرسل طليعة للكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آمل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثارين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطتهم كالأسود الضواري واشتبك القتال بين الفريقين

(مطلب)
تحرك نجاشي
الحبشة للحرب

فأظهر أصحاب المهدي بسالة واقداما غريبين واشتدوا في الطعن والضرب شدة بالغة وأبلاوا بلاء حسنا وما زالوا حتى انكشف القتال عن قتل الجنرال آرل وأربعة من مقدمي العساكر الكبار وترفع العدو الى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدي في هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى ولد أبي ججل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا في ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصر ونفرا من الرباطاب وجاعة من دراويش بربر ثم جعل من بقي من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير الى أبي جد وهم على أشد ما يكون من الجهد والاعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبوري بعد مقتل آرل

(مطلب)

ارسل الامير
حسن الى السودان
باسم مندوب فوق
العادة

وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالملكة مع الأمير حسن أني الخديوي في ذهابه الى السودان من قبل السلطنة الانجليزية باسم مندوب مدني فوق العادة بدلا من غردون الذي تحقق لهم خبر مقتله فصعد السير بارنج بالامر وكلم الامير في ذلك فأجابه الى ما طلب وقال لي شروط أشترطها فقال السير بارنج وما هي - قال أن ترسل معي الحكومة الخديوية نجسة آلاف مقاتل من الباشيوزق وأن تكون لي الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشياء من الحكم والمأمورين وأن يعطى لي التصرف المطلق في سائر الامور ولا يكون معي قط أحد من الانجليز - فلم تعجب صاحب سياسة الانجليز هذه الاشتراطات وأرسل يقول اذا قبل الامير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا ان أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الامير القاهرة في نفر من الكتاب والجاويفية على الباخرة زينة البحرين الى اسوان ومنها الى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلي فلم تكن الا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة في قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفي سوا كن وشرق السودان وبان عزم الانجليز على الجلاء عن تلك الاطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الانجليزية بذلك الى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض الا أيام على ذلك حتى أرسل الى الوزير يقول أن اتركوا السودان الى صاحب المهديوية واجعلوا وادي حلفا حدا بينها وبين مصر ويجعلوا في ذلك * فاختلف حينئذ على الوزير الحال وتولاه الاستغراب بفعل يكثر من التردد بين مقر الخديوي ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون في الامر وقد استعصى على الناس ادراك مغزى هذه السياسة اذ كيف يرسلون بالامس الامير حسن مندوبا بدلا من غردون ليجافظ على ما بقى من البلاد في طاعة الحكومة ويسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلي الحكومة عن سائر البلاد السودانية الى صاحب المهديوية بغير شرط ولا عهد واجلاء من بها من العساكر * واختلف الناس في أسباب ذلك الجلاء العاجل فذهب من قال انه مترتب على عجز جيش ولسلي عن مقاومة العدو وتفشي الامراض الخبيثة بين افراده وسوء الحال الذي بات

فيه كبار العسكر فضلا عن تعذر النجدة عند الاقتضاء قالوا فإذا ظلوا مرابطين في مواقعهم التي هم فيها الآن أفنتهم الامراض العفنة والحيات الخبيثة ولولم يقاتلهم العدو فلذلك قد عجلوا بالجلء لفرصة في مستقبل الأيام ومنهم من قال بل كان هذا الجلء قسرا فانه لما تحقق قيصر الروس من اشتباك الانجليز مع أصحاب المهدي وأنهم سيتغلغلون في جوف تلك القارة السوداء ولا بد لهم من النجدة تلوا النجدة والاشتغال بهذه الحرب الكؤود وكانت مسألة تحديد التخوم بين أملاك السلطنة الروسية والديار الهندية لم تكن لتتم على ما يشاء الروس أمر القيصر بحشد الجيوش على تلك الحدود وسير المراكب والانتقال من المدافع والمكاحل والمؤن والذخيرة وبالغ في الحركة فصاح عند ذلك الى الهند طالبا المدد وهب أصحاب صحف أخبارهم يستصرخون الجيوش ومقدمي الجيوش وينادون يا قوم عصفور في اليد خير من ألف على شجرة فأشار عند ذلك زعيم سياستهم بالجلء العاجل عن السودان واستجماع عسكره على مقربة من ذلك العدو الكبير والذب المظفر ولولا ذلك لكان من العسير على الانجليز الجلء في هذا الحين - فأنحدر ولسلي من دنقله الى القاهرة واجتمع بالسير بارنج والوزير نوبار باشا والخديوي فوقع بينهم من حديث الجلء عن السودان ما لم يصل أحد الى معرفته وتحقق الناس جميعا أن ترك السودان الى صاحب المهديوية أصبح أمرا مقضيا وتأكد الخبر بأنخدار الأمير حسن ومن معه من الخدم والاتباع وازوائه في بيته وامتناعه من مقابلة أحد من الناس ثم لم تكن الا أيام بعد مقدم الجنرال ولسلي حتى قبض نفر من عساكر الانجليز على الزبير باشا رحلت أحد عظماء السودان ونزيل مصر على عهد الخديوي اسمعيل وأرسلوه على ظهر إحدى سفن حربهم الى جبل طارق مبعدا عن الاهل والبلد بغير قضاء ولا حكم فاندش الناس وأخذتهم الطيرة وصاح أصحاب صحف الاخبار المحلية ووقعوا باللائمة على الخديوي والوزير نوبار باشا وقالوا كيف يصح للسير بارنج فعل ما لا يحل فعله في بلاد قائمة بحكم نفسها بمقتضى قوانينها وشرائعها والرجل مسلم لاسلطة للانجليز عليه فكانت صيحتهم كصرخة في واد أو نفخة في رماد وأقام الرجل مبعدا عاما أو بعض عام قيل حتى استكتبوه ما شأوا ثم أرجعوه فلم يعرف أحد منه ما جرى له في متفاه

وجاء الخبر في هذا الحين بجلء من في بلاد شرقي السودان من العساكر المصرية فاستولى نجاشي الحبشة على بعضها واحتل جماعة الايطاليان البعض الآخر وبقيت سواكن تنجاذب بقاءها الظنون فيوما يقولون انه ستحتلها عساكر السلطان ويوما عساكر هندية انجليزية ويوما ايطالية والهيئة الحاكمة بمصر لا تبدي في ذلك نقضا ولا ابراما ثم سار الجنرال ولسلي الى سواكن فلبث بها أياما فلائلا ثم عاد ومعه بعض كبار العسكر وكأثره قد ذهب لاجلاء من بها من الجند فلم يصل الى مدينة السويس حتى أخذ المرابطون بسواكن في الجلء عنها فلم يبق بها سوى نفر من الانجليز والهنود وجماعة من المهندسين

وأركان الحرب رباطا وانحدر كذلك من كان في مروي من العسكرين الانجليزى والمصرى وانكف المأمورون عن شراء الجمال والخيول والبغال التى كانوا يشترونها من كل صوب لخدمة الحملة فكبر الخوف بأهل دنقله والباقيين على ولاء الحكومة مما سيحقق بهم من ذلك العدو الكنود بعد جلاء العساكر عنهم فنزحوا أفواجا أفواجا وانحدروا الى اسوان وأسبوط والقاهرة ونزل العدد العديد منهم بالوكائل والدور المتخربة في ضواحي القاهرة ومصر القديمة وطاف بعضهم في الازقة والحارات يتكففون ويطلبون صدقة أهل البر والاحسان فكانت حالهم مما يرق لها الجلود فضلا عن العدو الكنود وقد أحصوهم يومئذ فكانوا زهاء خمسة عشر ألفا عدا الصغار منهم وقد لقوا مر العذاب عند جلائهم لانهم تركوا متاعهم وكل شئ لهم لتعذر النقل وامتناع أصحاب الحل من معاونتهم على الجلاء وقد بلغ ثمن الجمل خمسين جنيها وأكثر هذا اذا وجد ولم يتم جلاء الانجليز عن قرطى حتى احتلها أصحاب المهدي وأقاموا فيها المعازل والحصون واتخذوها مركز حركتهم الى دنقله عند جلاء العساكر الانجليزية والمصرية عنها * ومن عجيب الاتفاق أنهم ما احتلوا قرطى وبقية المواقع التى كان بها الانجليز والمصريون حتى أصابهم الجدرى والاسهال والحيمات الخبيثة وعمل فيهم الموت عمله وقد كان الانجليز يقاسون هذه الامراض من قبلهم ومع ذلك فان أصحاب المهدي لم يبارحوا تلك المواقع ولم يثنوا عنان العزم عن تجاوز كل ما رسم لهم به المهدي * وبينما كانت الجيوش تنحدر من أعلى النيل الى وادى حلفا واسوان وقد بلغ القاهرة جماعة من كبار العسكر اذ شاع الخبر وتناقله الناس بأن زعيم السياسة الانجليزية على عزم ارجاعهم جميعا الى مواقف القتال حتى يفتحوا ما تركوه من البلاد ويسترجعوا ما فاتهم منها - قالوا وذلك لانه جاء الخبر اليقين بموت مدعى المهدي بالجدري في خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلثمائة وألف ثم لم تكن الا أيام حتى وردت الكتب من مصوع وسواكن ودنقله وعن السعاة والجواسيس الذين أرسلهم الجنرال جرانفل باشا بصفة الخبر وبأن الذى تولى الخلافة بعده عبد الله التعايشى والتعايشى هذا كان رفيقا للمهدي منذ ظهوره أى من اليوم الذى كان أصحاب المهدي لا يتجاوزون الستة وقد لازمه ملازمة الظل للشبح فكان مدبر أموره وبيت سره ولكنه دونه فى الذكاء وبعد النظر والدهاء

(مطلب)
عبث اللصوص
فى شرق البلاد
وغربها

وكأن اللصوص وأشقياء الناس قد تحققوا من ضعف الحكومة فى هذه الايام وعجزها عن الحركة والذب فكثروا فى البلاد وانتشروا فى الاقليات فأفسدوا وأضرروا بالحرب والتسل وانبتوا عصابات فى كل صوب وخدب فكانوا ينزلون على البلاد والقرى ليلا كأنهم المغازون الفاتحون فيقتلون وينهبون ويقضون ليلهم فى التطواف على البيوت بين ضرب وطعن غير هيايين ولا وجلين وكانوا اذا دخلوا بيتا أوقدوا ما معهم من الشموع وأيقظوا صاحب البيت أو صاحبه وأجلسوها وسألوها عما عندها من مال أو متاع فاذا أجابتهم

بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا مما يعثرون عليه من طعام
 وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لا خوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعها كانت
 الداهية الداهية على البلد وجميع من فيه فيتفرقون في أزقته ودروبه أو خارجا عنه
 ويصلون أهله نارا حامية ويفحشون في القتل والتخريب وهتك الاعراض وكان الذى
 أكبر فيهم هذه القصة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه العساكر
 المصرية لبان الثورة العربية في ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير *
 وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فرأيت من غرائب أفاعيل
 أوائل الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصورها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية
 « احدى بلاد الشرقية » وكان منسرحهم زهاء الاربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمجوتون
 التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا في وجههم وأطلقوا
 عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد
 بما عندهم من الاسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الاخيرة حتى مطلع الفجر
 وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى
 اتصلوا بكان لرحل اسمه عبد الجليل أغا المولى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من
 حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما اسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام
 أهل البلد وهم على أشد ما يكون من القحة والجراعة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش
 فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتم الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الاشقياء
 اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخولت لها
 شيا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شئ وتودعه
 الحبس ثم تتحقق من جنائنه وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة
 ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلات الحبوس بعدد أولئك الاشقياء
 فى الاقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العربية
 فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد وأخرج
 ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شئ منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعه يومئذ من
 قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الاخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف
 من الخرطوش فخاف عند ذلك الاشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب
 الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلبثون اليها
 اذا قربت الشمس الى الغروب وسارت تلك اللجان فى عملها سرا حينئذ فلم تخل من الانتقاد
 والتعيب ولم تنزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرى بذنوب المجرم وظلت على هذه الحال
 عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فأنحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها الى المحاكم
 الاهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد

وصل

(فى آمال و فرض احتمال)

الى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الاحرار وزعيم السياسة الانجليزية الذى فعل بالسودان ما فعل بوزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سلسبورى وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقباض على دفعة الرئاسة فلما علم المصريون بهذا التغيير ترامت ظنونهم الى أبعد المرامي وتعلقت آمالهم بأعصى المواجى وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن الا أيام حتى وردت كتبه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلّى عن سائر بلاد السودان وتركها شرقا وجنوبا الى خليفة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادستون فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسيرولف مبعوث الانجليز والسير بارنج والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الانجليزية وبعض كبار عسكرهم أيضا فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنسون ورقة وقرأ ما فيها علنا واذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رجته بأهل السودان يقول فيه - ان حكومة جلالة ملكة الانجليز تطلب من أصحاب الحل بديار مصر - أولا اخلاء وادى حلغا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا - ثانيا استرجاع سائر الجيوش الانجليزية من اسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة - ثالثا امداد القبائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيرة ليتيسر لهم مقاتلة العدو فى وادى حلغا اه فا أتم الجنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعزيمهم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الانجليز ويراجعونهم فى الامر فاشتد الاخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل الى مذهب فقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على مسامعهم نبأ ورد اليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به الى وادى حلغا بعد رجوع الامير حسن ليسهل الجلاء على النازحين من تلك الاطراف ويكلم دعاة المهدي فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو والسكون يقول فيه - انه قد وصل الى وادى حلغا خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلاد بين الاهالى والامراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدي وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لاصحة لخبر تحفز العصاة للوثوب على النخوم فا أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت حجة

المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم في الامر طويلا ولكنه رأى من جماعة الانجليز غلظة في الرد وجفاء في القول واشتد السير ولف في الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى الى صاحب سياستهم وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدي باشا بعجزه عن العمل وبعدم امكان استنباب الأمن على التخوم الا اذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدي وقد هون على أولى الامر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشيء قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على اقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استماله السير بارنج الى رأيه ورحل السير بارنج عن مصر الى دار السلطنة الانجليزية فلتحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير في استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصریح للقوافل بالخروج الى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعث الى أسسوط وحلفا واسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الابل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغما عن الاخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة في جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود * وكان الناس يقولون كما أقول ان إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولاهما تداني الخواطر في السودان من جانب الصلح والسلام والثانية نهوض التجارة من حضيض الكساد الى أوج الرواج * وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالي يذهب أيضا الى هذا المذهب ويكثر من ارسال الكتب الى الباب العالي والمابين الهمانيوني في ذلك ويقول انها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العود الى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير في رسالته وامتناع زعيم السياسة الانجليزية من استرجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف باشا شهدي متتابعة الى الخديوي والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التي أنشبت فيها الجوع أطافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان الى أقصاه وكبار عسكر الانجليز بأسوان يشكون من فعل الامراض الخبيثة بعساكرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم قفرع الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية الى وادي حلفا وأقام بها رباطا من الانجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تقرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبديد الروم بائعي الخور والمسكرات فأقصوهم الى اسوان رجعة بالعساكر الانجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب ادمانهم على السكر وأراقوا خورهم في النيل وفي الطرقات فنجحوا وعجوا والمحدروا الى القاهرة صفر اليدى وجعلوا يرجفون ويشيعون الاخبار المقلقة عن الجنود الانجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد في صدورهم من البغض لساير المحتلين على اختلاف طبقاتهم

(مطلب)
والى هذا الحين لم
تقف ربحي المخبرات
مع الباب العالى

والى هذا الحين لم تكن لتقف ربحي المخبرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الانجليز ولم تنكشف الرسل عن التردد بين انفریقین وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازي مختار باشا تترادف على المايين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الاصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صاحب السياسة الانجليزية يطاول في ذلك ويحاول وفي كلامه شئ من الجفاء والغلظة وكان اذا جاءت جواسيس الحدود بنجر تحوّل نفر من السود عند التخوم في طلب الماء أو الكلا لماشيتهم طير الانجليز الخبر الى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة المهدي والجند المرابطين هناك فيصبح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبارهم المدد واذا تخاصم هناك اثنان من سائقي الابل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا هما من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشfan مرابط الجند فيصبح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبارهم واكرباه النجدة النجدة فاذا أغضى الباب العالى وخفض المايين الجناح أو أظهر شياً من المجاملة انكفوا وقالوا ان الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى الى هذه المغامر نظرة الحائر فلاهم يحسرون على نبذها وايقاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على اكراه هذا الاسد الرابض على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم السياسة الروسية وزعيم سياسة الفرنسيين أنهما كتبوا الى زعيم سياسة الانجليز يقولان انهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأساً بين الباب العالى ودولة الانجليز فكان من وراء ذلك أن وقفت ربحي المخبرات بين الباب العالى وسفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح السير ولف رسولهم القاهرة وانكشف شئ مما خفي من تلك المخبرات وهو اعتراف السلطنة الانجليزية بسيادة السلطان عبد الحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الانجليز بتأييد الراحة والطمأنينة في داخلية البلاد ودفع كل عدو خارجي بحيث ان خزينه البلاد هي التي تقوم بالنفقة على ذلك في كل عام ثم جلاء الجيوش الانجليزية عندما يصبح الجلاء بامتناع الاسباب الخائلة دونه فاذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجب زيادة القواد بينهم من الانجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فاذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الانجليزية عنها الى اسوان ووادي حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الانجليزية الى مدينة الاسكندرية بحيث يبقى لجماعة الانجليز أريجحة الرأي والادارة في سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والاشغال العمومية قالوا أما وزارة الداخلية ووزارة الحفانية فتبقيان مصريتين مطلقاً مع الاعتراف بسيادة السلطنة الانجليزية الادبية على مصر اعترافاً لا يقبل اللبس والابهام فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المايين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأني في تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فان الخطب جلل وخذوا برأى صاحبي سياسة الروس والفرنسيين حتى لا يكون في علمكم ما يوجب الندم أو يدفع الى زلة القدم

(مطلب)
العزم على انقاذ
أمين باشا من خط
الاستواء

قالوا وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين » عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف بجاعة الانجليز بذلك ولا تنكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء : فلم تكن الا أيام بعيد هذه الصيحة حتى أتت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى الوزير بعزمه على ارسال حملة خصوصية الى خط الاستواء بقيادة الرحالة استاملى لانقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وانقاذ من معه من العساكر والمرابطين في تلك الاطراف فلم يحبب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامر والمقاصد الخفية : قلت وأمين باشا هذا رجل للمانى الاصل كان طبيبا مع غردون على عهد الحديوى اسمعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينما ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الالمانية الى العربية وديانته من النصرانية الى الاسلامية وسار في تلك الارحاء سيرة الملوك والسلطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب اى تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الاصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا في دست منصبه لا يزاحه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتأقت نفسه حينئذ الى الاستقلال بملك تلك الاطراف واستمال اليه زعماءها وتحبب لعظماؤها واذخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الافريقية الانجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد في السلطنة الانجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كئودا في طريق ملك مملكتهم الجديدة التي ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل في حوزتهم السودان من أدناه الى أقصاه وتببع ذلك الافطار المصرية الى الاسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة الى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الاسف وخجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروعة سجين خط الاستواء ارجوا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والاطفال والنساء وأمين باشا في لجان هذه النجدة قري العين جذل بما أتاحته له الايام من السكينة والاطمئنان وكان في حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الاقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والاطفال والخدم والاتباع وكلهم في صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدق الناس أوكدوا يصدقون أن خلاص أمين باشا والاتيان به من تلك الجاهل البعيدة عمل من أجل الاعمال المشكورة التي تفردت بها أمة الانجليز ولم تغض بعيد ذلك الا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم الى الوزير بتقدير النفقة لارسال حملة لانقاذ أمين باشا هذا ومن معه والاتيان بهم الى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج في ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج في الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها

اثنا عشر ألفا ذهباً وسار استانلى رسولهم لانقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياماً وما زال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياماً اذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يهدده تارة وعينه بالامانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من احضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين الى الزنجبار فلقبه قنصل الالمان وتحدثا فيما هم فيه هناك * فحبب اليه الرجوع الى مقره والعمل تحت ظل الراية الالمانية وعدم الالتفات الى شئ مما يقوله استانلى قيل ففرح أمين بذلك وتفقوت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع الى واد لاي ووافقه على ذلك نفر من جاء معه من المهاجرين ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة وتحدث الناس بها كثيراً وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى قيل وتلا كما ثم تماسكا بالاطواق وانحدر استانلى الى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن الا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ماخفى من سر بعثة استانلى وداعى انقاذ أمين باشا اذ قام أصحاب صحف الالمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الانجليزية بالخيانة والغدر ويقولون انها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرايين والسوقه ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء ان لم تطلع عن عدائها لدولة الالمان ومعاكستها فى مستعمراتها الافريقية أو ان هى عملت عملاً يكون من ورائه الاضرار بأمين باشا فردت على ذلك أصحاب صحف الانجليز ردًا جافياً واستطالوا على دولة الالمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيمة وسوء المصير ان هو عاد الى واد لاي ليؤيد فيها السلطنة الالمانية وقالوا سوف يرى « يعنون أمين باشا » من الشدائد ما ليس له فى حسابان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول الى بحيرة نيانزه أو أعانده فان وصل فلا بد أن يرى عند وصوله اليها العلم الانجليزى خافقاً عليها لان الشركة التى قد سيرت استانلى لخلاصه ستسبقه اليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الالمان من التناول اليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفس * وكان استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الالمان ووخزهم افواده الدامى بعد خيسته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوماً بأحد مراسلى صحف الانجليز الكبرى فقال له وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الالمان الى كل هذه المهارة والهرأ ولقد كان من واقع أمرى أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار احداها إما البقاء فى واد لاي تابعاً للسلطنة الانجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مالية قدرها اثنا عشر ألفاً وإما أن يرحل الى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها واما أن ينحدر معى الى القاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتناول على غير مستوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا * فلما بلغت أمين باشا مقالة استانلى هذه وأن استانلى يتهمه أيضاً

بأنه لم يذعن الى مبارحة وادلاى الابد أن فرض له جعلاً على ذلك قدره اثنا عشر ألفاً ذهباً أكبر الامر وأعظمه وكتب الى صديق له من أصحاب الحل والعقد في السلطنة الألمانية يقول لم يبق في وسعي وأيم الله مراعاة السكوت والكتمان في حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض على استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين إما أن أترك منصبى في خدمة الحكومة المصرية وأدخل في خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على وادلاى وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الاثنى عشر ألف جنيه الذى سينتقرر كنفقة للإدارة وأما أن أجمع له جنداً من السود ليمكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الانجليزية لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه « يعنى مع استانلى » الى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كل خير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزاً اذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى في أثناء ذلك الى مومباسا ليأتينى بسفينتين نقالتين لنقلنى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى اذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزاً لنا نزحف منه رويدا رويدا الى وادلاى مقرر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلدين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الافريقية الانجليزية لاباسم الحكومة المصرية - قال - وقد ألع على ذلك الانجليزى « يعنى استانلى » بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيراً من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعله أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لا يمنعنى شئ من الرجوع الى خدمة دولتى اذا دعيت اليها ولذلك قد عقد نيته وعزم عزمًا ثابتاً على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الافريقية والا سلبنى جميع ما عندى من ذخيرة ومؤونة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطرت الى مرافقته كارهاً خزيناً فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنه وساعدته القدرة على تقليم أطافر ذلك الأسد ولكن قد خابت آماله وفسدت احلامه وها أنا اليوم خادم للرأية الألمانية فى تلك الارزاء والله من وراء ما يعملون

قلت وشاع عند وصول استانلى الى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلوا الى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وأنه اذا حضره عاقه ومنعه من الرجوع الى وادلاى فلم يفلحوا جميعاً فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الالمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الانجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروعة الى فلك أسرار أمين باشا وانقاذ من معه ليست من الخنان فى شئ ولاهى لوجه الله تعالى ﷻ وظهر اهتمام دولة الالمان بتلك الارزاء وبجملته أمين باشا فبالغت فى تشجيعها وأكثر لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت الى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا وما والاها مع وادلاى وان لا يبقى ولا يذر وسيرت اليه جماعة

دار ندوتنا حالة دولتنا في أملاكها في افريقيا وأسأل النفقة اللازمة لاقامة مملكة استعمارية المانية ثابتة في تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعي التي يبذلها البعض لمنع النفوذ الألماني في افريقيا فإن المانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنية

هذا وإني أنقل لكم سلام أمين باشا الذي لا يزال يذكر اصدقائه في مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتموه العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود الى بلاده للعلاج قد أحب أن يعاود سفره الى أواسط افريقيا رئيسا لرحلة عظيمة ولقد أخذه الحجب من الذين كانوا يدعوونه بالشهير « يعني الانجليز » أيام كان في خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعوونه بالكفيف العاجز المعتموه بعد أن فارقهم وعاد الى خدمة دولتنا فسبحان مغير الاحوال اه وعاد استأنى الى عاصمة الانجليز فأجزلت له سلطتها العطاء ولقبته بأكبر الألقاب عندها وأسندت اليه مسندا عاليا وهو اليوم في مصاف أهل الرأي وأصحاب الشورى فنشط الى استنهاض أصحاب الحل والعقد الى الوقوف في وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل في جوف القارة الافريقية ووقوفها سدا قويا في طريق الانجليز هناك وجعل يخطب في الناس ويملاء صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض والأنين والشكوى من تعاقد رجال السلطنة الانجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحالها لاسيما وقد تمكنت دولة الالمان من قلب القارة الافريقية أوكدت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهم صاحب سياستهم بارسال عظيم منهم الى عاصمة الالمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصاص والدد فلبث الرجل هنالك أياما حتى رسم الامبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الانجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الاخذ والرد بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيين تسخر بهم وتهزأ بفعالهم * فما قالته إحدى تلك الصحف الفرنسية عبارة لا بأس بإيرادها هنا فانها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدل على نوايا السلطنة الانجليزية في تلك القارة من أقصاها الى أقصاها - قالت اعمرى ان من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الانجليزية من الطمع والاثانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاده الى عكس ما توهم من كفايتها حتى لتسأل عن الدولتين بعد اذا حرمتها منها دولة البرتغال حتى لا ينتهي بهما الحال الى الخصاص عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين نغني بهما رسول دولة الانجليز ورسول الالمان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وان لم يبلغ فيه الى ما دار بينهما من الجدل بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين في تلك القارة السوداء

فنعول لتمثيل القارئ النبيه رسول الانجليز منكباً على خريطة افريقيا وفي يده قلم يخط به خطاً من الدرجة الحسنيين طولاً على طول طريق يؤدي الى أواسط افريقيا من بوغاز السويس ثم التفت الى صاحبه الالماني وقال أليست هذه أرضا انجليزية فأنحنى له الالماني وتبسم فأردف الانجليزي عبارته هذه وأتبعها بقوله اننا اذا اتبعنا الدرجة الحسنيين طولاً نجد أنها تقطع النيل في موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهراً انجليزيا ان شاء الله تعالى - فقاطعه الالماني بقوله نعطيكم اياها ان شاء الله - فقال الانجليزي وبذلك نصل الى الخرطوم ولا نسكر عليكم أن غردون قد مات ولكن لابد من الاخذ بشأه لان استأنلي عند ما عاد البنا في هذه المرة جعل يقول ان ترك السودان يعدّ جرعة لنا لا تغفر وان أخذها من الهنات الهينات اذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدي بين البحر الاحمر والنيل كما بين سواكن وبربر مثلاً وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلثمائة كيلومتر وذلك ليس بالنهي العسير ثم تمتد من بربر مقتفين الدرجة الحسنيين طولاً فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد في النيل الذي هو ملكنا كما لا يخفالك حتى نبلغ كوندو كورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر بتدئ من بربر ومن ثم نتصل الى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء - فقاطعه الالماني على رسلك يا صاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير الى تلك البحيرات العظيمة أيضاً وكنا نظنه ميتاً قد دفن فاذا بنا نجده حياً يرزق وفي وعائه الشيء الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التي عقدها مع ملوك وزعماء تلك الاصقاع بعد المخاطرة في قطع جبلي كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن في أواسط أو غانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فاذا الدرجة الحسسون التي قد اتخذوها لأنفسكم ملكا حالاً ليست لكم فانها تمر في درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها - فقال الانجليزي اذا أنتم تريدون أن تنازعونا في البحيرات العظمى التي هي خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها انجليزية وأن مكنشفيها من الانجليز فان كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا الى اسمها تجدوه فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلاً على أنها انجليزية فضلاً عن أن سكان تلك الجهات لا يعرفون من الامم الاخرى سوانا وفوق ذلك فان الرحالة استأنلي لم يسمع لرعيم سياستنا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمع لي بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط اصبع من تلك الارض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أي باسم الساطنة الانجليزية كما أنكم لاتسكرون أن تلك الدرجة الحسنيين انما هي طريقنا الى تانغانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم - فأجابه الالماني ما هذا يا صاح ان تانغانيكا هذه التي تقول عنها انما هي قلب النفوذ الالماني وفلذة كبده وأنت ههنا الله لا تجهل اننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار الى

الكونغو وتانانيكاف كما هو واضح ومعلوم واقعة في طريقنا فهي اذا لنا ولا كلام - فهز
الانجليزى رأسه وقال هيهات ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع
زعماء القبائل الضاربة في شمالها وستخذها شركتنا الانجليزى الافريقية قاعدة لنفسها سيما
وان استانلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط - فقال الالماني وصاحب
سياستكم أظنه لا يدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها - فقال أجل وكيف أتخلى عن
شئ من ذلك فمقطعون طريقنا بين البحيرات وتانانيكاف من جهة وبين أملاكنا في نياسا
من جهة - فصاح الالماني رويدك رويدك ما ذا وكيف تقول ألا تدرى اننا ملكنا نصف
نياسا وأنها احدى طرقنا المطروقة الى الكونغو وغيرها حتى ان البرتغاليين قد تركوها لنا
اننى أراهم متسرعاً متعدياً على حدود نفوذنا وهذا لا يمكن أن يكون وفيها قطرة من الدم -
فقال الانجليزى كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين جينا منازل المرسلين
الايكوسيين حوالها بل من الذى مد الطريق بين تانانيكاف وبينها ومهده غير جماعة المرسلين
الانجليزى أما ما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فانكم معشر الالمان تعرفون اننا نجعلها
ولا نعرف بشئ منها ولذلك فانها لم تقدر أن تنازل لكم عن أراض ليست لها في الحقيقة
وفضلاً عن ذلك فكيف تقدر أن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من
أملاكنا الواقعة في خط الاستواء الى أملاكنا الشمالية الى بورنتال مارة في دالاكوا التى
ان لم نبسط يدنا عليها اليوم ففي غد وغد لنا طره قريب - فقال الالماني يا الله ولما ذا اذا
لا تقول ان الدرجة الحسنة هي كلها لكم لالسواكم - فأجابه الانجليزى ولكن هذا هو
الحاصل واذا أنصفتكم وعدتكم لم يسعكم الا جعل الحق في جانبنا وان تلك الدرجة هي
طريقنا من مصر أرض الفراعنة الى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم اذا تبصرتم في الامر
رأيتم اننا لانطلب الا طريقاً بين مستعمرتين انجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاحفاف في
ذلك ونحن لانطلب الا الوصول الى اخواننا في طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون
فعند ذلك غطى الالماني وقال فماذا نصنع اذا وماذا يصنع البرتغاليون والايطاليون -
فأجابه على الفور مالنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الايطاليين فقد طاب لهم المقام بمصوع
فاذا أرادوا الحبشة أيضاً فليأخذوها وان كنا قد دخلناها بجنودنا فيما - وصار لنا فيها
بعض الحق ولكننا نتركها لهم هبة كريمة مسامح - فقال الالماني ونحن - فأجابه أما أنتم
فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا في
ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء الى البحر من غير بد فاذا ظل
أصحاب المهدي آخذين علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن ايرادها من البحيرة الى البحر
ولا سبيل لنا غير الزنجبار ولذلك كانت هذه الجهة أولى بنا من سواها لاننا اذا أطعنا الرحالة
استانلى - فعند ذلك قاطعه الالماني واحتد والتفت اليه محملاً وقال انى لأرى فائدة من
هذا الجسدال وانه خير أن نرفع الامر الى امبراطورنا لانى على ما أرى عسير على أن أسألك

شيأ بشأن تحديد النفوذ بيننا فقام الانجليزى وانصرف مقطب الوجه وهو يقول أجل ومن قال دائرة النفوذ الانجليزى فكأنما يقول دائرة الكرة الارضية بتمامها اه

وجاءت فى هذه الايام أيضا كتب صاحب السياسة الايطالية الى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الايطالى فيه من حد سواحل البحر الاحمر يعنى من فرضة مصوع وما والاها الى ضفة النيل الازرق فأكبر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل ايطاليا فى ذلك فلم تكن الايام حتى وردت كتب صاحب السياسة المذكور بأنه انما يريد اطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة الى ناحية بركة التى قبل أهلها حماية دولة ايطاليا لهم - قال فان لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيه المصلحة لكنا فى ذلك زعيم سياسة الانجليز فان لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الامر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الافريقية يدخل ضمن دائرة نفوذنا * وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغنة القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكافوا اذا آفسوا منهم اخلاذا الى السكينة ورأوا من نجاشى الحبشة تغاضيا أو من الرأس أولا مقدم جيوش الحبشان تقاعدا عن الحركة تقدموا بعسكرهم ببطء ومدوا يدهم الى بعض البقاع بلطف وساروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسة الانجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهم بالمحال فان أحسوا من مقدم عسكر الحبشان بالحركة وزحف الجنود ورأوا الكتائب تتلو الكتائب انكشوا وعادوا صاحب سياسة الانجليز فى الكلام فيمنهم ويهون عليهم ويشير بالتأني وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الايطاليان عن تلك البلاد التى يعتبرها جزءا من سلطنته يحكم الاتفاق الموقع عليه مع رسول الانجليز « وقد مر بيانه » ولا هو تاركها للايطاليان يضمونها الى مستعمرتهم الجديدة رسم الى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش الى التاكا وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيتهم وأخش فى قتلهم ثم قفل راجعا الى عدوه مقر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار الى جندع الواقعة بين عائله وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكر بها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الايطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيالهم ومتاعهم الى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرأى فى طرقها سوى النوق المحملة بالاثاث والمتاع ففاق عند ذلك جماعة الايطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الابراج وسيعروا الى كنشتر باشا عامل الخديوى على سواكن فى طلب المدد فأرسل اليهم سفينتين حريبتين من سفن الحرب الانجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الايطالية وكبر خوف المرابطين من العساكر الايطالية من اهتمام الحبشان بأقامة الحصون والمتاريس

بعسكرهم فانشؤا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحرقيقو وسموها طابية
وعا ووضعوها عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد
فانقطع عنها الوارد من الماء كمول والمشروب ورجل من كان نازلا حولها من العربان والمرترقة
فطير الجنرال، جنيه قائد العساكر الايطالية الخبر بما جرى الى زعيم سياستهم
ثم كتب يقول له قد استحسنت النفرة بيننا وبين الرأس أولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد
المدد فلما أبطأ المدد لم يربدا من تسليح الموالين من أهالي حرقيقو بالبنادق وأعطاهم شيئا
كثيرا من الذخيرة والمؤن واستخلفهم على أن يكونوا عوناً لهم على الحبشان وتصاريق الزمان
فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر الى مقدم العساكر الايطالية بحاجة المرابطين منهم في
موكوللو الى المؤنة والذخيرة فأرعبه هذا الخبر لخراجة الموقف ويقظة العدو فجعل يراقب
الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود الى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه
من المؤن والذخيرة الى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى
داهمهم العدو بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج
من كانوا في موكوللو من المرابطين على وجوههم الى مصروع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا
رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم
وغنموا ما فيه غنية باردة فأكبر قائد العساكر الايطالية هذا الامر وأعظمه جدا ولكنه
لم يجسر على الخروج بعسكره من البلد وسير الكتب تباعا الى صاحب سياستهم في طلب
المدد ولكن يا لله ما ذا ينفع هذا كله وأرض السود هوة عميقة تبتلع الشيء الكثير من
الاموال والاحمال والانتقال والعديد من الرجال وتزهق دون اخضاع جبارتها أرواح
الابطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من الممالك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها
ورأينا رأى العين ما أصاب الانجليز والمصريين من نار هذه الارض الغبراء حتى جاءت
اليوم نوبة الايطاليان الذين غرصا حبلهم الطمع فأوقع قومهم في هذه المهلكة فلما اتصل
خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه الى دار ندوتهم فعلم به السواد الاعظم من عامتهم وأهل
الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا
بالويل والنبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهباج فجاءت طائفة من عسكرهم
وفزقت جمعهم ومزقت بضرب العصي شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشي الحبشة
الى جنيه قائد عسكرهم بالخللاء العاجل عن مصروع وما جاورها حقنا للدماء والا فالسيف
والنار ولا هذا العار قيل فلم يرد عليه وقيل بل رد بأحسن ما يكون من عبارات التلطف
والتودد

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الايطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول
سواكن فهبوا الى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها
الوارد من الماء كمول والمشروب فاهتم كئشش باشا بالامر وأكثر من تطواف العساكر حول

البلد في الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الانجليزية نحو البلد تأهباً للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء الى عثمان دقنه والطاعة الى دعاة المهدي وخليفته قال اليه بعضهم فأمدّهم بالأسلحة والذخيرة ودفعهم الى قتال العدو فقاتلوه وأبلوا في قتاله فترفع العدو الى الجبال وانجلى عن ضواحي البلد ثم انحدر اليها بعد أيام وهكذا كانت فعالة كل قليل من الايام * وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشي خليفة المهدي مفعماً بالتهديد والوعيد ان لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيئاً كثيراً من مناقب المهدي وصحة مهادينته ثم دعا كتشنر الى ترك النصرانية واعتناق المهادية فانها اصبح المذهب وأقربها الى الله تعالى فان لم يأت طائعا مخلصا في العقيدة سير اليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها وي طرح حاميتها في اليه حيث يكونون طعاما لا سيما كهـ وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشي كل قليل من الايام وقد زادهم خوفا ما شاع في ذلك الحين أيضا من تواطى الرأس أولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار المهدويين على قتال الاجانب الطامعين في بلادهم وقطع شأقتهم وان التعايشي يوحنا ميال الى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهندنوي والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر الى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدو رغما عما بذله لهم كتشنر من الأسلحة والاموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل الى السير بارنج في طلب الشيخ الميرغني شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التي يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع الى طاعة الحكومة فجاء الشيخ الى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الاجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار الى بلد ابيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعائه على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الاطراف كل يوم في شأن ان سرت يوما أخبرت أياما

وعاد الوزير نوبار باشا الى الرأي القائل بأن إعادة العلاقات التجارية مع السودان لا بد أن يكون من ورائها تفرق العصاة في البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم في صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية الى زعيم سياسة الانجليز في ذلك ولبت ينظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أول الغيث قطر ثم نهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الامنية بعد امتناع زعيم السياسة الانجليزية من المكالمة مع الوزير نوبار باشا في شأنها حينما على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لاعادة تلك العلاقات فاجتمع

الوزراء كافة في مجلسهم وقرروا سبعة أمور * حاصل ما فيها منع الاتجار في الاسلحة وسائر أنواع الآلات والادوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودرارو المراكز التي تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العباددة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التي ترد من السودان أو التي ترسل اليه أولا في حلفا ثم في كروسكو وفي أسوان وفي درارو ثم يعطى لأصحابها تسريح * فجعل التجار من ذلك الحين يناهبون للعمل وسار جماعة منهم الى حلفا واسوان ونزلوا بهما فعمرت اسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن والأشوان للبضائع وأصناف المتاجرو راجت التجارة في القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقله بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخرى من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك غير لاهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الاخبار بخلود العربان والدراروش المرابطين على الحدود الى السكينة عند ما وصلت اليهم الاخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية الى الخديوى في طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض أوليتها لعدم الحاجة اليها يومئذ وأن الجيوش الانجليزية تحمل محلها في سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الانجليزية قد رأى في إعادة العلائق التجارية مع السودان وفي بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد في عددها وعددها شيئا يخافه في مستقبل الأيام فأوعز الى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافق الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا في الامر فاهتم له الوزير وجمع اليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالع في الطلب فرد عليه عبد القادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الاسباب الداعية الى بقاء الجيوش المصرية على ما هي عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد في هذه الظروف من حفظ كرامتها في أعين الاعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه في ذلك السردار وبالع في الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرمى اليه زعيم السياسة الانجليزية تسكيننا للخواطر وتطمينا للقلوب * قيل فعضد السردار في رأيه وعاب على عبد القادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبد القادر باشا وبالع في التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له أنت بحضرة مولانا فالحفض من صوتك * قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائب والتهمة الموسوم بها عبد القادر باشا شيئا كثيرا وكان الى ذلك الحين بغض الطرف عنها منعنا للقلقل وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الانجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبد القادر باشا مع بعض أصحاب الاطيان بمحوش عيسى والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله

(مطلب)

طلب الانجليز
تخفيض عدد
العساكر المصرية

لسلطة وظيفته وتطاول يده الى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الانجليزية في مجلسه كبر عليه الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الانجليز في ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ماخفي من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله الى عبد القادر باشا وفيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبد القادر باشا وهو يتوقع العزل في كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الانجليزية ما أراد من تخفيض عدد العساكر المصرية في أيام قلائل ^١ حدثنى صاحب لى قال كان مما أوجب بغض جماعة الانجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلع من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته في أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده الى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه الى ما فى أيدي الغير فقد كان يكيد للانجليز كيذا عظيما ويدس لهمم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخموم بين الاراضى المصرية والاقطار البخارية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العربية فهم مقدم الجيوش الانجليزية بارسال نفر من عسكره لاحتلوها ويرفعوا الراية الانجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند الى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك الى عبد القادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فاهتم له كثيرا واستحسنه وبالغ فى استحسنه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الانجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على اخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة الا اذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية الى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز الى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبد القادر باشا جفاء وغلظة فى القول فشكاه الى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبد القادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتتفرق فيما هو مسند اليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققت من تلك الشوائب شيئا فلم تكن الا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه وعلم الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لا بطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزانة اهـ

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح
فى استمالة الروس
والفرنسيين الى
معاونته

وكاد السلطان فى هذه الفترة ينجح فى استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيين الى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الانجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الانجليزية بما هم عليه أوعز فى الحال الى قائد جيوشهم بمصر بأن

أظهر الأهبة والاستعداد لجلاء بعض الكآب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت
كآبهم تغدو وتروح بين الاسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق التكرور بأثقالهم
وأجالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلي من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برجة
عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن الا أيام حتى كثر الارجاف بأن جماعة
من الدراويش انحدروا الى حلقا بخيلهم يريدون الزحف على اسوان فبالقاهرة وأن الفتنة
ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى ارسال
طائفة كبيرة منهم الى الحدود قالوا لمنع العدو وأترلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أدخلوها
وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المايين وانكف السلطان عن
استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد
الاعظم بالوزير نوبار باشا سوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف المحاذية الى صيحتهم الاولى
وهي طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وارجاع الوزير محمد شريف باشا الى منصة
الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الاوراق التحريضية ملصقة
على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الاجنبية وأكبروها جدا
فلم تكن الا أيام بعيد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له
الاطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والرفع فى النيل الى الصعيد الأعلى فاندشش الناس
من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم الى المرمى البعيد فمن قائل انه مريض بذات
الجنب ومن قائل انه مريض بأفة فى الكبد ومن قائل قد سم فى التبغ بيد أجنبية
ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية الى الصعيد الاعلى
فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى اذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الاطباء بقيامه
الى الديار الاروپاوية فسار فى نفر من الاتباع الى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون
الله له السلامة والعودة الى منصب الرئاسة فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر بعوته فخرن
الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى الى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا
عليه والى كبير التشريفات الخديوية بالشخص الى تريستا على باخرة مخصوصة لياقى بالجنحة
الى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحن اليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت
جنته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل اليه سفينة مصر فما أنقت السفينة
مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة الى المسير أمام نعشه فسار أولا بجمهور
المشايع والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة
المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلاميذ المدارس وما زالوا سائرين
بالنعش والناس على جاتى الطريق يبكونه حتى وصلوا به الى محطة الباب الحديد فأنزلوه فى
قطار مخصوص وسار القطار الى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر
المصرية وساروا بالجنابة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم

حتى واروه التراب * وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالاخلاص والترفع عن الدنيا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع في المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر - تلقى علومه في مدارس الفرنسيين العليا وقضى في خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل في الهندية على عهد الحاج محمد علي باشا الكبير ثم على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الاول وسعيد باشا ثم في ولاية اسمعيل باشا وتقلد في كل هذه الازمنة وظائف خطيرة أدار مهماتها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القاتل ان تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الانجليز على أهل البلد واذلالهم لاقل سبب وأصغر حادث فقد وقع في هذه الايام أن اثنين من كبار عسكر الانجليز خرجا يوما للصيد في أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيدا فأصاب نارها وجه صبي لاحد الفلاحين كان يرعى جاموسه فانذر الصبي وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيئا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الانجليزى وأوسع سببا ولكما فصاح الانجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الانجليزين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الانجليزين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما الى القرية وزجوهما في دار هناك وجلوا القتل الى القرية بين الصباح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالانجليزين الى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما الى ولاة الامر فلما اتصل خبر ماجرى بقنصل جنرال الانجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا في طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والخارج من الانجليز ولم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى سار الى تلك القرية طائفة من فرسان الانجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام الى خيمة قد ضربوها على مقربة من الاهرام وبها جماعة من الانجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما في القرية من سلاح وهرأوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا ثم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدي حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية في الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التي يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصاة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم بأمم « الوطنيين الاحرار » فالتف حولهم جماعة من المحاربين لمصطفى رياض باشا وجعلوا يجتمعون في بيت أحدهم في السر

والعلن ويتكلمون فيما وصلت اليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفي استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء الى السير بارنج وشوهدت بعض الاوراق المفعمة بالتقريع والتسديد على جماعة الوزراء ملقاة في بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته في طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتراحم على يابه أهل الدعارة والمملقون ومن في قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة في ديوان الخديوى وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الارجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلي عن منصب الرياسة وما هو شائع بين الناس من أن كبار الانجليز أرسلوا الى الاقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون في استطلاع أفكار أهل البلاد بشأن احتلال الانجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التي ما أنزل الله بها من سلطان * وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا الى الحركة أو سمع لهم صوتا في مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا في احدى الصحف المحازبة عمد الى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهون عليه كل صعب من الامور كأن يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا » الا بعد أن نكون قد دبرناه المكاييد والاحن وقلنا لكم ظهر المحن ولننا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا * حدثني صاحب لى قال كان بعض هؤلاء الصبية يرسلون بعض مديري الاقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف الى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان اذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مدبرى الجهات زلفى أن واشتكى وعاب على الهيئة الحاكمة ضعفها وتأفف مما وقعت فيه البلاد من الدمار وكان كثير الوقعة برجال القضاء يقول انهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالامور ولا درية حتى خيل للناس يومئذ أنه ان عاد الى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك في سائر أموره مسالك الحق - قال - وأخذت الحجة من أولئك الصبية مأخذها فنجحت سعائتهم وتخرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج الى النهج في منهاج جديد والقبض على زمام سائر الامور بيد من حديد - قال - وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه اذا شاء انفاذ أمر من الامور التي تفتضيها سيطرة الاحتلال الانجليزى وحفظ هيئته في أعين أهل البلاد من مثل احداث الاحداث المخالفة لعاداتهم أو ابداع البدع الداعية الى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظامات الجديدة الحاملة على اقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل انفاذ ذلك كله على يدي من كان معتمدا أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به - قال - فقد مضى على رئاسة الوزير نوبار باشا في هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه في شؤون البلاد لم تتجاوز حد النصيحة والارشاد ولم تتعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا ما يتعلق منها بالسودان شرقا وجنوبا وكان الوزير اذا رأى منه يوما اكراها على عمل شئ أراد صرفه عنه بالتى

هي أحسن واستماله الى التآني وترك العجلة فينتهي عنه راضيا ولذلك قد تأخر إبرام الشيء الكثير من مقاصد زعيم سياسة الانجليز في الامور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الاخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الانجليز الى هذا الحين يعدون على الاصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التي كانت مرتبطة بها مع الاجانب التزلاء الذين في خدمتها ونادى على رؤس الاشهاد بالكف عنها وعدم العود اليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الاجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر الخبز والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتفقّت عزيمتهم بما كانوا يسمعون من ضوضاء أصحاب الصحف الاجنبية وتسكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالي منصة الرئاسة * وكان مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف الى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآدب الى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الاخبار ويوحى اليهم بالذي يعمل اذا أفضت اليه الرئاسة

وأشاع المرجفون في هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدي شيخ الجامع الازهر ومفتي الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها الى أملاك السلطنة الانجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التي أنقلتها كل هذه السنين والاعوام وتكلم في ذلك أصحاب صحف الاخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الاعظم من الناس وأرجفوا أرجافا عظيما والامر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدي مالت نفسه في ذلك الحين الى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعي الى صنائعه والاغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبد الخالق وقد كان اعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا الى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحاقية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فبانعه بطرس باشا في ذلك واشتد في ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتنع الشيخ وأخذته هزة الاخزاب فاستمال الى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لا حديث لهم في سمرهم الا خبر وقوف بطرس باشا في وجه الشيخ والحيولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيين امتلاك دارا بأحد شوارع القاهرة وآخر يملك دارا أمام دار ذلك الجزائري قد تداعت الى السقوط فأخذ صاحبها في لم شعنها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبايكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائري ومنعه من العمل وقال له ان منافذ دارك تكشف عورات داري فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال ان بين الدارين طريقا ولا سبيل قط الى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائري الى قاضي قضاة مصر فحكم له القاضي بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها

حكم القاضي وأزعجه أىّ ازعاج فرفع ظلامته الى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة
الفرنسيين فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هي وحكمت على خصمه بشئ من المال
تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خبر ذلك بين
الاحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدي الامر وأعظمه جدا وقال انما هو عمل من
أعمال بطرس باشا غالى التى يقصد بها الصاق الحزب بأصحاب الشريعة الخفيفة ونصرة
أصحاب الشريعة الفرنجية وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والاعيان عند
الحديوى ووشوا فى حق الباشا وما زالوا بالحديوى حتى كادوا يستهونونه ويفترون به فعلم
بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الحديوى وأعلمه بحكاية الجزائري وما جرى لصاحب
الدار المتداعية وما حكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ
المهدي وأعظم مقارعة المحازبين له من الاعيان وشورى البلاد وأرسل فى طلب الشيخ وكله
فى ذلك طويلا ورسم الى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكيننا لتلك الفلأقل فأشار على
الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصدد فلم ير مناصا من الادعان وتب من يومه الى
الجريدة الرسمية ونحى الاخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شئ مما ذاع خبره البتة وأن
جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به
المرحفون العاملون على ايقاظ الفتنة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يقتتون وداخل
الحديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدي حتى رسم بخلعه من منصبى الافتاء ومشيخة
الجامع الازهر فخلع وولى مكانه فى مشيخة الجامع شمس الدين الشيخ محمد الانببى وفى
منصب الافتاء الشيخ محمد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الاثناء أن مرض الوزير نوبار
باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الارجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة

(مطلب)

وقسوع القتال
بسواكن مع عثمان
دقنه

وبينما كانت الاحزاب فى قيل وقال وأمانى وآمال اذ وردت الاخبار من سواكن
بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر
المصرى وبأن العدو أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا • وتحرير الخبر أنه لما كثرت
مناوشات العدو للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحي البلد رسم كتشنر باشا العامل
يومئذ على سواكن الى نفر من الجنود والمولدين المرتزة والى أولئك المصافين بقتال العدو
واجلائه عن ضواحي البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق
والمرتزة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها فى منتصف الليل
يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الانجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين
وساروا بجوار الخط الموصل الى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى اذا كان ما بعد زوال
اليوم الثانى وصاروا على مقربة من هندوب بان لهم طلائع العدو فهجم عليهم
جماعة الباشيبوزق والعييد وهزموهم أو كادوا فلم تكن الا لحظة حتى أحرق العدو بكتشنر
وجنوده من كل صوب ودرب قنبت الجنود فى مواقعها واشتدت فى رعى القنابل ورصاص

البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدو بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على مينة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها المينة سحقا وأصاب كتنش رصاصة في فكه اليمين وأصابته كذلك جراحة عظيمة فتفرقت عساكره شذرا مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدو أثر من بقي من العساكر يصلهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم في أسوأ حال واشتدت علة كتنش وعظمت جراحته فالتحدر من سواكن الى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارشخ لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الاخبار ينقلون للناس أخبار صحتته وما يطرأ عليه في كل ساعة من ليله ونهاره كعظماء الملوك أو أقبال القوم اذا مسهم مرض وما زالوا حتى برأ وعوفي وزال عنه البأس

وكما كانت أحوال سواكن الى هذا الحين في قلق واضطراب بسبب هجمات العدو المتتابعة فقد كانت أحوال مصوع أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشي الامراض الخبيثة بين الجنود الايطالية وفعلها فيهم وفي خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى شمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدو الرابض كالاسد وكان قائد الجنود الايطالية يتقرب زانق من القاضي ابراهيم شيخ قبيلة الاسوريتين ويستيله بالرشا والبراطيل الى معاونة الايطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفوسهم فكان هذا الشيخ كثير التقلب اذا قرب يوما ابتعد أياما واذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشيء الكثير من المال حتى أعيت الخيلة زعيم السياسة الايطالية وهم بإجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلي عما بأيديهم الى ذلك العدو الذي أشبعهم ضربا وطعنا قد طأطأت لشدتهم الرؤس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل في كل قليل رسلة الى المحاسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم الى إجلاء العدو عن أرضهم فكان دعائه يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد في حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الايطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشي الحيات الخبيثة بينهم

¶ والى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الانجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم في الخلاف الذي يقع بين الدول في ذلك وفي حق سيادة الباب العالي وملكيته لسائر الاراضي التي يشقها الخليج من أدناها الى أقصاها فلما اشتدت الامراض بالعساكر الايطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الانجليزية في أن يأذن لهم بالنزول في قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم لبان القيظ فرارا من هذا العدو الذي قد ضم عداءه الى عداء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الانجليز الى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيين من رقادهم وتبعهم أصحاب

الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الامر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة الا ورود الخبر بمحجم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فانه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع في مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحي البلد ولا يقف عند حد من تخطف القادمين اليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقبائل رميا متتابعاً ايل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعيابهم الدفاع من خلف الاسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الانكليزية وجعلت ترمي قنابل مدافعها على العدو كلما اقترب من البلد وظلت على هذه الحال أياماً فلما كان بعض الايام رأى الكولونيل تاب مقدم العساكر المصرية أن العدو قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هديسون وهي لا تبعد عن سور البلد الا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى في العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعاً بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الانكليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعاً لاجلاء العدو عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمل الوطيس والتقت السنبابك بالسنبابك فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى تفهقرت العساكر ورجعوا الى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدو وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير من معه وما زالت نيران العدو تساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقي من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والاسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة الى الخديوي والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتنه نوبار باشا قد عوفي ففكر راجعاً الى سواكن قتل وأوصاه الخديوي بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كي لا يحرکوا ساكناً من العدو وجاءت كتب زعيم سياسة الانجليز بالتخلي عن سواكن أيضاً وتركها الى العدو فكبر أمر ذلك على الخديوي وأقلقته جدا ووردت أيضاً كتب كتنه الى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا الى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل الى الخليفة عبد الله التعايشي في طلب النجدة على قتال المرابطين في سواكن فاذا جاءت النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتنه يومئذ واهتم كثيراً باستطلاع أخبار العدو ومراقبة حركاته ورسم الى جميع العساكر بملازمة الحصون والسمير على حراستها وأرسل دعاة الى مشايخ قبيلة الرمادري يستفزهم الى الوقوف في طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم الى البلد قتل فأجابوه الى ذلك وسيروا رسلهم الى دقنه يقولون له لا تبارح هندوب والا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جوعك فلم يلتفت دقنه الى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا * واتفق أن جماعة من عساكر السفن الانكليزية الراسية أمام البلد نزلوا الى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد

قليلاً فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحرب والضرب بالسيوف فرأى المربطون بالقلعة ما حل بالانجليز فأطلقوا على العدو مدافعهم فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفاً وهاجوا القلعة هجوماً الاسود الضواري حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها الا بعد قتال عنيف للغاية * وخاف من في البلد فكادوا يتركونها وينزلون الى السفن ولم تطمئن قلوبهم الا بعد رجوع العدو عن القلعة وكف المربطين عن اطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كئيباً أنه لا يمكن النجاة عن البلد ورد العدو عنها الا اذا أنشؤا قلعة أخرى فأنشؤوها وأتموها على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالاسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المربطون فكانوا يدفعون العدو عن البلد كل قليل من الايام وهو لا ينكف عنهم فلما أعياء الحال وعجز عن مناجزة من في هذه القلعة عاد على أعقابهم الى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب الى الخليفة عبد الله التعايشي في طلب المدد ويشره بقرب الفتح والخليفة يئمه ويرد عليه الرد الجليل ولم يمه بشئ

وصل

(في ارياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف الى الوزير نوبار باشا من أكراد الوشاية وأوضاع السعاية اذ كان له مع الخديوي من أمرها في كل يوم شأن ومع السير بارنج في كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفي نظام بعض الدواوين وفي غير ذلك مما يتعلق بشؤون البلاد الداخلية وقد كبرت في هذه الايام شدته وعظم الخاحه في طلب تنفيذ الكثير من الاحداثات المخالفة للألف عند أهل البلاد وابداع البدع التي لا يقوى الوزير على عملها خوفاً من صيحة الاحزاب وتألبهم عليه فكان اذا دافعه وحاجه وكادت حخته تغلب حخته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدير واذا سايره وعمل بعض الذي يريده كارها قامت صيحة الاحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة في بيت مصطفى رياض باشا وأخرى في مقر الغازي مختار باشا فاذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوي وتبرأ من تبعه كل عمل وشجعه على الاخذ بأطراف الحزامة وحبب اليه الاستبداد بشؤون مملكته فداخل الخديوي من هذا الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء الا تحت رئاسته ولا يبرم في شؤون البلاد أمر الا برأيه ولا يعمل عمل الا بمشورته حتى كاد يستبد بالامر ولا ينزل لاحد من رجال

دواته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملا الا ويكون من ورائه اللدد والكد فكثير توجهه وعظمت شكواه الى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيرها فخاب منه الرجاء والامل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ الى زعيم سياسة الانجليز يشكو اليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لا بد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالاحوال الى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا فى عاصمة الانجليز أياما ثم قفل راجعا الى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالاقلاع عن كل عداة وعدم مساس كرامة الوزير بشئ ولا مراجعته فى شئ من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الاحزاب ولا ليقف الارحاف عند حد بل زاد النفور وربك الامور ومال بالخديوى الى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ الى عمل المآدب للكبراء والامراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد الى الناس والاقلاع عن التعجب فكثير تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تلقا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلاثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بعملة روح الى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحازين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى الى الوزير نوبار باشا كتابا يقول فيه

انه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالامس وما هو الا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا اه

ثم أرسل الى مصطفى رياض باشا يستقدمه الى الاسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بمحضرة ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والامراء وقناصل الدول وغيرهم من الاجانب أصحاب الخينيات فزاره الجمل الفقير منهم وازدحم على بابة الشعراء والمهتئون وأصبحوا وقد خرج الناس من الامراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهئة بالعيد وصعدوا الى مقر الخديوى برأس التين فهتفوا ٥٥٥ وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشرىف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر الى أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الامير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للاسباب التى تضمنها مرسومه قلت لا أظن غير ذلك - فقال اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم يثل من الوزير مأربا عمد الى

المواربة فكان اذا اجتمع بالخدوي ورأى منه انقباضا خفف عنه . وقال يا مولاي ان البلاد اسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الاحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع ندائهم * وكان اذا طرأ شيء من الخلاف بين الخديوي والوزير على أمر من الامور دخل على الخديوي وأظهر التأفف وبالغ في الاشفاق - كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الانجليز وتقديره له حق قدره - قال - وما زال بالخدوي وهو يهون عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوي أن السلامة فيما يشربه السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرضى بذلك الى غايتين أولاهما التشكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يد مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وحب السواد الاعظم بكياسته وحسن تديره حتى اذا ارتفعت أصوات الاحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الاخبار وقالوا فعل الانجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فها هي الافعال زعيمكم ومقدم وطنكم فلا لوم على الانجليز ولا تريب فتأمل - فقلت يا هداك الله هذه ظنون وأوهام وته وحده علم ما في مستقبل الايام فقال نعم ولكن الامر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوي ما برح ذا كرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولائه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس الى البيت العلوي وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية وحسين فخري باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية * وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يعدو ويروح على مقر الخديوي الى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء الى القاهرة وطير الخبر بتوليته الى الآفاق وكتب الى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخي والاهمال ثم لم تمض الا أيام حتى استقدمهم الى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقرىعا ثم حضوا على الاستقامة والاخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك في انحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الاجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشئ من التهم ويوجهون الى بعضهم الاتمة فكان ممن أكثر الكلام في ذلك صاحب جريدة الغازيت الانجليزية وهى لسان حال الانجليز بمصر فانه شط في المقال وأغلظ

في التعبير وكان اذا أمسك عن الكلام يوما أتمته كتب الخصوم في ذلك ترى فيرجع الى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم بانت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت في ذلك موحى به اليه من المراكز العالية ولكنه لم يعض على هذه الجلبة الا أيام حتى نهض أصحاب صحف الانجليز الكبري يعيرون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف اليه والى مبادئه وأماليه الشريفة ثم جعلوا يعرضون بدسائس الغازي أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالي ويقولون انه هو هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بايقاظه الفتنة الرافدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوي عمله وأخذوا من هذا الحين يقبلون للغازي مختار باشا ظهر المحن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوره بسوء العقبي والمصير ان لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا في سيرهم وتطرق بعضهم الى القول بأن الرئيس انما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحفانية وزج سائر ذوى قرابه في مصاف أصحاب الوظائف العالية وقال بعضهم غير ذلك : وأخذ الرئيس يتصرف في الامور قد يده الى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلط يومئذ الحابل بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكشف عن ترديد نداء الوعد والوعيد الى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات الى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات اذ كثر عبثهم في هذه الايام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وافساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قعة وجراء على الافساد واراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعا في مشرق البلاد ومغربها حتى في القاهرة ومصر القديمة اذ سطوا على بيت حسين فخري باشا ناظر الحفانية وأخذوا منه شيا من الحلوى والاعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله الى الديار الاوروباوية وبيت الطيب جرانت بك الانجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان اذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود. والرئيس مع هذا كله كان يقول - عسير على أن أرى في أيام رئاستي غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الانجليزية فحادثه في أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عيث اللصوص في مشرق البلاد ومغربها وفي النهم الفاضحة الموجهة الى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التي يتولاها مجلس الاشغال العمومية في عاصمة الانجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس ان مثل هذه اللجان في بلادكم لاتتناول الا أبناء جنسكم فقط على حين أنها اذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية

موانع شديدة اذ تقوم الاحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهمة والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى - الى أن قال وحقيقة الامر أن الاحوال في السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا » قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن إخطاها تبلغ اليه عند ما استلمت زمام الرئاسة في هذه المرة والذي أراه أنه ليس في الامكان الآن لخص جميع الاعمال المخلة التي عملها بعض موظفي الحكومة لا سيما وانهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين من كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقتهم - قال وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضي يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بي أحيانا الى القنوط اذ أجده نفسي تجاه أمور ثقيلة تقضى علىّ بالعناء الكثير والذي يدهشني ويوجب مزيج استغرابي هو عدم تداخل الدولة الانجليزية في ذلك الامر وانماضها الطرف عن الاعمال السابقة « يعنى أعمال الوزير نوبار باشا » - قال واني لا أقصد محو المعايير القديمة والاعضاء عنها ولكني سأجهد النفس في نسيان الماضي لا سيما وأن المستقبل معقود نواصيه بنزاهة الاعمال الحاضرة اهـ قلت ومحصل بعض هذه التهم التي أشار اليها ذلك المكاتب الانجليزي أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الانجليزية وتحقق الناس خروج الاقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم الى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون في السودان يطالبون بمال لهم في ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا الى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن في ذمته لاصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتراجعت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم في كل يوم يلحون في طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالامر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هئته من أشار بهم جماعة الانجليز فتقرب اصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالي قيل ومنوهمما ووعدوهمما بالوعود الكثيرة ففصلا في الامر وقاسا وألبسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهتمت الخزينة بالوفاء وهي في إجمال وعسر فلم تتمكن فانبت أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الاموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزور فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعي كل من كان في قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس السنة الاحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التلذذ وعار التقرب من الانجليز وهو رجل الوطن ووحيدته وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته في هذه المرة حسبا كبيرا

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث في القيوم - وذلك أن أحد اصحاب

الحيثيات بها واسمه مصطفى بيك واصف قتل في احدى ليالى شهر رمضان في بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالامر ورسم الوزير نوبار باشا الى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث واظهار الجاني فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة وآتس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبت الاوصاف في سائر البلاد عمد الى اظهار شيء من الشدة في تحقيق مقتل مصطفى بيك هذا ورسم به الى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بيك رئيس محكمة المنصورة وأحمد خيرى بيك قاضى تحقيق جنابات محكمة مصر ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا الى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بيك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجروهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا الا الى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعيد ذلك أن خبيلا وأخاه خير الله هما القاتلان - قالوا وتحرير الخبر أن مصطفى بيك هذا جاء فى احدى ليالى شهر رمضان من مزرعته الى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الافطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة » فأجابه الى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فبينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى اياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله الى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك الا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال « أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم » فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بازهاق روحه - قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته - قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتم جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بيك الى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى - قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالامر ورسم الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم فى مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا الى الخديوى فأجابهم اليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم عبد الحميد باشا وأحمد بليغ بيك وإبراهيم نجيب بيك ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا وسليمان رؤف بيك وأحمد حشمت بيك لاداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الاهلية بالأقاليم البحرية لانه الى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل الطعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم اقتتاح

سنة ست وثلاثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلًا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندي الحسيني و خليل أفندي إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شنفًا وصادق قاضي قضاة مصر والخديوي على ذلك وأعطى للحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكي يدبرا أمر عيالهما وعلاقتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهرية إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا جبل المسنقة في عنق خليل وأراحوا الكرسي الذي كان تحت أقدامه انقطع الجبل وسقط خليل مغشى عليه فأجلسوه على كرسي وذهب الجلاد يشتري حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال ائتوني بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت الى الجمع وقال أشهدكم بأني مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبيل ووضعوه في عنق خليل وشده بقي معلقا وفاضت روحه في الحال وشاع خبر هذا الحادث فانتفضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس في ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وما كم البعض الآخر من كان لهم يد في التحقيق الأول ﴿ حدثنى وجيهه من وجهاء الفيوم قال أظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بيك واصف - قلت لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد في ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بيك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحسدهما وهو خليل صعب المراس قوى الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بيك صحبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الاخلاص وكان أعرابي اسمه منصور مستأجرا لشيء من أطيان خليل الدهشان بإحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هي كذلك به فكان خليل يزورها في خدرها كل قليل من الايام وتزوره في بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لا تحشاء ولا تنكف عن الاتيان الى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندد بعضهم يوما بزواج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من خليل وجعل يراقب الفرص و خليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل الى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بيك في إحدى ليالي شهر رمضان لزيارة خليل في داره باهرية والافطار عنده في تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الافطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بيك لخليل أو ليس عندك طاولة للعب فقال عندي قال هاتهما للعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن ائتنا بالطاولة من بيت النساء فدخسل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بيك أين الطاولة

يا قوم ما هذا الا بطاء تفجّل خليل من ابطاء الخادم وأسرع الى بيت النساء فلاقاه الخادم عند الباب وقال له سيدي فلان « يريد به ابن أخي خليل المتوفى » منعني من أخذ الطاولة ويقول ان أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يلحق لعب الطاولة وقد لطمني على وجهي فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع الى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها لينع من الاستفادة منها فقال عليه خليل وأشبعه ضربا ولكما وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر الى مصطفى بيك ومصطفى بيك يضحك بخلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقتدا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاسا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم - وعلم منصور العربي في تلك الساعة بخبر جلوس خليل وضعفه في صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سور صحن الدار والسور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان في هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طأطأها فأطلق الاعرابي بارودته فخرجت رصاصتها عند انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف الى الامام وأصابته كتف مصطفى بيك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعته واختفى الاعرابي فلم يعلم به أحد فقامت ضجة في بيت خليل وامتلاء صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل الى المدير وإلى أهل الفقيه فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأموري الحكومة لتحقيق الحادث وبشوا العيون فدلّت التحقيقات على أن الطلق الناري كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الاطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد في أن القاتل هو غير الدهشان - قال - ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليه الى ذلك الحين * واتفق أن عزّل الوزير نوبار باشا من منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصطفى بيك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشديد في طلب القاتل والتحذير من عاقبة التواني ثم لم تكن الا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بيك أحد رؤساء المحاكم الاهلية ومعه جماعة من المأمورين فلبشوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما في الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا ما لا خير فيه اذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وقتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة في الليل والنهار واشتدوا عليهم في الاخذ والرد شدة بالغة وقالوا ان الجراحة التي شوهدت في رأس خليل ليست الا كيا كعسمار محي في النار يراد به درء فعل القتل عنه - قال - وقد كان السواد الاعظم من أهل الفيوم يعلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أو هم أخفوها لغرض في النفس فأخذتهم الطيرة وكانوا اذا تكلم

بعضهم مع بعض في شئ من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدو ورواح حشمت بيك الى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الاعمال بطنا الى ظهر وبالع في الحيلة والقشيد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه في محكمة مخصوصة أو هي محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بيك مدعيا فبالغ في القول وشط في الطلب وعاب على بعض مأموري التحقيق عملهم وارتاب في ذمهم ولم يترك جراحة الا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادي القضاة القضاة احكموا احكموا انا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلي ذلك البريء احكموا فكان السامعون يندمدون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفتوا أصحاب الحكم الى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ ورد تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغسلوه وقال بصوت استلفت اليه الانتظار يا سادتي قد اتهمني وأخى خير الله حضرة هذا المدعى الذي لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد على وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعدله وزعم أن الجراحة التي أصابت رأسي من الطلق الناري الذي أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هي جراحة أحدثها لي أحد الخلاقين اخفاء الحقيقة جريمتي وقد سعت من دفاع المدافعين عني ما أسأل الله أن يوفقكم به الى الصواب فلم يبق الا أن أسألكم أمرا هو - ان وقفتم الى الحكم على وعلى أخى بالقتل ولا أظنكم الا فاعلين فاستخلفكم عن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تمدوا بي وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الاطباء جراحتي بعد الموت فان كانت اصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صيتي وأهلي ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقابا من عقابين وان كانت جراحتي كما يقول صاحبكم فأنتم في حل من دمي ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبكائه وكادوا يفضون ويرفعون أصواتهم ﴿ قال الراوى فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالاعدام شنقا فاندعر الناس وخرجوا وكان على رؤسهم الطير - قال - واتفق أن عاد السير بارنج قنصل جنرال الانجليز الى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعملت به عجوز هي أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبي خليل لم يدهز الخامسة وانحدرت الى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها اليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك ياسيدي لا لتخلص ولدي من الموت بل لبيدوا بقتل خليل ونقص جراحته فان كانت كما يقول فأبقوا لي خير الله يعولني ويعول صبيته وأخيه وان كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم في حل مما يفعلون - قال

وبكت المجوز بكاء مراً وتراعى الصبي على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرهما ووعدها خيراً - قال - وكأن السير بارنج أرسل الى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بيك الى الفيوم يحمل الامر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه ولم يكن قد مضى الاجل المضروب لذلك قانوناً فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباقي اه ٥ قلت وكأن الرئيس كان يظن أن في قتل ولدى الدهشان عبرة وارهاباً لاهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملؤا البلاد شرقاً وغرباً ينهبون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فانه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قبحتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا في سائر أنحاء الاقليم فكانت الاخبار تأتي الى الرئيس تباعاً بوقوع النهب والقتل واتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقاً واضطراباً ورود الخبر بظهور الوباء في مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماماً كبيراً ورسم الخديوي بناء على ماقرره مجلس الكورنتينات بارسال قوة كبيرة من العساكر والاجناد الى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سيناء وعيون موسى وتشديد مراقبة البحر على الحجاج في الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخريضة في بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الاجنبية كافة فضربت البحر على سائر مايرد الى موانئها من الموانئ المصرية وسواحل البحر الاخر وأرسل بعضهم الى السويس رسلاً ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحمة عند عودتهم الى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الاخبار وورودها مقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضاً في راوندوز من بلاد الموصل وفي جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهوأت اليها من الهند الانجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفي ديوان الصحة ليرأى رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدو الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة في الازقة والحارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الخوازي يستحثون العامة الى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الاخبار تأتي في كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها في اليوم نيفا وألفاً فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيلة رجال الحكومة ورسم الخديوي بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس الى ديه ومنها الى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارين من البحر والاخبار ترد في كل يوم باشتداد الوباء في مكة وفي المدينة ودخوله الى جده وقتكه بالحجاج فتكا ذريعاً ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن الى الطور وعيون موسى فأترلوهم هناك محجوراً عليهم وبقي الحال هكذا أياماً وجاء الخبر يوماً الى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلاً الى القاهرة واختفائهم في بولاق مصر فطير الخبر بذلك الى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة

في طلب الفارين فعاتوا في بولاق مصر ولبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل
وانفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القيء والذرب فأخبر شيخ
حاته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب الى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه
فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فنعهم من ذلك وأرسل
في طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبير الى محافظ البلد بأن
الرجل مات بالهيفة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالف في ذلك فقام عليه
حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكم ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم
تكن اللحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى
وتطهير متاع المصابين بالامراض المعدية وشئ من العقاقير ومواد التجيير ودقوا باب بيت
الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذه الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعضهم
وهراويلهم واشتدت جلبتهم وصياحهم في وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل
النساء وصراخهن من شبائك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطح البيوت وكثر
الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة في نفر من الجنود والاتباع وما زال بأهل الميت حتى
فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وجلوا الجثة عنوة ووضعوها في عربة
الموتى فسارت بها على عجل الى مستشفى القصر العيني والناس محتشدون حولها وهم في حجة
وصياح فكان المشهد مرعبا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء
أطفاره في خوف بولاق القاهرة بدخول الفارين من الجرحى اليها واستصرخت أصحاب
الصحف على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة الى الاخذ بأطراف الحزم
والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يخلوا ولا يفتروا في النفقة حتى يدفع الله عن
البلد شر هذا العدو القاهر وأكثر الاطباء من نشر الارشادات الطبية والنصائح الصحية
لعل الناس يعولون عليها ويعملون بها * فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث
ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهيفة الوبائية وأن مرضه انما هو من الامراض
العادية التي تحصل عادة في فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من مجر الطور
ليسوا من الجحاج وانما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا
بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الجحاج فينزلون معهم الى القاهرة
كأنهم حجوا وطافوا وتحملوا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت في ذلك الجريدة الرسمية
وأقامت عليه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد
بمراقبة السواحل والتشديد في النطاق الصحى بمجبرى عيون موسى وطور سينا
وينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا
يحضون الناس على تنظيف دورهم واصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع
عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك الى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون

كان جبابة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الاموال في غير آجالها ويشددون على الناس في ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة في ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصبطي رياض باشا وأرضاه اذ كان يخشى عاقبة احوال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة - قيل وهو في كل يوم يقول للجماعة الانجليز ان أيام رئاستي خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجبابة والتشديد عليهم في جمع الاموال وعدم الوقوف في التحصيل عند حد فطافوا وعانوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى الى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدي الجبابة الى حين فلم يلتفت الرئيس الى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شئ منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف الى الاقاليم يستحثون الجبابة على التجميل وعدم الإبطاء فضايق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة الى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلي فلم تمكنهم الجبابة من ذلك أياما

واتفق في هذه الاثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الانجليز « وقد كان مديرا لحسابات الخزينة » بدلا من بلوم باشا الذي تولاهما في عهد الخديوى اسمعيل وبقي شاغلا لها حتى أقصاه الانجليز عنها في هذه الايام صاغرا لاسباب لا محل ليرادها هنا قتراحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الامر واهتم له اهتماما عظيما لانه أعلم الانجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بحماية الاموال وميله الى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره الى الاقليمين القبلي والبحري وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد الى القاهرة فسير الى المديرين والمأمورين في منع الجبابة الا في آجالها المقررة وكف الجبابة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات الى ميسرة وشدد عليهم في ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبه وهم برذكل شئ الى ما كان عليه وأرسل في طلب سائر المديرين ووكلاء المديرات فحضروا نخلا بهم في ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم الى مراكزهم فلم تكن الا أيام حتى ظهر لمنلر وجاعة الانجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج مجعلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شئ من تلك العرائض فاهتم منلر بالامر كثيرا وطال الاخذ والرد بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه الى المديرين ثانية بالكف عن الجبابة والاقلاع عن كل إكراه والا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدأت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه

واهتم منار بإيقاف الرئيس عند حده وبأبلغ في السعي وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منار وشكروه فتكلم في ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار وعابوا على الرئيس فعالة وقالوا ما ضره لو أفلح عن هواه وقل من حديثه ولم يمكن منار من الغلبة عليه وتنفيذ قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فرد عليهم بعض أصحاب الصحف المحاذية للرئيس ردا كاله مما حكة ومهاترة ووقعوا على المستر منار باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا ٥ وتلاقيت يوما مع أحد المقررين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم في التجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفي تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرًا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابيه فان ذلك كما تعلم أدعى الى الصغار وأدنى الى مهواة الموارد وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيلة والقدرة على تلافي مثل هذه الفتنة المزرية المعيبة خصوصا في هذه الايام التي قويت فيها شوكة الاجنبي واتسعت سلطته فسبحان الله - فتبسم الرجل عند ذلك وقال - وأي حيلة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجنتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وإدارة من الصغير الى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والاكثر منها وقلب المنظمات وغير ذلك من دوام التفكير في أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره - قلت انى لا أراك مصيبا في ذلك لان ما لا يقدر على عمله بنفسه وقله وهو على كرسى ادارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو في مسند وكالة الداخلية - قال وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الاعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله في بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالخلية نهارا وليلا وهو لا يجد مع ذلك ساعة يقضيها في حوائج نفسه لانه يأتي نظارة الداخلية في صباح كل يوم فيجده على مكتبته الشئ الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفيض ختامها ويقرأها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقي الى أصحاب الوظائف الدوائية كل هذا وهو يقابل الكتاب والجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الاولى بعد الظهر فيذهب الى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهرة في الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيسترى قليلا ويقوم بعد ذلك الى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والاخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم الممرزة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه في سماع ظلاماتهم وربما حتى لشكوى بعضهم وتوجع لبواهم حتى الغروب فيأخذ في قراءة الصحف بتأمل وامعان فيذم الذامة منها وينضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم الى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه

ما اتصل به من أخبار نقلة الاخبار والجواسيس ثم ما قرأه في الصحف من مدح وقدح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر بأقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبإدخال عمروف فيها وبرد بكر الى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء الى أن ينتهي من الطعام فيرجع الى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والمملقون والمداهنون والواشون والآكلون للهوم اخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا في مجلس الرئيس استأذن له وأدخله والا أخذ يسمع له شكواه ويتأوه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب الى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعصص اصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لي يعيشك أين الساعة التي يتمكن فيها من نظر تلك الظلمات وهذه الحال حاله بين ليلة ونهاره فقلت ان لله في خلقه شؤنا

ولم تكذب تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج الى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء اليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده في كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذي تروح اليه الخواطر فكان قلق أهل الاقليم القبلي والحواف الشرق عظيم اذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفول والشعير والعدس والحببة وقل علف دوابهم فالتجسروا بها الى الاقاليم الوسطى والاقليم البحري طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الانجليز بالامر تقريبا من أهل البلاد وزلاني وسار محمد زكي باشا ناظر الاشغال الى الاقليم القبلي لينظر في تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مديرى الاقليم القبلي وهو من كبار مهندسى الانجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة على الفكر مهندس حاسب مقدم لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الري قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالامر وعمل من خوارق الاعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزع منهم الى بلده وجاء زمن الري فلم يتعذر سوى ري الجزر المرتفعة والحواف الشرق وقليل من الاحواض العالية ببلاد اسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الحواف الشرق منهم فوات بعضهم وأنشبت الامراض الخبيثة أظفارها فمضى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمرى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الاشكال الهندسية وعمل من خوارق الاعمال شيئا كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية الى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع

وجاء الخبر في هذه الايام الى ديوان الحديوى بقيام الاميردى غال ولى عهد السلطنة الانجليزية على ظهر احدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الحديوى الى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وانجليز لذلك وقعدوا وبالعوا في الاستعداد فلما كان يوم الاربعاء

(مطلب)
عدم بلوغ النيل
حده المألوف من
الزيادة

(مطلب)
مجيء ولى عهد
السلطنة الانجليزية
الى مصر

سابع ربيع الأول من السنة أى سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه
الامير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبد الرحمن رشدى باشا كبير التشرىفات
ومحمد زكى بيك التشرىفات الى الاسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال
الامير فساروا الى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بور سعيد
بقرب وصول الامير اليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم الى الثغر الاسكندري وأنه أراد
الذهاب الى القاهرة عن طريق الاسماعيلية فقاموا من ساعتهم الى الاسماعيلية على القطار
الخديوى ومنها الى بور سعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الامير فى نفر من الحاشية والاتباع
فقاموا فى ركابه الى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهر كوكبة من العساكر المصرية
وأخرى من العساكر الانجليزية الى محطة السكة الحديد للقاء الامير وكذلك وفد اليها الوجهاء
ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة
الوزراء وكبار الدولة بزيئهم ووقفوا جميعا على أكل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى
يقبل الامير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى
بالجولة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة
من الفرسان المصريين والانجليز وخلفها عربة أولاد الامير ومعهم الامير حسين أخو
الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة وما زالوا سائرين حتى وصلوا الى دار قنصلات
الانجليز فنزل بها الامير وحاشيته وذهب الخديوى الى مقره بعابدين وأقام الامير فى تلك الدار
لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه الى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره
الخديوى فرد له الزيارة على الاثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الامير الى سراى عابدين
بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث الى ما قبل نصف الليل بقليل
ثم عاد الى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج الى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى
ركابه السير بارنچ وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الانجليزية والمصرية معا
بميدان العباسية عند الجبل الاحمر فهرع الناس الى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب
التحفة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن
الاساعة حتى برز كل من الامير والخديوى الى الميدان فى ملابس زينة وتشريفه ممتطين
جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم
الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر
والاجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى
دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير اشفاقا مما عساه أن يكون من وراء حجب ذلك
الامير الى هذه الديار * واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب
الشرعية المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الامير العشاء مع الخديوى ركب
عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا الى ساحة المولد ونزلوا

بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظفة لطيفة ثم انتقلوا الى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة
كثيرة فيها لفظ العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم الى أسمع المرامي ثم انصرفوا جميعا وابتوا
وأصبحوا وقد ركب الخديوى في موكبه وسار الى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء
والامراء وكبار العسكريين يريدون وداع الامير حتى اذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل
الامير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله
الخديوى وبالغ في وداعه فركب الامير مع حاشيته القطار الى الاسكندرية فلما وصلها نزل
في سفينته فأقلعت به الى بعض الثغور الإيطالية

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحاذية للسياسة
الانجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقبل الايام ويقولون قد قضى الامر ونفذ
القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها الى أقصاها الى ملحقات السلطنة الانجليزية
فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لاهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة
لأولى الامر من الانجليز وأن تغلق الاحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول
لتخلصهم من سيطرة الانجليز فقام حينئذ في وجههم أصحاب الصحف الاخرى وكذبوهم فيما
يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذم وقالوا لهم انتم في اضرار نار هذه الفتنة تريدون
السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط في ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن
الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين
الاميردى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان

واشتدت عزيمة السير بارنج بمقدم الاميردى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة
والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والادارات وقلب
بعضها بطنا الى ظهره ومسح نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الاهلية نفلع بعضهم
لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشئ من قارص الكلام فاختلف الحال على من بقى
منهم وأصبحوا وهم في ريب من استقلالهم وسلامة مراكرهم وبات حسين فخرى باشا ناظر
ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والامر للرئيس مصطفى رياض
باشا وحده فكان اذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهم يعمل يرضى الله والناس قام
في وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفي النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال
حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الانجليز القابضين على زمام بعض المصالح
الدبلوماسية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه الى السير بارنج
فعمد السير بارنج حينئذ الى ايقاف كل عند حده قبل وقد زاده اهتماما بهذا الامر ما عرفه من
دخائل حادث مقتل خايل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققة من أسباب التعجيل في تنفيذ
الحكم باعدامهما قبل الاجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيدا فكان
اذا هم الرئيس بأمر من الامور وقف في وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فتركه أيا ما

ثم يرجع اليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعبان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوي أيضا عن مسيرته وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الاحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستملونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية الى جماعة الانجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسخ لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الاهلين وهم لا يملكون من أمرهم في مناصبهم شيئا سوى جماكهم وما يتبعها من الالقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم الى الخديوي في طلب اقامة مستشارين من كبار الانجليز في كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحازبة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الانجليزية كصاحب التيس وصاحب الدالي نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله ايعاد ووعيد وارهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الاغرار الذين زينت لهم أنفسهم الامارة اذهب ما صنعتة أيديك من الاصلاح في أرض الفراغنة أدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة الا أيام حتى تقدم السير بارنج الى الخديوي في طلب اقامة رجل من الانجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحفانية ويختص بالاشراف على سائر أعمال المحاكم الاهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر الا بإشارته ولا يتم عمل الا برأيه - قال - كي لا يبقى الرئيس مصطفى رياض باشا دخل في شيء من هذه الشؤون كي لا تزول بهجة ذلك النظام الذي أحدثته يد السلطة الانجليزية بعد ذلك العناية الكبير قيل قال الخديوي الى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لانه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهائهم عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وايغار الصدور على غير مسوغ فكتب صاحب جريدة الاهرام لمحة في هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهي من حسن السبك وخالص النصيح بمكان عظيم قال فيها

سأل أحدهم حكيمًا من أجلّ الرجال فقال من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هي قال من قاد أيدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال اذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت وإلى هذا المعنى أشار ارسطو الفيلسوف على الاسكندر حيث قال املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالحمة منها واعلم انك انما تملك الابدان فاجمع لها القلوب لان الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول

تسلم من أن تفعل - نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الاعمال وأن القائم بمواجبتها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسة خاصة وسياسة خاصة فكيف به وقد أضاف إلى ذلك إحسانه سياسة العامة : ولما كان مقدار فضل المرء على سواء موقوفاً على مقدار نفعه سواء كما جاء في الحديث الشريف « إن خير الناس من نفع الناس » كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التي تعد له سعة المجال في سبيل نفع الناس وليس يخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنه ووسائله إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسراً ليم لوم من بسط معسراً وإذا نشرت له الأيام بساط العمل فطواه أما بذراع أدماها سهم الخول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس أحكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفتش الأيام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مرء شريك الطبيعة في المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواحيها بل هو آلتها المنفذة لأحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل إذا زل العالم زل بزلته العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياساتهم فهو قد عهد إليه أهم أعمال الإنسان فكان مر كبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراس جعه من الاضداد ما قاله عمر رضي الله عنه وهولن لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ما قاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وانصاف عن قوة

وإذا سبرنا غور الحقائق بامعان الفكرة وانعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التي شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسية الأربعة أربع كلمات وهي وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلا لأن من ورائه التقاضى إلى محكمة مهينة عادلة قانونها الزمة وقاضيا الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فن العبت إذا أن تسند المناصب إلى من لا تهمصر أعطاف الوطنية في مقامه ولا ينجي ضرب الحكمة من ضرب بنائه ونفثات أقلامه ولا يسئل سيف الهمة من أجفان نشاطه وأغمد إقدامه ولا تشام بارقة شعور في أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال أما الوطنية فهي المحور الذي تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التي ترسم منها دائرة الشعور والعواطف بولدها الطبع وتنميتها التربية ويكفلها الشرف وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوأديه عليه لأنها تقوم بكفايتهما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان إلا بجمعة الأوطان ولذلك قالوا إن حب الأوطان من الإيمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر في وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الأولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل في الكل وإن له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه

وأما الحكمة فهي الدعامة الثانية الممتدة للوطنية لان مجرد ارادة الميل الى العمل لا يغني ما لم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التي تنطبق على ذلك الميل وتجابو على تلك الرغائب الصادقة. والا ضاع الميل القويم باستكانة عن نجول أو نزق عن جهل فأنى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدو عاقل خير من صديق جاهل

وأما المهمة فن مميزات الحكمة لانها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هي التي تمتطي الليل والنهار في مجاهر العمل انفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بإيجابه الحكمة فن ثبوت همته عن السعي الى الامام نقلته الى وراء أدوار الايام وأما المسؤولية فما هي الا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخلط في القول والزلل في العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وادراك لأهميتها فن لا يستل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود بما رجه كسل واما غرور بخالطه طيش وفي الاول سقوط ونحول يفضيان الى الاضاعة والضعة وفي الثاني استبداد وظلم يؤديان الى النفرة والضعينة وبشت نتيجة المقدمتين

ولكن بأي شئ تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولاً والاعراض عنها عملاً أم بمجرد الانتماء النسبي دون القيام بمواجبه أم بالتكامل على قريب لم يسئ أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التي تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف - كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية في شئ فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما أظف ما قاله صفي الدين الحلي في مثل ذلك اذ ضمن في شعره مثل البلبيل والصقر فقال البلبيل مخاطباً الصقر

وقال أراك جليس الملوك ومن فوق أيديهمو تحمل
وأنت كما علموا أخرس وعن بعض ما قلته تنكل
وأحبس مع أننى ناطق وقدرى عندهمومهممل
فقال صدقت ولكنهم بذلك دروا أنى الافضل
لانى فعلت وما قلت قط وأنت تقول ولا تفعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام بالواجب فكما الصقر عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر ومثله ايحاء الاذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى ان ذلك ليس منا مع أن السياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليك في مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تهيبك لمن هو عليك السبيل الذي تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشئ في غير موضعه ومثل ذلك اغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تفدى وطنيتك بما

عز وهان وتحتقر في جنب صونها كل مصلحة خاصة وإن عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وإن حقرت تلك هي الوطنية الحققة الصادقة التي يجب أن يتحلى بها كل ذي منصب ورئاسة

ثم بما ذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى بالاستبداد في الرأي والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للاضرار بالناس اجابة لداعى الانتقام أو اصابة لاشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وإيجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للإيقاع بالآخر أم بانفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الارادة في شؤون الادارة واطاعة كل اشارة أم بتفضيل حلالة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة يوشع وبعد صحيح - فأما الاستبداد فضرب من ضروب الخفاقة وقالت الحكماء الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالاول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لا بد من أن يكون نائى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله وشاورهم فى الامر والمشورة من الروح القدس قال الشاعر

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر فالامر لا يخفى على الاثنين
للمرء مرآة تزيه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر

شاو رسواك اذا نابتك نائبة يوما ولو كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فجنشواوه فكاننا ألف حازم - وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فن أكبر المعايير وأخس الافعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو فى منصبه ولا ينظر الا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لاشارة خارجية فان ذلك من الدنياى التى يترفع المنصب عن النزوع اليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى الى الاضرار بالضعيف وان لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة المنصب تحمل دعائمها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتكبرهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدو ألد فضلا عن صديق أود ثم الاغضاء عما لم يأت على مرادهم أو لم يلائم سياستهم بل ما هى الحكمة الوطنية من وراء نثر النظم وتشيت الجميع اذا كان رب المنصب يثير نائرة الحق من هذا على ذاك ويفرق كلمة الرعية المؤتمرة بأمره ويولد الضغائن والاحقاد فى القلوب بإنشاء الاحزاب المتباينة وتعضيد البعض للتغلب على الآخر اما لانتقام خاص عن كره لذاك واما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق كلمتهم تسود كلمته فيأمن فى سره وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة

بجمع الشئيت ونظم النثر وازالة الاحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال في تحميلهم مالىسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهو غير مصيب أو مسوق اليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس في القانون محابة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر

ولم أنس المليحة حين راحت الى قاضى المحبة تستكنى

فقلت لها ارحى ضعفى فقالت وهل فى العشق يا أمى ارجنى

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسنى منه أن يكلف من يأتمر بأمره اما عن رجاء أو عن تمديد بتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمتزاع السامى ومن هذا القليل أيضا عدم استقلال الارادة فى شؤون الادارة وهكذا - الى أن قال - وليس من الحكمة أيضا رفض رب المنصب كل ما يطلب اليه ثم قبوله لكل ما رفض لان الرفض اما أن يكون عن أنفة واستكبار اجابة لخلق غريزى يرتاح الى مجرد النهى والامر دون النظر فى صوابية المطلوب واما عن اقتناع مسبق بترؤ وامعان بأن المطلوب لا يناسب فاذا كان الاول ولا مناص من القبول فالاولى عدم الرفض لان مرارة العود الى القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض واذا كان الثانى فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للصانعة اذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتنصل من تبعتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التى كدرتها المرارة فان فى منابذتها حلاوة لاتعقبها مرارة وهى وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرفة ثم بما ذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع الى انفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل - ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لان الاسراع فى انفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو فى كثير من الاحايين الى تجاوز الحقيقة والتخطى الى الاعتراف فلكل مقام مقال والاشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع فى انفاذه ولذلك قالوا فى العجلة الندامة وفى التأني السلامة وأما الضغط المتوهم عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل الى الاخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية فى هذا الشأن حيث قال انى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيلى له وكيف ذلك قال كنت اذا مدوها أرخيتها واذا أرخوها مددتها - ثم بما ذا تقوم المسؤولية وراء ذلك أبالاسراع فى العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون انفاذه أم برفعها عن كاهله والقائها على كاهل غيره - كلا لا تقوم المسؤولية بشئ من ذلك ولكنها تقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسئول أمام منصبه أولا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعا من أميره وخامسا من وطنه وسادسا من خاصته وبأن يعلم عظم

هذه المسؤولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وإن عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوطن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومناذرة الأغراض والترفع عن الدنيا والتجملد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأترون بأمره وزرع بذور الاتحاد والالفة والمحبة بينهم واستئصال جرائم الشقاق والخلاف والضغائن والاحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبرأه ويحفظ أخاه ويرحم ابنه تلك هي مسؤولية المنصب بل تلك هي بعض المواجب التي عليه ولا سبيل لتفصله من تبعها إذا لم يقم بها فإذا قرن استقلال إرادته بحسن إدارته أتاحت له الأيام ادراك غاية ونيل بغيته فلزم الوظيفة بشرفها وتشرفه واستمال اليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له في السر والنجوى وثقوا منه بعدم تغييره في سلوكه لو ثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا إلى التغيير بعد الولاية فقال من ولي منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن إذا كانت نفسه أصغر منه تغير له - فالمنصب إذا مقام خطير مخوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه أمر مطاع لا يهمه إلا إصدار الأمر ونيل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الارق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللعاط شديد التأثير مديد التصور هدف لسهام اليوم عرضة للملاحظات العموم مسئول عن كل ما يفعل عدو لنصف من رعاياه ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحاوله ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل « درهم من غسل على قنطار من خل » وحسبه هما اضطراره إلى الاحتفاظ على الأحكام السياسية ليتذرع بها إلى نيل غاية صعبة المنال ألا وهي استمئاعه بهيئة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالانصاف اليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول إلى هذا المطلب ولذلك قلنا ان صهوات المناصب لفوارس التجارب اه

فكان كل ما في هذه المقالة من المغامر الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توابيه المنصب في هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الاهرام هذه في الاندية والمجتمعات فكانت سرليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز اليه بها من ديوان الخديوي الخاص ارهابا للرئيس وتحذيرا والامر على غير ما يظنون فإنه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المال ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الاخبار المحلية على نشر هذه الشوائب على رؤس الملا والتعريض بها كل قليل من الأيام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتهاها فترجع عن بغضه القلوب وتنكف عن تقريره الألسنة وتقف مطامع جماعة الانجليز عند حد ولذلك لم يهتأ أحد من المحازين للرئيس إلى الرد

على مقالة صاحب الاهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلوبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الخلقوم والسكين العظم وكانت أخبار التجوم الى هذا اليوم لم تخل من المغامر الدالة على عدم خلود العدو الى السكينة ووقوفه على قدم الكثر والفر ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقي السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل. وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمي عسكر الانجليز وأقاموا بسواكن أياما يتررون في أمر الخلاص من شر ذلك العدو وعلم دقنه بتقدم السردار فزاد في الكثر والفر عن معه من أولئك الابلاسة السود واشتد في رمي القنابل على الحصون والمتاريس في الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلا رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الانجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا اذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل الى صاحب السياسة الانجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة ارسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه الى الباب العالي بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها - قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالالغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بارسال عساكره الى سواكن ولبت الحال على ذلك أياما فلما آنس من السلطان ميلا وعزما على ارسال حملة من عساكره الى سواكن بعد ذلك التردد والاجسام خاف العاقبة ورسم على الفور الى قائد عسكرهم بمصر بارسال النجدة العاجلة من عسكرهم الى سواكن فصعد بالامر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيمهم وأنزلتهم في سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم في ترميم الحصون والمتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدو فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الانجليزية قامت الأحزاب في عاصمتهم واشتد حزب الاحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم في دار ندوتهم وظهرت جلبتهم في سائر محافلهم ونادوا وويلاه مالكم تعرضون بأرواح رجالنا وتبسدون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياما حتى كاد المطلاع على صحف أخبارهم لا يشك في أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما ذلك الا ضرب من التعرير كأن يقولوا اذا قامت الدول في وجه صاحبهم ومانعت في حلول عسكرهم سواكن لما ما احتلناها بعسكرنا وسفن حربنا الا مكرهين وهذا الباب العالي قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم يجذبوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع سمعا فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تريب ولا نحن مؤخذون بما فعلنا

وعلم عثمان دقنه بتقدم العساكر الانجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وما هم

(مطلب)
وقوف عثمان دقنه
بسواكن على قدم
الكرو والفر

عليه من الحركة فجذ حينئذ في قتالهم وألح وتابع الرمي بالقنابل على القلاع والحصون أياماً فهاجموه فلم ينالوا منه مأرباً فألحوا في قتاله بين كثر وفر أياماً أيضاً ثم عادوا الى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياماً أخرى ووردت الاخبار الى ديوان الخديوى بما هم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدو لهم في الليل والنهار وعجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلاً وكبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقاتلين من الانجليز الى سوا كن فعادوا الى مخبرة صاحب السياسة الانجليزية في تقرير الفاعدة التي على مقتضاها يرسل الباب العالي الى سوا كن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المراطين وأكثروا من الاخذ والرد في ذلك أياماً فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الارب فتكلم حينئذ أصحاب صحف دار السلطنة بكلام في معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفي معنى كيان السلطنة العثمانية وفي شيء من ماهية الخلافة الاسلامية وفيما يعتورها من الضعف اذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البحر الاحمر وأطلوا في ذلك القول وبانغوا في التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التي كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشأن في حياض بوغاز السويس شاهدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهم ولم يكن أحد يعلم بها الى يومنا هذا وهي

أولاً - يبقى بوغاز السويس حراً مطلقاً في زمن الحرب والسلم لجميع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعشن بحرية هذه الترفة سواء في زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الاطلاق

ثانياً - ان الدول الموقعة باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترفة الحلوة منفصلة عن الترفة الملحة قد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمة بين خديوى مصر وشركة بوغاز السويس العمومية فيما يتعلق بالترفة الحلوة كما هو مذكور في الوفاق المبرم في ثامن عشر مارث سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذي يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترفة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها

ثالثاً - قد تعهدت الدول باحترام المواد والابنية والاعمال الموجودة في الترتين المذكورتين وعدم مسها بشئ ما

رابعاً - تبقى الترفة الملحة مفتوحة في زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء في الوجه الاول من هذا الوفاق - وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعة على أن لا يساح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة في الترفة والموانى الموصلة اليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جلة هذه الموقوفات الذولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم ان المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ الا ما يكون

ضروريا لها من المؤن والذخيرة في التبعة والموانى الموصلة اليها وأن يكون مسيرها منها في أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف الا عند ما تقضى الضرورة بذلك وفي هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من احدى الموانى الموصلة للتبعة أربعة وعشرين ساعة على الاقل

خامسا - ان الدول المتحاربات لا يمكنهن في زمن الحرب أن ينزلن في البوغاز والموانى الموصلة اليه جنودا أو ذخائر أو مواد حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن اذا حدث بها مانع في التبعة كان لها عند ذلك أن تنزل الى تلك الموانى أو تأخذ منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن

سادسا - ان ما اشترط على المدرعات في مسيرها يشترط في مناوشاتها اذا حصلت في التبعة

سابعا - لا يجوز لاية دولة أن تبقي لنفسها في مياه التبعة أو في بحيرة التماسح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم في الموانى الموصلة الى مدينة بور سعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة الا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات

ثامنا - ان وكلاء الدول القائمين في مصر من قبل الدول الموقعة على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث انهم عند ما يحدث ما يهدد سلام التبعة وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم في الوكالة للبحث فيما يجب اجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد علموه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية التبعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فانهم يجتمعون مرة في كل سنة لبروا ما اذا كانت المعاهدة معمولا بشروطها أولا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصص تعينه الدولة العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المنسوب آخر من رجال الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات اذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق في أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط التبعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالتبعة

تاسعا - تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة في هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا الى انفاذ المعاهدة واحترامها ولكن اذا لم تكن هذه الوسائل كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالي الشاهاني القيام بتلك الوسائط من عنده واعلانها الى الدول الموقعة على التصريح الذي أبرم في لندن في سابع عشر مارث سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية

والاشتراك معهن عند الحاجة في المحذورات الواضحة في المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقاً في تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه

عاشراً - وأيضاً فإن المحذورات الواردة في المواد المذكورة لانتحول دون الوسائل التي تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له الى اتخاذها لكي يكفلاً بقوتها الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن اذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناءات الواردة في هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعة على تصريح لوندريه بذلك ثم ان ما ورد بالاوجه الاربعة السابقة بشأن هذه الاستثناءات لا يمنع الوسائل التي ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضماناً لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الاحمر

حادى عشر - ان الوسائل التي تؤخذ مراعاة للاحوال الواردة في الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عثرة في سبيل استعمال التركة وحريتها وفي هذه الاحوال يكون من الممنوع إقامة حصون مستمرة تحالف منطوق الوجه الثانى

ثانى عشر - تتعهد الدول الموقعة على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال التركة وهو المبدأ الاساسى لهذه المعاهدة أن لايسعين بالتوسع في الارض والتجارة بالنسبة للتركة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضاً ما عدا الدولة العثمانية لما لها من الحق في ذلك لكونها صاحبة البلاد

ثالث عشر - عدا المواثيق الواردة بإيضاح في بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض الى ما أغفل منه من الواجبات

رابع عشر - اتفقت الدول الموقعة على هذا على أن المواثيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوناغاز السويس

خامس عشر - لانتحول شروط هذا الاتفاق دون التحوطات الصحية المتخذة في الديار المصرية

سادس عشر - تتعهد الدول المتعاقبات بأنهن يبلغن هذا الوفاق الى الدول التي لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها في الاستانة في مدة شهر أو أقل ان أمكن

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها انتهى بنصه

ونقل أصحاب صحف الاخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا اذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس اذا من النصفة في شيء أن تستضعف الانجليز جسم السلطنة العثمانية الى هذا الحد فتسلبها حقها وتخصها أشياءها ولا من الكياسة في شيء أن تطيل يدها الى هذا الحد من التطاول على غير مسوغ فرد عليهم أصحاب صحف الانجليز وأغلظوا في الرد وبالغوا في التهديد وعادوا الى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والاخذ بأطراف الحزمة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا

(مطلب)

موت رجل من
الهنود واحرق
جثته

واتفق أن مات في هذه الايام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الانجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على احراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسميح بذلك فسمح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتل القوم جثة فقيدهم الى قضاء العباسية عند سفح الجبل الاجر وطرحوها على الارض ودهنوها بالزبد ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القدمين وأحاطوا بالجثة خطبا مرصوفا بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار الى ان احترقت وصارت رمادا فأرآهم وهم على هذه الحال نفر من أصحاب مقالع الجبل الاجر وسمعوا دمدمتهم بشيء من الادعية الدينية فهلمت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين الى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار قتبعتم النساء والاولاد وهم في صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جعوا رماد جثة فقيدهم في ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطاني خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر في تلك الليلة خبر هذا الحادث في سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم ان هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعد أن جاء ولي عهد السلطنة الانجليزية وانهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محترقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قم الجبال وغير ذلك من الارجاف حتى كادوا يفتنون

(مطلب)

ما ترتب على كثرة
الاصوص من
الحاح السير بارنج
بتعيين مستشار
لنظارة الحفانية

وكرت في هذه الايام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم في القرى والبلاد وعظمت قبحهم فكافوا يتخطفون في الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولا خوف فجد أصحاب الشرطة في طلبهم واهم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الانجليز وأصحاب صحف اخبارهم فلم يتمكن من ارجاع الامور الى مجراها وبقي الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الامن على الارواح والاموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن ارجاع الامن الى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديريات والمحافظات

الى جماعة من الانجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة الا بتسليم زمام سائر ادارة الحكومة الى جماعة الانجليز - قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه في القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابة ورماهم بالجهل وقال انهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين الدين والشدة وطلب جعل النيابة تابعة لانتظار الداخلية وتحت سلطة رجال الادارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الاخبار الانجليزية وجعلوا يقرعون الرئيس ويرمون به بالعجز وعدم القدرة على تدبير الامور في هذه الايام وأكثروا من عبارات الهزة والسخرية - قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى الى من يحسن تدبيرها من الانجليز لكي يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى في التمجيل باعطاء منصب استشارة الحقاينة والاشراف على سائر النيابة والمحاكم الاهلية والشرعية الى رجل من الانجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت - وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى الى الرئيس بالعمل قيل فامتنع لما في ذلك من الحيف والصغار لا سيما وانها كبيرة من الكبار التى لم يكن ليقوى السير بارنج على اتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى في قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آتس الرئيس من الخديوى ميلا الى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ الى حسين فخرى باشا ناظر الحقاينة الوقوف في وجه السير بارنج والعمل على ايقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومته الحازم غير هيب ولا وجل ورفع الى الخديوى صحيفة كلها تنفيذ لمراعى السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الامر ❊ حدثني صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال كان الرئيس اذا رأى في هذه الايام من حسين فخرى باشا مللا أو اغفالا لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبسه وقرعه وصغر نفسه وأخرج صدره فيهب الى المشاغبة ويتجرد الى الدفاع ويملا فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صبحته هذه انما هى كصرخة في واد أو نفخة في رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاء وكانت كتب زعيم سياسة الانجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الإبطاء والخديوى في أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الأمل ويشجعه على الأخذ بأطراف العمل اعلاه ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ ان أحد الرجلين مخلوع لا محالة وان فوز زعيم سياسة الانجليز في هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الانجليز ولوجه من دواوين الحكومة الى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى

بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والاشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف اهـ

وحدثني أيضا من لا أشك في صدق حديثه قال قد كان من دهاء صاحب سياسة الانجليز في أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية الى أحد رجال الانجليز أنه كان يرسل الى الخديوى الرسائل تلوا الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والاشفاق مما هو حاصل من ذهاب الامن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله الى تجميع الاسباب الناجم عنها هذه القوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا الى العبث بوظائف رؤساء النيابة وأمورى تحقيق الجنايات وما زال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فان أفلح وتم لاهل البلاد على يديه في ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستنباب الراحة فالى ما شاء الله أو الى أن تصير المحاكم في غنى عنه والا عادت الامور الى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالاقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يحمو ويثبت ما يشاء من مواد القانون المدنية والجنائية ويعدل في نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابة ويدون كل ما يعن له من أوجه الاصلاح ووسائل الفلاح ثم سار الى الاقليم القبلى وسار معه حسين فخري باشا فكان اذا نزل في بلد استدعى اليه عمدتها ومشايخها وحدثهم فيما عليه المحاكم بالاقليم البحرى وبشرهم بقرب انفراج الازمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد الى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع الى الخديوى والرئيس تقريراً بما رآه من أوجه الاصلاح فتحدث الناس في ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس اذا أخرج السير بارتجاف موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه في هذا الشرك فعمد الى الخلاص منه وأوعز الى حسين فخري باشا بأن يستعد لتقديم تقرير الى الخديوى بما يراه في مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن الا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخري باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد عن الخطل - ورأى الرئيس أن لا ينجز لأسكوت غرضاً ولا أن ينيله مأرباً فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحفانية وابراهيم فؤاد بيك وكيل محكمة الاستئناف الاهلية وابراهيم نجيب بيك رئيس المحكمة الابتدائية والمسؤول لوجريل النائب العموى واثنين من مستشارى الاستئناف الاجانب لينظروا فيما يشعربه أسكوت من أوجه الاصلاح وفيما يعارضه به فخري باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به - وسافر الخديوى الى الاقاليم القبلية في قلة من الخدم والحشم والاتباع ترويحاً للنفس أو كما شاع فراراً من غناء الاخذ والرد في هذا الحادث الذى كثرت أذنبه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترى اليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعدّ تشكيلها ميلا عن الجادة وضرراً بالاصلاح وقال لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس

النظار على المبدأ الذي قد بنى عليه تقريره ولا سيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الانجليز أو من المصريين ان وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الاخذ والرد بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال الميسوبيتري مستشار قضايا نظارة الحفانية بالمسيو مور يوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخري باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأذكر على اللجنة فعلها وقال ان حكمها في ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الانجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور في جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخري لها وهو خصم أسكوت المعارض له في مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الاعضاء لانهم أصغر درجة من صاحبي الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة الى شئ من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحموا في قولي الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت الا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الاجانب بمكسمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الاجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الانجليز كما أشار أسكوت ولما علم السير بارنج بما قرره اللجنة أكبر الامر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا في هذه الطفرة يكون هادما لاماني صاحب سياسة الانجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع في الحال الى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شئ بتثبيت أسكوت في منصب الاستشارة وعزل حسين فخري باشا من مسند نظارة الحفانية وعدم المعارضة في ذلك ويقول ان هذه المذكرة واردة اليه على جناح البرق من صاحب سياستهم وهو يلقي تبعة كل ابطاء في تنفيذها على عاتق الرئيس * وكان التعجيل بتثبيت أسكوت تعجلا أيضا بقبول سائر مطالبه على غلاتها لانه اذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته - فلما وقف الرئيس على ما في تلك المذكرة عقد في الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقيل حسين فخري باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت في المنصب ورفض عزل حسين فخري باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس الى الخديوى بالصعيد الاعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر

فلما كان تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلاثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة احدى وتسعين وثلاثمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر في عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليل وأول الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الامراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليلالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسرأى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء في مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية

عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قرر رأيهم أولا على ابقاء أسكوت في المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذناها بغير معارضة وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقرر ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لا بد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوثام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوي والسير بارنج بقرية يوم الجمعة الى ظهر السبت والناس في تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزال الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة الى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة في هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الاشغال بيد منكر يف والحريية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد مندر وبالمر والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه الا الجبار العظيم فلم يبق الا أن يقضى على البقية الباقية بأيدي أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا وتحيا جماعة الانجليز - أو ثناء عنه عزه المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن الا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء في منصبه فقالوا لعل في ذلك حكمة

واشتد أصحاب الصحف الانجليزية على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا انهم جميعا زعماء للحزب الذي عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الانجليزية أن تفسح لهم في الأجل ولا أن تتركهم يتصافرون على مثل هذا العمل فاما عيشة راضية ولما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطنة الجار بلوغ الآمال وذهب صاحب سياسة الفرنسيين من الجول وأرسل الى قنصلهم بمصر أن يحجج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع في تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيين لا تنسأ في شيء من ذلك البتة فصعد القنصل بالامر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتكران باشا وأدى الرسالة حقها قيل ففزع الرئيس بذلك وأبلغ الخبر الى السير بارنج وهذا رفعه الى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس في داره يوما وبعض يوم ثم سافر الى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الاخبار المحلية بشيء من مطاعن أصحاب الصحف الانجليزية ثم جاء الخبر الى ديوان الخديوي بنزوع صاحبي سياسة الانجليز والفرنسيين الى المناقشة فيما أفضى الى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة في اشتداد وقد دخلت في غمارها أيضا دولة الالمان والباب العالي

واتفق أن مات في رابع عشر رجب قاضي قضاة مصر الشيخ عبيد الرحمن نافذ نفلا بموته منصب القضاء الشرعي فتساءل الناس عن خلفه وعما اذا كان ذلك الخلف يأتي من دار السلطنة بفرمان من الباب العالي على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة

المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث في هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع في الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفي تطاول يد الاحتلال الانجليزي الى العتب به وفي تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مستوع فيتمافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فانه ما بلغ الباب العالي خبر موت الشيخ القاضي حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على الغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبد الرحمن في منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالي في كل سنة اذ يموت الشيخ عاد الى الباب العالي حقه في تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك من مشايخ الوقت في دار السلطنة - فاهتم الخديوى بالامر وكلم الغازى مختار باشا في بقاء حق انتخاب القاضي الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى الى الباب العالي في ذلك بجاء الجواب قائلا انه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالي وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والاهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فاذا انقضت السنة يرسل الباب العالي صاحب الدور وهكذا * فلما كانت سنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخديوى اسمعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبد الرحمن نافذ في منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيهه في كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت في دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالي للشيخ عبد الرحمن البقاء في مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتبة قدره ألف وخمسمائة جنيهه يتقاضاه من خزانة الخديوية المصرية في كل سنة الى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به الا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد الى الباب العالي حقه في ارسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة الى هذا المنصب * قال الرئيس مصطفى رياض باشا الى مقالة الباب العالي وأحلها محلها ولم يخسره حقه وكأنه كان يتنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الانجليز عند حد ويعمل على ارجاع الامور الى ما كانت عليه ولكن هل يطلب أثرا بعد عين وقد جاء في المثل « الصيف ضيعت اللبن » وقيل ان من التوق ترك الافراط في التوق لان من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بذوائبها فدانت له ورجل الانام من قدر على الاستيثار من موادة الايام

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر الفرمان السلطانى بتولية الشيخ عبد الله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هذا الخبر وورود كتاب من الصدر الاعظم الى الديوان الخديوى يقول فيه - ان جلالة مولانا المتبوع الاعظم أمير المؤمنين قد ساءته تولية أسكوت الانجليزى منصب الاستشارة القضائية بالخديوية المصرية في حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال

وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى الى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف - انه باجازه تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا في ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الاجانب في المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من نشاطهم وعلمهم وأنه لا شئ بيد أسكوت من القوة الاجرائية ولا هو مطلق الكلمة في شئ وأن مشروعاته لا يعمل بها الا بعد تميمصها والتصديق عليها من مجلس النظر وصدر الامر بتنفيذها - فلم يعجب الاحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا ان الباب العالى سيطاول في ارسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيين الاتفاق مع زعيم السياسة الانجليزية على ارجاع الامور الى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى الى الاسكندرية في صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك في بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد الى القاهرة فاستقبله في محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحقبانية وشيخ الجامع الازهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى في مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين نخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب في عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر الى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها الى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنؤه وبعد برهة لطيفة سار الى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك الى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الامراء من البيت العالى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء * واتفق أن ابتاعت حكومة الانجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لفصلاتو الانجليز بشئ وقع الاتفاق عليه وكان المشتري لها السير بارنج باسم ملكة الانجليز وامبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية الى قاضى القضاة جال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الارض يشمل شيا من ساحل البحر فاذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تملكه للغير فقال السير بارنج ان البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الارض الى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تملك الطريق السلطانى للغير فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لا بد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين نخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تملك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى

للك الأرض مجرى النيل * وأكثر السير يارنج من الغدق والرواح الى مقر الخديوى تارة وديوان الرئيس مصطفى رياض باشا أخرى وشاع خبر ذلك ففرح به العامة وضعاف العقول وعدوه فوزا للقاضى جمال الدين ونصرا للسلطان على صاحب سياسة الانجليز وتكلم فى ذلك أيضا أصحاب صحف الاخبار المحلية على اختلافها وهم بين مخطئ للقاضى ومصوب وظل الحال على ذلك أياما حتى أشار بعض أصحاب الكلمة المسموعة بترك القاضى جمال الدين بفعل ما يشاء مما قضاه الشرع ثم باجتماع مجلس المظار واصدار قرار بجعل الحد الغربى لتلك الأرض مجرى الحوت ففعلوا وكتب القاضى الحجة كما شاء وانفجرت الازمة وقد كان يود أصحاب العقول الضعيفة ومن فى قلبه مرض أنها لا تنفجر

ولم تقف مطالب صاحب سياسة الانجليز بعد هذا كله عند حد فانه بعد أن نال مناله من تولية أسكوت منصب الاستشارة القضائية وقضى بولايته على تدخل الرئيس مصطفى رياض باشا فى أعمال المحاكم وأقلام النيابة وضرب بينها وبين هواه فيها سياجا من حديد جاءت كتبه الى الديوان الخديوى بطلب تسليم زمام ادارة البوليس جميعها الى كتشنر باشا مقدم الجند المرابطين بسواكن وسلحتها من نظارة الداخلية أى من سيطرة الرئيس وجعلها مستقلة مسئلة عن الأمن فى سائر انحاء البلاد - قال والحكمة فى ذلك أنه إذا جعلت ادارة البوليس فى يد كتشنر واتحدت القوة القضائية بالبوليس الذى هو القوة المنفذة وقامت بمواجهتهما القانونية كما يجب انقطع دابر اللصوصية وانكمش أهل الشقاوة والفساد واستتب الأمن بين البلاد واطمأنت القلوب الواجفة فلا يبقى بعد ذلك من شاك ولا يال ولا إذا دام الحال على ما هو عليه فلا قضاء ينفع ولا جند يدفع - فكلهم الخديوى الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فأجفل وتولاه اليأس وطال الاخذ والرد بينهما أياما كان من ورائها أن رسم الخديوى بولاية كتشنر الرئاسة على جند البوليس ومنحه حق النظر فيما تستلزمه حالة الحفظ فى البلاد كافة من اقامة المرابطين من الجند والخبراء وتحديد وظائف مشايخ البلاد ومشايخ الخفر والتوفيق بين القوة القضائية والقوة التنفيذية فقام كتشنر من يومه بتقنين القوانين وانشاء اللوائح وأكثر من الاجتماع بأسكوت كل قليل من الايام حتى تم الاتفاق بينهما على ما شأ الاتفاق عليه وقررا فيما بينهما اختصاص كل من القوتين فلم يبق للرئيس فى ادارة البوليس بعد ذلك كلمة ولا رأى وقد كان يظن استحالة الوفاق بين كتشنر وأسكوت وإن يتنازعا فى السلطة ويميل كل منهما الى الاستبداد بالأمر وأن ذلك سيكون باعثا على اخفاق سعيهما وتفرق كلمتهما فترجع الامور بعد ذلك الى ما كانت عليه من قبل ولكن لم يصب ظنه المزمى اذ اتحدت كلمتهما واعتصما بعروة وثقى لا انفصام لها وأصبعا فى منصبهما كأنهما رأسان فى قلبسوة واحدة وبات الرئيس ولا عمل له بل ولا كلمة مسموعة ولا إشارة مطاعة فكبرهم وعظم حزنه وغمه وتأمل حوله فرأى أن عيون الانجليز قد أخذته من كل صوب وألسنة القوالين قد تناولته من حيث يدرى ولا يدرى وعابوا عليه استسلامه وضعفه فحار

(مطلب)
تعيين كتشنر باشا
مديرا لجند
البوليس

في أمره واختلط عليه الحال وتولاه القلق وعراه الريب في صدق ولاء المقربين من مجلسه فنفر من بعضهم وأنكف عن الجلوس في مجلس ليله على عادته وتجنب أياما ثم تمارض وأظهر للناس عجزه عن القيام بهام المنصب فكان اذا ذهب يوما الى ديوانه جلس على كرسيه واجامشت الفكر كثير الهموم وقد ذهبت عنه تلك الهيبة وضعفت منه تلك العزيمة وظل على هذه الحال حتى جاءت أيام عيد الفطر فجعل يفكر في ترك المنصب والتخلي عنه * فلما كان يوم الثلاثاء رابع شوال من السنة وثاني عشر مايو دخل على الخديوي بقره وشكا اليه عجزه عن القيام بهام المنصب وما يلاقه من اغضاء الخديوي وعنت السير بارنج ثم رفع الى الخديوي عريضة يقول فيها - مولاي ان اعتلال صحتي قد أوصلني الى درجة لا أستطيع معها القيام بهام المأمورية التي أنا مكلف بها من قبل ذاتكم الفخيمة ولهذا الداعي أتقدم لاعتابكم السنية ملتصا مع الاسف من تعطفاتكم الجليلة اقاتلي وأنا على كل حال خادمكم المخلص اه - ففي الحال قبل منه الخديوي ذلك وأقاله * وما شاع خبر ذلك حتى تناوله الناس وجعلوا يتحدثون به واختلفوا في الاسباب فقال فريق انه لم يترك المنصب الا مكرها لان كتشتر رسم الى سائر رؤساء أقلام نظارة الداخلية بأن ترفع اليه سائر الاوراق الديوانية وهو يأذنهم بما يلزم ولا يلزم اطلاع الرئيس عليه كما يفعل منار بنظارة المالية - وقال فريق آخر بل انه لم يرق لديه اتفاق كتشتر وأسكوت على ربط قوتي القضاء والتنفيذ ببعضهما ورفعهما تقريرا بذلك للخديوي فصدق عليه ولا علم للرئيس به فلم يردا من ترك المنصب والتخلي عنه - وقال فريق آخر بل ان بغض جماعة الانجليز ونفورهم منه منذ حادثة تولية أسكوت منصب الاستشارة وضربهم على يده كل قليل من الايام مال به الى التعجيل بترك المنصب - وقال آخر انه رأى من نفسه اعتزاله للمنصب بعد الذي حاق به من جراء تولية أسكوت وكتشتر وأخبر صاحبه البارون مالورتي مدير قلم المطبوعات أثناء شهر رمضان بعزمه على التخلي عن المنصب في رابع أيام العيد - وقال فريق غير ذلك وعلى كل حال فقد تم لجماعة الانجليز ما كانوا يطلبونه وبعث السير بارنج بخبر ماجرى الى صاحب سياستهم وكذلك فعل سائر قناصل الدول الكبرى

وفي عصر ذلك اليوم أرسل الخديوي الى عبد الرحمن رشدي باشا رئيس التشريفات بأن يقوم بتشكيل الوزارة تحت رئاسته فامتنع واعتذر بأنه شيخ فان لاقدرة له على تحمل مشاق الرئاسة وتنوعت الاشاعات في تلك الليلة فيمن يتولاها فمن قائل انه نخرى باشا ومن قائل ان مصطفى فهمي باشا هو الذي سيتولى ومن قائل سيعود اليها الوزير نوبار باشا وتباينت الآراء وانقضى الليل ولم يتم شيء وأصبحوا وقد ذهب الخديوي يتنزه في ضواحي الجزيرة ورجع عند الساعة التاسعة صباحا فدخل عليه السير بارنج وأبلغه خبر ما ورد اليه من صاحب سياستهم وكلمه طويلا فيما هم بصدده ثم دخل أيضا الغازي مختار باشا مندوب الباب العالي ثم قنصل جنرال الروس ولم يخرج السير بارنج من حضرة الخديوي حتى شاع الخبر بولاية

مصطفى فهمى باشا الرئاسة * فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا الى مقر الخديوى بعابدين وليث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل اليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه - انه بناء على ما رأينا فى عطوفتكم من الدراية والاهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى عليكم أننا نعزذكم ونساعدكم على الاعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا ومرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الاساسية وهى ان حكمنا واجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والاصلاح وحسن الترتيب فى جميع ادارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع انحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح انظاركم حتى يتسنى لنا باذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد اه فلما وصل الى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارشج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدي الخديوى بمقره ورفع اليه عريضة تتضمن أسماء من ستألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبد الرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية والمعارف وحسين نغرى باشا للحقانية ويوسف شهدي باشا للحربية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على اسناد هذه المناصب اليهم ورسم بذلك فساروا جميعا الى مقره بعابدين فهأنهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا الى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الامر على خلع محمود باشا دبوس اوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله

ووردت الاخبار من بعض مديرى الاقليم القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وأها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلتجات واليهودية وقبور الامراء بالبحيرة وطود ودماريس والبرجين والاحصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القلوية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان تخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت الى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الاخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنبخل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة

(مطلب)

ظهور الجراد
بالاقليم القبلى
والبحرى

حتى أذن الله سبحانه بأن هبت في آخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياماً فاكتمتته وجلت بعضه الى الخوف الشرقي وبعضه الى الجبل الغربي ولم تترك منه الا القليل في البلاد والقرى التي نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصي وسعف النخل وجدوا في جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن ياتي بأقعة من بيضه فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه واخرجه منها فكان أكثره في مركز الخيلة بالبحيرة وفي الجبل الغربي وسواحل البحر وفي الفشن بمديرية المنيا * ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن بأحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى الى مزرعة في جوار المزرعة الاولى فلما رأت ما أصاب الاولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم يربعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الاشجار والنباتات الاخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديريها وحلفوا له الايمان المغلظة بأنهم شاهدوا في بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبهها بأبي قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربي أسرابا أسرابا وأخذ يتبع الجراد أينما وجده ويكبس عليهم ويتردد منه المئتين والالف ثم يتقيوه ممتعا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة الا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده - وان بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير فيرجونه بالاجار وهو لا يلتفت الى ذلك ولم يشن له عزما * قلت وقد شاهدت شيئا كثيرا من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيسة الى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لا يزعجه مزيج ولا يحركه محرك وقد أخبرني بعض أهالي نفيسة بأنه قد نزل عليهم منذ أيام وهو يتصيد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية الى الخوف الشرقي حتى اذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويتلع منه الالف فلا تستقر في جوفه لحظة حتى يتقايأها فاذا أفلت منه شيء تعقبه وقتله ثم يعود الى مكانه متربصا قيل وبقي على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الريح واكتمت ما بقي من الجراد فسبحان مدبر الاكوان ومسلط الابدان على الابدان انه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه

(مطلب)

موافقة عيد الاضحى

لعيد بلوغ ولي العهد

سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العام في اظهار أبهة عيد الاضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الامير عباس ولي العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته في ابان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد الى الآفاق فهرع الامراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايع وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم الى الاسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الاضحى وعيد بلوغ الامير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهاني على ديوان الخديوى من كل صوب * فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربية التشريف وعلى يساره الامير عباس وأمامه الامير محمد على ولده الثانى وأمام العربية

كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار الى مسجد أبي العباس ف صلى صلاة العيد ثم عاد الى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوي فهنؤه بالعيد وبلوغ ولي العهد سن الرشد وهنؤوا كذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهاني وخرجوا من عنده الى سراى الحرم وكانت رجبة السراى مزودة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح في كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدته ولي العهد قد أولت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدقّت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى وجاء الى ولي العهد نيشان الافتخار من امبراطور النمسا والمجر فسلمه اياه القنصل في حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده في حفلة أخرى النيشان العثماني الاول فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وسابق المهنئون من كل صوب فما قاله أحدهم في الأمير

نبه يراعك من وصف وتشيب وخذ بنظم التهاني كل أسلوب
ان الهناء اذا طابت موارده أغناك عن غزل في الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت ونعمة الله وعد غير مكذوب

الى أن قال

والبدر في أصله تم تحجبه أيامه ثم يبدو غير محبوب
يابالغ الرشد في ترتيب مدته وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الادب الوضاح من خلق من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمائعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
وليس رشد الفقى في سنه أبدا بل في فؤاد وأخلاق وتدريب
كذلك قد خلق الله الأمير لنا والمجد في النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تغريب معارفه ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل نوارثه عن خير محتده والفرع من أصله في الحسن والطيب
جارى أباه فكاد البحران معا لولا مهابة اجلال وتأديب
وأصبحت مصر في آمالها ولها قلب المحب آناه وعد محبوب
حتى ترى منه غيشا في شمائله والغيث في وشك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم ونى لكنه في الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا في مكارمه تخلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ في حكم برأس أمر داجى الشعر غريب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا بدع اذا كان مجموع الاعاجيب

حاولت وصف الهنا فيه فأزعجني كأنه شقة في عين متعوب
فلم أنل وصفه الا على بعد ولم أنل مدحه الا بتقريب
وركب ولي العهد في ذلك اليوم في عربة فاخرة وخلفه نفر من الجنود فطاف على بيوت
الامراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا

(مطلب)
ظهور الوباء بمكة
ومصوع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء
الاصفر بها ودخوله اليها مع الحجاج الهندود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل
الخدوي كتيبه الى نصحي باشا أمير ركب الحج المصري بخاء الرد يقول ان الوباء على أشد
ما يكون بمكة وانه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأجد أفندي عمر طبيب الركب
المصري ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء الى مصوع وفتكه عن فيها فتسكا ذريعا فرسم
الخدوي من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا في يوم الاربعاء سادس عشر ذي الحجة
بجماعة من الاطباء والصيدلية وخدام المرضى الى محجر الطور على ظهر الباشخة عائدة
ومعهم الادوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة الى سائر عماله بالتأهب
والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد في أنحاء البلاد
فخاف الناس وجعلوا يبالغون في الحيطه والتوق من شردك العدو القتال وطاف مشايخ
الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بما كلهم ومشرهم وملبسهم فضلا
عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثيرينهم الهرج والمرج
على عاداتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الاقسام
يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بتنظيفها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى
وصل الحجاج الى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع
ولم يبق عليهم من خوف بخاؤا الى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف
واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون
في كل يوم

(مطلب)
حريق سراي
عابدين

وفي فجر يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة سمع دوى شديد وصوت كاشد ما يكون
من قصف الرعد وانتشردخان كثيف ملاء جو القاهرة فهب الناس من نومهم مذعورين
وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراي الخديوي بعابدين
الى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجنود من المصريين والانجليز يتسابقون الى رحمة
السراي ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون في البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت
النار قد ظهرت أولا من غرفة في الجهة الشرقية المجاورة لاحمد مطابخ الدائرة الخاصة
واشتد لهيبها ثم اتصلت الى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقت الأنابيب فاشتد
سعر النار وامتد لسانها وكبر خطرهما وكثر نداء البوق فهرع الجنود من كل صوب وناحية
وجاءت خيل الجمل وعربات المياه وعربات الرش والطلبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء

النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول رأيه في كيفية اطفاء تلك النيران الآكلة فاختلقت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا اجراء الهدم للفصل بين الاماكن التي أخذت النار تأكل فيها وبين الاماكن التي لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما في السراى من الامتعة الفاخرة والفروشات الثينة والثريات والمقاعد والاسرة والتحف التي لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها الى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضها وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالنشئ الكثير منها من النوافذ والشبابيل فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم الى الهدم والحيولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعا حتى أتت النار على جميع ما في الجهة الشرقية الى قرب باب المعية من الجهة الامامية والى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنهبوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بالقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت في الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند القائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادته له الارض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل وما زالوا على ذلك حتى تمكنوا من اخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنقائس والتحف أما الاواني الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والاوراق المهمة فقد نجت كلها من النار لحفظوها في مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها في الليل والنهار وطيروا الخبر بما جرى الى الخديوى فبعاء الى العهد والدته الى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورها الى بناء السراى ولبنا هنالك الى قريب الغروب ثم عادوا الى الاسكندرية ومعهما من حضر من الخدم والاتباع * واختلف الناس في أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت الى أسبج المرامي فرسم الخديوى بتحقيق الاسباب قيل وبلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العموى في ذلك - واتفق أن وجد جماعة العسس في بحر الخمس ناني عشرى ذى الحجة كيسا ملقى في الطريق ما بين ترعة الاسماعيليه وكنيسة الافرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تحفروها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم الى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وثلث ضوضاء العامة وقالوا ان صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وانه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللفظ بذلك وانتشر في القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجد أصحاب الشرطة

في البحث عن القتال وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلوا أن القاتلين الرجل جماعة دعاهم الى فعل القتل الطمع فيما معه من المال * وتحرير الخبر أن القاتل رجل من المزارعين من أهالي سيوط وله عادة أن يأتي الى القاهرة في مثل هذه الايام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء في ذلك اليوم على سابق عاداته في إحدى المراكب ومعه شيء من القمح والفول لبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الاسميكية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته في كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا في حى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكته فانكبوا على الرجل وهو في نومه وذبحوه ذبح الشاة وقتلوه فلم يجدوا معه شيئا لأنه لم يكن الى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته في كيس وألقوها في الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم في الحبس لينالوا جزاءهم

(مطلب)
جبر الجبر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء في خليج الخليفة المازبوسط القاهرة في يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وان ينوب عنه في حضور المهرجان ولى عهده الامير عباس فقام الامير من الاسكندرية في يوم الاربعاء على قطار خاص فكان كما وقف القطار في محطة أطلقت له المدافع اجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزودة بالرياحين والازهار وغصاة بجماهير الامراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الاهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان في ساحة المحطة مع بعض العساكر الانجليزية فلما نزل الامير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربية والى يساره شقيقه الامير محمد على وركب أمامهما شوقي باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى في نحو العشاء الاولى ركب الامير وشقيقه الى مصطبة فم الخليج وقد أعقوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأثير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الامير واجتمع الناس في تلك الساحة وفي الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الاسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الامير ويهنئونه الى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته الى قصر الجزيرة فباتوا وفي الصباح عاد الى المصطبة وكان قد اجتمع هنالك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الامير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب في قلة من الخدم والحشم الى مدينة حلوان ففضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته في اليخت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار في

مسائه المشهد الزينبي والمسجد الجامع والمسجد الحسيني ومن هنالك عاد الى البيت وفي يوم السبت قضى هو وشقيقه نهاريهما بين المطرية والقبة والاهرام ومتحف الجيزة وسافرا في صبح الاحد عائدين الى الاسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالابيات الابيات فمن قال في ذلك محمود أفندي حسنى المعاون بمحافضة مصر قصيدة طويلة قال في مطلعها

وفي النيل بالأنجال يمنا اذا العام ولاحت شمس البشر للخاص والعام
وقال في المديح

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد الناصي

وقال في الختام

جبرتم قلوب العالمين تكمرا بتشريف جبر النيل في خير أيام

وقال في التاريخ

بذا لسعود القطر قلت مؤثرا وفي النيل بالأنجال يمنا اذا العام

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الاموال بالسودان أيام حصار انحرطوم والنظر في شكاوى النازحين من الاقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والاهلين فقد كان قناصل الدول في سعي متواصل مع رجال الدولة في ذلك فرسم الخديوى في سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمسترموني والمسيو ريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيو روكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر في تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التي حكم بها قضائيا بأحكام صارت في قوة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الاموال التي قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فاحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفا وستين جنيا مصر يا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تبين مذاهبهم فعدلوا فيها ماشاؤا وحكموا بما شاؤا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الاهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الاسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدي هدرا

(مطلب)

تحقيق ديون
غردون باشا

(مطلب)

الغور على عبد الله
نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور الى القاهرة من مصيفه بالاسكندرية وان بعض العميون أبلغت ديوانه الخاص بأن في بلد الجيزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبد الله نديم صاحب الطائف وخطيب

عصاة الثورة العربية وصاحب تلك الاحوال والاهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالامر وسير الى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغربيين فصدع المدير بالامر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس الى ذلك البلد فلم تكن الا أيام حتى عادوا فى ثمانى ربيع الاول ومعهم عبد الله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبد الله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شها بعرب العبادنة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك الى ديوان الخديوى وتظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبد الرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكشتر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبد الله نديم بعد اختفائه كل هذه المدة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجيزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظارة انفاذ الامر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم الى الشام وإطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الامر بذلك الى مدير الغربية وبأن يرسل عبد الله الى الاسكندرية ليسير منها الى الشام فأنزله فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعافى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجيزة ممن آوى اليهم عبد الله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبد الله الى الاسكندرية فأنزله فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه الى إحدى بواخر الشركة الخديوية الذاهبة الى الشام وقد رسم الخديوى الى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شئ من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز الى عبد الله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون الا الصلب أو قطع يديه أو النقي من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزله بيافا فأنزله بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسن حاله

(مطلب)
فتح جسر قشيشة
المستجدة فى حفلة
حافلة

وجاء الخبر الى الديوان الخديوى فى الاسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الانجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الاقليم القبلى فى هذا العام وعدم تخلف شئ من الشراقي الا التزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الاذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الاول من السنة وسابع عشر اكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة اليها بالاعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الاشغال العمومية والكولونيل منكريف والناطقة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باسروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية

وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف ودار المزارعين وطوائف المهندسين من
أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الاخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا
فتحوا خمسة من عيون تلك القنطرة فالتحدر الماء انحدارا عجيبا ثم جلسوا على مائدة
الطعام الذي أعده لهم المسيوزور ومقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا
الى القاهرة في القطار الخصوصي الذي حضروا به ٥٥ وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة
من الماجورروس فإنه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الاقليم القبلي بسبب
المياه التي تتسلط عليه أو ان انحدار مياه الحيضان القبلية الى حوض قشيشة وعدم تيسر
ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الحيضان التي تنصرف اليه وضرورة وجود
الموازنة في مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الاقليم الجري وانتفاعه منها أشار بعمل
تلك القنطرة فانفقوا مع أحد المهندسين الأجانب واسمه المسيوزور وشريكه المسيوبوتا
في أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين
وثمانمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسي فأنعوا بنائها وهي
تتضمن على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفي عقود أحدهما
فوق الآخر وللصفي الأعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين وللصفي الأسفل أبواب من
حديد أيضا مركبة في دروندات سطحية ترفع بواسطة مرتفعتين متحركتين على خط حديدى
مستوى الدورند من الامام ووزن الباب الواحد من الابواب العليا نحو سبعة وأربعين
قنطارا مصريا ومن الابواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه
الابواب هي أنه قبل أن يأخذ النيل في الزيادة ترفع سائر الابواب العليا وتجعل أفقية
فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى
مياه النيل الى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك
البوابات لكي تعلو مياه الحوض مما يرد عليه من مياه الملقى ومياه البحر اليوسفي فاذا
زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية
للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العمومي فيفتحون الابواب العليا
كلها حتى اذا ما هبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف
ما يكون قد بقى في الحوض من المياه - وبصرف مياه قشيشة ابان الصرف يرتفع النيل
عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر في
ابان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة في الحيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة ما بين
عشرين وأربعين سنتي متر - وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين
وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيا مصريا فجاءت من أجل الاعمال الهندسية وأكبرها
فائدة اذ هي تصرف في النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة على مسافة
مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين

وخمسين فدانا وأخبرني جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف في كل عشرين يوما
 ألفي مليون متر مكعب في السنين التي يكون نيلها عاليا وألفا وخمسمائة مليون في السنين
 التي يكون نيلها منخفضا فيكون صرفها في كل يوم مائة مليون متر مكعب في الحالة الأولى
 ومائة وخمسين في الحالة الثانية ۞ قلت وكانوا قبل انشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ
 النيل موضع القنطرة الآن ردا محكما ويغطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء
 وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العدي من أهالي مديرية
 الجيزة وأهالي مديرية بني سويف وبعض أهالي مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ
 النيل في الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تسعث منه وبالغوا في حراسته وأكثروا من
 التطواف عليه في الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الخيضان القبلية فإذا
 جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السيد مدير بني سويف ومدير الجيزة
 وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العدي من أهالي البلاد القريبة والعمد والمشايخ
 فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتي
 الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتصرف منه مياه الخيضان كافة إلى
 النيل وهكذا في كل عام يصرفون على هذا السد الشيء الكثير من المال ثم هم يكسرونه
 ويقفون به في اليم حتى انشأوا تلك القنطرة فخلصوا من جميع تلك المخاوف ۞ ولم يعض
 على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الأشغال والمماجور
 روس صاحب الأيادي البيضاء في أعمال رى الاقليم القبلي على ترك منصبهما والعودة إلى
 عاصمة الانجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير
 بارنج من البغض والشحناء قالوا لان الرجلين من أقبال القوم وأصحاب البيوتات العالية
 والمعارف السامية فلم يخفوا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطبقا الصبر على
 ذل النفس وكرهها على ما لا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه في
 هذه الأرض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من
 صنائعه والمتنفذين حوله من شبان الانجليز الأغرار حتى إذا قال لاحدهم قم قام أو افعل
 فعل بغير أخذ ولا رد ۞ فلما كان أول ربيع الثاني من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس
 النظارة بغير حضور الخديوي وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة
 الأشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الاقليم البحري والمستر براون لتفتيش رى الاقليم القبلي
 والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع انشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود
 والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث واسماعيل بيك لرى القسم الرابع - وأن يؤتى
 باثنين من الانجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول وثانيهما رى القسم الثاني
 فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هي حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها
 أعناق أهل البلاد ما دامت مصر مغنما والانجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان في تخلف

الخديوى عن الحضور بجلاسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالاسكندرية . فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الاسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الامراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار الى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شياً كثيراً جداً وكان يعمل فيها من الصناع والبنائين وأصحاب الصنائع الاخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة - وبلغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والالعب النارية اجلالاً لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحيى الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والده ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعاً الى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على باب الشعراء والقوالون وأتت الى ديوانه قصائد التهانى والمدائح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها

توسمت بدر القوز من مطلع اليسر فبشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى ولولا سنا توفيق ما عدت للشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما أقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر وأتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها

وأرخ بافراح القدام زها الهنا وقل عاد توفيق المليك الى مصر

وقال فى ذلك أيضاً محمود افندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى

لسان اسعادها نادى يؤرخها بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفّعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه

بالصفوحاد الخديوى والانس بالبشر عرّف

ياقطر فاهنا وأرخ باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الافراح والزينات والناس متشوفون الى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى الى جماعة الانجليز واطلاق أيديهم فى شؤونه فلم تكن الا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط الى اسمعيل سرى بيك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة * فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وان الماء قد انحبس عن الاسكندرية وانهال على ملاحه مربوط وأن سبب ذلك اهمال أصحاب الرى ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الاسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وان الاهالى فى قلق واضطراب لاسيما الاجانب منهم وقد تراحت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظ الاسكندرية وسعد الدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الانجليز الى مكان القطع وحشدوا الانفجار وجعوا بعض الصناع واشتدوا فى العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدر الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد الغناء الكبير من سده ورجعت المياه الى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث الا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه الى حوض الزنار وغمرت ثانيا بعد انقضاء أو ان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأمايتها جميعها وان قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام جهات الاختصاص على أصحاب الرى ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الرى الذين تسلموا زمامه فى هذه الايام فأكبر الخديوى الامر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى فى ذلك فأوعز الرئيس الى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزراع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يتروى فى الامر * ثم كلم أصحاب الرى فى شكوى اهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الاحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الاقليم القبلى الى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع الى نظارة الاشغال تقريرا قال فيه - ان الضرر الذى أصاب المزروعات بذلك الحوض ليس بالامر العظيم لان المزروعات تتراوح ما بين مائتين الى ثلثمائة فدان وان أصحاب الرى لم يخطؤوا فى عملهم عند فتح الخيضان للصرف وان الاهالى كسروا سدا لم يشروا أصحاب الرى قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه الى الحوض يعنى حوض

الزئار وغرق تلك المزروعات * وعلم مدير أسيوط بما قاله المايجور براون فأكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال ان الاهالى لم يكسروا شيئاً من السدود وان الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الرى * وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزئار وأندر بعضهم نظارة الاشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الاخبار بقرعون جماعة الانجليز ويرجعون على أصحاب الرى منهم باللائمة ويقولون انهم أغرار بجهلهم بلون طرق الرى المصرى ولا يعرفون شيئاً من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضرار وان اعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضاً بعض أصحاب صحف الفرنسيس فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلاً وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد البريك واسماعيل بيك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر واقامة الدليل على ما اذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقعاً بفعل أصحاب الرى أو الاهالى أو غيرهم فساروا الى أسيوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكرىف والمايجور روس واستبقائهما فى مناصبهما حولاً آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاماً أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم الى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزئار واسترضوهم بشئ من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعيد ذلك فى خبركان

ورأى مندر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد ايراد الخزينة شيئاً كثيراً من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الامر على ابطالها وبعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد وما زال دائباً على ذلك وبعض كبار الانجليز يمانعونه حتى تمكن فى آخريات ربيع الثانى من السنة وأخرىات سبتمبر من اعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز ايجارها فى السنة خمسمائة قرش من الاثاوة السنوية ومن ابطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الاقرباذينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والاسكندرية وخصصوا دخل دخولة الاسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البذل النقدي وتكلفت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والاعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الازمة بعد أن استحكمت حلقاتها

(مطلب)
ما أبطل من المغارم
والمكوس

(مطلب)
ما وقع من التبديل
في قضاة المحاكم
الشرعية

والى هذا الحين أى الى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد
ينجز ما أراد من القلب والابدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الاهلية وأعضاء ورؤساء
النيابات كما تقدم القول فلما كانت آخريات الشهر عمد الى التغيير والتبديل فى قضاة المحاكم
الشرعية أيضا فد يده الى محاكم الجيزة واسيوط وبني سويف والغربية والشرقية وسيوه
وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الافتاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف
الاهلية فتنحى عبد الحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها ابراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة
مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيئته وتمكن من منصبه أى تمكن
واستبد بالامر حتى بلغ الغيظ من حسين نخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى
على ابراهيم فؤاد بيك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس
انه سيخلف حسين نخرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الاخبار فى حكم
الشئ المقرر لان السواد الاعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين نخرى باشا فى عداد
وزارة مصطفى فهمى باشا لبعض جماعة الانجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم
وراء خذلانه * فلما كان صبح الثانى عشر من جادى الاولى من السنة أى رابع عشر
ديسمبر ذهب السير بارنج الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد
ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا
معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض
مجلسهم وذهب كل منهم الى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى
الى حسين نخرى باشا فقام من قوره وتمثل بين يدي الخديوى فقال له الخديوى ان الرئيس
مصطفى فهمى باشا قد شكك الى منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى رأى
ويقول انه يستحيل اتفاهه معك وقد أتانى اليوم وعرض على خصلة من ثنتين اما أن يخلع
نفسه ويترك منصب الرئاسة واما أن تخلع أنت من مسند الحاقانية فقال يا مولاي انى
لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت
منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين نخرى باشا من
حضرته الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الاوراق الخصوصية فأتوه بها -
حدثنى أحد المقربين من باب الخديوى قال - خرج حسين نخرى باشا فى ذلك اليوم
من حضرة الخديوى وهو يجبر أذيال الغيظ وبعض اصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من
الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع نخرى باشا انما
هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع اليه من السير بارنج وأن خلع نخرى باشا وتبنيته عن
منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالاجازة فلما غاب
أسكوت وحان الاجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامرتها
على أحد من العالمين - قال ولقد كان الاجدر بحسين نخرى باشا أن لا يبق فى هذا المنصب

المخوف بصنوف المكاره الى أن يكرهوه على التخلي عنه فان ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة - قال - وبعد فقل لي بحقك من ذا الذي يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة اذا لم ترض جماعة الانجليز طاعتهم أو لم تعجبهم شمائهم * ان الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم في هذه الايام هي تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤس الملا من أنه لا رجال في مصر يحسنون التصرف في مناصب البلاد اه

واتفق أن أحمد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب في ليلة اليوم الثاني نطلع حسين فخري باشا مأدبة لاراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا في تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابة فأكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكل ما يكون من أسباب الأفس والصفاء اذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ ابراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوي من توليته مسند نظارة الحفانية بدلا من فخري باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهناك الحاضرون وأصبح فسار الى مقر الخديوي بعابدين فهناك الخديوي بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جادى الاول وسابع عشر ديسمبر من السنة موعداً لفتح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوي الى ابراهيم باشا بالذهاب الى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف * وركب الخديوي كذلك عربية التشریف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوي وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار الى قاعة الشورى فلقى فيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس في احدى غرف المكان فقدموا اليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه بين الامانة اذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الاخيرة ثم دخل الخديوي القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الاعضاء الخطبة المعتادة ثم قال ان الغرض من اجتماعكم في هذه المرة هو النظر في مشروع تقليل فيات ضرائب الاطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع انما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع الى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الاعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدد وفي ثاني يوم سادس عشر جادى الاول رسم الخديوي بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من ابراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذلا بما ناله من الطفر والتغلبة على حسين فخري باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن الا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوي أيضا بتولية اسمعيل صبرى بيك رئيس محكمة الاسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق في نفس أسكوت بعد ذلك حاجة الا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى

رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس
القضاة والنواب وأعضاء النيابة شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهي
زنار من الحرير في عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا
الراية المصرية العثمانية فكانوا اذا جلسوا في كرسي القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس
كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبيبة العلماء
وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف في موقف المحاماة وقد
كانت هذه الشارات والاكسية من مبتكرات شفيق بك منصور على عهد ولايته وكالة
النيابة العامة ولكنه رجه الله لم يقدر على اخراجها الى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض
باشا في ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد
في محاكم البلاد * وكلما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل وأدنى من قضاتها من
شاء وأقصى منهم من شاء وسن لهم السنن وقن القوانين فعل كذلك كتشتر باشا في نظام
الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمي الجند وقد بالغ في الحيلة وإحكام التدبير لعله يتمكن
من قطع دابر اللصوصية وارهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لابنائها فكان له في كل يوم
منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الجديد وكان لا يتكف عن التجوال بين الأقاليم
القبيلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسستها وسير مشايخ القرى وعمدها وما
يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسن لهم
السنن وقن القوانين الصارمة وسن كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان
المدن والمشردين من الفشتين لا يقدر على العمل به الا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه
في تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المال وخشن قناصل الدول للرئيس
مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد
مع أعضاء شورى البلاد بأهماله والكف عن مشاغبه الناس الى حين * ولذلك فعل المستر
منر وكيل نظارة المالية فانه لما ساءه ما فعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد
على مأموري الحكومة بجمع الخراج في غير آجاله وبشه أصحاب الجباية في شرق البلاد
وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض
باشا من الوحشة والجفاء واستفعال العداء الى الحد الذي بيناه في محله عمد من ذلك الحين
الى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت اليه حالة أهل البلاد مع المراقبين
وتجار الارياق من جماعة الروم وغيرهم وفي أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون
المتراكمة بعضها فوق بعض وفي كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدي
أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن الى صاحب سياستهم على أن فلاحي
البلاد في أشد ما يكون من حالات العسر والأفلاس وعلى أن البلاد في أخرج المواقف
وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل

(مطلب)

ما فعله كتشتر باشا

من النظام

(مطب)

ما فعله المستر منر

وكيل المالية

البلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الانجليز فرفع الى صاحب سياستهم صحيفة مطولة في معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتمس والداينيوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشئ من قارص الكلام وقد أحصى منار في صحيفته تلك حياة الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لاوائل القوم الى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنينها مصريا وان ما حبس لوفائها من الاطيان بلغ ألف ألف وثلاثمائة ألف وأربعمائة فدان ومن العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقارا هذا عدا ما استدانوه في سنة احدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الاهالي والأفراد الأخر من الاجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف وخمسمائة ألف جنيه وأطنب منار في المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتخفيف عن أهالي مديرتي الحدود واسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا وملححو منار وقالوا « اذا تراحت الخيل فن سعد الركاب » وجعل منار من هذا الحين يكثر التردد ما بين مجلس النظر ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراد من التخفيف عن تينك المديرتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم

(مطلب)
مرض الخديوي
توفي باشا وفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج في سابع عشر جمادى الاولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر الى سراى عابدين ليحكم الخديوي فيما وقع الاتفاق عليه مع منار فعلم من رئيس التشريفات أن الخديوي بعد أن كان على عزم الانحذار من قصره بحلوان الى عابدين على عادته في كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الالهية لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج الى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فاذا بهم أرسلوا يقولون انه قد شعر في ذلك اليوم بقشعريرة أتعبته ولكن الاعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو الى القلق * فلما كان اليوم الثاني أى ثامن عشر جمادى الأولى سار السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء الى حلوان للسؤال عن صحته فعملوا في طريقهم بأنه انحدر من حلوان الى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فشكا اليهم ما يلاقه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسراى القبة ثم عاد في ثاني يوم الى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الاعراض فلزم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا جدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية في درجتها البسيطة وبقي على هذه الحال الى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوي على أن يأدب في هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقدمي العسكرين المصري والانجليز وقد كانوا أخذوا الالهية والاستعداد لذلك فلما اشتدت به

علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأذبة وتأجلت الى يوم الثلاثاء حادى عشر جادى الآخرة ثم جاء الخبر الى القاهرة بتقديمه الى العاقبة وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الاخبار فى ذلك وهنأ بعضهم بشئ من ملج القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الحديدوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا اليه ألمه فجلس الطبيب نبضه فاذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسهر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه اعراض أخرى خطيرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الحديدوى على شفا جرف الموت فطبروا الخبر الى صاحب شركة سكة حديد حلوان بأعداد قطار خاص يستحضر بعض الاطباء من القاهرة فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كائوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الحديدوى قالوا انه فى النفس الأخير وأن لامفر من القدر المحتوم وكان الى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة

ان الطبيب له فى الداء مخبرة مادام فى أجل الانسان تأخير

أما العليل فان حانت منيته تاه الطبيب وخائتته العقاقير

وقضى الاطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقي الحال هكذا الى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الاطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الامر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر الى القاهرة بطلب هؤلاء الاطباء تسارع كبار قناصل الدول والامراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم الى حلوان * ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعي وسأله الطبيب كائوس عما يؤله فلم يجبه بشئ سوى هذه الكلمات « هاتوا لنا الضوء » فحقق جماعة الاطباء أنه قد دخل فى غمرات النزاع الأخير واستمر النزاع الى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصباح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعيول فهب الناس من نومهم وتسارعوا الى رجة القصر وكاهم بالك منتحب ووصل الخبر الى القاهرة اذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الامراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم الى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنج قنصل جنرال الانجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقرؤا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى الى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل الى المايين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسرأى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكنتشر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة

والايمان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر الى الباب العالي قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الاذن من صاحب السياسة الانجليزية ونشروا في صفحة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية * الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله تعالى في ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف في الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة افرنكي ليلا بسرارى حلوان * وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بواوور مخصوص وسيدبر أعمال الحكومة الى حين حضور سموه مجلس النظر تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا الاحتفال بمنجزة جثمان الخديوى سيكون في الساعة الثانية على الحساب الافرنكي بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والمنجزة ستشيع من سرارى عابدين وايدانا بالحزن ستثقل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق الى الاسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الاوربوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الاعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوك والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء الى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والاعيان وفى الساعة الاولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به الى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الاهلين والاجانب من جاؤا حلوان فلما وصل القطار الى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقيما فى بلدة معاغة فى الاقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فالتحق الى القاهرة مسرعا » واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعديد من وجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد الى سرارى عابدين بين الزحام ولولة النساء من الشبايك وأسطحة الدور فلما وصلوا الى السرارى قابلهم العلماء والرؤساء الروحانيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوك والتجار وأرباب الاشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الاهالى والقادمين من الاقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فشت أمامه جبال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من القوارس المصرية وأمهم رجال الموسيقى ساكنة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم جملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجايد وأرباب الاشارات وبأيديهم البيارق

ثم تلاوة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاوة الاحزاب والاوراد ثم نقباء الاشراف والاشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الازهر ثم تلامذة المكاتب الاهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والامراء والكبراء من الاهلين والاجانب ثم موظفو النظارات والمصالح في العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والاهلية والافوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحانيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظارة ثم الامراء من البيت العلوي والغازي مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القمام والمباخر ثم أولاد الكتائب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصري ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ماعنده من النياشين

وخرج المشهد من سراي عابدين الى شارع عبيد العزيز الى العتبة الخضراء الى الموسيقى الى السكة الجديدة ومنها الى المشهد الحسيني فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم جلوه الى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع الى رحبة عابدين حيث نصبت السراقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعرء كما جلسوا للعرء أيضا بسراي القبة وقصر حلوان فلم تكن الا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس الى الرئيس مصطفى فهمي باشا يقول - ان خبر وفاة سيدى والذى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصري أيضا فنى وصلتني منكم الاخبار الاكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره في ترسته أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتغراف عن ساعة السفر وانى على يقين من أن الاعمال ستستمر سائرة الى حين وصولي على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم اه

وجلسوا للعرء ثلاث ليل متواليات ثم جعلوا يجلسون في مساء كل يوم نجس الى تمام أربعين يوما - وفي ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج اشارة من ملكة الانجليز وامبراطورة الهند بطلب موافقتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قبل فارسل السير بارنج خبرا مفصلا للمحدث وجاءت بعد ظهر اليوم الى الغازي مختار باشا والرئيس مصطفى فهمي باشا ارادة سلطانية مؤداها - انه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء في الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية الى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة الى الرئيس مصطفى فهمي باشا وبقيّة النظر الى حين حضور الخديوى عباس وانه برفع هذا القرار الى أعتاب المتبوع الاعظم صدرت الارادة الشاهانية بالموافقة عليه - فعقدوا في الحال مجلس النظر وقرروا تبليغ هذه الارادة السلطانية الى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع في كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد

واختلفت الاقوال في مرض الفقيده وفي كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الاطباء الذين شاهدوا الفقيه قبل موته بقليل أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا في تسمم دم المريض واختلاط علقته الاصلية التي هي التزلة الصدرية بعزل أخرى أودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الامراء من البيت العلوي وقيل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيب فسأل الرئيس مصطفى فهمي باشا الطبيب هيس والطبيب كمنوس أن يبديا رأيهما في ذلك وكلم والده ولي العهد في هذا الامر فلم توافق على مقاضاة الطبيب ورفع الطبيب هيس والطبيب كمنوس تقريرا قالاه فيه - في الساعة الرابعة الاfrنجية من صباح الخميس سابع يناير الجاري دعينا للتوجه الى حلوان على قطار مخصوص لاجل عيادة الجنب العالي فوصلناها منتصف الساعة السادسة الافرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصي بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالايحياز أن الجنب العالي أصيب منذ ثمانية أيام بالتزلة الوافدة وكان سير المرض الى الباردة عاديا وان الحى لم تشتد وطأتها الا في الليلة الماضية وأن الجنب العالي كان يعاني الارق وضيقا في التنفس وبعض الالم في الجانب الايسر وأنه لاجل تخفيف الالم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف الى غرفة المريض انذهلنا اذ رأيناه في حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على الهوم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاخصا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم ابصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحى بلغت درجة أربعين وان ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن ايقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدا في الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة في الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هي بهذه الشدة فانها ليست كافية لاحداث الاعراض الخفية التي كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا الى فحص الوظائف الاخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من الاطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شيء فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعند ما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا في التنبيه على اتباعه ثم رجعنا الى مصر لاختذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة الى جنبه العالي فلما رجعنا الى حلوان في الساعة الواحدة الافرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت في الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وان الاعراض التي في جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك ان الاعراض الخفية قد وصلت الى درجة ينقطع معها الامل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألحنا في طلب البول فعلنا حينئذ ان جنبه الفخيم لم يبل منذ الليلة الماضية فأدخلنا المجس وتحصلنا بواسطة القسطرة على كمية صغيرة من بول أسود قائم لخلناه تحليلا كيمياويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال في البول فقادنا ذلك الى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو ان الجنب العالي بعد اصابته بالتزلة

الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضا وأنه في هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمنعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفعالة حسب ما يقتضيه فن الطب وان لم نجد نفعا وعز يد الاسف علمنا انه لا بد من الوفاة التي حصلت في الساعة السابعة وربع مساء اه فتحقق الناس طرا أن الوفاة كانت بسبب اهمال الطبيب وخصوصا الخطأ كل الخطا بالطبيب عيسى باشا لاخفائه خبر احتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المشانة المزمن وتحدثوا في ذلك كثيرا فكان سمريلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضهم بأن سيقبض على الطبيب عيسى ويودع في ظلمات الجبوس حتى تتم مقاضاته ثم شاع بعد أيام ان والده ولى العهد لم تسمع بذلك وأنها اشارت على الرئيس مصطفى فهمى باشا بالكف عن متابعة هذا الحادث فانكف اذ لم يبق الا التفويض لله الواحد القهار الذى لا يزول ولا يحول وهو وارث الارض ومن عليها واليه المآب

قلت * وهو محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد في يوم الخميس عاشر رجب سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فتعلم فيها العلوم الاولية ثم انتقل الى التجهيزية فتلقى بها علومها واللغات العربية والافرنسية والانجليزية والتركية والفارسية ولما بلغ التاسعة عشرة تولى رئاسة جلسات المحاسن المخصوص في سنة ثمان وثمانين ثم تولى نظارتى الداخلية والاشغال العمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل توليته الخديوية بقليل وفي سنة تسعين ومائتين تزوج بابنة الأمير الهامى بن عباس باشا الاول والى مصر وفي سنة احدى وتسعين ولد له بكره الاول الأمير عباس وفي سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفي سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفي سنة ثمان وتسعين ولدت شقيقتها الأميرة نعمت هانم وتولى الخديوية المصرية في يوم الخميس سابع رجب الفرد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشر يونيه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبعا وعشرين سنة هجرية الا ثلاثة أيام وأقام في هذا المنصب ثلاث عشرة سنة الا شهرا ومات في ليلة الجمعة لسبع مضي من جادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية الا ثلاثة وثلاثين يوما - وكان رحمه الله شفوفا على رعيته يوالىهم في شوائدهم ويعفو عنهم كثير التسال عن حالهم وما هم عليه في إبان الشدة والرخاء وكان بارا بذوى قرابته مع رافة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وانفاق فى الخير وتصديق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة ان سرت يوما أخزنت أياما وان صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر ملالا ولا خجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ القلب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدر وقد رثاه الشعراء وأبناه

الفصحاء وبكاه أصحاب العصف على اختلاف مذاهبهم فمن قال في ذلك صاحب المؤيد
 هي الدار ما الآمال الالفجائع عليها وما اللذات الامصائب
 فكتم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب
 يا لله أى خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة
 شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة
 القلوب قد تولت على خاطر كل انسان وخارت القوى وحارت النهى وهى العزم وخان الجلد
 فانا لله وانا اليه راجعون نعم آمنا بقول القائل

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
 وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارية بالشكل فلا عجب
 ان ناحت الثالكات وأوحدت الى المهاجر كيف تجود بالعبوات فانا لله وانا اليه راجعون
 يا لله بما ذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حواث الايام
 فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأثين وعلى الأحداق
 بالرين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدي الحادثات
 فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوائح

فلقد أنى لك أن تودع خلة رثت وكان حبالها أراما
 كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى
 وهل تستطيع الناديات الى العلا تقول يفدى الملك بعد الذى حلا
 وفى نعيمها نعى الملول بأسرهم ودون الذى تنعيه كم حادث حلا
 فيامصيبة الملك والدين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نجبه وعاجلته
 المنون فانا لله وانا اليه راجعون
 وقال صاحب الاهرام

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
 طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها وامتد دحاها
 ينعى الى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الاضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب
 واستكتت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد أميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكي
 على عزيزها العظيم بما استنزف شؤون المدامع واستدرجيات القلوب وكيف لا يبكي
 الوطن على من كان له أبا شفوفا بل كيف لا تسفح عين العدالة والى كرام على من كان لها
 خدنا ورفيقا بل كيف لا يندب وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كرىا مندوبا
 ينشده الحال بلسانه

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أنا ولذى التقويس والكبرة ابنا
 فلتبك عليك البلاد يا توفيقها عدد انعامك وعداك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار

ما خزنت فيها من حبك وفضلك فانها لو بكتك بما لك في نفوسها من الفضل والمكارم
اذن ما رأينا مقلدة الا وهى دامعة ولا مدمعا الا وهو ساجم فعليك رجة ربك من ذاهب
ذهبت الا كباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فخل محله شديد تذكاره وكره
تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس في الحياة حتى هداهم في الممات
فأى آثارك فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدا وعدلا الا وجدوهما عندك
بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رحما كما أنت أبو العباس أحماس فضلك
أم ما ترعدك أم فيض مراحمك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم اعراقك
أى الفضائل منك ندب فقدها يا ابن المكارم يا أبا العباس
فلقد حوت من المحاسن مثل ما جمعت جميع الناس لفظة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود في تأبينك ان كنت
أبقيت لغير الحزن مجالا في قرائعها وللأقلام أن تبكيك بدمع مجارها وللكتاب أن تتفجع
عليك بما يسود وجوه دقاتها فلقد طالما بيضتها بحماس أعمالك ومعاليك فصار يحق لها
أن تلبس أثواب الحداد من خط مرثيتك فانك الراحل الذى لم يجعل مطايه غير القلوب
والمودع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فحن نودعك بما أبقي
فقدك في نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالها ان كان يوجد
مثلا رزية رجل الله رجة واسعة عداد حسناتك وأجل أجره وأجر البلاد فيك بعدد
مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك

ثم نتقدم بعدك بالعزاء الى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا
أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنتك بيدريهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من
جل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فانا
عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الاجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما
اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم والى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله
أن يعوضهم وإيانا بجيل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الاجر فانك لم تخل
قلبا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط الا فى مماتك

ومن يحزن الناس فقدانه يسر ملأئلك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازه على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعه مقام
الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيقت والقلب أصغر وأخرج ولا حول ولا قوة الا
بالله العلى العظيم

يادهر بيع رتب المعالي بعده بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من تشاء فانه مات الذى قد كنت منه تستحي

وقال صاحب النيل

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير

سمو ولي نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالامس محمد توفيق الاول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز هو اليوم ساكن الجنان في جوار رضوان عليه الرحمة والرضوان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

قد مات توفيقنا وادائم الله فلهرق الدمع ولتستبمع الآه

مات الخديوى الرحيم البر فطرته قديسة ملايكات سبحانه

قضى فياحسرة الملك العظيم له ومات فلتندب العلياء عليه

فازت بطلعته الاخرى وبأسفا أضحت تعزى به من بعد دنياه

إي وربك ان خديونا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الاول قد فارق الدنيا مأسوفا عليه بقلوب الامة مبكى الشمائل بدموع الوطن انتقل الى جوار مولاه طيب ثراه وأكرم في الفردوس مثواه فترك القباب تسامى الجيوب في الانشقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق

بكينا خديونا العزيز وانما بكى كل مصرى أميرا ووالدا

ولو أن فى الاقدار ما يبلغ المنى تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الاقلام التى كانت تستمد الخير من آثار حكمته أن تبلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر الى يوم موعود رسم وداع لكن الى الابد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحن قهار وقلوب فى نار وعقول فى انهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع » أيها المولى المنعم البر بالامة الرحيم بالملة المشفق بالكل الذى لا نشكومنه الا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يا من سهر ليليه لتنام الرعية فى مهد أمانه وأجهد أيامه ليرغد عيش الامة تحت ظلال فضله واحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة وشبيبته الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلتفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالاحسان الى الخلائق فلم يسؤهم منك الا خزنهم عليك وبعذك عنهم وهم فى حاجة اليك « الوداع الوداع » يا من لم نرم من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضعيف الرقيق بالبائس العانى عن المسىء المتفضل على المحسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والنسراء فلنم سيرتك الجميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضية ووجهتك المرضية

شيم ينقضى الزمان وتبقى وثشاء تبلى الليالي وتبلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكينها وفواضل كلما تأثرناها تأثرنا بها فغليك الرحمة والرضوان
وغاية الحديث في عالم الامم كان وسبحان من يبقى وكل شئ فان نودعك يا خديوتنا
العزیز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطربة وأذهان مستوحشة
مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا
الالهی قرینا انه هو الرؤوف الرحيم الى آخر ما قال

وقال صاحب الفلاح

انا لله وانا اليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة
تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجد الدم في العروق وابتلانا
بالصدوع وأجج قينا نار خزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل في صدر كل سامع رزا للقلوب
فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولي النعم
من الاعتلال والاخبار تغد الينا مبشرة بتقدم صحة سموه في خطة الاعتدال الى السكال
اذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولات واضطربت وتغيرت
فاستدعى كبار الأطباء للاسراع الى حلوان ليتبصروا في هذا الشأن فذاع هذا الخبر
وكلم البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل في اندهاش
وتلهف الى أخبار ترد الى الارواح الانتعاش - الى أن قال ولكن أبي الدهر الخؤون الا أن
ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدهى العيون فانه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة
دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بمنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس
اذ نعي من قضى وهو حي بذكره ومضى وأثره مخلد في قطره ولي نعمتنا « محمد توفيق »
الأول خديوى مصر الذى لم يماتله مماثل في هذا العصر فياله من خبر تهون دونه
الخطوب فانه فتت الاكباد وأذاب القلوب - الى أن قال ونعق يوم التغرافات الى كل
الجهات للقيام بعراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال

أصوت صاعقة أم نفخة الصور فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهاء داهية وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدعت قلل الاطواد وارتعدت كأنها قلب مرعوب ومذعور
أبى بوجهه نهار لاضياء له كأنه غارة شفت بديحور
أم ذاك نعي لتوفيق الزمان ومن قضت أوامره فى كل مأمور
معلى معالم دين الله مظهرها فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى الى الخيرات منصرف وصدق عزم على اللطاف مقصور
بآية العدل والاحسان متمثل بغاية القسط والانصاف موفور

مجاهد في سبيل الله مجتهد مؤيد من جناب الله منصور
 راية رفعت للجند خافضة تجرى على علم بالنصر منشور
 يا نفس مالك في الدنيا مخلقة من بعد رحلته عن هذه الدور
 وكيف تمسين فوق الارض غافلة أليس جثمانه فيها بمقبور
 حق على كل نفس أن تموت أسى لكن ذلك أمر غير مقدور
 يا نفس فأتدري لا تهلكي أسفا فأنت منظومة في سلك معذور
 أذلت مأمورة بالمستحيل ولا بما سوى بذل مجهود وميسور
 سبحان من ملأ جلت مفاخره عن البيان بمنظوم ومنثور
 لا زال أحكامه بالعادل جارية بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة إيلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء وتنفس الصعداء وقل
 ما تشاء عن حلوان التي جلالها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسم احترام ساكن
 الجنان فأعظم به من مؤلم ألم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب
 قد محاسن الصبر من الصدر وظهر به ما في اللوح مكتوب واقشعر له الوجود اذ قيل
 مات توفيق مصر والجود

فانفض يدك من الدنيا وساكنها فالارض قد أفقرت والناس قد ماتوا
 فأكرم به ميتا كثر احسانه وقلد أعناق الجود امتنانه الخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية في ثامن جادى الآخرة وتاسع يناير الى
 جميع قناصل الدول يقول - انه ليحزنى أن أنبشكم بوفاة مولاي الفخيم الجناب الخديوى
 محمد توفيق باشا توفى الى رجة الله في مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير
 بقصره الخلوانى اثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وانى بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل
 بالبلاد أتشرف بأبلاغ جنابكم أن الجناب الخديوى المعظم عباس حلى باشا قد نبأ
 الأريكة الخديوية خلفا لساكن الجنان والده الفخيم طبقا للفرمانات الشاهانية العلية اه

وقد رثاه رجه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة
 اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة المحقانية حالا فقال

نحسن لله ما لحى بقاء وقصارى سوى الاله فناء
 نحن لله راجعون فنس ما ت ومن عاش ألف عام سواء
 يفرح المرء فى الصباح وما به لم ما ذا يكنه الائمةاء
 ومتاع الدنيا قليل وما به هو به المرء من حطام هباء
 زهد الناس فى الحياة لم روعتنا بهوله الانباء

قصر حلوان كنت أنضر قصر
 كنت ذا هيبة يحاذرها الدهر
 كيف أصبحت مستظما وللخفة
 ما كذا عهدنا بعزلك ترميه
 كان بالامس في ذراك أبو العبد
 قطوت برده الخطوب وكانت
 ويح من شيعوه قد أودعوا القبر
 وارتضوا بالبكا وما الحزن الا
 عاش فينا عذب البشاشة والاخ
 وتولى وفي الصدور من الوج
 عطلت مصر من سناء كما قد
 كل خطب في جنب خطبك يا مص
 ما يقول الراثون في فقد توفيه
 والرايا في بعضها يطلق القو
 ان مولاك كان أحسن من تر
 كان للتاج فوق مفارقة ضو
 كان يحلوجي الكوارث ان حا
 كان أدري الملا بكسب ثناء
 آل توفيق الكرام البسوا الصب
 أتم الراسخون في علم ما كا
 أين قوم شادوا البلاد وسادو
 ملكوا الارض حقبة ثم أمسوا
 سنة الله في البرية لم يس
 لا أعز يكمو وأنى لقولى
 اجدوا الله في العشة والاص
 ان يكن من سمائك خربدر
 فلقد أشرقت لاخر أنوا
 قد أرانا العباس بعد أبيه
 فاجتليناه طود مجد وسورا
 جبذا منه همة تترك الصع
 وثبات في طيه وثبات

فيه يحلو ويستنطاب الهواء
 ر وتمكبو أمامها البأساء
 ب الى ركنك المنيع ارتقاء
 ه الليالي أو يعتريه انقضاء
 س نحيبا يبشره الاحياء
 قبل تشقى ببعده وتساء
 ر كريما يبكي عليه العلاء
 أن تسيل القلوب والاحشاء
 لاق تروى به النفوس الظماء
 د عليه ما ليس برويه ماء
 عطلت من حلها الحسناه
 ر يرحى للناس فيه عزاء
 ق وما ذا تحاول الشجعراء
 ل وتعي في بعضها البلغاء
 هي بأوار وجهه البطحاء
 ء لديه تحقير الاضواء
 ت برأى تغزو له الآراء
 آه لو خلد النفوس ثناء
 ر رداء فالصبر نعم الرداء
 ن فقولوا من ذا عداه الفناء
 ها وكانت تهوهم العلياء
 وهمو في بطونهم نزلأ
 تن منها الملوك والانبياء
 أن تعزى بمثله الحكماء
 باح فالبسوس قد تلاء هناء
 ما حوت شبهه بدورا سماء
 ر بها يصدع الدجى وضياء
 كيف يلقي العظام العظماء
 دار منه حول البلاد بناء
 ب ذلولا وعسرة قعاء
 للعلى وحكمة وإباء

وصفات عن كتبها يعجز الوصف وفيها يستغرق الاحصاء
دام يكسو الزمان حسنا ويسدى أنعماء لا يشوبهن انتهاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حفنى بيك ناصف القاضى بالمحاكم الاهلية حالا فقال

شقوا القلوب وغادروا الاطواقا وذروا الدموع تفرح الاماقا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم دمعا وتسكبها دما مهراقا
ذوبوا من الاحزان لا تبقوا على أ كبادكم واستغدوا الأرماقا
قد فارق الدنيا العزيز محمد يا لهف نفسى من يطيق فراقا
خطب دوت فى الخافقين رعوده فزعوا وطبق نعيه الاقاقا
غشى الأنام ولم يكن متوقعا كالسحب صيفا أرسلت ابراقا
وأصمت الاسماع رنة وقعته والحزن أولى الألسن استغلاقا
ودجا الزمان فكل نور حلقة ونبا المكان فكل رجب ضاقا
ناشدتكم يوم ارتحال محمد من فى الرعية لم يؤد لحاقا
هل تعلمون معمرا أو ناشئا لم يوله نبأ الردى تصعاقا
هل تعلمون معمرا أو ناشئا لم يوسع الصبر الجبل طلاقا
أى امرئ لم يسقه يوم النوى كأسا من الروح المرير دهاقا
لا كان يوم سار فيه نغاته يلقيون فى مهج الورى احراقا
هى ساعة راش القضاء سهامه فيها وحل بنا البلاء وحاقا
أودى فأى فريضة لم ترتعد أم أى قلب لم يكن خفاقا
بدر عراه وهو فى استقباله خسف وصادف فى الكمال محاقا
جلته أعناق الرجال وطالما بنواله قد طوق الاعناقا
تركوه عمدا فى الظلام ولم يكن يرضى الشموع ليئته إشراقا
سكن القبور وكم قصور شادها وأوى الى غرف وحل طباقا
ان فاق فى المجد الملول فانه أربى عليهم فى العلى انفاقا
خلق كما سرت الشمال ورقة تحكى الشمول لطافة ومذاقا
وبديهة تقف الروية دونها والسمع يلقى عندها الأرواقا
وعبارة تشفى الغليل ومنطق بمجامع المعنى يحيط نطقا
وتسأل يذر المعنى واخفا وطلاقة تولى النهى اطلاقا
خفى السماح عليه حتى انه لم يخش طالب جوده اخفاقا

لا يرهب الاقلال بعد لقاءه عاف ولا يتهيب الاملاقا
ان قيل عفوه فهو بحر زاهر لا يعرف الجاني له أعماقا
طبعته سبحانه عليه أما ترى في كل بادرة له مصداقا
أوقيل دين فهو حافظ عهده كم شد منه عرى ومد رباقا
أوقيل اصلاح فذلك صنعه في مصر أعتق أهلها اعتاقا
لدغث أفاعي الحادثات بينها دهرافكان لسمها ترياقا
رأب الصدوع بحكمة منه وقد ملئت طباق بلاد مصر شقاقا
وأقر فيها العدل بعد تززع والحق أولى أمره احقاقا
ونفى الضلال فاصدى باطلا الا وأزهى روجه ازهاقا
أولى المعارف في البلاد عوارفا والعلم بعد ذنوبه ابراقا
مهد الطريق لمن تقلد بعده وهدى السراة وفتح الاغلاقا
فسروا بنبراس الذكاء ليغمضوا ممن تطلع نحوها أحداقا
ما وفق الله امرأ في أمة الا وكان لنفعها منساقا
ترتبت بين الدهر غيب في الثرى هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
سبق الكرام الى النعيم وعهدنا فيه لكل عظمة سباقا
وسرى الى الرب الرحيم ملاقيا بين الملائكة الكرام رفاقا
عن فضله حدث قطيب حديثه يشقى الحب ويضطرب المشتاقا
ياراحلا عنا تركت نفوسنا تشكو الاسى وتساور الاشواقا
لم يبق منا الحزن الا مهجة حرى والا مبدع اذفاقا
خطفتك خاطفة المنية فجأة منا وغادرت الجسوم رقاقا
لم تنتشر شهب السماء ولم يطل مرض ولم يبد الغراب نعاقا
ويد الردى سرقنك ليلا ليتهم حذوا بقطع يديهم السراقا
بحمالك حراس وحولك عسكر وصنوف أبهة فكيف أطاقا
إنا على الود الذى مكنته منا وعنسه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد يوما وينقض بعده المشاقا

وقال العلامة وهي بيك ناظر المدارس القبطية على منوال الغراء والهناء

مهادك في حسن الغراء ممهد وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفروضوه فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا الى مصر راقيا على الطائر الميمون والعود أجد
ودانت لك الافكار حتى كأنها بأمرك تشقى من تشاء وتسعد

فوال بني الآمال واصدع بما تشاء
وفوض الى الله الامور فانه
ومن عجب أن الحوادث جنة
أساءت الى المعروف فينا صروفها
وقد كان توفيق البلاد مملكا
تحلى به جسد الفضائل ناشئا
وساس شؤون الملك خير سياسة
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه
ولما رقت شوقا الى الله روحه
تلافيت أمر القطر خوف تلافه
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا
وآلت الى علبالك في العز دولة
وها أنا أهديك الشفاء مرجا
وأنشد يا مولاي فيه مؤزما
سنة ١٣٠٩

وعاك له العرش جيل ثنائوه
ولا زلت مشكور العناية دائما
وألهمك الصبر الذي ليس ينقد
وذكرك في تاريخ مصر مخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه

من عادة الدهر بعد الحزن ايناس
يوماء يوم به اللهم قد مزجت
فاضرب عن الحزن صفحا واعسيرته
واستقبل الامر بالتعزير من ملك
وكن على الله فيما شئت معتمدا
بالجذ والجذ نلت الامر ذا شرف
وفي الوراثة معني عز مدركه
لله من خلف في القطر عن سلف
وأجمعوا الامر في تدبير ملكهم
هذا وعذراء فكري لا اخال معي
ولا لسان به أطسرى ولا قلم
وما على الدهر في أفعاله باس
كأس ويوم هنا تصفوه به كأس
فهكذا الدهر ناس بعدهم ناس
في قطر مصر فانت الروح والراس
تطب لعلبال بالتأييد أنفاس
لا غرو أن أثمرت بالعز أغراس
وما به بعد هذا اليوم إلياس
سادوا الوري وعلى هام السها داسوا
وللرعية بالانصاف صكم ساسوا
بل مامع لاشتداد الخطب احساس
يجري وللضيق ذرعا ضاق قرطاس

وفضل والدك المرحوم لست له أنسى ولو ضمنى بالموت أرماس
لازال في كرم الرحمن مسكنه جنات عدن بها الريحان والآس
ولا تزال لهذا القطر معتصما وأعين الله مهما كنت حراس
وهذه حكمة المولى مؤرخة توفيق مات وولى اليوم عباس
سنة ١٣٠٩

قلت ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد في يوم نجس وتولى الخديوية المصرية
في يوم نجس ودخل القاهرة في موكبه بعد الفتنة العرابية في يوم نجس وتوفى الى
رحمة الله تعالى في يوم نجس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك
والمالكوت منه المبتدا واليه المنتهى وهورب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى
وما أخذ وما أبقي ولا شك أنا جميعا في هذا السبيل نسعى وان الى ربك الرجعى

اللهم كما جددت في المبدأ أحدد في الختام وأشكر لك على مر الأيام اللهم كما وفقتنى
للحق فأرض عني الخلق ووفقههم الى معذرتى والتجاوز عن عثرتى فاني أشفق أن
يكون عملي هذا عملا حابطا أو شغلا ساقطا اللهم انى معترف بأنى لست من أهل ذلك
الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم
تكلفنى الى نفسى فلم أضل وأريتنى النجى غيا فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته
والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر
لا سيما وقد أصبت في خلال العمل بما غلب على التجرد والصبر وفيت في العضد والصدر
من فقد شقيق لى كان مرجعى في كل أمورى اليه ومعتمدى في سائر أعمالى وآمالى عليه
وحيدى الذى أورتنى فقده جزعا وهلعا وسقما ووجعا ونحما وحزنا لم تزل فى أحشائى
ناره وفى صدرى أواره فعندك اللهم أحسنه وأستخلك أحسن الصبر فلك سيدى
الامر اللهم أنت تعلم أن بغية مرادى وغاية مرادى نعيم النفع بقدر اجتهادى فان
كنت قد أجرت البراعة فى هذه الغاية الى متنهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتهاها
فذلك لى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلاع مؤنة الرجوع الى قريب
الاخبار وبعيدها لىتم النفع بما ألفته منها وصنفته بعد اعمال الفكرة واجهاد الفطرة
اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقربا الى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأحوال
فى طوال الأحوال وما بى إطرء نفسى ولا تركية عملى فاني أكره المباشرة فوفقههم مولاي
الى أن يتقبلوه بالقبول والاقبال وهم فى كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز
من أملى فى وجهك سيدى بأسنائه ولا حول ولا قوة الا بك فأنت حسبي وكفى

ديت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الى هنا تم الجزء الرابع من الكافي وبه ختام الكتاب فاذا فصح الله لي في الأجل
ووفقتي الى شئ من العمل وأعانتني على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب
الولاية الحالية والأريكة الخديوية - (عباس باشا حلى الثانى) - ورتبتها كما تستحق من
التسبيق والترتيب فانها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشؤوننا تستوقف الطرف
وتستدعى الاسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير « حرسه الله » وأنا له ما يتمناه
لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل
أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به اذا
قضى الله تعالى بِنفاذ ما أراد وانقضت سحب تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده
الله نبلا وعزما وفضلا وخزما ووقاه من شرها حتى يطويها على غرها
وما أحسن ما قيل

لا تسهلهن الصعب أو أدرك المني فما انقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر

فاصبر وانتظر بلوغ الامانى فالرزايا اذا تواتت تولت
واذا أوهنت قسواك وجلت كشفت عنك جلة وتجلت

اللهم هب لي مغفرة من لدنك وارحمي يا أرحم الراحمين

(تم)



(يقول طه بن محمود قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الاميرية)

ان أحسن الحديث في القديم والحديث بعد التمين باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شئ بلا بدايه الاخر بعد كل شئ بغير نهايه المنزه عن أن يؤرخ زمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذي خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفا للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص في كتابه المبين وحدثنا عن ماضي بما فيه مردجر من الانبياء فكان لنا قدوة حسنة فيمن أحسن منهم وعبرة بينة عن أساء ونصلي ونسلم على نبي الرحمة وهادى الامه أول الانبياء موجودا وآخرهم مولودا وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين

أما بعد فان من حسن الخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذي لم تسمح الأيام له في بابة بمثيل المسمى بالكافي في تاريخ مصر القديم والحديث تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة « ميخائيل بك شاروويم » مدير الأملك الميرية بنظارة المالية حالا بلغه الله آماله وأكثر في فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجند والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام جاء كتابا بأحوال مصر وماجرىاتها حافلا وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطا كافلا وبسط الكلام على سياسة ملوكها في كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة الى الآن أغنى سنة ١٣٠٩ هجرية التي انتقل فيها الى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذي قاده به الاعناق أعظم المنز فلا غرو ان افتخرت به مصر على سائر الامصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكرا وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدرا فنا من المصريين أحد إلا وهو في حاجة الى تحصيله واضطرار الى الوقوف على اجاله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه في هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذي يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذي كم شدت اليه الرجال ونطاولت اليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد في وصفه من قال ان مصر لأطيب الارض عندي ليس في حسنها البديع التباس واذا قسنتها بأرض سواها كان بيني وبينك المقياس

ومن قال

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وان كنتم على سفره فقيموا منه صعيدا طيبا

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد في فن التاريخ فريد جاء كاسمه كافيا وللداء العضال شافيا وكان لنا دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على فضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة

ليس بانسان ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعمارا الى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله في كتابه سبيل الاحتياط والتحري التام فجاء بالأحوال والماجريات والمقاصد السياسية فضلا عن الاخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هي الطريق القويم التي أفلح من تمسك من المؤرخين بسبيلها وتأدب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع اخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافي

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله احسانه فقام بطبعه على نفقته
وباشر تصحيحه واتقانه بمطبعة بولاق الأميرية في عهد الدولة
الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ
ظلالها وألهم العدل والاصلاح رجالها وتم طبعه

المنير في أوائل رجب سنة ١٣٢٣

من هجرة البشير النذير عليه

الصلاة والسلام وعلى آله

الكرام وأصحابه

بدور التمام

(ولما آذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الادباء الفضلاء أرباب الاقلام)

كتب في ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة
اسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة المحقانية الجميلة حالا
يخاطب حضرة المؤلف فقال

قرأت كتاب الكافي ووقفت من تحريك الوقائع المدونة فيه وإبرازك إياها لمحج التاريخ
على مبلغ الاتعاب التي تجشمتها في تأليفه بقاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا يخبر عن
أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنت على واضعه مع المثنيين وأعجبت به مع
المعجيين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس في الانتفاع منها سواء وإن اختلفت
منهم المشارب والاهواء يقرأ فيه الامراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد
فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر
الأمم وتتعاقد الهمم للوصول الى السعادة ضالة كل مجتمع انساني إن الشاعر اذا أجاد
في شعره قيل له أجدت والنثر اذا أحسن في نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب
كبد الحقيقة يهتأ بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق في تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت
أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحمله من العناء في جمعه وتنسيقه وترصيفه فاني
أهنئك بقولي لك أجدت وأحسن وأصبت وصدقت

وقرطه العلامة المفضل صاحب العزرة وهي بك
ناظر المدارس القبطية قال

بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت حمائم البيان للدلالة عما في الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت
عذبات البيان بأطرب من صلاة الملك المنان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعمته
الأقدار بما تتضاءل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثقال
ذرة في الأرض ولا في السماء

﴿أما بعد﴾ فان التاريخ على ما بين دفتيه من خصائص حسان ألحق أذناها بأقصاها لم يغادر
من شؤون بني الانسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهدا على ذلك ما أودعه
تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تنقلب بها رياح
العفاء في غصون الجاهلية والاسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا
بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدوروا في وصفها كما فعل عبد اللطيف البغدادي العالم
الطيب من الحوادث والأخبار ما حقه أن يتخذ اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للافرنج
في تمحيص تاريخها القديم استقراء لا يتأتى لكل محسان ولا يقدره كل من أقلته الغبراء وأطلته
الخضراء من أبناء هذا اللسان فأحربنا أن نطاول كل ذى استئثار بجزايا هذا البلد
الأمين وما شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقية في العالمين ولقد ألمّ العالم الفاضل
صاحب العزة ميخائيل بك شاروبيم في مؤلفه هذا كل الامام بما رقى وراق وتناولته يد المريد
على طرف الثمام من ثمرات الاوراق فهو عقد فريد اندمجت فيه الحوادث كأنها اللؤلؤ
والمرجان أو جنة كثيرة الاغاريد بها من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الابدى في
العهد الذى غير عهد ابن خلدون لقوم ما أورده في ديوان المبتدا والخبر بالدون أو مثله العيان
لابن خلكان لألحق وفيات الاعيان بنجر كان فلهذا مؤلفه أتخف ذوى الألباب بما تأخذ
بمجامع الافئدة حلاه واستخلص في تاريخ مصر العشر من الباب ومصر كنة الله في أرض
الله فيما أريب الأريب الذى أصاب مرمى السداد وأما اللثام عن كل غريب من ماثر
الآباء والأجداد لقد سحرتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا الازعان والتسليم ومحوت سياآت
الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لازلت تستدرج في أى غرض تتوخاه ما بهراً
بقلائد العقيان على لبات الغواني ونصيب مؤلفك في الاستغناء عما سواه نصيب الاغانى
لابى الفرج الاصهاني ان الله على ما يشاء قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير

وقرظه أيضا الكاتب الفاضل والتحرير الكامل صاحب
العزة جرجس بك حنين أحد مديري الاموال المقررة بنظارة
المالية حالا مخاطبا محضرة المؤلف فقال

لقد طالعت يا أبا الفضل تأليفك «الكافي» في التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه
وجئت بهذا لأؤدى لجنابك واجب التهئة على ما توفقت اليه من أحاسن التأليف
والتصنيف التي بها أكتسبت علم التاريخ مجدا ونفرا وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور
كرامة وذكرا ۞ نعم تحق التهانى فكذلك يا ناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين
المؤلفات العربية اذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسماء بل هو
ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأ الخلق وأدوار
تكوينه يرى أيضا دولابا عظيما جدا تدبره يد العناية الالهية على سلاسل نظامية
طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام
الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الازدهار وانحلالها
بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التي بها تمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم
ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم
وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكُتاب
والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور في الحضارة والمدنية بل هو حياة
الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدين والدنيا
وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصي والداني عن
شمائلك من شهامة في الأخلاق وطيب في الأعراق وقلم سيال ولسان قوال وربحان في
البرهان واقتدار في البيان وسلامة في الذوق ودقة نظر في الترتيب وبجمل وضع في
الأساليب وحسن اختيار في الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للعاني الرشيق وغير ذلك من
الخصائص الغراء والشميم السماء التي أكتسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت
النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته ۞ وكيف لا يتخذ كتابك حجة يرجع اليه
ويعول عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخس وهي

(أولاً) اعتبار الينابيع المستمدة من مادة منها (ثانياً) صفاءه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب في المدح أو الهجاء (ثالثاً) جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الممل (رابعاً) تجرده عن الخرافات والترهات التي لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم (خامساً) تجرده من التمويه والتلبيس والمصانعة التي يراد بها التلغف لأهحاب المرانب السامية ولا يقف بي القلم عند هذا الحد في وصف هذا الكتاب الجليل الشان لأنك قد زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التي عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التي لجنابك في الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب - وأخيراً فاني أكرر لك التهنية وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير

(فهرست الجزء الرابع من الكافي)

صفحة	
٢	وصل في ترجمة محمد علي باشا
٥	» فيما وقع في أيامه من الحوادث والأنباء الى ولاية ولده الأمير ابراهيم
٢٢	الفصل العشرون في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبدالمجيد
٢٣	الفصل الحادى والعشرون في سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبدالمجيد
٤٢	وصية بطرس الأكبر قيصر الروس
٨٠	الفصل الثانى والعشرون في سلطنة السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمودخان
٩٥	مطلب ولاية الأمير ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا
٩٩	» ولاية الأمير عباس باشا الأول ابن الأمير طوسن باشا
١١٠	» ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير
١٣٥	الفصل الثالث والعشرون في خلافة السلطان عبدالعزيز بن السلطان محمودخان
١٣٧	مطلب ولاية اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا
١٧٧	الفصل الرابع والعشرون في سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبدالمجيدخان
١٧٩	الفصل الخامس والعشرون في سلطنة السلطان عبدالمجيد بن السلطان عبدالمجيد
٢١٥	مطلب ولاية الخديوى محمد توفيق باشا
٣٦٠	وصل فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة
٣٧٥	» فيما كان من دهاء رجال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل
٣٨٨	» في ظهور الفتنة بالسودان الشرقى
٣٩١	» في هزيمة أخرى وكسرة كبرى
٣٩٨	» في سقوط أمدرمان والخرطوم وماجرى بعد ذلك

صيفة

٤١١	وصل	في حركة بعد أخرى
٤٢٣	»	في امال وفرض احتمال
٤٤٥	»	في ارباب وانقلاب

(تمت)

(تصويب ما في هذا الجزء من الخطا)

صواب	خطأ	سطر	صفحة
هذه	هذا	٧	٢
هذه	هذا	٣	٣
الى الباب	اليه	٢٢	٤
النقيب	انقيب	٢٣	٥
منهم	منه	٢٧	٥
هذه	هذا	٠٨	٧
الخوف	الحرف	١٢	٧
واستوثق	واستوق	٠٧	١٢
والاختيارية	والاختياريه	٩	١٢
وخطفوا	وخطعوا	٠٢	١٩
غير ذلك	وغير ذلك	٣	١٩
هذه	هذا	٢٨	٢٧
وعقد لابنه الامير طوسن لواء	وعقد لابنه لواء الامير طوسن	١٣	٣٠
ساق	سيف	٣٠	٤٠
خليفة رسول رب العالمين	خليفة رب العالمين	١٠	٥٧
فانت	فانت	١٥	٥٨
المواربة	من الموارنه	٣١	٦٣
التار	الار	٠٢	٦٧
من	في	٠٥	٧١
فتكون	تكون	١٢	٨٠
سفيرا	سفير	١٦	٨٠
نايير	محمد علي باشا	٢٣	٨٦
تخول	يخول	٠٣	٨٨
كتابة	كايه	٢٣	٩٠
خدمة	وخدمة	٠٩	٩٣
معاودته	معاودته	٠٦	٩٤
ساق	سيف	٢٤	٩٦

صواب	خطأ	سطر	صحيفه
ساق	سيف	٢٧	٩٦
ساق	سيف	٠٤	٩٧
ساق	سيف	١٤	٩٧
قد جعلت	فعلات	٠٥	١٠٠
مما	ما	٠٧	١٠٠
الانكليز	الانكليزية	١٢	١٠٣
رحي	رحي	٢٦	١٠٤
الذهب	بالذهب	١٢	١١٠
الاحداثات	الاحداثات	١٥	١١١
ينثن	ينثن	٣٠	١١٣
أبناء	أبناء	١٨	١٢٠
فألوها	فألوها	٢٨	١٢٠
فلما	ولما	٠٣	١٢٤
رسامة	اقامة	٠٥	١٢٩
هذه	هذا	١٦	١٣٢
في ذلك اليوم	في ذلك	١٨	١٣٦
فيما	بما	٢٠	١٣٦
تركوها	وتركوها	٠١	١٣٧
ديرقيو	ديرفورا	١٠	١٣٨
والمقربين	والمقربين	١١	١٤٤
هذه	هذا	٢٥	١٤٤
وهؤلاء النواب	ونواب الامة	٠٨	١٤٥
النواب	لنواب الامة	١١	١٤٥
واهداهم	وأهدى لهم	١٦	١٤٥
وانشأ كذلك معامل	ومعامل	٠١	١٤٦
على	في	٠٧	١٥٠
هذه	هذا	٠٩	١٥٠
يحفل به	يهتم له	٢٢	١٦١
ملاعة	ملاعة	١٧	١٦٢

صواب	خطأ	سطر	صحيفه
هو	وهو	٢٦	١٦٣
ومن	من	٢٦	١٦٣
ونضبت	ونضب	١٨	١٦٤
فطالب	فطالب	٢٤	١٦٤
ديونهم	بديونهم	٢٤	١٦٤
فأمرا	وأمرأ	٠٧	١٦٧
فأركبوه	وركب	٢٣	١٦٩
أرادا	أراد	٠٧	١٧٣
رومانيا	دونيا	٣١	١٩٥
ثم	فقد	١٣	١٩٦
الكثير	لكثير	٣١	١٩٦
فتحركت	فتحرك	٢٤	٢٠٥
تفنيذ تلك الاحكام	تفنيذ الاحكام	٢٥	٢٠٥
ولا	على	٢٢	٢٠٦
لا سبيل الى الاصلاح الا بتصفية	لا سبيل الا الى التصفية	٢٧	٢٠٧
واختصوا	وخصتهم	١٥	٢٠٨
ولم تقف الدولتان عند	ولم تقفا عند	١٦	٢٠٨
سقيرا	سقرا	١٧	٢١١
بظهر	يظهر	٢٠	٢١١
الشمامة	الجمية	٠٢	٢١٢
وطيروا	وطير	٠٧	٢١٢
يعتقد	يعتبر	٠٦	٢٢١
ان	ان	٠٦	٢٢١
فعال	مقال	٠٧	٢٢٣
يعفوله	يعفر	٠٤	٢٢٤
هيئة الوزراء	هيئة مجلس الوزراء	٠٣	٢٣٠
في الامر فطال	في الامر طويلا	٠٤	٢٣٠
الترتيب	من ترتيب	٢٠	٢٣٠
العفو	والعفو السماح	٠٥	٢٣٣

صواب	خطأ	سطر	صحيحه
على التوقيع	للتوقيع	١٨	٢٣٤
فاجتمعوا	واجتمعوا	٣٠	٢٣٤
ذو	ذاو	٠٩	٢٣٧
أحدهم	أحد	٠٣	٢٣٨
فكانوا إذا مروا	فاذا مروا	١٨	٢٣٨
لم يتيسر	ثم تيسر	١٢	٢٦٥
الى	على	٢٨	٢٦٨
يساره أيضا ويتلطف	يتساره ويتلطف	١٦	٢٧٣
المرأة	الحرمة	٣٠	٢٨٩
سار الى السودان	سير به	٢٠	٢٩٩
فكانوا	فكان	٠٩	٢٩٢
عشرى	عشرون	١٥	٢٩٧
على	الى	٢٥	٢٩٩
مشامهم	مشاشهم	١٤	٣٠٤
وباتوا	وبالوا	٢١	٣١٦
ذلك	هذا	٠٩	٣٣١
من	عن	١٠	٣٣٨
قونصل جنرالهم الذى تولى بدلا من مالت	قد فعل جنرالهم	١٨	٣٧٢
الذى خلعه بعد أن مهد لهم سبيل الاحتلال			
يعانيه	يعاييه	٣١	٣٧٧
كانت	قد كانت	١٨	٤١٢
لقومه	عنيكومه	٢٠	٤٢٩
لستقبل	لستقبل	٢٩	٤٤٩
وكبسوت	ولسبوا	٠١	٤٥٥
حسين	حسين	٠٢	٤٥٩
لسير بارنج	للسير	٢٤	٤٧٢